كلمة الوزارة

مهرجان دمشق الثقافي الأوّل

محمد الأحمد
وزير الثقافة

أيُّها الحضورُ الكريمُ

سَيِّداتي وسَادَتي

يُسعدُني أنْ أرَحِّبَ بكم جميعاً في مِهْرَجَانِ دمشقَ الثقافيّ الأوّلِ، الّذي يَكْتَسِبُ أهميةً خاصّةً لَيْسَ لأنَّهُ يُقَامُ في أقدمِ المُدنِ وأعرقِها، ولَيْسَ لأنَّ هذه المِهْرَجَانات الثقافيةَ المكرسةَ لكلِّ محافَظات بلدنا غَدَتْ جُزءاً مِنْ هُويَّةِ وزارةِ الثقافةِ وأساساً لفعاليَّاتِها الثقافيةِ، أَقولُ لَيسَ لهذا فحسبُ، وإنَّما أيضاً لأَنَّ دمشقَ ظَلَّتْ طوالَ سنواتِ الحربِ تُضيءُ مِثْلَ شَمْعَةٍ باهرةٍ، تمنحُ الضَّوْءَ والأملَ لكلِّ وطنِنا وشعبنا السوريِّ. فهيَ لَمْ تتوقَّفْ يوماً عن الرّسمِ والكتابةِ والغنَاءِ والاحتفاءِ بكلِّ إبداعٍ أصيلٍ رُغْمَ القذائفِ الغادرةِ الّتي كَانتْ تَتَساقَطُ عليها.

❁ كلمة السيّد وزير الثّقافة في مهرجان دمشق الثقافي الأوّل.

والآنَ ها هيَ تستعيدُ ألقَها مجدداً بعدَ أَنْ دَحَرَت العصابات الإرهابية وطردتْها من محيطِها، مثلَما دَحَرَتْ وطَرَدَتْ قبلَ ذلكَ الغزاةَ الّذينَ مرُّوا على أرضِها عبرَ آلاف السنينَ الماضية. نعمْ لقدْ دَحَرَتْ وطردت الرُّومانَ والمغولَ والصليبيينَ والأتراكَ والفرنسيينَ ومَأجوري الفكْرِ الظلاميِّ، وستظلُّ تدحرُ وتَطْرُدُ كُلَّ مَنْ تُسوِّلُ له نفسُهُ الاعتداءَ عليها.

تحضُرُني هنا واقعةٌ تاريخيةٌ معبِّرةٌ أحبُّ أنْ أسرُدَها لكمْ: عندَ دخول الفرنسيينَ دمشقَ كانتْ حكومةُ علاءِ الدِّين الدروبيِّ في الحُكْم، وكَانَ فارسُ الخوريُّ وزيراً فيها. وقد أُقيمتْ مأدبةٌ لغورو في قصرِ المهاجرينَ (القصر الرئاسيِّ لاحقاً). قالَ غورو أثناءَ المأدُبة ساخراً: أهذا هو القصرُ الذي كانَ يسكنُهُ الملكُ فيصلُ؟ فأجابَهُ فارسُ الخوريُّ: «نعمْ يا صاحبَ الفخامةِ. هذا هو القصرُ الّذي سَكَنَهُ الملكُ فيصل وقد بَنَاهُ والٍ عثمانيٌّ اسمُهُ ناظم باشا. ثمَ حلَّ فيهِ جمال باشا، ثمَ الجنرالُ اللنبي، ثمّ فيصل، والآن تحلُّونَ فخامتُكُمْ، وجميعُ الذينَ ذكرتُهُمْ أكلْنا معَهُمْ في نفسِ القاعةِ وكلُّهُمْ رحلُوا وبقِيَ القصرُ وبقِيْنا نَحْنُ». يقال: إنَّهُ بَعْدَ أنْ ختَمَ فارس الخوري كلامَهُ وَجَمَ الجميعُ. وقالَ الشيخُ تاجُ الدّين الحُسينيّ لفارس بَعْدَ المأدُبة: «هذا اليومَ أنتَ قد انتحرتَ سياسياً ولنْ تقومَ لك قائمةٌ مَعَ الفرنسيين». فأجابَهُ فارس: «وأَنا أيضاً لا أرغبُ في أنْ تقومَ لي قائمةٌ، وإنَّما هيَ معركةٌ قد ابتدأتْ وستنتهي فقطْ عندَما يرحلُ الفرنسيونَ».

وقد رَحَلَ الفرنسيونَ مثلَما رَحَلَ بقيةُ الغُزاةِ قبلَهُمْ.

أيُّها الأخوةُ

الغزاةُ لا يُدحرونَ ويُطردونَ منْ تلقاءِ أنفسِهِمْ، بلْ لا بُدَّ منْ جيشٍ وطنيٍّ باسلٍ وشَعْبٍ أبيٍّ عزيزٍ يقومُ بهذه المأثرَة، مأثرة الدّفاع عن الوطنِ وحمايةِ استقلالِهِ ووَحدَةِ أراضيه، وقد كانَ جيشُنا العربيُّ السوريُّ البطلُ

مثالاً باهراً للجيش الحارسِ الأمينِ على أمْنِ وطننا وسلامته، وكانَ شعبُنا مثالاً في الالتفافِ حولَ جيشه وقيادته منْ أَجْلِ دَرْءِ الأخطارِ التي تَعرّضنا لها عبرَ سنواتٍ ثمانٍ، وكانَ مثالاً في التضحيةِ والإخلاصِ ويقظةِ الوعي.

إنّنا ندينُ، نحنُ، المثقّفينَ السوريينَ، كتّاباً وفنانينَ، لجنودنا البواسلِ، لصمودِهم وتفانيهِمْ، في كُلِّ ما استطْعنا تحقيقَهُ منْ أفلامٍ وعروضٍ مسرحيةٍ وحفلاتٍ موسيقيةٍ ولوحاتٍ ومنحوتاتٍ وأغانٍ وقصائدَ خلالَ سنواتِ الحربِ الماضيةِ، مثلَما نَدينُ لهم جميعاً، مثقّفينَ وغيْرَ مثقّفينَ، بأنّهم حَمَوا مستقبلَ أطفالنا وصانُوا كرامتَنا، وكانُوا على العهدِ دائماً باقينَ، عَهْدِ الدِّفاعِ عنِ الشَّعبِ والوطنِ.

إلى هؤلاءِ الجنودِ الأبرارِ، أبنائنا وأخوتِنا، كُلُّ تحيةٍ واحترامٍ، وللشهداءِ منهُم وَقفةُ إجلالٍ وإكبارٍ.

واسمحُوا لي في الختامِ أنْ أتقدمَ بأسمى آياتِ الامتنانِ والعرفانِ لقائدِ جيشِنا ودولتِنا، ورُبّانِ سفينتِنا، السّيدِ الرّئيسِ بشّارِ الأسدِ صانعِ انتصارِنا وحامي أرْضنا. لَقَدْ كانَ السيّدُ الرئيسُ، خلالَ كلِّ سنواتِ الحربِ الشرسةِ الّتي تُشَنُّ على بلدِنا، وفي أصْعَبِ اللحَظاتِ والمنعطفاتِ، لا يَني يسألُ عن هذه القضيّةِ الثقافيةِ أوْ تلكَ، هذا المـعْرِضِ أو ذاكَ الفيلمِ، ويُصْغي إلى الأجوبةِ التي تُقَدَّمُ لَهُ بكلِ اهتمامٍ.

سيادةَ الرّئيس، شكراً لك منَ القلبِ على كلِ ما قَدّمْتَهُ وتُقَدِّمُهُ لازدهارِ الثقافةِ في بلدِنا، وبُورِكَتْ خُطَاكَ، وسَدَّدَ اللهُ سَعْيَكَ.

شُكَراً لإصغائِكُم.



من وحي كهف أفلاطون

العرب والعصر الحديث

ناظم مهنا
رئيس التحرير

لو حاولنا أن نقرأ في حقبة الحداثة وعلاقتنا نحن العرب بهذه الحقبة المصيرية، لعلنا نتلمس أين أصبنا وأين أخطأنا، كأمة ونخب وأفراد...

بداية وبلا مقدمات، أعتقد أن إجراءات الحداثة فرضت نفسها على العالم من حيث طرائق مناهج العلم والتفكير العلمي القائم على المنطق والتجربة والتحليل والتركيب، والحداثة كانت نهاية مرحلة عالمية وبداية مرحلة جديدة، وأن المثقفين العرب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده أظهروا استجابة واضحة مع التحدّي العالمي في التفاعل سلباً أو إيجاباً مع العصر الحديث والانفتاح القسري والإرادي على الغرب الذي أنتج هذه الحقبة الحديثة، وأنهى العالم القديم الذي يطلقون عليه العصور الوسطى. لكن هذه الاستجابة كانت متفاوتة بين الحماس الشديد إلى درجة (التغريب) والرفض أو التحفظ في القبول، أو القبول بحذر خوفاً على الهوية والتراث، وفي بعض الأحيان خوف القوى التقليدية من هذا الجديد الداهم والقوي، وكل موقف له مسوغاته النفسية والتاريخية والمصلحية أحياناً، وكان الامتزاج الحضاري الكلاسيكي القديم السوري اليوناني، قد مهّد لإنسان الأفق الجديد، أو إنسان العهد الجديد الذي بشر به يسوع الناصري والنبي محمد، ثم انتشر كرسالة في العالم.

من وجهة نظري الشخصية، منذ أن تم الاحتكاك المباشر مع الحداثة كان علينا نحن العرب أن نقبل هذا التحدي دون حماس في القبول أو تعنت في الرفض، من خلال التفكير النقدي،

وكنا بذلك قد قطعنا الطريق على الانشقاق الثنائي العمودي الحاد بين المجددين والمحافظين أو التقليديين، وهو انشقاق قديم ظل يتجدد بصور ومراحل متتابعة.

ففي رأي بعض نقاد الحداثة الغربيين ولاسيما «هنري لوفيفر»، الحداثة حركة لا يمكن شجبها بكاملها، ولا يمكن الانتماء إليها بشكل غير مشروط. وإنما محاولة طرقها على هيئة تساؤل، أو مساءلة.

كُتب كثيراً عن الحداثة في الغرب وفي الشرق إلا أنه حتى اليوم لا يوجد مفهومٌ شاملٌ يتفق عليه الناس حول الحداثة. عندنا نحن العرب استخدمت المفردة منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين على أنها عكس القديم أو تقابل القديم في المعنى، وأُطلق الرواة ونقاد الشعر على الشعراء المجددين المحدثين أو المولدين الذين ولَّدوا صوراً وعلاقات جديدة في اللغة الشعرية وخرجوا على عمود الشعر العربي المتعارف عليه وعلى هيكل القصيدة العربية القديمة... والمبدعون العرب القدماء، أبدوا فهماً عميقاً لما يستجد في الزمن، ولعلكم تذكرون نصيحة الإمام علي حول عدم قسر الأبناء، لأنهم ولدوا لزمن غير زمن آبائهم.

في لسان العرب، مادة: (حَدَثَ) الحديث نقيض القديم، والحدوث نقيض القدمية، وحدث الشيء يحدث حدوثاً وحداثة، وأحدثه هو فهو محدث وحديث وكذلك استحدثه. والحدوث أن شيئاً لم يكن، وحدث أمر أي وقع، ومحدثات الأمور: ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها... إلى آخر المادة التي لها معانٍ متناقضة.

الحداثة الغربية، بوصفها مواكبة للثورة العلمية أعلت من شأن نسبية الحقيقة، وقدمت مفهوماً جديداً للدولة الحديثة، وأعلت من شأن الدنيوي واليومي، وجعلت الإنسان مركزاً في التاريخ وفي الفاعلية، وأعلت من شأن النقد أيضاً، ومن ميزات الحداثة التي تجلّت في الوضعية التي أسسها الفرنسي أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م) الواقعية، والعقلانية، ونقد الميتافيزيقيا والغيبيات نقداً مُركزاً، وعدُّ الإنسان محورياً في التاريخ والطبيعة. لكن، يبين لنا نقاد الحداثة أن الوعي الحديث يحتوي على عناصر من اليقين ومن اللايقين، متساوية في جدتها ومتساوية في نزقها أيضاً، ومن هذه الحداثة المتناقضة مع نفسها، يبدو الوعي الحديث وكأنه «صالة انتظار لمجيء الكلاسيكي» هنري لوفيفر. إذن، الكلاسيكي لم يندحر تماماً من ثنيات الحداثة.

كانت الحداثة تعبيراً عن نهاية حقبة طويلة، من العلاقات القديمة ومن الإقطاعية، وبداية مرحلة أو عصر جديد، عصر البرجوازية. وربما كان على نخبنا النبيلة أن تعترف منذ البداية، دون عقدة

نقص، بحقيقة أن العالم، من مركزه الأوروبي، قد أنهى العصر القديم، وبدأ عصراً آخر، كان علينا أن نكون حاضرين فيه ومتفاعلين معه بدافع الضرورة والواقعية والمصلحة، دون حساسية مفرطة، وهذا ما فعله اليابانيون في ظروف مشابهة لظروف العرب. وكان علينا أيضاً ونحن داخل هذا العصر أن نواجه الاستعمار الذي جاءنا على حصان الحداثة.

وبصرف النظر عن كتابات أنصار الحداثة العرب المتناقضة عن الحداثة وفهمهم لها، إلا أن المفارقة أن الجدل الصراعي طال أكثر مما يجب، ولا يزال أواره يشتد حتى يومنا هذا، على الرغم من وجود اعتقاد عن بعض الغربيين أن حقبة الحداثة قد انقضت. ونحن لا نزال نتصارع بالحمية نفسها والخلاف لا يزال على أشده حول ثنائية التراث والتجديد، الأصالة والمعاصرة، القديم والجديد، والتناقض الذي يتحوّل إلى استقطاب حاد وعدواني هو تعبير عن ضياع المنطق والرؤيا، ويعزز هذه الحال التنابذية التدخلات والمصادر الخارجية التي هي خارج الذات، وخارج الموضوع. ومأساة دعاة الحداثة الأدبية عندنا، مزدوجة؛ إذ بدا بعض نخبنا وهم يقلدون الغرب الذي أعجبوا به وبإنجازاته وقيمه، وكأنهم يؤيدون استعمار أوطانهم من الأجنبي الأوروبي، وفي الوقت الذي كانوا يعتقدون أن قيم الحرية والتقدم والعدالة آتية مع الغرب تصلح لأن تكون قيماً كونية تتساوى فيها الشعوب والثقافات، يتكشف لهم كل يوم كم كانوا مخدوعين بهذا الغرب الذي لا يريد أحراراً ولا نخباً حرة في الشعوب المستعمرة، بل مجرد عملاء تابعين ومروجين يرددون أفكار كتابه ويجترون قيمهم وثقافتهم دون انتقاد أو تشكيك. وكان أيضاً بالإمكان أن تبقى القوى المعاندة ضد الغرب وضد الاستعمار، مستمرة في مواجهة تطرف الحداثة ونزقها، ومواجهة الاستعمار في الوقت نفسه، وسيكون هذا وطنياً لا غبار عليه، بل أمراً محموداً من كل الوطنيين. لكن يبدو لي أن المروجين للحداثة وللغرب كما المعاندين كل منهما وقع في خطأ أحادية المواقف الحادة.

نحن سكان أطراف العالم الرأسمالي، تم تحويل نخبنا إلى مثقفي مستعمرات بدلاً من أن تكون معركتهم من أجل الانتقال السلس إلى العالم الجديد، والخروج من الجمود والركود، وجدوا أنفسهم ضحايا الخداع الغربي والأوهام والخيبات من جهة، وقد احتلت أوطانهم من الأجنبي! أما الطرف المعاند فقد كانت قوة القادم أقوى من إمكاناته، ومن تفوقه، وكان على نخبنا العربية في النهاية أن تخسر مع شعوبها، وتلقى مصيراً مأساوياً، وهي اليوم في أقصى حالات العزلة والتبعية أو انعدام الفاعلية. على الرغم من التضحيات والإنجازات العظيمة والمقدرة. والمفارقة، أن المحدثين والمحافظين، ومهما بدا بينهما من تناقض وعداء وقعوا معاً في جملة التبعية بالمقدار

نفسه، لأن عصراً قد انتهى ومضى وجاء عصر جديد فرض نفسه بالقوة الخشنة أو الناعمة على العالم كله!

انقسمت النخب العربية على نفسها منذ البداية، وتناحرت وتمترست وتحاربت واستقوى بعضها على بعضها الآخر. وكانت خيبة المجددين كبيرة، ومصيرهم المأساوي مضاعفاً، بسبب الآمال التي علقوها على الحداثة الأوروبية، فالغرب الاستعماري يؤكد لنا كل يوم بممارساته أنه لن يسمح لشعوبنا بالعبور أو بالخروج من الماضي ومن التخلف والتبعية له. وبالفعل، كما شهدنا في الحرب على بلدنا، مارس الغرب كل أشكال استثمار العلاقات القديمة من أجل التفتيت والهيمنة والاستغلال المتوحش. وهكذا بعد مرور قرنين أو أكثر على حقبة الحداثة، ونحن على أبواب مرحلة جديدة غير واضحة المعالم، أو أهم معالمها الفوضى الشاملة، ما زالت الموضوعات التي شغلت النخب العربية في القرن التاسع عشر هي نفسها، والإشكالات التي واجهوها نفسها، والمفردات واللغة هي نفسها، ولاتزال تتداول بشكل محموم مفردات الأزمة الموروثة من مطلع عصر الحداثة عن علاقة الشرق بالغرب، والسفور والحجاب، والحداثة والتقليد، و«المثقفون (العلمانيون) ما زالوا ينادون بالتنوير والعقلانية، متوجهين إلى شعوب ما عادت تسمع أو تفهم ما يقولون، وإلى أنظمة حكم لا تأبه بهم، وغرب لا يهمه أمرهم، ولا يراهم إلا كعملاء تابعين» اقتباس بتصرف من كتاب «المثقفون العرب والغرب» لـ.هشام شرابي. وأنا اليوم أتساءل بحيرة: لماذا ارتبطت الأصالة بالماضي؟ هل كان فهماً خاطئاً للزمن ناتجاً عن القلق والخوف؟

كان الشاعر الفرنسي الحداثوي بودلير يرى «أنَّ الأصالة، كل الأصالة تقريباً تأتي من الميسم الذي يطبعه الزمن على أحاسيسنا».

لا عداء بين الحداثة والأصالة لكن نخبنا العربية افتعلت عداء لغوياً أو وهمياً ما لبث أن تحول إلى وعي زائف.

لكن، هل من مخرج؟ لا بد أن نبتكر مخرجاً، يبدأ بفهم جديد للذات وللزمن وللغة، للخروج من الانسداد الحضاري الذي وقعنا فيه منذ نهاية القرن الرابع الهجري، وظل يتفاقم إلى يومنا هذا، وعلى الرغم من كل هذا الانسداد لا بد من التفاؤل، ولا مفر من الأمل وفتح آفاقٍ جديدة.

❁ ❁ ❁

اليوم العالمي للغة العربية والحرف العربي

د. محمود السيّد

غني عن البيان أن ثمة يوماً عالمياً للغة العربية معتمداً من الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، وهو في الثامن عشر من كانون الأول، وهو اليوم الذي دخلت فيه اللغة العربية إلى الأمم المتحدة، وغدت من اللغات العالمية المعتمدة فيها، واللغات المعتمدة فيها على الصعيد العالمي هي: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والصينية والروسية، فصار العدد مع دخول العربية ست لغات، وما كانت العربية لتعتمد عام (١٩٧٣م) لولا وقفة العز والإباء التي حققها التضامن العربي في حرب تشرين التحريرية في ذلك العام.

ولقد قررت الهيئة الاستشارية للخطة الدولية لتنمية الثقافة العربية التابعة للمنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) أن يكون الحرف العربي العنوان الرئيس للاحتفاء باللغة العربية في يومها العالمي في إحدى السنوات الماضية، وذلك لما يمثله الحرف العربي من قيمة رمزية لغوية، ومن حضور لافت على مستوى الثقافات والحضارة البشرية بوصفه إحدى الصور التي تجاوزت الرسم التواصلي إلى الأعمال الفنية والإبداعية.

وغني عن البيان أن لغتنا العربية تتسم بسمات متعددة إن في حروفها أو في مفرداتها أو في إيجازها، أو في دقة تعبيرها أو في إعرابها، وما دامت مناسبة الاحتفال بيومها العالمي كانت مخصصةً لحروفها كانت لنا وقفة على هذا الموضوع لنبيّن ما يمتاز به الحرف العربي من خصائص، وما يتعرض له في أيامنا هذه وفي ظلال عولمة متوحشة من تحديات ترمي

إلى النيل من العربية والسعي إلى استبعادها وتهميشها وتنفير أبنائها منها لمصلحة اللغة الأجنبية.

إن اللغة العربية وبفضل اتساع المدرج الصوتي فيها انفردت بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد والطاء والعين والغين والحاء والطاء والقاف، وهذه الميزةُ جعلت اللغةَ العربية تستغني عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين متلاصقين كما يحدث في اللغة الأجنبية.

ومـن سمـات الأصوات العربية أن كل صـوت له حرف يقابله، وأن ثمـة انسجاماً صوتياً وتناسباً موسيقياً بين الحروف المتقاربة، فالتاء قريبة المخرج من الثاء، وهذا التقارب نجده بيـن حرفي الحاء والخاء، والدال والذال، والسيـن والشين، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين. فضلاً عن التقارب في الشكل بين عدد من الحروف، فالباء والتاء والثاء شكل واحد مع اختلاف النقط، وكذلك يتجلى الشكل الواحد في الجيم والحاء والخاء مع اختلاف النقط، والدال والذال، والراء والزاي، والعين والغين، والفاء والقاف.

أمـا التناغم الموسيقي فقد أشار ابن جنـي في كتابه الخصائص إلى عدم اجتماع بعض الحروف التي تشكل نشازاً في اللفظ، فلا يجتمع حرف السين مع الصاد، ولا الطاء مع الثاء، ولا الشين مع الصاد، ولا القاف مع الجيم، ولا الكاف مع القاف. ويرجع ذلك إلى نفور الحس منه والمشقة على النفس لتكلفه.

ومـن سمـات العربية أيضاً في حروفها أن ثمة ثباتاً في حروفها الأصلية مع كل التغيرات التي تعتريها، إذ إن المصوتات هي التي تتبدل، في حين يبقى لمادة الكلمة معناها.

ومن خصائص العربية في حروفها أن هنالك علاقة بين الحرف والمعنى الذي يشير إليه.

تلك هي بعضـ سمات حروف اللغة العربية، وقد تعرضت العربية من خلال حروفها إلى حملـة من أعداء الأمة الذين وصموا لغتنا بالتخلف وعدمِ مواكبة روح العصر، وأن على أبناء العربية كي يلحقوا بركب العصر أن يتخلوا عن الأحرف العَربية ويعتمدوا اللاتينية.

واقترنـت الدعوة إلى الكتابـة بالأحرف اللاتينية بالدعوة إلى اعتمـاد العامية وهجران الفصيحة، وظهرت هذه الدعوة في مصر على يد المستشرق الألماني الدكتور (**سبيتا**) الذي ألـف كتاباً في صـرف العامية المصرية وفي أمثالها مستخدمـاً الحروف اللاتينية في هذا التأليـف، ثم جاء من بعده المهندس البريطاني (**ويلكوكس**)، وتبنى الدعوة إلى العامية، وسار المستشرق البريطاني القاضي (**ويلمور**) على منهج الدكتور سبيتا في تبني العامية المصرية

علـى أن تكتب بالأحرف اللاتينية، ودعا المستشرق الفرنسي (**لويس ماسينيون**) إلى الكتابة بالأحـرف اللاتينيـة، وبثَّ دعوته في المغـرب ومصر وسورية ولبنان، وحمـل نفر من أبناء العروبة فـي مصر ولبنان لواء هذه الدعوة، وممن اعتمدها في مصر **سلامة موسى وعبد العزيز فهمي**، وفي لبنان الدكتور **أنيس فريحة**.

وطالما كان ثمة تعميم بخصوص المستشرقين في دعوتهم إلى اعتماد الحروف اللاتينية مـكان الحروف العربية، إلا أن هذا التعميم خاطـئ، إذ إن بعض المستشرقين أدرك خطورة تلك الدعوات، ومن هؤلاء المستشرقين (**كارل نلينو**) و(**جويدي**) الإيطاليان، و(**إدوارد نيسون روس**) الإنجليزي.

والسـؤال الـذي يمثل أمامنا: لِمَ كانت تلـك الحماسة في الدعوة إلـى الأخذ بالحروف اللاتينية والتخلي عن الحروف العربية؟

إن الإجابة عن هـذا السؤال واضحة وجليّة، فالحروف اللاتينية وكتابةُ العامية بها ترمي إلـى إبعاد العرب عن حضارتهم وتراثهـم، إذ إن هذا التراث الغني مكتوب بالحروف العربية وباللغـة العربية الفصيحة، فإذا هجر أبنـاء العربية حروفهم إلى الحروف اللاتينية انقطعوا بذلك عن تراث آبائهم وأجدادهم، وهذا ما يتوخاه أعداء الأمة الذين يرومون إيجاد فجوة بين ماضـي هذه الأمة وحاضرها، لأن هـذا الماضي عامل حفزٍ ودفعٍ إلى الأمام. كما أن الهدف مـن العامية يتمثل في تثبيت التجزئة والانفصال بين أقطار العروبة نظراً لاختلاف لهجة كل قطر عن الآخر، فإذا اعتمدت العامية كان في ذلك هدم للفصيحة وابتعادٌ عن تراث العربية، ومتى هدم صرح الفصيحة تفتَّتت الأمة، وتجزأت أقطارها، وسهلت السيطرة عليها.

ولم تخبُ هذه الدعوة التي عرفها تاريخنا المعاصر في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وثمة مقترحات تجددت أيضاً على ألسنة جهات متعددة وقد تقدمت بها إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة بين عامي (١٩٣٨ و١٩٦٤م)، وتمحورت حول تغيير الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، إلا أن المجمع رفضها كلّها.

وفي أيامنا المعاصرة تشكل وسائلُ التواصل الحديثة والإعلامِ الإلكتروني واسعةُ الانتشار تهديداً حقيقياً للغة العربية ولاسيّما في أوساط الشباب، إذ يستسهل الشبان والشابات كتابتها بالأحـرف اللاتينية، وإن قصّرت الحروف يستعان بالأرقام، فإذا أنت أمام هجين لا يمت إلى اللغة العربية بصلة.

لقد أضحت لغة العريتيني أو العربيزي هي لغةَ التواصل الاجتماعي لدى شريحة كبيرة عند الشباب، وهذه اللغة تتمثل في استعمال الحروف اللاتينية والأرقامِ للتعبير عن موضوع معين باللغة العربية على الشابكة (الإنترنت) والهواتف المحمولة.

وهذا الاستعمال يهدّد اللغة العربية، وهو شكل من أشكال الغزو الحضاري الاستعماري، وإذا كان هذا الأسلوب الذي يسلكه الشباب قد يسهّل مؤقتاً سبل تواصلهم اليومي إلا أنه لن يسهم في تطوير وإغناء حصيلتهم اللغوية أو رفدِ لغتهم الأم بالمعارف والمفاهيم الحديثة، كما أن عواقبه اللغويةَ والثقافيةَ والانتمائيةَ خطرة.

وإن هذه الظاهرةَ تؤثر في سلامة لغتنا الأم حينما تنتقل من المستوى الشفاهي إلى المستوى المدوّن، كما أنها تترك تأثيرات وتداعيات على الثقافتين الشفاهية والكتابية مروراً بثقافة الطباعة ووصولاً إلى الثقافة الإلكترونية المبنيةِ على الكتابة والطباعة معاً.

ولقد غالى الشباب في تهميش لغتهم وتهجينها عن طريق خلط مفرداتها وتراكيبها وأصواتها عشوائياً من باب التسهيل بتعابيرَ ومفردات وأرقام لاتينية وتحديداً إنجليزية معتمدة عبر الشابكة (الإنترنت) على سبيل الدعاية والتفرنج والظرافة والابتكار وفق مبدأ تسهيل الحياة على أنفسهم!

وباتت أدوات التواصلِ الإلكترونية وتقنياتُ المعلومات والاتصالات ومواقعُ التواصل الاجتماعي في حياتنا المعاصرة منابرَ رحبة ومتاحة ومتوفرة لشبابنا وشاباتنا في تواصلهم اليومي ودردشاتهم وتغريداتهم ورسائلهم النصيّة، واستخدموا فيها أساليب تواصل عصريةً تنهل من عالم الكلمات الأجنبية الوافدة إلى العربية من جهة وتعتمد مبدأي الاقتصاد اللغوي والاختصار في سبيل نجاحها من جهة أخرى.

وماذا عسانا أن نفعل تجاه هذه الظاهرة؟

الواقع أن أمننا اللغوي مهدد في أكثر من موقع وعلى أكثر من مستوى، ومحاولات تهميش لغة الضاد ماثلة للعِيان، وتتخذ أكثر من صيغة ولبوس، ومن الملاحظ أن الجهود التي تبذل، والأموال التي تغدق في سبيل ترويج لغات أجنبية، أو أشكال تغريبية هجينة تتخذ لبوساً لاتينياً على حساب لغتنا الأم وتسهم لا محالة في انتشارها في صفوف شبابنا باسم العولمة والعصرنة والحداثة وما إليها.

المفروض أن تكون لغتنا الأم هي التي ينبغي لنا أن نحافظ عليها لأنها لسان حالنا، ومرآة حياتنـــا، وموحدة كلمتنا، ولغة قرآننا، ألم يقــل المجمعي الراحل الدكتور **عبد الكريم اليافي** رحمه الله:

أيـــا لـغـة الــقــرآن أنـــت حـيـاتـنـا

ومــرآتــنـــا فـيـمـا نـقـول ونـفـعـل

ورثـــت كـنـوز الأرضـــ عـلـمـاً وحـكـمـةً

فـمـا لـغـة فـي الأرضـــ إيـــاك تـعـدِلُ

على أن تكون اللغات الأجنبية منافذَ إضافيةً ذاتَ طبيعة معرفية وتثقيفية نطل منها على حضارات أخرى، والمفروض أن نحســن استخدامَ آلياتِ الترجمة والتعريب والاقتراض، وأن نوظفها في سبيل إنتاج معرفة عصرية حيّة.

إن اللغــة العربية ليست رموزاً وألفاظاً وأساليبَ تعبير وتواصل فحسب، إنها في جوهرها الحيــوي منطقٌ وبناء فكري وإحساســ وشعور بالانتماء إلى هذه الأمــة، وهي مقوّم أساسي وحيوي في تكوين الوحدة الثقافية مما يتطلب إعلاء شأن الاهتمام المؤسساتي والفردي بهذه اللغة وتمثلّها في مخرجات التماسك اللغوي التشريعي والتربوي والإعلامي وفي جميع شؤون الحياة.

ولا يظنَنَّ أحدٌ أن الدعوة إلى سيرورة اللغة العربية وانتشارها في شؤون حياتنا تحول دون تعلّــم اللغات الأجنبية وإتقانها، إلا أن في المنحى الرامــي إلى الاتجاه المتزايد نحو التعليم بلغــات أجنبية على حســاب العربية خطراً ينطوي على فقدان الانتمــاء إلى الوطن، وهجرةِ العقــول، واغتراب فكري وسلوكي لأبنــاء الوطن، في حين أن تعلم اللغات الأجنبية إلى جانب إتقان اللغة الأم يسهم إسهاماً فعالاً في توسيع آفاق شبابنا، ويزيد من ثقافتهم عمقاً، ويجعلهم منفتحين على الثقافات الأخرى.

ومن الظواهــر المقلقة في مجتمعنا العربي هو هذا التوسع في استخدام اللغة الأجنبية، والاعتماد شبه الكلي عليها في عدد من القطاعات الرسمية والخاصة الأهلية، ولاسيما اللغة الإنجليزيـــة فـــي دول الخليج العربي التي كانت مستعمرة من الإنجليـــز، واللغة الفرنسية في الدول التي عرفت الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي.

إننـــا في أمس الحاجة إلى جو مأمول تتوافر فيه شروط استنبات وعي لغوي يدرك معنى تعلــم اللغة العربية الأم على أنها آلية لغرس مفاهيــم الهوية وتنميةِ القدرة على التواصل مع الآخرين، وتنميةِ المواهب والإنتاج المعرفي، مادامت لغتنا العربية هي عنوانَ هويتنا وحاملةَ تـــراث أمتنا وموحدةَ كلمتنا ورؤانا وتطلعاتنا، وكنوزُهـــا وديعة بين أيدينا، وشبابها ومستقبلها أمانة في أعناقنا.

وإن لغتنـــا العربية لغةُ القرآن الكريم، وما تمتاز به من خصائصَ وسماتٍ ومقوّمات البقاء مؤهلـــةٌ لأن تقاوم وتكونَ لغة الإبداع الفكري والثقافـــي والعلمي لا لغةَ تراث فحسب، بل لغة حيـــاة، فلنتمسك بهـــا هويةً ووطناً وخيـــاراً وإرادة وقراراً، وعندها تستعيـــد عافيتها، ونكون جديرين بها، وأبناءً أوفياءً وبررة لها.

إن مـــن سبل النهوضـــ بقدرات طلابنا بلغتهـــم أن يكونوا حريصين علـــى استعمالها في مناشطهـــم اللغويـــة كلّهـــا، وأن ترتفع نسبة القـــراءة لديهم، لا قراءةَ ما هـــو مقرر عليهم في مناهجهـــم فحســـب، بل أن يطلعوا بطريـــق القراءة الحرة على آفاقٍ معرفيـــة تتطلبها طبيعة العصـــر المتدفقِ في معارفه، وأن يعملوا على كتابة بحوثهم وتلخيصها بلغة سليمة، وأن يكون مدرسوهـــم قدوة لهم في استعمال العربية السليمة على الألسنة والأقلام، فلا تشرح الدروس إلا بالعربيـــة الفصيحة، ولا تلقى المحاضرات إلا بها، ولا تكتب اللافتات والإعلانات إلا بها، ولا تـــدور المناقشـــات في التدريس وفـــي المدارسة (السيمينار) وفي الحكـــم على الرسائل الجامعيـــة إلا بها، ولا توضـــع الرسائل الجامعية في المكتبات إلا بعـــد تنقيتها من الأخطاء اللغوية، وألا يكون الالتزام بالفصيحة ضمن جدران أقسام اللغة العربية فحسب، بل أن يعمل المدرسون جميعاً على تنبيه الطلاب على أخطائهم اللغوية ولاسيما الأساسيةُ الصارخة منها، وفي جميع الكليات الجامعية، وفي مختلف التخصصات.

وحبـــذا لو كان ثمة مقرر فـــي الكليات الجامعية كلّها يُعنَى بوضـــع المصطلحات العلمية استئناساً بما ورد منه في تراثنا العربي، وسعيٌ إلى إحداث موقع على الشابكة لرصد الأنشطة والفعاليـــات التراثية في كل علم تعريفـــاً بالمخطوطات في بابه، وتحقيقاً ونشراً، وتبياناً لكل جديـــد في ميدانه علـــى الصعيدين العربي والعالمي، وتركيزٌ علـــى الصفحات المشرقة من التـــراث في عملية الإحياء والنشـــر، وتفعيلُ الترجمة إلى العربية ومنهـــا إلى اللغات الحية، وتشجيـــعُ طلبة الدراسات العليا على معالجة مشكلاتنـــا اللغوية بالأساليب العلميةِ، وتوظيفُ

نتائج البحوث في معالجة الواقع، واعتمادُ أساليبَ جديدة وطرائقَ معاصرةٍ في قراءة تراثنا بحثاً عن الأصالة فيه، وربطاً للأصالة بالمعاصرة، وتخصيصُ جوائزَ لأفضل الكتب التي تعالج قضايانا اللغوية، والإكثارُ من المسابقات والمناظرات بالعربية وتكريم الفائزين والمجلين فيها، على أن يكون الجوُّ الخارجي الذي يتفاعل معه طلبتنا سليماً لغوياً فلا تقع عين الطالب إلا على الكلمة الصحيحة، ولا يستمع من الإعلام إلا للكلمة السليمة، وعندها تنهض لغتنا.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أقول: فلنحافظْ جميعاً على صفاء لغتنا حفاظنا على صفاء عيوننا، ولنعملْ على تنقيتها من التلوث اللغوي المتمثلِ في الأخطاء اللغوية والنحوية من جهة، والعاميةِ المستشرية من جهة ثانية، والهجينِ اللغوي العربتيني والعربيزي من جهة ثالثة، ولنكن حريصين على التمسك بثوابتنا القومية التي حافظت عليها سورية عبر مسيرتها ماضياً وتحافظ عليها حاضراً ومستقبلاً، وفي طليعة هذه الثوابت اللغة الفصيحة والوسطية والاعتدال والنزعة الإنسانية، وليعمل طلبتنا على إتقان اللغات الأجنبية إلى جانب إتقانِهم سيدةَ اللغات «العربيةَ الفصيحة» لغةَ قرآننا الكريم وعنوانَ هويتنا وأساسَ قوميتنا ووطنِنا الروحي، وذاكرةَ أمتنا ومستودعَ تراثها، والموحِّدةَ والموحَّدةَ على الصعيد العربي. ولنكن جميعاً جديرين بهذه اللغة وأبناءً بررة للغتنا الأم برّنا بأمهاتنا، ولا شيء أمرُّ من العقوق، ولا أقسى من الجحود...

إننا ونحن نحتفل باليوم العالمي للغة العربية لابدّ لنا أن نشير إلى أن سورية تميزت على الصعيد العربي بحفاظها على لغتها الأم ولم ترضَ عنها بديلاً عبر مسيرتها، وغدت مضرب المثل في اعتمادها العربية الفصيحة في تدريس جميع التخصصات في الكليات الجامعية، وها هم أولاء خريجوها يبزون أقرانهم من الدول العربية الذين درسوا الطب باللغة الأجنبية، وعزا عميد كلية طب الأسنان في جامعة السوربون هذا التميّز عند طلبة الدراسات العليا من السوريين إلى دراستهم باللغة الأم.

ولقد عزز هذا التوجه ودعا إلى التمسك به كل من مؤسس سورية الحديثة الرئيس الراحل حافظ الأسد عندما أصدر مرسوماً يرمي إلى تعليم اللغة العربية لغير المختصين في الكليات الجامعية والمعاهد في ثمانينيات القرن الماضي، كما عززه السيد الرئيس بشار الأسد حالياً عندما أصدر القرار الجمهوري القاضي بتشكيل لجنة التمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها عام (٢٠٠٧م)، وعندما قدّم إلى مؤتمر القمة العربي الذي

عقـد في دمشق عام (٢٠٠٨م) مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، وقد اعتمده المؤتمر وقدّم الشكر لسورية على مبادرتها لإطلاقه.

تلـك هي جبلّة سوريـة المعطاء، إذ إن أجدادنا القدماء فـي أوغاريت اخترعوا الحروف الأبجديـة وعلّموهـا للآخرين، وها هـم أولاء قادتها المعاصرون يعملـون على حماية اللغة العربية وسيرورتها وانتشارها سليمة على الألسنة والأقلام على أنها من ثوابت قوميتنا، ورحم الله شاعر العروبة المجمعي **سليمان العيسى** إذ يقول:

وكـنـا دائـمـاً نـعـطـي

وكـنـا دائـمـاً نـجـحـد

خصائص اللغة العربيّة بين يدي العقل

حسام فؤاد السعدي

قال ابن فارس في فقه اللغة: «لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها»[١].

ويضيف متسائلاً: «فأين لسائر الأمم ما للعرب؟»[٢].

أي لا يمكن لسائر الأمم باعتقاده أن يمتلكوا القدرة على التعبير كقدرتهم.

وقد ذهب ابن فارس وكثير من اللغويين معه إلى إثبات ما تختصّ به العربية دون غيرها من لغات الأمم الأخرى إيماناً منهم بإعجاز اللغة وتفوّقها، ونحن لا نسعى فيما يأتي إلى التقليل من شأن لغتنا، ومن سماتها ولكننا نطمح إلى إجالة النظر العلمي في تلك الخصائص، وفحصها في ضوء معطيات العصر؛ حتى لا نصل إلى إشادة أحد المتعصبين على العرب، إشادة تحمل في طيّاتها انتقاصاً من اللغة في وجه من وجوه النظر الدقيق، يقول أرنست رينان المتعصب ضد العرب مدهوشاً باللغة العربية: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القويّة، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمّة من الرُّحَل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقّة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم عُلمت ظهرت لنا في حلل الكمال لدرجة أنّها لم تتغيّر أيّ تغيّر يُذكر، حتى إنّها لم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعلم شبيهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرّج، وبقيت حافظة لكيانها من كلّ شائبة»[٣].

إننـــا أمام نصـّـ يرفع العربية إلى مرتبة لا تُدانى، ومن المعروف أنّ صاحبه متعصّب ضد العـــرب، ولكن لماذا الدهشة؟ أن تنبت تلك اللغـــة وسط الصحارى عند أمّة من الرحّل، وهل العـــرب رحّل كلّهم؟ أم أنّ مدناً قد نشأت، وقبائل قد مالت إلى التمدّن؟ إذن، فالدهشة تحمل نظرة متعصّبة، تلتقي مع الشعوبية في عدِّ العرب بداة رحّلاً ليس إلا.

إنّ مديح **أرنســت رينــان** للغة ووصفها باللغة الكاملة أدخلهـــا إلى اللاتاريخية عامداً فهي قـــد تمّت واكتملت، والمستشرق لا يدري كيف؟ كأنّما يؤكد ما قاله بعض اللغويين العرب إنّها نشأت بالإيحاء، ولا علاقة لأصحابها بذلك فهم يستخدمونها ويتغنّون بسحر معانيها، وحسن نظـــام مبانيها، وهنا فإننا نسأل المستشرق بماذا يمكن أن نصف لغة لا طفولة لها، ولا شيخوخـــة؟ أليس هذا ما يؤكّد حرمان العرب مـــن دورهم في لغتهم، وليس هذا فحسب، إنّما يمنعهم من تغييرها وتبديلها وفق معطيات العصر وتطوّراته.

إننـــا لنعجب من مديح يحمل انتقاصـــاً واضحاً من أصحاب العربية، لا من العربية نفسها على حساب أنَّ المستشرق فصل بين اللغة وأصحابها الرحّل كما وصفهم.

ونعود إلى الخصائص التي ارتآها **ابن فارس** وصحبه وخصّوا العربية بها ومن أبرزها:

أ- الإعراب:

قال **ابن فارس** في ذكر ما اختصّت به العرب:

«من العلوم الجليلة التـــي اختصّت بها (الإعراب) الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّزَ فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت، ولا تعجّب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد»(٤).

وللدلالة على أهميّة الإعراب ننظر إلى الأمثلة الآتية:

يقـــول الله في كتابه العزيز: ﴿**إنّما يخشـى اللهَ من عباده العلمــاءُ**﴾ (فاطر ٢٨) لا بدّ من ضبط العلماء بالضمّ حتى يستقيم المعنى وإلا فهو الكفر بالله وكتابه.

ويقول الله -جلّ وعلا- في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿**أنّ اللهَ بريءٌ من المشـركينَ ورسـولُهُ**﴾ (التوبة ٣) فلا بدّ من ضبط رسولـــه بالضمّ وإلا سيفسد المعنى وتشمل براءة الله الرسول وهذا ما لا يرتضيه العقل والمعنى المراد في الآية الكريمة.

وعــود علــى كلام **ابن فارس**، فالإعــراب لا تختصّ به العربية وحدهــا ولكنه موجود في الألمانية والحبشيّة مثلاً.

إنّ الإعــراب ضروريٌّ لفهم المعاني، وهو إبانة لها وإيضــاح، وهو أحد أهمّ أعمدة النظام اللغويّ العربي، فالعربية لغة معربة، والإعراب يستند إلى قواعدَ وكلّيّاتٍ استنبطها اللغويّون من كلام العــرب الذي عملوا علــى استقرائه في زمن التدوين ومن الملاحظ أنّ الاستقراء الكامل أمــر متعذّر؛ لذلك كان استقراؤهم ناقصاً وقواعدهم وكلياتهم إنما قامت على ذلك الاستقراء الناقصــ وهذا ما يُفقد تلك القواعدَ والكلياتِ علميتّها أو إطلاقَها وتقديسَها على أقلِّ تقديرٍ، ونحــن نذهب مع **أحمد أميــن** في خَشيته حين قال: «**وأخشى أن تكون لغتنا التي نستعملها اليومَ، وقبلَ اليوم هي وليدة النحو، واللغة وحدَها، فاللغة عادة لا تخضع لقياس مطّرد**»[٥].

إنّ كلام **أحمــد أميــن** يمثّل وجهاً من وجوه الخطر الذي مثّلته القواعد والكليات والقياس علــى اللغة، فقد استنّها اللغويــون، وشدّدوا على احترامها، وإخضاع الناس لها وقسروا لغتهم عليهــا، فكم أسقطوا من استعمالات لها لا تنسجم مع قواعدهم وكلياتهم، وعدّوا أي استعمال يخرج عن تلك القواعد والكليات شذوذاً لا يقاس عليه.

واللغــة لا تخضع دائماً للقياس، ولا تسير على قواعد ثابتة، وهذا سرّ من أسرار تطوّرها، ومن الأمثلة على عدم خضوع اللغة للقواعد المفروضة قوله تعالى:

«إن هذان لساحران» فأين القاعدة ممّا ذكر؟ ومن الأمثلة أيضاً قول **امرئ القيس**:

اليــوم أشــربْ غيــرَ مُستحْقِـبٍ

إثـــمـــاً مـــن الله ولا واغــــلِ

فأيــن القاعدة من قولــه (أشربْ)؟ بسكون آخر الفعل وهو قد تجــرّد عن أحرف الجزم، أليس فيما سبق خروجاً على مقاييس النحاة؟ والمثال الأخير يندرج تحت ما يسمّيه الأقدمون (اختلاس الحركات)[٦] وهو استعمال كان للعرب قبل وضع القيود الصارمة.

إنّ إقرارنا بالقواعد النحوية، يجب ألا يحجب عن أبصارنا ارتكازها على استقراء ناقص، وهذا يعني أنّ القواعد ليست شاملة ولا مطلقة لا يداخلها الشكّ، ولا نصّاً لا يقبل الاحتمال، إنّ ذلــك يمكّننا من النظر إلى الاستعمالات الجديدة، ثمّ العملِ على استنباط قوانينها، وفتحِ الباب واسعاً أمام التطوّر اللغويّ، وإن لم نفعل نكون قد صنعنا بإرادة منّا قبراً كبيراً للغة تُدفن فيه مع أصحابها يوماً بعد يوم.

ب- الغنى بالمفردات:

تمتاز العربية بغنى مفرداتها حتى قال أحد الفقهاء: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبيّ»(٧).

والمرجح أنّ سبب اتساع مفردات العربية عائد إلى أنّ اللغويين جمعوا ما سمعوا عن القبائل جميعاً، فإحدى القبائل تضع اسماً لشيء، والأخرى تضع اسماً آخر، فلم يكتف الجامعون باسم واحد للشيء، لكنهم جمعوا كلّ ما صادفوه في رحلة بحثهم وهذا ما جعل اللغة تتضخم تضخماً كبيراً، فأصبحنا نقرأ مئة اسم للحيّة، ومئتين وخمسين اسماً للناقة، وهكذا...

ومن أسباب اتساع اللغة وتضخمها أقيسة النحويين، وقواعد الاشتقاق التي وضعوها فأصبح العربيّ يشتقّ وفق القواعد، ويتوسّع في ذلك.

وكان لكثرة هذه المترادفات فوائد ومضارّ، فقد وفّرت مادّة غزيرة للشعر والنثر فأخذ الشعراء ينظمون المطوّلات، ولا يخشون الصعوبة في وضع قافية، والتزام رويّ، وكذلك كتّاب النثر وجدوا أمامهم مادّة غنية لسجعهم، وترصيعهم، وفنون بديعهم، فاختاروا من الكلمات ألينها في مواقف اللين، وأقساها في مواقف القسوة.

ولكن إذا كانت اللغة قد وفّرت مادّة طيّبة للأدب، فإنها بالمقابل قد اتسعت اتساعاً يصعب معه الإلمام بها، وكُثّرت تكثيراً أضرّ بها أحياناً، فهي بمعظمها قد جُمعت من أفواه البداة، ونقلت عالمهم، ومسمّيات أمكنتهم، وحيواناتهم، ولنا أن نتساءل لماذا اقتصر جمع اللغة على البادية؟ وأهمِلتّ حواضرُ عربية مهمّة في العصر العبّاسي- عصرِ تدوين اللغة وغيرها من آداب العرب وعلومهم - كدمشقَ وبغداد بما تمتلكان من مجتمعات حضريّة راقية، فقد كانتا تستعملان ما لا يُحصى من الآلات والأدوات، وتتعاملان من خلال ما لا يُحصى من العلاقات.

إنّ من يطلب تلك المجتمعات فيما جُمع في المعاجم العربية، سيجدها صامتة باهتة وكأنّها لم تسهم في المشروع الحضاريّ العربي، وتصنعه.

إنّ طلب الفصاحة، والخَشية على العربية من اللحن، حرم العربية من ذخيرة لفظيّة ثمينة، عبّرت عن الحواضر الإسلاميّة، لقد رُفضت تلك الألفاظ خوفاً على اللغة من اللحن والفساد، وكأنّ اللغة وُجدت جاهزة مسكوبة في قوالبَ لا تفارقها أبداً؛ لذلك يُؤخذ على اللغة فقرها

الحضـــاريّ، وغناها البدويّ الذي تمثّــل في كثرة المترادفات وتمثيلهــا للبادية على حساب الحاضــرة التي حضرت شاحبة في المعاجم مشدودة لعالم البادية الذي أراده عصر التدوين عصراً مقدّساً يُفرض على الحضارة الإسلاميّة.

ومــن المآخذ على المفردات العربية المدوّنة في المعاجم أنّ معظمها حسيٌّ؛ وذلك لأنها تمثّل في أغلبها حياة الأعراب من دون غيرهم.

إنّ حسيّـــة اللغة تشير إلى بدائيّتها، وهذا ليس ذمّـــاً، ولكنّه إشارة إلى مرحلة من مراحل تشكّلهـــا، فالكلمـــة أوّل أمرها ترتبـــط بواقع حسّيّ تدلّ عليه، فــإذا نُطقت حضر في الذهن المقابــلُ الحسّيُّ لها، فنشاط اللغة فــي هذه المرحلة يكمن فيما تعكسه على صفحة الذهن، ولكــنّ اللغة في المنظور الحديث لا تكتفي بذلك -على أهمّيته- بل تسعى إلى تكوين مفاهيمَ ومجـــرّداتٍ عن الأشياء، فكلمة شجرة مثلاً لا تعني شجـــرة بذاتها، ولكنّها تعني مفهوماً لنوع الشجـــر، فاللغة في مرحلتها المتطوّرة تفارق الواقـــع الحسّيّ، وتنزاح عنه، وتنتمي بانزياحها إلى عالم رمزيّ مفاهيميّ مجرّد يناسب العقل، ويسعفه في سبر أغوارِ عوالم جديدةٍ.

ج- الإيجاز:

مــن سمات العربية اتصافها بالإيجاز، والأسلوب الممتع، فاللفظ على قدر المعنى وكأنّما رُسم له رسماً، وهو لفظ يقترب من الإفهام والقلوب.

ومن مظاهر الإيجاز في العربية أنّك تستطيع من خلال كلمة أن تؤدّي جملة تامّة كما هو الحال في أسلــوب الإغراء والتحذير في الجمل والتراكيـــب المستعملة، ولم يقتصر الإيجاز على الجمل والتراكيب، بل تعدّاه إلى الكتابة، فليس ثمّة حروف تُكتب ولا تُلفظ كما في اللغات الأجنبية، وقد استثنوا من ذلك كلمات محدودة، مثل واو عمرو وألف التفريق، وغيرهما.

وإذا كان الإيجاز فيما سبق محموداً، ورائعاً، فإننا نطمح إلى النظر إليه من زاوية أخرى؛ حتــى نلغيَ امتداده إلى حقـــول معرفيّة تحتاج إلى الشرح والتفسيـــر، فالإيجاز قول المعاني المتكثّرة في أقل عدد من الكلمات، فهو من زاوية النظر هذه اقتصاد في اللفظ، وذاك حسن، ومـــا نرفضه أن يتحوّل ذلـــك الاقتصاد إلى اقتصاد في الجهد العقلـــيّ، وقد حدّد الجاحظ قديماً بلاغة العرب بقوله: «**وكلّ شـيء للعـرب فإنّما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر**».

وينتقد البلاغة عند غير العرب بقوله:

«ذلك أنّ كلّ كلام، وكلّ معنى عند غير العرب، إنّما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد رأي، وطولِ خلوة، وعن مشاورة، ومعاونة، وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكايةِ الثاني علمَ الأوّل، وزيادةِ الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار الفكرة عند آخرهم».

والواضح من كلام الجاحظ استبعاد المعاناة، والمكابدة، وتركيزه على الطبع فالعربيّ تنثال عليه المعاني، فيوجزها، ويرميها، فتصبح مثلاً سائراً على حدّ قول الجاحظ.

إنّ المفهوم السابق عن البلاغة يبيّن بدايات اللغة في المرحلة الشفويّة قبل أن تميل العربية إلى الكتابة غير هاجرة الأساليب الشفويّة التي تعتمد على صيغ، وتراكيبَ متوازنة مسجوعة موجزةٍ، اتخذها الشفويُّ وسائل تعينه على استرجاع معارفه المختزنة، فالإيجاز -من زاوية النظر هذه- ضرورة أدّت إليها المرحلة الشفويّة للغة.

إذا نزعنا عن الإيجاز العصمة، والإطلاق، ونظرنا إليه نظرة منطقيّة موضوعيّة واعترفنا له بالفضل والجمال في أماكن محدّدة، أمكننا أن نستبعده من موضوعات تستوجب الإطالة والتفسير والشرح، مثل الموضوعات العلميّة، وحتى في بعض الأجناس الأدبية كالقصّة، المسرح و... إلخ.

وإذا ما تفحّصنا بعض المرويات الحكائيّة الشفوية وأثر الإيجاز في رسم الشخصيات فإنّ الاقتصاد في اللفظ، يُضاف إليه الاقتصاد في الجهد العقليّ حوّل الشخصيّات إلى شخصيات حادّة ثقيلة غيرِ مألوفة، وقد فعل الشفويّ ذلك؛ حتى يتمكّن من الاحتفاظ بها؛ لذلك جعلها خارقة مثقلة بالصفات التي تكمّل الصيغ المتوازنة فتستعصي بذلك على النسيان، في حين يميل الكاتب في الكتابة الحديثة إلى الإحاطة برسم شخصيّاته، وسبرِ أغوارها، وإشاعةِ الحركة الداخليّة فيها، وتخليصِها من النمطيّة الطاغية في المرويّات الشفويّة.

وفي النهاية: إنّ النظر إلى اللغة كظاهرة إنسانيّة عقليّة، تمثّل جهد الإنسان المتواصل في التعرّف، والإدراك ينزلها من اللاتاريخيّة إلى الواقع، فتتطوّر بتطوّره، وترقى برقي أصحابها، إننا نرفض أن تُحنّط لغتنا، وتجمد في قوالب ثابتة، -مهما كانت تلك القوالب برّاقة جذّابة- ستكون في المطاف الأخير سجوناً تسجن اللغة، وتسجننا معها.

إننا مطالبون بالإنصات إلى نبض اللغة، وتخليصِها من جبريّة أُحيطت بها، وإطلاقِ سراحها؛ لتوائمَ العصر ومعطياته، وتأخذ مكانها الحضاريّ اللائق.

المراجع

(١)- السيوطي المزهر في علوم اللغة، ج١، ص٣٢١.

(٢)- المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٣)- طرائق تدريس اللغة العربية، كتاب جامعيّ، الدكتور محمود السيد، ص٢٢٠.

(٤)- السيوطي المزهر في علوم اللغة، ج١، ص٣٢٨.

(٥)- أحمد أمين ضحى الإسلام، ج٢، ص٢٨١-٢٨٢.

(٦)- المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(٧)- السيوطيّ المزهر في علوم اللغة، ج١، ص٦٤.

اللغة بين الفلسفة والتجريب

د. صلاح الدين يونس

يعد الفيلسوف الألماني يوهان جوتفرير هيردر Herder ١٧٤٤ - ١٨٠٣ أول من تبنّى مشكلة أولية اللغة على العقل، فاصلاً بين متلازمين، يكاد الفصل بينهما يودي بأصالة التفكير في هذا المبحث، ولكن لابدّ من الإقرار بأنّ اللغة احتياج وجود، كما هي احتياج وجود مفكر، وفي إثر الاحتياجين، تنشأ العلاقة بين الطرفين على أنهما واحد أو كالشيء الواحد، فالشعوب تتكلم، تنطق، تكتب، على مستويات مختلفة، بين طور وآخر من أطوار نموّها «المعرفي»، ونموّها الآخر «المادي»، فتتشكل آليات تفكيرها وأساليب حياتها، ثم تتسرب إلى أنماطها التعبيرية، فيغدو كلٌّ من لغة الأمة وفكرها في تواصل جدلي، وتغدو معه عملية الفصل المدرسي بين الطرفين أحجية منهجية، تنشأ عنها مقولة مسطحة مختزلة بـ«اللغة وعاء للعقل - أو حامل للفكر».

ولم يكن الألماني هيردر ببعيد عن المسألة القومية عند الأمة الألمانية، عندما حظي المبحث اللغوي بقسط وافر من الاهتمام لديه، ولاسيّما في محاولته ضبط العلاقة بين اللغة والفكر وتحديدها، بل يمكن -على الأرجح- عدّه الرائد الأول للنظرية التي تعزو دوراً أساسياً للغة في تشكيل نظرة الإنسان إلى الكون، وعلى الرغم من أنّنا لا نشاركه همومه القومية «الأيديولوجية» التي كانت تؤكد من «الخلف» نظريته اللغوية، فإنّنا نرى معه أنّ اللغة ليست مجرد أداة فكر...[١].

وقـد أفصح **هيردر** عـن مشروعه في الربط بين خصائص اللغـة وخصائص الأمة التي تنطقهـا، معلنـاً «إن كل أمة تتكلم كما تفكّر، وتفكّر كما تتكلّـم... إن ربّات المعرفة البشرية: الحقيقـة والجمال والفضيلة قد أصبحت آلهة بمقدار مـا هي اللغة القومية كذلك... ترسم الحدود وتخط المحيط لكل معرفة بشرية»(٢).

وهيـردر قبـل أن يكون باحثاً فيلولوجياً، هو فيلسوف من فلاسفة عصر التنوير وهو أيضاً ناقد على طريقـة الفلاسفة، وكان تلميـذاً للفيلسوف **كانـط** KANT EMMANuel ١٧٢٤ – ١٨٠٤ ومن المعروف أن **هيردر** قد عارض أستاذه **كانط** بـ«نقد العقل»، ووضع مقابله «فسيولوجيـا» ملكات المعرفة والـرأي القائل بـ«أولية اللغة على العقـل»، ثمّ ثمّن «التجربة» واستمـد منها مفاهيمـه للزمان والمكان، كما وضع وحدة المادة فـي مقدمة تصوراته، ومن خلال جدل الطبيعة، آمن بجدل التاريخ، وتحولات المعرفة، محاولاً إثبات «إنسانية الثقافات الروحية» على أنها أصل باعث لتقدم الشعوب(٣).

وفـي تجربة **هيـردر** وآرائه يكمن المبعث القومي الذي شغل العلمـاء الألمان، وهو سابق على ما يدّعيه التفكير المدرسي بخصوص التنازع بين الفرنسيين والألمان على المقاطعتين الجغرافيتين الناطقتين بالألمانية: الإلزاس واللورين، وتبدو مشكلة الانشغال باللغة عند الألمان ذات علاقة وطيـدة بانشغالهم بالفلسفة، ومن هنا نفسر رأي **آدم شـاف** ADAM SCHAFF: «منذ **هيردر وفون همبولد** تبنت الدراسـات الألمانية اللغوية مرات عديدة الأطروحة القائلة إنَّ منظومة لغوية ما – مفرداتها ونحوها وتراكيبها- تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي طريقـة تفكيرهم، وهذا يعني أن اللغة التي تحـدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد طريقتنا على التفكير»(٤).

وليس «**شـاف**» وحـده كان عند هذا الرأي، فقد أكد **غـاي دويتشـر** Deutcher «أن بعض اللغات تعجز عن التعبير عن أفكار معقدة، لفقدانها قواعد نحو منطقية بما فيه الكفاية، بعكس الألمانية مثلاً، التي تعدّ وسيلة مثالية لتشكيل أعمق وأدقّ الأفكار الفلسفية، لأنَّها لغة منظمة بشـكل ملحوظ تنظيماً، قد يكون السبب في أنَّ الشعب الألماني شعبٌ منظم فكرياً، بل تفتقر بعض اللغات إلى تصريـف المستقبل، فمن الطبيعي أن يعجز أهلها عن التفكير المستقبلي، ويستحيـل على البابليين فهـم رواية الجريمة والعقاب، إذ تستخـدم اللغة البابلية مصطلحاً واحـداً للتعبير عن المعنيين، وتبدو الأجراف البحرية للنرويج جلية في نغمات لغتهم المائلة

والمنحدرة، ويمكن سماع اللام الروسية الكئيبة في ألحان تشايكوفيسكي الحزينة، والفرنسية ليست لغة رومانسية وحسب، بل هي لغة رومانسية بامتياز، والإنجليزية لغة قابلة للتكيّف، بل قد تكون لعوبة»(٥).

ولـم ينعتق الدرس اللغوي من اهتمام الفلاسفة في القرنيـن السابع عشر والثامن عشر، وذلـك ناتج عن شمولية الدرس الفلسفي ولاسيّما الدرس اللغوي، «فقـد أكد الفلاسفة من مختلف الاتجاهات حقيقة مؤداها: أن اللغة تعكس خصائص الشعوب الناطقة بها، ومن جانبه بيّـن الفيلسوف الإنجليزي **فرنسيس بيكون** في القرن السابـع عشر أنّنا نستطيع أن نستشف دلائل ملموسة لأخلاق الشعوب وعقولها من خلال لغتها»(٦).

ومن هنا كان الفيلسوف المعاصر **هايدغر** Heidegger ١٨٨٩- ١٩٧٦ يرى «أن اللغة يمكن أن نجعـل منهـا طريقة فكر فلسفيـة،... فالفكر يركز في واقعة القـول البسيطة. اللغة هي علـى هذا النحو لغة الكينونـة كما الغيوم هي غيوم السماء. بفعل القول يودع الفكر في اللغة خطـوط حرث متواضعـة، أكثر تواضعاً وصمتاً من الخطوط التـي يرسمها الفلاح في حقله بخطاً بطيئة»(٧).

وهايدغر هو أحد مؤسسي الوجودية الألمانية، وتقوم فلسفته المثالية على فكرة «الزمانية» التـي يراها في الانفعالات الداخلية للإنسان -والمزاج عنـده أولى من غيره، أما الهم والقلق فيكونـان مع المزاج الوجود الذاتي للإنسان الـذي يسميه «الوجود في العالم» وهذا ما أوصله إلى وجود الفكر متقدماً على اللغة، ولعل هايدغر استمرار للسلالة الألمانية في فلسفة التحليل اللغـوي، فقد اقترح **همبولت** Humbult ١٧٦٧-١٨٣٥ مذهب «الأبحاث التاريخية في اللغات، وهـو المنهج الذي يثبت أنه ذو قيمة كبيرة» ولاسيّمـا بعد التأثير الواسع للمنهج الداروني في علمـي: اللغة والتاريخ، فقـد أسس الإنجليزي **تشارلز روبرت داروين** (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) فكرة «التطـور التاريخي للعالم العضوي» ثم اشتق من المعرفـة البيولوجية القائمة على البحث التجريبي «تطـور الطبيعة الحية» التي قدمت للعلماء اللغويين -ولاسيّما الألمان- المنهج فـي تطور اللغات وارتباطها بفكرة الانتخـاب، من حيث الانتخاب يقوم على الأقوى، «وتعد نظرية داروين تأسيساً للفكر الجدلي في علوم الطبيعة والإنسان، كما أسهمت بشكل جذري فـي إقصاء اللاهـوت المثالي والميتافيزيقيـا، وفي تأسيس العلم الطبيعـي على المادية الجدلية»(٨).

بين الطبيعة والثقافة

عندما نشر المفكر والسياسي البريطاني **ويليام إيوارت غلاديستون** GladsTone ١٨٠٩-١٨٩٨ كتابه «دراسة في هوميروس والعهد الهوميري ١٨٥٨» عاينه المفكر الألماني كارل ماركس الذي تجاوز حدود ألمانيا الجغرافية واللغوية، بل تجاوز أوروبا، ليغدو شاغلاً العالم إما معه وإما عليه، فكتب إلى حليفه الإستراتيجي **إنجلز** بتاريخ (١٨٥٨/٨/١٣) يقول: «إن كتاب غلاديستون هو دليل عدم قدرة الإنجليز على إنتاج ما هو قيّم في دراسات علم اللغة»[٩].

وعلى الرغم من اهتمام **ماركس** بالأدب الإغريقي، فإنه قد قرأ كتاب **غلاديستون** من موقعه كفيلسوفٍ حاول إنهاء الفلسفة بتحقيقها على الأرض - كما تصور-، وقد جاءت قراءته صورة عن قراءة العقل الشمولي لعمل قام على الخصوصية، ولاسيّما في تحليل النص الهوميري، ومن الجدير الانتباه إليه هو أن غلاديستون سياسي -وزير ورئيس وزراء - غادر الانتماء السياسي والموقع الإداري إلى خصوصية الأديب الناقد الذي رأى في الشعر الهوميري ما لم يسبقه إليه ناقد غربي، ولاسيّما في مشكلة «الألوان» واختلاف دلالاتها بين عصر هوميروس والعصور التي تلته، في حين لم يغادر ماركس موقعه كاقتصادي وفيلسوف عندما قرأ كتاب غلاديستون، ويبدو أن الطبيعة الثقافية لغلاديستون تفصح عن محاولة الإنجليز كأمة صاعدة تسعى إلى امتلاك الإرث اليوناني وخَلَفه الإرث الروماني، لتؤسس عليهما، ثم تطلق عليه المعجزة الأوروبية، وتعني أن أوروبا من اليونان إلى الرومان إلى اللاتين والنهضة قد استُملِكت من العصر الإنجليزي، الذي بدأ مع **جيفري تشوسر** choicer ١٣٤٠- ١٤٠٠ في حكايا كانتر بيري، ثم مع **فرنسيس بيكون** في «الأداة الجديدة ١٦٢٠م» ثم مع **نيوتن** في اكتشافه قانون الضياء الشمسي عام (١٦٦٩م) وفي جاذبيته عام (١٦٨٨م)، **وداروين** في تطوريته (١٨٧٧م)... إلى الانقلاب الصناعي وصعود البرجوازية كطبقة صانعة للعصر الحديث.

وما كان للبرجوازية أن تنهض بالمشروع الصناعي لولا أن عصراً تقدمها، هو «عصر العقل» The Age Of Reason كما أطلق عليه **ستيورات هاميشر**، وكان يعني به «فلاسفة القرن السابع عشر، وفي مقدمتهم **بيكون وباسكال وديكارت وسبينوزا ولايبنتز وهوبز وغاليلو**» ولا تخلو آراء الباحثين المعاصرين من المزيد في دور اللغة الثقافي والسياسي، فيروي **غاي دويتشر**: «أن أحد الفلاسفة طوَّر فهمنا لتاريخ أسرة تيودور التي قدمت خمسة ملوك لإنكلترا من أصول ويلزية، وقد أفصح عن السبب الحقيقي الكامن وراء انشقاق الملك

هنري الثامن عن الفاتيكان... فإن ميلاد الدين الإنجليكاني انبثق من مقتضيات اللغة الإنجليزية من دون شك، فقواعد الإنجليزية التي تتأرجح بين الفرنسية والألمانية فرضت على الفكر الديني الإنجليزي أن يجد لنفسه مكاناً بين الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الألمانية»[١٠].

مثل هذا الرأي قد يفسر جانباً هامشياً من جوانب حدث سياسي كبير كتحول إنكلترا إلى الإنجليكانية، أو انشقاق الملك الإنجليزي عن المركز الكاثوليكي، لكن تفسير الحدث يحتاج إلى دراسة في طبيعة الإقطاع الإنجليزي الذي أفضت ثرواته إلى تشكل الوضعية الجديدة، وهي البرجوازية التي فتحت الآفاق على عالم جديد، هذه الآفاق تقتضي الانفصال عن المركز الكاثوليكي، وفي الوقت نفسه تقتضي تأسيس دولة قومية، وهنا يبدو كل من الانفصال والتأسيس مقتضياتٍ ثقافية، تسوغ الثنائية المذكورة، وبالناتج فإن الإجراءات السياسية ينتج عنها نمط من التفكير يقابله نمطٌ من التعبير، ولعل استقلال الولايات المتحدة الأمريكية -فيما بعد- عن بريطانيا الإمبراطورية في (١٧٧٦/٧/٤م) قد فرض نموّاً هائلاً للغة الإنجليزية، فاتساع الولايات المتحدة بين المحيطين: الأطلسي والهادي، اقتضى وجود استراحات غير معهودة في إنكلترا، وإن وجود طبيعة جغرافية مختلفة عن بريطانيا اقتضى بدوره نموّ طريقة في التفكير اللغوي، وطريقة في النطق مختلفتين عن بريطانيا، حتى غدا القاموس الأمريكي متضخماً على حساب القاموس البريطاني، ومما هو رافد لفكرة ثنائية الانفصال والتأسيس ما جاء في خطاب المفكر والشاعر الأمريكي **رالف والدو إيمرسون** (١٨٣٨م) في جمهرة الطلاب المتخرجين في الجامعات الأمريكية، وهو بمنزلة الاستقلال الثقافي والعقلي النظيرين للاستقلال السياسي «انطلق بما توحي إليك به نفسك الآن، فما دمت صادق التعبير عن ذلك الوحي أميناً في نقله وتصويره فقد أحسنت تمثيل العقل الأكبر... إن العبقرية تنظر إلى الأمام... لا ينبغي أن تطلب كأساً من الماء من أوعية الآخرين، لا بدّ لكل عصر أن يكتب كتبه، مللنا ونحن نصغي إلى ربّات الشعر الإنجليزي، آن لنا أن نؤمرك أمريكا»[١١].

ومنذ القرن السادس عشر – انطلاقة النهضة الأوروبية– وما بعده، والعلم الطبيعي يفرض نفسه على الذهنية الأوروبية، ومن نتائجه الاعتماد على الحواس على أنقاض الظن اليوناني، ومما هو جدير بالتوثيق أن فلاسفة الطبيعة قد سادوا في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، وأهمهم **غاليلو وبيكون ونيوتن**، ومما هو جليّ أن تحولات علوم النهضة،

وانتقالاتها من سيطرة اللاهوت إلى الحرية الفردية العقلية، قد فرضت أنماطاً لغوية ما كان لها أن توجد لولا أن استدعتها العقول الفردية.

المقولات العامة والإجراءات الفردية

يُجمع المفكرون، أو يــكاد أغلبهم يكون على الإجماع، أن الفيلسوف الإنجليزي جان لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ Lockegohn هــو المهيمن علــى المفكرين الأمريكيين من ذوي الاتجاه الثوري العقلاني، فمــن تعاليمه استقى أولئــك مشروعهم النقدي ضد البرلمــان الأمريكي الممثل لكبار المــلاك وأصحاب النفوذ من الاتجاهين: اللاهوتي والزمنــي، وكانت آراؤه -المكتوبة بالإنجليزيــة طبعاً- مصدراً للفكر السياسي الأمريكي، بشــكل لا يقبل معه شريكاً، «فقد ساد الفلسفة السياسية في عهد الثورة الأمريكية، ولم يكن الفكر السياسي الأمريكي إلا تأويلاً لما كتبه جون لوك»[١٢].

ويبــدو أن لوك على الرغم من أنه لم يعش إلا أربــع سنوات في القرن الثامن عشر سابق لعصره، بل متقدم على مفكري القرن الثامن عشر في جوانب كثيرة، أهمها الجانب **التربوي**، والآخر العقلاني الفردي، وتبدو صياغته **الفردنة** كانت الباعث الأهم على انتشاره في النخبة المثقفــة الأمريكية، ولاسيّما فــي إزاحته العلنية لظاهرة التديــن الجمعي الذي يتخذ شكل الاستبداد المؤسساتي، يقــول: «إن الدين فردي خاص معينه في نفسي، وأستنبطه من ذاتي، ويستحيــل على إنسان آخر في الدنيا بأسرها أن يهديني فــي الدين صراطاً مستقيماً إذا لم تهدني نفسي... إن الطريق الضيق الذي لا طريق سواه المؤدي إلى السماء لا يعرفه القاضي بأفضل مما يعرفه كل إنسان لنفسه... لهذا كان روح الفرد من شأن صاحبه وحده دون سواه، ولا بدّ أن يترك وشأنه فيه»[١٣].

يعتقــد كثيــرون أن الإنجليزية قد انتشرت خارج حدودها بسبــب «الحقبة الاستعمارية»، وهــذا سببٌ وجيه، لكنــه لا يفسر هيمنة الإنجليزية الواسعة بشــكل كامل، فقد كان لإسبانيا مساحة استعمارية هائلة لكن الإسبانية لم تحقق ما يوازي الإنجليزية، ولعل الفلاسفة الإنجليز مــن لوك إلــى بيكون إلى نيوتن إلى دارويــن... قد منحوا الإنجليزية هــذا التقدم، ولاسيّما بعــد أن غدت لغة العلم الطبيعي، ولغة الفلسفة، ولعل ارتبــاط الفلسفة في القرنين: السابع عشــر والثامن عشر بعلم الطبيعة هو الذي أمدَّ الإنجليزيــة بطاقة التوليد الذاتي، فالعلمان المذكوران متحولان لا يقفان عند حدّ أو صورة، وإن التطور المذهل لنتائج العلم الطبيعي كان

يفرض على الإنكليزية أنّ تتقدم معه مستجيبة لتحولاته، وقد ساعدها من جانبها الداخلي البنية النحوية المرنة، التي ازدادت مرونة مع «لوك» و«داروين».

ومن جانب آخر تؤدي العربية في العصر الوسيط - ونعني القرنين الثامن والتاسع الميلاديين- الدور الأممي في العلوم الوضعية والإنسانية الذي يذكرنا بالدور الذي قامت به الإنجليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، «وقد أدى التكامل اللاحق للعناصر المتباينة في المجتمع الإقطاعي في العهدين: الأموي المتأخر والعباسي المبكر إلى تشكل أوساط حاكمة مكونة جزئياً من العرب وجزئياً من الأرستقراطية الناشئة التي اعتنقت الإسلام واستوعبت اللغة العربية الفصحى، وحيث كان يوجد عدد من الأفراد من ذوي اللغة المزدوجة... فقد ظهر إقبال على المعارف الطبيعية والرياضية والفلكية والسياسية -الإدارية والمعارف العامة-... وبحث أخلاف اليونانيين من البيزنطيين والسريان النساطرة والفرس والعبريين الكوادر الذين كانوا قد وجدوا ملجأً في إيران الساسانية لأنفسهم عن سادة جدد... وجدوا حُماتهم وسط الوجهاء العرب والمتعربين»[١٤].

تبدو إشارة المستعرب الروسي **أنس خالدوف** إلى النخب العلمية التي تشكلت في ظل الانغلاق الأموي والانفتاح العباسي، إشارة ذات قيمة تتجاوز قضايا «اللغة» إلى قضية تاريخية، وهي أن عصر المثاقفة الأممي لم يتحقق خلال لحظة تاريخية عابرة، وإنما هو آخذ بالتشكل من الإرث الشرقي للأمم التي انزاحت عن صدارة المرحلة التاريخية، لتتابع نخبها بلغة أخرى، وتحت شرط جديد، وهو «دولة الخلافة» هذا الشرط فرض لغة «الإسلام» وهي العربية، والشرط مقترن بوضعية سياسية تبدو فيها دولة الخلافة جامعة لأعراق متباينة، لكنها تؤلف -عبر العربية - ثقافة هارمونية.

ولو لم تكن العربية مهيأة لشرطي الداخل: «الخلافة ومتطلباتها»، والخارج «علومه العابرة لحدوده» لما قويت على نقل الأفكار والمعارف التي كانت دخيلة -إلى درجة الغرابة - على الثقافة العربية، وعلى الرغم من قدرتها المنوّه بها، فإنها -العربية - أفادت من لغات النخب الوافدة من الأمم العريقة في الثقافة، وعلى الأخص الفرس واليونان، أفادت على مستويات: المفردات، والتراكيب، والمعارف، فمن اليونانية وفدت مقررات المنطق والجدل، وكذلك من بيزنطة، وأفادت من الحقبة الساسانية الإيرانية التصورات الأسطورية المحتاجة إلى نمط جملي غير مألوف في الشعر العربي، وأفادت من الهند كثيراً من كلمات الحياة الحضارية،

ولعل الفائدة الأعلى والأغنى كانت من المساجلات الدوغمائية بين التوحيد المسيحي والوثنية من فرق عديدة، كالمانوية والصابئة «الحرّانية» والزرادشتية، وكذلك من الرواقيين.

وقد أسهمت العوامل الاجتماعية - إلى جانب العامل السياسي- في تقبّل العربية لعلوم العالم الآخر، فكان المجتمع الناطق بالعربية يتشوق إلى العالم الجديد الغني بعلومه، ولعل «**النخبوية**» التي تشكلت مع العهد العباسي الأول قد أسهمت بدور حاسم في ترغيب المجتمع العام بالمعرفة، ولاسيّما أن الشعر العربي كان قد وضع ما عنده، لتبدأ مرحلة «النثر الفني» الذي كان ثمرة لقاء الداخل بالخارج، من خلال مشروع الترجمة، وقد ساعدت «النخبية» في التوصيل بين أعراق دولة الخلافة، وعلى سبيل الشاهد، كان **حنين بن إسحاق** (٨٧٣م) طبيباً، تخرج في جنديسابور، وتعرف على اليونان جغرافياً وثقافياً، ثم تجول في البلاد السورية، مما مكّنه من لغات ثلاث هي: اليونانية والسريانية والعربية، وكان تمكّنه يزداد مع ترجمته العلوم اليونانية وبالأخص «الطب» من اليونانية إلى السريانية، ولعل القرابة بين السريانية والعربية هي التي سهلت عليه مهمة «النقل» العلمي بين الأمم المذكورة، ولهذا كان يسعى إلى المقارنات الضمنية بين أبنية اللغات، وأحياناً يلجأ إلى التصريح «كان يُعيد النظر في الترجمات القديمة -له ولغيره - ويستبدل بها تراجم أدقّ، كما كان يحرر تراجم تلامذته، وكان يرفض الترجمة الحرفية، مفضلاً عليها ترجمة **المدلول**، وقد أثارت ترجماته إعجاب **يوحنا بن ماسويه، وجبريل بن بختيشوع** «طبيب الرشيد» و **محمد بن موسى**، إذ لبّى المعايير الدقيقة التي وضعها علماء اللغة، والذوق العالي للفئات المثقفة»[١٥].

استطاعة العربية ومهمة الفلسفة

تقتضي دراسة «العربية» كلغة المرور على المرحلة الانتقالية من نظام قبلي إلى نظام يقوم على الرابطة «الإسلامية»، والمرور هذا لا يبدو مهماً، ما لم يأخذ بالحسبان الكيفية التي تمت بها عملية تدوين التاريخ الإسلامي نفسه، ويبدو الشعر العربي الذي سبق قيام الرابطة الإسلامية أهم مصادر الثقافة لشبه الجزيرة الوثنية، ولم يكن الشعر ذاك إفصاحاً عن حال معرفية وحسب، وإنما كانت تلبية لحاجات نفسية روحية، فلكل قبيلة موروثها الخاص، بمعزل عن الأخريات، لكن التصور العام منعكس في الشعر بشكل متقارب، فكانت التصورات تكتب بلغة موحدة «أساليب، وصور، ومفردات»، ومن هنا نجد خصوصية مائزة لكل قبيلة، وعمومية مشتركة في الخصوصية الشعرية، وعلى الرغم من تمايز القبائل في الموروث الشعري فإن

«جامعـــي» الشعر من اللغويين والرواة فـــي النصف الثاني من القرن السابع الميلادي والقرن الثامن قد وجدوا الخاصية القبلية نسبية، ووجدوا المشترك العام يكاد يكون مطلقاً.

«كان الشعر البدوي الشفاهـــي وسيلة شاملة لتثبيت المعلومات عن أحداث ماضية، ولكن نمطـــاً خاصاً للذاكرة الاجتماعية، وحتى كلمة شعـــر نفسها كانت تعني في البداية «المعرفة» و«الدرايـــة» وقد أدى الشعر وظيفة مماثلة لدى شعوب عديدة، لم تكن لديها لغة كتابية، وكان وسيلة لنشر المفاهيم ذات المضمون الأيديولوجي والفلسفي»(١٦).

ويـــكاد الباحثون الغربيون يُجمعون على أن الفلسفة التي نشأت بالعربية إنما منشؤها من بواعث «خارجية» خالصة، ويمثل هذا الرأي المؤرخ **De bor**، فيقول: «جاء القرآن المسلمين بديـــن، ولم يجئهم بنظريات، وتلقوا منه أحكاماً، ولم يتلقـــوا فيه عقائد... ويرى بعد أن فتح المسلمون بلاد غيرهم، وجدوا أمامهم علم عقائد نصراني متكامل البناء، كما وجدوا أمامهم مذاهب أصحـــاب زرادشت، ومذاهب البراهمة،... إن مذاهـــب المتكلمين الاعتقادية تأثرت بعوامـــل نصرانية أبلـــغ التأثر ولاسيّما الملكانية واليعاقبة فـــي دمشق، كما تأثرت بالمذاهب النسطوريـــة الغنوصية في البصرة... ومما تُرجم من الكتب، فتضافرت المؤثرات النصرانية المصطبغة بالفلسفة اليونانية»(١٧).

ونرى بالمقابل المؤرخ المصري **أحمد أمين** (١٨٨٦ – ١٩٥٤م) يُرجع منشأ البحوث ذات الطابـــع العقلي «الفلسفي» المتركز –فيما بعد – بعلـــم الكلام إلى المصدر الأول في الحياة السياسيـــة العربية، ثم أسهمت العوامل الخارجية في تطويره «وأحياناً يحكي القول من أقوال الفـــرق المختلفـــة، على أنه مذهب ديني بحت، ومسألة عقيدة صرف، مع أنّنا لو دققنا النظر في أصلها، لوجدناه سياسياً صرفاً كمرتكب الكبيرة أكافر أم مؤمن؟ فالظاهر أن بحثها لم يكن بحثاً لاهوتياً بحتاً، وإنما منشؤها حكم الأحزاب السياسية بعضها على بعض»(١٨).

ومن خلال المباحث الغربية تتولد قناعة مؤداها: أن الفلسفة التي كتبت بالعربية، ونشأت في الشرق – بغداد، والبصرة، والكوفة، والقيروان، وقرطبة – إنما نشأت تحت تأثير اللاهوت المسيحـــي الشرقي، وتحت تأثير الترجمة عن اليونانيـــة، ويغفل معظم أصحاب هذا الاتجاه التطور الذاتي للفكر العربي الإسلامي مقترناً بالدرس اللغوي ولاسيّما البياني منه، وإن رأينا باحثاً غربياً يبحث في سبب آخر، فإنه يجده في «التطور العام للفكر نفسه» أي تفسير الفكر بالفكر «الضرورة الفلسفية للعقل الإنساني».

وهكــذا يفضي التفسير «الخارجي» لمنشأ الفلسفــة إلى إغفال المرجعيات الفكرية التي انطلق منها وهي «القرآن، والاعتزال، واليونان، وأرسطو»، ثم ينشأ عن الإغفال السابق إغفال أعمق وأوسع، خلاصته: هي أن الفلسفة العربية تختزل -كوريث شرعي للأنساق الفكرية في تاريــخ الشرق الأقصــى «هند، فرس» والوسيط «مصر، سوريــة الوثنية، اليونان»- حتى حين قيامها على يد «**الكندي**» ما تقدمها، وهي أي الفلسفة العربية - إذ تلقفت هذا وذاك - قد أعادت بناءه تحت شرط المفاعلة الثقافية للأمم التي شكلت دولة الخلافة العباسية، وبخصوصيتها التاريخيــة، مما جعل المرجعيــات «الخارجية» مجموعة من بنى منصهــرة في بنية واحدة، قوامها «الوحدة والتغاير».

الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحق ٨١٠ - ٨٦٥م

ولد بالكوفة، لأب كان أميراً عليها، تلقى علومه في بغداد والبصرة بالإضافة إلى الكوفة، بدأ حياتــه «متكلماً»، شاكل المعتزلة فــي بعض مسائلهم «العــدل، والتوحيد، والاستطاعة، والنبوّة» ثم انصرف إلى العلوم الدقيقة «الطب، والرياضة، والفلك، والطبيعيات»، وهو أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين، ثم اتخذ من «التأويل» منهجاً للتوفيق بين الوحي والعقل، وخلاصــة مذهبه: «العالم مخلوق لله يفعل فيه فعله بوسائط كثيرة، وأن النفس جوهر بسيط من جوهر الله هبط من عالم العقل إلى عالم الحس»[١٩].

دخل الكندي بغداد مركز الإمبراطورية حيث تلاقت أمم ولغات وشعوب، مما جعل الحركة العلمية تتسع حتى شملت أفراداً وطبقات، وقد نتج عن الاتساع والتصاعد حوارات ومجالات علــى المستويــات كلها، ولاسيّما بين وفــود المذاهب والفرق الإسلاميــة، ومما زاد في نموّ الحركة العلمية ظهــور «الترجمة» المؤسساتية «اليونانيــة، والسريانية، والعربية، والفهلوية» وهــذا كله، وذاك كان يدَّون بـ«العربية» في مؤسسة **بيت الحكمة** «الذي أسس في عهد هارون الرشيد» (٧٨٦ - ٨٠٩ م) ثم تعاظم في عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م).

«وجدير بالقول إنَّ انتباه الكندي لمسألة اللغة عموماً، والعربية على نحو خاص، لم يوظفه فــي خدمة الاطلاع على ثقافاتٍ غيــر العربية فحسب، إذ تتاح لــه إمكانيات المقارنة بينها وبين هذه الأخيرة، والقدرة على التضلع فيها، والنقل عنها وإليها، بل إن الأمر جاوز ذلك إلى محاولة إنتــاج مرجعية لغوية فلسفية باللغة العربية، تستجيب لهذه الأخيرة في سياق البحث في المشكلات والإشكالات الفلسفية العربية»[٢٠].

ومن الجدير التنويه به هو إلحاحه على الرياضيات على أنها طريق الإنسان إلى التفلسف، متقدماً على الإنكليزي **ديفد هيوم** Hume، ١٧١١-١٧٧٦ بتسعة قرون والذي اعتقد أن: «الرياضيات هي الموضوع الوحيد للمعرفة» ولهذا كان يدوّن أبحاثه فيها وفي علوم العصر بلغته، حتى يتأسس نظام التفكير الرياضي بالعربية، ولم يقتصر دوره في تعزيز العربية على تدوين العلوم الدقيقة بها، وإنما دون أيضاً ما نقل من علوم أخرى بالعربية، ولاسيّما ما ترجمه بنفسه عن الفلسفة اليونانية، في سعي حثيث منه لتأسيس معجم فلسفي بالعربية، ولاسيّما في مشكلة «المصطلح»، ثم أولى «المقارنة» بين اللغتين: العربية واليونانية اهتماماً دقيقاً، ثم أتبعه بـ«مقارنة» نظيرة بين العبرية والسريانية، وفي هذا يقول المفكر **الطيب تيزيني**: «تبرز مسألة ثالثة... كان على الكندي أن يواجهها، ويجيب عن أسئلتها، بحيث ظهر -هنا - كما في المسألتين السابقتين «التحليل التاريخي والبنيوي» دوره الريادي، ونعني بذلك مسألة **المعجمية اللغوية** للمنظومة الجديدة «الفلسفة»، وهي مهمة دقيقة تتصل بقضية «اللغة الفلسفية» التي أضحت من المهمات المطروحة على بساط البحث أمام «فيلسوف العرب»، وهي مهمة بالغة الأهمية باعتبارين: واحد باتجاه الاستقلال عن اللغة «الدينية» ذات الشحنة الإيمانية والوعظية والذاتية، وآخر باتجاه تكوين اللغة الفلسفية الموضوعية والإشكالية «التشككية» وذات البعد العمومي»[٢١].

ولعل أبرز ما فعله -لغوياً- إقدامه على الاشتقاقات اللغوية الجديدة، التي تجاوزت منظومة الاشتقاق عند اللغويين، ولاسيّما ضمن نظرية الوجود «الأنطولوجيا»، وهي نظرية تتاخم عدداً غير قليل من ألوان الفكر ومشكلاته، وأهمها «الصورة، المادة»، ثم «المكان، الزمان»، «السكون، الحركة»، فقد كتب الكندي في إحدى رسائله «إن الفعل الحقيقي تأييس الأيسات عن ليس، وهذا الفعل يبين أنه خاصة لله تعالى الذي هو غاية كل علة، فإن التأييس عن ليس، ليس لغيره، وهذا الفعل هو المخصوص باسم الإبداع»[٢٢].

ومن المقدمات التي أفضت إلى بروز «**الكندي**» كظاهرة دالة على النشوء «الداخلي» للفلسفة العربية، ظاهرة العالم التجريبي **جابر بن حيان** (٧٢٤ - ٨٠٤م)، وبعضهم يرى أنه توفي عام (٨١٥م) في «طوس» من أعمال خراسان، وكان - كما يروي **هنري كوربان** Kourban - كيميائياً، وتلميذاً للإمام السادس، ثم أدرك الإمام «علي الرضا» وصار من أتباعه[٢٣]، ولعل أهميته تكمن في تلاقي بنيتين في بنية واحدة، الأولى هي **التجريب**، والثانية هي **العقيدة** أو الأيديولوجيا الدينية، وهذا ما يشير إلى إمكانية التأسيس «للتفلسف»، بلغة هارمونية بين الكيمياء ورؤية العالم

رؤية شمولية، وقد تشخص هذا في مؤلفه «الخواص الكبير» إذ يكتب «العلة الأولى» هي العقل، والعقل هو العلم، والميزان هو العلم، فكل فلسفة وعلم ميزان، فكأن الميزان جنس، والفلسفة فرع تنطوي تحته هي وكل ما يتصل بها ويرى **كوربان** أن عند «**جابر**» نمطاً من الغنوصية اللاعقلانية الــذي يرى أن «الحروف الهجائية» - لأنّها في أساســ الخلق- تمثل تجسيماً أو تجسيداً للكلام الإلهي «ويبدو أن جابراً ركز على العقل في منظومته الفكرية إلى جانب التأويل»[٢٤].

ولــم يكن **ابن حيان** ولا غيره، من علماء دولة الخلافة وفلاسفتها ونقادها ولغوييها بقادر على أن يتجاوز الوضعية الشرعية، وإنما قوي **ابن حيان** -مؤسساً لما بعده- على خيار نظري عقلــي وجودي ومعرفي في مقابل «الشريعة النقلية»، وللتأويل عنده وظيفة إشكالية. أساسها رفضــ الموقف النقدي القائم علــى الشك، والقائم على تجــاوز «المطلقات»، ولذلك حمّل التأويــل «الثنائية» بل انطلق منه ليظهر وجهي المسألة: الظاهر والباطن، وقد تجلى هذا في كتابه «الميزان» الذي أسهم فيه أيضاً في التأسيس للفكر والكتابة الموسوعيين، ويعد الكتاب المذكــور -منهجيــاً- تأسيساً آخر ونعني «فلسفة العلم»، إذ يبــدأ من الكيمياء ليدخل عوالم الفلسفة، ولكن بأداة ناضجة هي «العربية» التي باتت تختزن مفردات جديدة، وأنماطاً تعبيرية تفارق أنماط «الشعرية» و«البلاغية»، ومن خلال وحدة الفلسفة والكيمياء أكد وحدة العالم من خلال وجهي العالم: ظاهره وباطنه، من حيث كل منهما وجه للآخر.

ولم يكن ابن حيان مبتدعاً لـ«الثنائية» بين الظاهر والباطن ونظيرهما الفلسفة والكيمياء، وإنمــا مهد له «النقلة»، ونعني مجموعة من الفلاسفة من ذوي الشأن عند الوزراء والأمراء أو الخلفاء الذين ترجموا الفلسفة والطب بتوجيه من أصحاب الأمر، ولعل علم **الطب** هو العلم الذي استأثروا به، ومن اللافت أن «النقلة» ظلوا على نصرانيتهم، ومن الثنائيات التي عرضوا لها، واستحوذت على قسط من أزمنتهم البحثية ثنائية «**النفس، الروح**»، فكتب **قسطا بن لوقا** رسالــة في الفرق بين النفس والــروح، ترجمت إلى اللاتينية، والروح عنده جسم لطيف مقرّه التجويــف الأيسر من القلب، ومن هذا المكان تمد جسم الإنسان كله بالحياة، وتعطيه القدرة على الحركة والحســ، وكلما كان الروح رقيقاً لطيفاً صافياً كان صاحبه عاقلاً مفكراً سائساً مدبراً مميزاً، وعلى هذا تتفق كلمة الفلاسفة جميعاً، أما النفس فقد اختلف في أمرها أجلّاء الفلاسفة، وأياً ما كان الأمر فالنفس ليست جسماً، لأنها تقبل أشد الكيفيات تضاداً في وقت واحد، وهي جوهر غير مركب، كما أنها لا تستحيل ولا تبطل بمفارقة البدن، كما يقع للروح؛ أما الروح فهي وساطة بين النفس والبدن، وهي علة ثانية في الحركة والحس»[٢٥].

وعلى الرغم من هذا، فإن الفلاسفة - في طور لاحق- فارقوا رؤية الكيميائيين واللغويين، والمفارقة فرضت على اللغة التوسع من «الداخل» استجابة لمؤثرات جديدة قادمة من مصدرين: الأول هو الترجمة المتنامية، والثاني نموّ الدرس **الفلسفي** على حساب جمود الدرس البلاغي وتعقيداته ولاسيّما في مطلع القرن الهجري الثالث، وفي الوقت الذي تأسست العلاقة فيه بين الكيمياء والحكمة الفلسفية على يد جابر بن حيان كانت «اللغة» تغادر أقبيتها الخاصة، لتلتحق بالعلم الجديد، ولاسيّما في كتابه «المعرفة بالصفة الإلهية والحكمة الفلسفية»، فقد جاء في الكتاب قوله: «يظن بعض الناس خطأً أنه عندما يتحد الزئبق والكبريت، تتكون مادة جديدة في كلتيهما والحقيقة أنّ هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما، وكل ما حدث لهما أنهما تجزأتا إلى دقائق صغيرة، وامتزجت هذه الدقائق بعضها ببعض، فأصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينها، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب، ولو كان في مقدرتنا الحصول على وسيلة تفرق بين دقائق النوعين، لأدركنا أن كلاً منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة، ولم تتأثر مطلقاً»(٢٦).

ومن اللافت انشغال **ابن حيان** بمسألة **اقتصادية** وهي «تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة» منطلقاً من إرث الحضارات السابقة على دولة الخلافة، والتي كانت تجد في المعادن القابلة للسحب والطرق «ذهب، وفضة، ونحاس، وقصدير، ورصاص» من نوع واحد، لأن تباينها نابع من ظاهرتي الحرارة والبرودة، والجفاف والرطوبة، الكامنة فيها، وهي أعراض متغيرة «حسب نظرية العناصر الأربعة: الهواء، والنار، والماء، والتراب» إذ يمكن تحويل هذه المعادن بوساطة مادة ثالثة هي «الإكسير»(٢٧).

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر إذ نشطت الحركة العلمية تُرجِمت مؤلفات **جابر بن حيان** إلى اللاتينية، ومنها إلى الإنجليزية (١٦٧٨م)، وكان لها أثر كبير في تطوير علم الكيمياء الأوروبي، ويعترف بهذا العالم الألماني **ماكس مايرهوف**، مشيراً إلى كثرة المصطلحات التي ابتكرها، والتي ما تزال مستعملة في مختلف اللغات الأوروبية(٢٨).

وفي المرحلة التي نشطت فيها العقلية التجريبية، كانت «الشعرية» قائمة ومستمرة، وذلك لأنها تشكل احتياجاً لدولة الخلافة والدويلات الطرفية الناتجة عنها، ولكن نشأ شعراء من طبيعة الثقافة التركيبية للعصر، حاولوا الانفصال عن «السلطة» لتأسيس «فلسفة» خاصة بهم، وما هي بفلسفة بالمعنى الاصطلاحي، ولكنها «شعرية» متثاقفة، بدأت كظاهرة فردية من خلال **أبي تمام** (٧٨٨ - ٨٤٥) ثم استقرت من خلال **المعري**.

المعري شاعر نظير التفلسف ٩٧٣ – ١٠٥٨م

من طبيعة الذهنية التأريخية عند العرب «الإطلاقية»، ولاسيّما في خلع اللقب على الشاعر أو خلعه عنه، فذهبت تلك الذهنية إلى التقوّل «المعري فيلسوف الشعراء، وشاعر الفلاسفة»، وربما كان هذا ناتجاً عن تقدم **المعري** على الشعراء في مشكلة المعرفة، ومتقدماً أيضاً في صناعة الشعر «اللزوميات» التي أظهر فيها قدرات ذاتية في اللغة وشؤونها، واستثمار المعجم العربي بشكل يكاد يكون فريداً.

وينفـــي **دي بـور** De bor أن يكون **المعري** فيلسوفاً «غالــى بعضهم في رفع شأن المعري، فعـــدوه شاعراً فيلسوفاً، وجعلوه في مكانـــة لا يستحقها، نعم عنده أشعار خليقة بكل احترام، ولكنهـــا ليست فلسفة، وليس القالب الذي صيغت فيـــه بفلسفة كذلك، وفي كثير من الأحيان لا يبعـــد عـــن التعبيرات العادية، التـــي لا تسمو إلى منزلـــة الشعر،... ولـــم يستطع أن يأتي بجديد»[٢٩].

مـــن الواضح أن «**دي بور**» قد اطلع على الإنتاج الشعري للعربي، ولم يعاين إنتاجه النثري، ولاسيّمـــا في «رسالة الغفران»، وهنا يبدو الانقطاع بين «اللزوميات» التي لا يقوى المستعرب أو المستشرق على تقبلها أو تذوقها، والشعر الذي نظمه المعري من «سقط الزند» من جهة، ومؤلفاتـــه النثرية من جهة أخرى، والتي -كما نرى- فرضت لغة من خلال الفكرانية، لم تكن أنظمة الشعر لتتوصل إليها.

ومن التفلسف بالشعر إلى «التأريخ» يبدأ **المسعودي** ت (٣٤٦ – ٩٥٦م) من خلال مصنعه «مروج الذهب..» بما هو عنده «العلم الجامع» الذي يبين حقيقة ما كان وما هو كائن،... لولا التاريـــخ لبادت آثـــار العلوم منذ زمان بعيد، لأن العلماء عرضة للزوال، ولكن التاريخ هو الذي يدوّن ما تجود به عقولهم، فيحفظ صلة الماضي بالحاضر[٣٠].

وتبـــدو «مروج المسعودي» – فـــي جانب من جوانبه – مراجعـــة نقدية لمدوّن **الجاحظ** (٢٥٥هـــ–٨٧٥م) المعروف «**الحيوان**»، وكأنـــه أراد أن يصرم طوق اللغويين وأرباب البيان عن العلوم الأخرى، يقول عن الجاحظ: «لم يسلك البحار ولا أكثر من الأسفار، ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل، ينقل من كتب الورّاقين»[٣١].

وعلى الرغم من قرب منهجية **الجاحظ** في «الحيوان» التجريبية، من منهجية **المسعودي** القائمـــة على التنقيـــب والبرهانية، فإن **المســعودي** أراد أن ينقطع الحبل البياني الذي يمثله

الجاحظ، لتبدأ مرحلة «المؤرخ» الذي زعم **المسعودي** أنها تقوم على التعريف بالأسس العلمية والموضوعيــة، ومــن يغفل عنها فقد استحق أن يُنتقد، ولعل هــذه الظاهرة، انتقادية المؤرخ للبيانــيّ قد سوغ لها المسعــودي، ولكنها بلغت كمالها على يد **ابن الطقطقي** ت «٧٠٩هـ» من خلال مصنفه المعروف «الفخري في الآداب السلطانية» وقد قدم له بقوله: «التزمت أمرين: أحدهمــا: ألا أميل إلا مع الحق، وأن أعــزل سلطان الهوى، وأخرج من حكم المنشأ والمربى، وثانيها: أن أعبر عن المعاني بعبارات واضحة تقرب من الأفهام، فطالما رأيت مصنفي الكتب قد اعترضتهم محبة إظهار الفصاحة والبلاغة، فخفيت أغراضهم واعتاصت معانيهم، فقلّت الفائدة بمصنفاتهم»[٣٢].

وهذا الرأي الناقد لا يقف عند لغوي بعينه، وإنما يشمل أعمال البيانيين والشعراء ومصنفي الكتــب البلاغية ومــن مظاهر تقدم الفكر باللغة ظهور «الجوامــع التاريخية المتقدمة»، وفي مقدمة روادها **أحمد بن أبي يعقوب إسحق بن جعفر المعروف باليعقوبي** ت (٢٩٢ هـ-٩٠٥م) وتبــدو مؤلفاته عديــدة دالة على الشمولية مبتدئــاً من قصة الخلق إلى عهــده، وأهم كتبه «التاريخ والبلدان ومشاكلة الناس لزمانهم»، والأخير يعد «بادئة التفكير الفلسفي للتاريخ، وأن فكرتــه عن التاريخ قد جاءت قريبة من الأفكار الحديثة، وتقوم فكرته على أن المسلمين في كل عصرهم تُبّــع للخليفة، يسلكون سبيله ويذهبون مذاهبه، ويعملون على قدر ما يرون منه، ولا يخرجون على أخلاقه وأفعاله وأقواله»[٣٣].

ومــن أهم مــا نلحظه في مؤلفات **اليعقوبــي**، اتباعه الأسلوب العلمــي الدقيق، نائياً عن عيبين في الكتابة العربية هما: الإسهاب والاستطراد برواية الأشعار، فقد أهمل الشعر، وكأنه يــرى فيه انحرافــاً عن إدراك الحقائق، يقول: «وجعلناه كتابــاً مختصراً، حذفنا منه الأشعار وتطويل الأخبار»[٣٤].

إخوان الصفا- القرن الرابع الهجري- ظاهرة فيلولوجية باكرة

جماعــة فكرية سياسية، تأسست مطلع القرن الهجري الرابع، وهم يعرفون الآخر بذواتهم وبمشروعهــم: «نحن أهل العدل وأبناء الحمــد، عصابة تألفت بالعِشرة والصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، وذلك بالبصرة، والمشروع هو تطهير الشريعة من الجهالات بالفلسفــة، معتقدين أنه متى انتظمــت الفلسفة اليونانية والشريعــة الإسلامية، فقد حصل الكمال»[٣٥].

وبما أنهم مشروع جماعي، فقد طالت رسائلهم شتى علوم عصرهم، ومنها اللغة «اعلم أخي أن المنطق مشتق من نطق، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية، وهذا الفعل نوعان: فكري ولفظي، فاللفظي أمر جسماني محسوس، والفكري أمر روحاني معقول، والكلام على كيفية تصاريفه، وما يدل عليه من المعاني، يسمى علم المنطق اللغوي، وأما المنطق الفكري فهو تصور النفس معاني الأشياء نفسها، ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها، وتمييزها لها في فكرتها، وبهذا النطق يُحد الإنسان، فيقال: «إنه حيّ ناطق مائت»[٣٦].

لم يبتعد «**الإخوان**» هنا عن **أرسطو**، حين قال: «الإنسان حيوان ناطق» ولكن «الإخوان» يفصلون بين موت الإنسان الحاصل في الجسد، وحياته القائمة بـ«النفس» والإنسان واقع على الاثنين، ومن دون أن يغفلوا عن «اللغة» بوصفها «الملكة العليا» من ممتلكات الإنسان، ثم يمضي **الإخوان** للتوصيل بين اللغة والفكر، معتمدين على مقدماتهم في «علم المنطق اللغوي» و«علم المنطق الفلسفي» والربط بين الفكر واللغة إنما يقوم على معرفة كيفية إدراك النفس معاني الموجودات في ذاتها بطريقة الحواس، وكيفية انقداح المعاني في فكرها من جهة العقل الذي يسمى الوحي والإلهام، وعبارتها عنها بألفاظ «بأي لغة كانت»[٣٧].

ينطلق **إخوان الصفا** من فكرة التأسيس اللاهوتي التي تتحدد «إنَّ الله مبدع الوجود الذي كان ولم يكن قبله موجود والذي يقبل منه فيض الوجود فسبحان من موجوده قابل لوجوده مُقرّ بوجوده»[٣٨].

تبدو أهمية العقل في الترتيب «الفيضي» على خلاف ما أكده **أبو بكر الرازي** (٨٦٤-٩٢٣م) من أن جميع البشر مؤهلون لمعرفة أدق شؤون الكون، إذا ما انصرفوا إلى تحصيل ذلك، فإن **إخوان الصفا** يصرحون على ذلك، واعتقادهم بأن «الحقيقة» إنما هي أمر ينتمي إلى أهل «البيت»...[٣٩] وفي غياب الحوار يقررون في الرسالة الجامعة تحت عنوان في رسالة كيفية الدعوة: «إن لنا كتباً لا يقف قراءتها غيرنا، ولا يطّلع على حقيقتها غيرنا، ولا يعلمها الناس إلا من قبلنا، ولا يتعلم قراءتها إلا مَن علّمناه، ولا يعرف صور حروفها إلا من عرّفناه، وهي صور الموجودات بما هي عليه الآن... ولنا علم آخر لا يشاركنا فيه غيرنا، ولا يفهمه سوانا»[٤٠].

وإن كانت ظاهرة **إخوان الصفا** تتجاوز الأبعاد الفردية إلى الأبعاد المؤسساتية، فإنها - كما رأى المفكر **حسين مروة** في مصنفه النزعات المادية - ظاهرة عصر بكامله، وكان

لهـم فضل واضح في نشر الأفكار النيرة فـي عامة المتعلمين، وفي الوقت نفسه أدى دورهم التنويـري إلـى الانتقال من الأحادية اللاهوتيـة إلى التعددية المعرفيـة، ولاسيّما في علوم الطبيعـة والإناسة، وفي الوقت نفسـه عززت رسائلهم «النخبيـة» المعرفية على أنها إحدى ضرائـر التطـور العلمي، ولاسيّما فـي عصر المثاقفة الأممية، وقد تكـون - على الأرجح- طلائعها بدأت مع الحكام العباسيين «المنصور، والرشيد، والمأمون» حين فكروا بشكل جدي بنقـل العلوم التي ليست موجودة عند العرب، من ثقافات الأمـم والشعوب الأخرى «الفرس، واليونان، والهنود» إلى اللغة العربية، إذ أصبح هذا العلم «**الترجمة**» يشكل حركة كاملة أو ظاهرة اجتماعية فكرية عامة»[٤١].

كان مشروع الترجمة يتم كخطوة أولى نقلاً عن مدرسة جنديسابور الساسانية، ولم تتوقف عمليـة النقل عن الأمـم الأخرى، التي أودعت علومها في المدرسـة المذكورة، ومن الجدير الانتبـاه إليه أن «نقل العلـوم العالمية إلى العربية» كان يلبي حاجـات كثيرة أهمها: الحاجة **الاجتماعيـة** التي شغلت بها الخاصة، والخاصة أشغلـت العامة بالممكن منها، وفي المقابل هيّـأت المجتمع لتقبل الأجناسـ الوافدة، ثم فرضت على الفئات التي لـم تلتحق بالمسائل المعرفية الانخراط في العمل «مهن - حرف» في المدن، وزراعة ورعي في الأرياف والبوادي، وأمـا الحاجة الأخرى فكانت حاجة **سلطوية**، هيّأت للقوى الحاكمة إمكانية الارتقاء والتمتع علـى المستويين: المادي والعلمي، وتبـدو تجربة المأمون مع فئة العلمـاء شاهداً حياً على ذلـك، وفي هذا المستـوى أضحت دولة الخلافة العباسية **نظراً** لملـوك أوروبا القروسطوية الذيـن ضموا إلى جانبهم كبار الملاك وأرباب الفكر والفن ومبدعي الأعمال الأدبية الكبرى، وكمـا تشكلت «اللغة اللاتينية» كلغة أممية كتبت فيها ثقافات التحولات المسيحية ونصوصها «المقدسـة» ثم صارت لغة العالم الغربي على الصعيد الآخـر، وهو الصعيد العلمي، فكتبت بهـا الآداب والفلسفات، ثم غدت مصدراً للغات التي انبثقت عنها كذلك تشكلت العربية كلغة لنصوصـ «مقدسة» وكلغة لمدونات دولة الخلافـة بنوعيها: النصية والمفهومية، ثم اختزنت معـارف الأمم التي ترجم لها إلـى العربية كالهند والفرس والإغريق، ثم مارست دور الوسيط الثقافي بيـن التأسيسات اليونانية وأوروبا النهضة، ثم استقرت استقرار السكون الذي يجلب معـه «التنحي» ما لم يبدأ المثقفون العرب مشروعاً جديداً يواجه السكون بالحراك المنهجي على قاعدتي: الترجمة والإبداع.

الهوامش

(١)- د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة، ط ٤، ١٩٨٩م، ص ٧٦.

(٢)- نقلاً عن المصدر السابق، ص٧٧.

(٣)- الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء الروس، دار الطليعة، ط ٢، ١٩٨٠م، ص٥٥٧.

(٤)- آدم شاف، اللغة والمعرفة، باريس ١٩٥٧م، ص ٦.

(٥)- غاي دويتشر، عبر منظار اللغة، ترجمة: حنان عبد المحسن مطفر، عالم المعرفة الكويت، ع ٤٢٩، ص١٨.

(٦)- فرنسيس بيكون، في الاستقامة والتبحر العلمي، ١٩٢٣م، ج٦، ص٤١٥.

(٧)- ج لوكاتش، تحطيم العقل، ترجمة: الياس مرقص، دار الحقيقة، ١٩٨٣م، ط٢، ج٤، ص١٧٤.

(٨)-الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص١٩٢.

(٩)- عبر منظار اللغة، مصدر سابق، ص٤٤.

(١٠)- عبر منظار اللغة، مصدر سابق، ص٢٢.

(١١)- د.زكي نجيب محمود، حماة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، ١٩٨٧م، ط٣، ص٤٠ و٤١.

(١٢)- جون ميللر، أسس الثورة الأمريكية، ترجمة: زكي نجيب محمود، ص١٧٠.

(١٣)- جاك لوك، رسالة عن التسامح، ص١٨٦.

(١٤)- دراسات في تاريخ الثقافة العربية، أنس خالدوف، ترجمة: أيمن أبوشو، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م، ص٦٦.

(١٥)- المصدر السابق، ص٦٨.

(١٦)- غرياز زنيفيتش، تطور الوعي التاريخي عند العرب، بين القرن السادس والثامن، موسكو ١٩٨٩م، ص٧٤.

(١٧)- تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية ١٩٨١م، ط٥، ص٩٣.

(١٨)- ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٤٩م، ج٢، ط٤، ص٢ و٣.

(١٩)- للاستزادة، راجع الموسوعة العربية الميسرة، ١٤٨١، القاهرة ١٩٨٦م، ج٢.

(٢٠)- الطيب تيزيني، من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الوسيطة، وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٥م، ج٢، ص٦٢.

(٢١)- المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٢)- المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٣)- تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة: مروة وقبيس، بيروت ١٩٦٦م، ص٢٠٤.

(٢٤)- الطيب تيزيني، من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الوسيطة، مصدر سابق، ص٥٧.

(٢٥)- دي بوز، تاريخ الفلسفة في الإسلام، مصدر سابق، ط٥، ص٣٩ و٤٠.

(٢٦)- الأسماء والطبائع والأشياء، جابر بن حيان الكيميائي، ١٩٥٥م.

(٢٧)- راجع، الفلسفة الإسلامية لهنري كوربان، مصدر سابق، ٢٠٢ - ٢٤٢.

(٢٨)- راجع الأعلام للزركلي، بيروت، ١٩٧٠، ج٣.

(٢٩)- تاريخ الفلسفة في الإسلام، مصدر سابق، ص١٣٣.

(٣٠)- تاريخ الفلسفة في الإسلام، مصدر سابق، ص١٣٧.

(٣١)- مروج الذهب ط١، مؤسسة الأعلمي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ١٩٩٤م، ج١٠٧.

(٣٢)- أخذنا الشاهد من «علم التاريخ ومناهج المؤرخين» د صائب عبد الحميد، مؤسسة الغدير، ط٢، ٢٠٠٨م، ص٦٩ و٧٠.

(٣٣)- ياسين علي إبراهيم الجعفري، اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، ٤٦، والجزء الثاني من النص أخذه المؤلف س «مشاكلة الناس لزمانهم»، ص ٤٥.

(٣٤)- تاريخ اليعقوبي، كما أورده صاحب علم التاريخ ومناهج المؤرخين، مصدر سابق، ص١٧٥.

(٣٥)- أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٤.

(٣٦)- الرسائل، طبعة بيروت ١٩٥٧م، ج٣ الرسالة ١٧ في اشتقاق المنطق.

(٣٧)- المصدر السابق، ج٣.

(٣٨)- الرسالة الجامعة، ج١، ص ٢٤.

(٣٩)- المصدر السابق.

(٤٠)- الطيب تيزيني، الفلسفة العربية الوسيطة، ج٢ ، مصدر سابق، ص١٣٦.

(٤١)- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، حسين مروة، دار الفارابي، ١٩٨١م، ط٤، ج٢، ص٤٥٦.

الإعلام وحرب اللغات

ديب علي حسن

ثمة خراب لغوي لا يمكن لأي أحد أن ينكره، نراه يمضي قدماً، يعيث فساداً، يضعف لغتنا ويصبُّ شئنا أم أبينا بخانة الحروب اللغوية والثقافية التي تحدَّثنا عنها كثيراً، لكن لا حياة لمن تنادي، العالم الغربي سنّ تشريعات وقوانين لحماية لغاته، وعمل على تطبيقها، وفرض عقوبات على من يهمل اللغة أو يعمل على إضعافها، واستطاع أن يحصن لغاته من خلال العلم والمعرفة، وتسييجها بالتشريعات اللازمة لذلك، فاللغة هي وعاء الحضارة والفكر، تراث الماضي وسجل الحاضر نحو الغد، واليوم ونحن نجابه الحروب ضدنا من كل حدب وصوب ما أحوجنا أن نتنبَّه إلى ما يجري حولنا، ما يصيب لغتنا من عنت ومحاولات إضعاف، ولعله من المفيد ونحن نحلم باستعادة الماضي المجيد أن نذكِّر بما قاله محمد حسنين هيكل ذات يوم ففي الحوار الذي أجري معه (نشرته السفير) يقول المحاور: سألنا الأستاذ هيكل: هل أمريكا أعظم إمبراطورية في تاريخ البشرية؟ فأجاب قائلاً:

«لا، أبداً. إنكلترا هي أعظم وأكبر. في النفوذ والاقتصاد والتحول والعصر الصناعي. هي نشأت في وقت مثالي. مرحلة التجارة والصناعة والبحر. لا إمبراطورية وافقت زمنها وعصرها بقدر الإمبراطورية البريطانية. أمريكا قوية جداً لكن «ده كلام ساكت» كما يقولون. الحقيقة أن الإمبراطورية الحقيقية في التاريخ بعد الإمبراطورية الرومانية هي الإمبراطورية البريطانية... لكل إمبراطورية نهاية بالسيطرة ولكن ليس بالنفوذ. الإمبراطورية البريطانية

باقيـة بقـوة ما دامـت اللغة الإنكليزيـة باقية. الإنكليزية صـارت لغـة التكنولوجيا وهذا من حظهم. الإمبراطورية باقية باللغة. ليس بالضـرورة أنْ تبقى بالقواعد والجغرافيا. يجب أن نسلم أن الإمبراطوريتيـن البريطانية والرومانية هما نموذجـان مهمان ومختلفان تاريخياً. الوعـاء لـكل حاجـة هو اللغـة. حظ الإنكليـز أن الثـورة التكنولوجيـة قد منعت سـقوطهم. فالإنكليزية هي اللغة المعتمدة في وسـائل التواصـل والتقنيات والإعلام واللغة السائدة هي اللغة الإنكليزية. قلت مرة لمارغريت تاتشـر: أنتم فقدتم إمبراطورية في الجغرافيا ولكنكم وجدتم إمبراطورية في اللغة. قالت لي: ما أصح هذا الكلام!».

هذا مـا قاله هيكل، وهو حقيقة واقعة لا مناص من الاعتراف بها، فاللغة الإنكليزية هي الآن الإمبراطوريـة الأكثر انتشاراً واتساعاً، مـا جعل أحد القادة البريطانيين يقول ذات يوم: إن استدعى الأمر فإن بريطانيا تتنازل عن إمبراطوريتها ولا تتنازل عن **شكسـبير**، وهذا يعني تحصيل حاصل أن شكسبير درة اللغة الإنكليزية، ومخزنها اللغوي، (الإمبراطورية الإنكليزية)، ولأن اللغة الحامل الأساس للفكر، فما تريده بريطانيا سيجد وبطريقة سلسة دروباً إلى العقول والقلوب.

ولا نأتـي بجديد إذا ما ذكرنا بـأن أجدادنا العرب قد وعوا هـذه الأهمية للغة، وانكبوا على جمع مفرداتها في قواميس ومعجمات، وضعوا النحو ودرسوا خصائص اللغة وأساليبها، يضاف إلى ذلك وعيهم بضرورة معرفة اللغات الأخرى وخلصوا هذا الوعي بالقول: مَنْ عرف لغـة القوم أمن شرهم، والشر هنا يمكن أن نوزعه إلى مفـردات واسعة ومهمة، ونضيف إلى القول أيضاً: كسب علومهم ومعارفهم ومهاراتهم.

وإذا مـا استعرضنا بعضاً مما قيل باللغة العربيـة ودلل على وعي لغوي مبكر وعلى سعة الرؤيـا والاستشـراف فإننا نقف عند بعض ما قاله الأوائل من جيـل الفصاحة والبيان، فها هـو **أبو بكر الصـديق** يقول: لئن أقرأ فأسقط أحبُّ إلي مـن أن أقرأ فألحن، وبدوره **عمر بن الخطاب** يقول: تعلّموا العربية فإنها من دينكم، وكان **علي بن أبي طالب** أول من دفع أبا الأسود الدؤلي إلى وضع علم النحو من أجل ضبط إيقاع اللغة وصونها بعد أن شاع فيها اللحن.

والعالـم **البيروني** يقول: والله لئن أهجى بالعربية أحب إلي من أنْ أمدح بالفارسية، وهذا ليـس من باب التعصب والشوفينية أبداً، إنما لأن اللغـة العربية كانت حينذاك لغة المعارف والعلوم والابتكارات.

هــذا الوعــي، ليس حكراً على العرب الذين صانوا لغتهــم وحموها، إنما هو زرع عالمي، فالغرب الذي يحتكر الآن العلوم والمعارف ويقدِّم نفسه المركز والمحور لكل العلوم والمعارف عمل على نشر الوعي اللغوي والاعتزاز باللغة التي تتكلمها كل دولة غربية بحد ذاتها بعد أن تمزقت اللاتينية وصارت أشلاء ولغات.

يــرى **فيختــه** أنّ: (اللغة تجعل مــن الأمة الناطقة بها كلاً متراصــاً خاضعاً لقوانين، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم من الأجسام وعالم الأذهان).

أما **فوسلر** فيذهــب أبعد من ذلك إذ يرى أنَّ: (اللغة القومية وطــن يؤوي مَنْ حُرِمَ وطنه على الأرض).

نعــم اللغة وطن، ومن تنقطع أسباب صلته بلغته فَقَــدَ وطنه، وقيمه ومعارفه وتراثه وأعز ما يملك، من معارف وعلوم وغير ذلك، لذا فإن من يهاجر إلى بلد لا يعرف لغته، تجده تائهاً في محيط **لجّي** من الحيرة والاغتراب إلى أنْ يتعلّم شيئاً من لغة الوطن المهاجر إليه وتبقى لغته الأصل والأم ملاذه الحقيقي.

وربما من الفائدة بمكان أن نذكر أن مجلس الثورة الفرنسية دعا مواطنيه إلى توحيد اللغة الفرنسيــة والقضاء على اللهجات وجعلها لغة واحــدة (اللغة حارسة الإيمان كونوا مسيحيين صالحين وناطقين بالفرنسية).

أيــد هذا الموقف الراهب **غريغوري** الذي دعــا إلى تسليم المواقع الرسمية أي الوظائف العليــا إلى من يحسنون الفرنسية: (إن مبدأ المساواة الــذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة يخالف مبدأ المساواة فيترتب على الثــورة والحالة هذه أن تعالج هذه المشكلــة معالجة جدية، وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين).

استعمار العقل هل يبدأ باستعمار اللغة؟

مَنْ تعلَّم لسان قوم، أمن شرهم، هذا في المأثور الشعبي والتراثي، والكلمة تحيي وتميت، تبنــي وتهدم ترفــع وتحط من القدر، وفي البدء كان الكلمة، فكيف ترانا اليوم نترك الكلمة وقــد تيبَّست وغدت آخر الحصون التي نلوذ بها ومع ذلك لا نحاول رفع بنيان هذا السور إلى الأعلــى كثيراً، ومن يتابع النشاط الاستعماري منــذ أن كان يلاحظ أنه عمل وبشكل كبير على نشر لغته حيث حل وكان يعاقب من يتحدث بغير لسانه، الفرنسة والعثمنة قبلها وقس على ذلك

في كل مراحل الاستعمار، اليوم تغيرت الوسائل ولم يعد الاستعمار عادياً في أساليبه وأدواته فحسب، بل استفاد من كل ما أسسه وعمل عليه سابقاً، لقد أتت أساليبه أكلها وعبر قرون من الزمن وهو يراكم مخططات قادته في النهاية إلى اللحظة التي يستعمر فيها، ويحرك أدواته وهو في بلده لا يحرك جيوشاً ولا معدات عسكرية إلا في الضرورات القصوى وعندما تعجز أدواتــه، فكان استعمار العقل والفكر وعبر المؤسسات الثقافية التي عمل على اختراقها منذ زمن بعيد، وهيَّأ لها من يعملون لتسهيل الأمر.

الكاتــب الإفريقي **نغوجــي واثيونغو**، ناقش هذه القضية فــي كتابه المهم جداً: «تصفية استعمــار العقل»، الصادر عــن دار التكوين بدمشق، وقد ترجمه إلى العربية الشاعر العراقي **سـعدي اليوسـف**، يقول **نغوجي**: «إن حرية رأس المال الغربي والاحتكارات فوق القومية التي تحت مظلته في الاستمرار بسرقة البلدان والشعوب هي حرية محمية اليوم بالأسلحة النووية والاستعمار الذي تقوده الولايات المتحدة يتقدم إلى شعوب الأرض المناضلة وكل الداعين إلى السلام والديمقراطية والاشتراكية بإنذار نهائي: قبول السرقة أو الموت».

والمضطهــدون والمستغلّون في الأرضــ ماضون في تحديهم للتحرر مــن السرقة، لكن السلاح الأكبر الذي أعده الاستعمار وشرع يستخدمه فعلياً كل يوم، ضد ذاك التحدي الجمعي هو القنبلة الثقافية.

القنبلة الثقافية

يقول **نغوجي**: إن الأثر الذي تتركه أو تحدثه قنبلة ثقافية هو إبادة إيمان شعب بأسمائه ولغاتــه وبيئته، وإرثه النضال ووحدتــه وقدراته وفي النهاية إبادة إيمان شعب بنفسه، إنها تجعــل النـاســ ينظرون إلى تاريخهم بوصفه يباباً لا منجز فيــه وتجعلهم يريدون أن ينأوا بأنفسهم عن ذلك اليباب، إنها تجعلهم يريدون أن يتماهوا مع الأبعد عنهم، مثلاً مع لغات شعوب أخرى، لا مع لغتهم هم. إنها تجعلهم يتماهون مع كل ما هو منحط ورجعي، مع كل تلــك القوى التي تحبس ينابيع حياتهم نفسها، بــل إنها تزرع حتى شكوكاً جدية بالصواب الأخلاقــي للنضال، إمكانات الظفر والانتصار ينظر إليها بوصفها أحلاماً مضحكة بعيدة المنال.

والخلاصــة أن النتائج المنتظرة هي اليأســ والتخاذل وإرادة الموت الجمعية، وفي وسط اليبــاب الذي خلّفه الاستعمار يتقدم الاستعمــار بوصفه العلاج الشافي، ويطلب من التابع أن

يغني له ترانيم المديح ذات اللازمة المستمرة (السرقة المقدسة) والحق أن هذه اللازمة تلخّص العقيدة الجديدة للاستعمار.

والواقع الذي تعيشه الآن كثيرٌ من دول العالم التي يتم التدخل في شؤونها ليس إلا نتاجاً لهذه القنبلة التي زُرِعَت وعمل كثيرون على إخفائها، بل إعطائها المزيد من القوة والدفع بإهمال اللغة والثقافة الأصلية، والعمل على شيطنتها بكل الوسائل، من خلال نبش التراث والبحث فيه عن كل ما هو يسيء ولا يمكن قبوله وجعله الأساس لكل شرور الحاضر، ناسبين كل العنف والقتل والموت والدمار إلى ما كان وفي الوقت نفسه يُغَضُّ النظر عما مارسه ومازال المستعمر الغربي بتنويعاته الجديدة كلها يمارسه.

يضاف إلى ذلك اليوم الإعلام الذي وظّف القنبلة الثقافية أفضل توظيف ومن خلال لساننا الذي اخترقه بشكل سلس وسهل، وبدا كما لو أنّه يطوره، ما أحوجنا اليوم إلى قراءة واقعنا الثقافي والاجتماعي بعيداً عن كل المغريات التي تأتينا على شكل إنجازات علمية وفكرية في تراثنا وواقعنا، حقا إنها القنبلة الثقافية التي تبقى شظاياها موجودة في العقول والسلوك، وهي القنبلة الوحيدة التي تكبر كل شظية فيها لتدمّر بلداً، وتفتك بشعب، ولا يمكن القول: إنّها فُكِّكَت إلّا بالعمل على صناعة ثقافية معرفية حقيقية تبدأ من نبض المجتمع وحياته، وتصبُّ في غده مروراً بيومه.

الإعلام واللغة مَنْ يحمل الآخر...؟

منذ أن أطلق حافظ إبراهيم قصيدته الشهيرة (العربية تعاتب أبناءها) ورمى الصحف بما ليس فيها، صار الإعلام دريئة للجميع، الكل يصوب عليه، ويتهمه أنه لم يراع اللغة العربية، بل أضعفها، وبكل الأحوال هي اتهامات في الغالب ينقصها الدليل، ولا ترى إلا جانباً من دور الإعلام، لم تقع على ما قدمه من أجل اللغة، وكيف خلّصها من عقدها، ويباسها وعنت بعض المشتغلين بالبلاغة الصفراء، والنحو المقعر.

اليوم مع تطور وسائل الإعلام وتحول العالم إلى قرية صغيرة بفضل الضخ الإعلامي، يمكن القول بثقة: إن الإعلام فعلاً غدا عاملاً من عوامل ضعف اللغة، لقد شتتها ومزقها، أخذها إلى اتجاهات شتى ولاسيما مواقع التواصل الاجتماعي، وما تحفل به، ومع هذا كله ثمة رأي علمي حصيف يقدّمه واحد من أعضاء مجمع اللغة العربية: الأستاذ **ممدوح خسارة** الباحث والعالم اللغوي، الذي أثرى المكتبة العربية هو والدكتور **محمود السيد** والأستاذ **مازن المبارك**،

بما يجعلنا نطمئن إلى أن للغتنا العربية حرَّاساً من عبقها واخضرارها، لا من المماحكات التي لا تقدِّم شيئاً.

ممدوح خسارة في كتابه الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب، ضمن سلسلة قضايا لغوية، وحمل عنوان: «اللغة العربية بين التشدد والتيسير»، في هذا الكتاب الذي يقع في: (٧٨) صفحة يقول ممدوح حول اللغة العربية: «لقد أدت ثورة الاتصالات والإعلاميات إلى إنشاء القنوات الفضائية العربية العامة والخاصة، وصارت هذه الفضائيات تتسابق في جذب المشاهدين إليها بما تقدمه من برامج حوارية وأنشطة تشاركية، وبما أن الإعلام موجه إلى الجمهور العريض في الوطن العربي، وبكل مستوياته الخاصة والعامة، فقد أصبح المشارك حريصاً على النفاذ إلى أوسع شريحة من العرب، وبما أنه ليس للعرب عامية واحدة بل عاميات محلية، غدا لزاماً على المتحدِّث أو المحاور ألا يتقوقع في زاوية عاميته إذا أراد الوصول إلى أصحاب العاميات الأخرى.

والسبيل إليهم ليس عاميته المحلية لأنهم لا يفهمونها، ولا عاميتهم لأنه لا يعرفها، بل هو التوسل بلغة عربية سليمة وبسيطة يفهمها معظم العامة في الوطن العربي، كما غدا لزاماً على المتحدِّث أو المحاور من الخاصة وللغاية نفسها أن يتبسط في الفصيحة، بل يحاول أن يتملح ويتقرب إلى المشاهدين وغالبيتهم من العامة، بالأمثال والعبارات العامية..

الجانب الآخر

ما وصل إليه أستاذنا الدكتور **ممدوح** نصف الحقيقة علينا أن نبرزها ونعمل على تفعيلها وجعلها حقيقة كاملة على امتداد المشهد اللغوي والتواصل والخطاب الإعلامي، لكن ثمة جانبٌ آخر ليس كذلك، ألا وهو الأثر السيئ للإعلام ولاسيما الفضائي الآن، والدعم الذي يقدّمه لما يسمى برامج الواقع لتقدم برامجها باللهجات العامية، وكان الأستاذ الدكتور **نسيم الخوري** قد درس أثر الإعلام على اللغة العربية، ولاسيما الفضائي بكتابه: «الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية»، واليوم نجدنا بأمس الحاجة لدراسة دور مواقع التواصل الاجتماعي وتأثيرها على اللغة العربية كتابة ولفظاً، وغير ذلك، وكلمة حق تقال: إن الصحافة المكتوبة هي التي أثرت اللغة العربية وخصبتها، وقدمت لها كثيراً، بل إنها عمدت إلى ابتكار زوايا تهتم باللغة وتيسيرها كما فعلت جريدة الثورة، والبعث وتشرين، ومازالت صحيفة الثورة حتى اليوم تقدم زاوية في هذا المجال تحت عنوان (رحلة كلمة).

الأستاذ الدكتور **ممدوح خسارة** ابن الحياة الفاعلة التي تثري اللغة وتقدّم الجانب المضيء والمشرق منها، ويعمل على أن تبقى لغتنا مرنة قادرة على التطور والاستمرارية، يخلص إلى القول:إن لغتنا العربية لغة غنية تتطور كغيرها من اللغات وفق قوانينها وضوابطها الخاصة، وإذا كان بعضنا يرى في هذا التطوّر خروجاً عن معيارية صارمة، فإن التأمل والتروي وحسن المحاكمة والبحث كل ذلك يُفضي غالباً إلى أن ما تحمله لغتنا من خصائص ومزايا يسوغ معظم ما آل إليه التجديد اللغوي، ولا خوف عليها لأنها لغة تحمل في ذاتها عوامل بقائها وتجددها.

وقبل طغيان الفضاء وعوالمه تنبَّه اللغويون السوريون إلى ضرورة عقد ندوات ومؤتمرات تُعنَى بالعلاقة بين اللغة والإعلام وتبحث فيها، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق السبّاق إلى ذلك إذ عقدت ندوة مهمة حول ذلك.

مجلة المعرفة واللغة العربية

قبل ندوات مجمع اللغة العربية، كانت مجلة المعرفة السورية عام (١٩٧٦م) قد خصصت عددها (١٧٨) وهو عدد ممتاز للحديث عن اللغة العربية والعصر تناول سبعة محاور مهمة هي: اللغة العربية والعصر، ومقدمات في التجربة اللغوية، وتحديات في الممارسة، واستجابات نظرية وتطبيقية، ومقارنات في دراسة اللغة، مراجعات، تجربتي مع اللغة، كيف يفكر الكاتب العربي المعاصر باللغة؟

وأكثرها ثراء المحور السادس (تجربتي مع اللغة العربية) إذ قدم فيه شعراء وروائيون شهاداتهم وهم: **سليمان العيسى، وشوقي بغدادي، وأحمد دحبور، وبندر عبد الحميد، وأحمد يوسف داوود، وعبد السلام العجيلي، وهاني الراهب، ورشاد أبو شاور، وصلاح دهني، وعلي عقلة عرسان، وسعد الله ونوس، ووليد إخلاصي، ورياض عصمت.**

هذا المحور الذي كان استفتاء حول اللغة يذكرنا بما طرحته مجلة الهلال عام (١٩٢٣م) وكان الاستفتاء حول مستقبل اللغة العربية، وقد أجاب عنه كتاب وشعراء ومستشرقون، ومن هؤلاء **محمد كرد علي، وخليل مطران، وسليم سركيس، وعيسى معلوف، ومصطفى صادق الرافعي، وجبران خليل جبران، ونقولا حداد،** ومستشرقون منهم: **رتشرد كونهيل، ووليم ورل، والأب لامنس،** وقد فعلت خيراً الهيئة العامة السورية للكتاب إذ جُمِعَت هذه الشهادات بكتاب صدر ضمن سلسلة آفاق ثقافية وحمل رقم (٤٩) عام (٢٠٠٣م)، ونأمل من الهيئة أن تعيد إصدار الكتاب مضافاً إليه ما قدّمته مجلة المعرفة في عددها المتميز عام (١٩٧٦م).

أنت في دمشق...؟

لـو أتيح لك أن تقوم بزيـارة سريعة، سيراً على الأقدام، وتتجول في شوارع دمشق، وتكون المرة الأولى التي تأتيها زائراً، فمن المؤكد أنك سوف تسعى إلى الأماكن والمشيدات والصروح التي أعطت العالم معنى، وصانت الثقافة والتراث العربيين، لن تهمل المكتبة الظاهرية، حيث أقـدم المكتبات، وستبدو أمامك شامخة جامعـة دمشق، وأنت في طريقك إلى مكتبة الأسد، ربما يفاجئك أقدم معهد للحقوق في سورية، وقد تحوَّل إلى مقر لوزارة الثقافة، وكانت النار قد أتت عليه منذ عقد من الزمن.

وإذا مـا غـذذت السير إلى الغرب، ستكون مكتبة الأسد بهيـة نضرة، عالية الجدران ثرة بما فيها، وإلى الشمال منها قرب فرع من بردى ذاب خجلاً مما حل بنا، سيكون هناك مجمع اللغـة العربية، وفي السير على الأقدام، وأنت تستطلع أحياء ومتاجر دمشق سوف ترى وترى، ولن يطول بك الأمر حتى تسترجع كلية الطب التي درسته باللغة العربية، وكان التعريب عملاً سوريـاً جبـاراً، وتعود إلى أقدم مجامـع اللغة العربية وقد كاد يتم القـرن من الزمن، رسالة وعطـاء وبهاء، وقدرة علـى الفعل، وقد يخطر في بالك أن تمضي نحو الأحياء التي يسمونها درة دمشق، تمضي إليها، لا لشيء، إنما لترى كيف يعيش كثيرون، حياة الرغد والترف، لا لأنك سوف تشتري شيئاً جديداً...

هناك حين تصل، معّن ناظريك بما تراه، رخام أبيض، واجهات تزدهي بكل ألوان الزركشة والتجميل، مسافة مئة متر فحسب، سوف تسأل نفسك بعدها: هل أنا في دمشق؟ أين أنا، ما الذي أراه هنا؟ وتمضي في غابة الأسئلة: لماذا ومتى كنا هكذا، من المسؤول عما يجري، من يوقف الكارثة والمذبحة الثقافية واللغوية التي نراها؟

لا بد أنك سوف تسأل، ولن يخطر في بالك أن تقول إننا نحن البسطاء، نحن من نعرف أن اللغة ركن الثقافة وجوهرها، وهـي الحصن الحصين لنا، وتستحضر الذاكرة ما قاله القائد المؤسـس الراحل **حافظ الأسد** عن اللغة العربية: «**لغتنـا العربية هي عنـوان هويتنا، وهي الرابطة بين الناطقين بالضـاد، وهي أهم صـلات الماضـي بالحاضـر والمستقبل، بها نعبر عن ذاتنا، وننشـر في الوطن والعالم نتاج الفكر العربي وننقل إلى أبناء الأمة العربية النتاج الفكري للشعوب الأخرى.**

لسـتم جميعاً مختصـين بتدريس اللغة العربية مادة من مواد المنهاج الدراسـي، ولكنكم جميعـاً مسـؤولون عن الحفـاظ عليها وعلى قواعدها، فلا عجمة ولا ركاكة، بل تركيب سـليم

وفصاحة، مما اشتهرت به أمة العرب»، (حافظ الأسد إلى جماهير المعلمين في عيد المعلم العربي (١٣/ ٣/ ١٩٨٨م).

وتستكمل ما قاله الرئيس **بشار الأسد** محذراً مما يتهددنا، ففي القمة العربية العادية العشرين التي عقدت في دمشق قال: «**أما في الجانب الثقافي والتربوي فأمامنا الكثير من العمل في ظل هجمة خارجية ثقافية خطيرة تؤثر على انتماء الأجيال الناشئة لثقافتهم القومية الأم. والمنطلق لأي إنجاز في هذا المجال هو العمل على تمتين اللغة العربية على المستوى القومي باعتبارها الحامل الرئيسي لثقافتنا وانتمائنا، وذاكرتنا، وفقدانها يعني فقدان التاريخ.. وبالتالي فقدان المستقبل**».

أليس هذا ما جرى وكان، وما يعمل على استكماله... وتستحضر أيضاً ما قاله السيد الرئيس **بشار الأسد** في احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية عام (٢٠٠٨م) إذ قال: «**ولن يستقيم الحديث عن ثقافتنا العربية دون أن تكون لغتنا العربية الأساس المتين... لذلك علينا أن نعلي من شأنها فهي لغة القرآن الكريم، لغة مكتوب بها نصف تاريخ العالم، وتاريخ علمه وأدبه، لغتنا لغة الشعر العظيم والفكر والفلسفة والعلم،، فلا هوية دون لغة، ولا وطن من دون هوية**».

أليس عليك بعد هذا كله أن تسأل: لماذا هذا الخراب اللغوي؟ ومن سورية: **بدوي الجبل، وعمر أبو ريشة، ومحمد كرد علي، وسليمان العيسى**، من أعطى اللغة حيوية ونضارة، أليس السوريون من كانوا وراء اليقظة العربية، ورفضوا التتريك والفرنسة... مالنا اليوم نذهب إلى هذه العجمة بملء إرادتنا، بل بأكثر الأساليب إغراء، وواجهات، وإضاءات وماركات، ومقاه وتعبر شارعاً فرعياً، تظن نفسك أنك خارج العالم العربي، في باريس، أو لندن، أو أي مكان غير دمشق، مئة متر لا أكثر ولا أقل فحسب كان مشوارنا وكان هذا الخراب اللغوي...

وعلى بعد بضع مئات من الأمتار أعرق المراكز الثقافية، وفي دمشق أعرق مجمع للغة العربية، وثمة لجنة للتمكين للغة العربية، وفي سورية أكثر من (٥٠٠) مركز ثقافي وعشرات القصور الثقافية، وفي سورية الثروة الثقافية وكنوز التاريخ، ويأتي بغفلة من الزمن ليفعل ما يفعل...

اللغة العربية
وجهاً لوجه أمام تحديات العصر

وائل ديوب

تفرض علينا التغيّرات السريعة التي شهدناها خلال العقود الأخيرة من العصر الذي نعيشه إعادة التفكير بكثير من القضايا، ومنها واقع لغتنا العربية ومستقبلها في ظل التحديات التي نواجهها على أكثر من صعيد، إذ بلغ التقدم العلمي والتقني أوجه، وتكاد تسيطر الأتمتة والحوسبة وتكنولوجيا الاتصال على مناحي حياتنا كلها.

ومن المثير للدهشة أنّ التطور الذي حقّقته البشريّة في المجالات المختلفة، يواكبه تضاؤل في عدد اللغات التي يتعامل بها الناس في مختلف بقاع العالم. ولعلها مفارقة قويّة أن تتصاعد ظاهرة انقراض اللغات مع انتشار ثورة المعلوماتيّة والاتصالات المتطوّرة، مع شبكاتها وأدواتها التي تسهل تناقل المعارف والنصوص والمعلومات[١].

ويطرح الاندثار المتزايد للغات تحدّيات خطيرة على الإنسانيّة وتاريخها مثل الفقدان المتزايد في التراث الثقافي، وضياع كميّات هائلة من المعلومات التي تحوي قسطاً كبيراً من أرشيف التاريخ البشري، ولاسيّما اللامادي.

ويأتي عدُّ يوم الحادي والعشرين من شباط كل عام يوماً للاحتفال باللغة الأم دليلاً على التحدي الذي يواجهها، وصولاً إلى التحذير من خطورة انقراضها، الأمر الذي لفتت إليه المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) من أجل حفاظ الأمم والشعوب على لغاتها الأصلية كرمز لثقافتها الذاتية[٢].

بديهـــي أن هذا التحذير ليس المقصود به اللغات الحية المعتمدة لدى منظمة الأمم المتحدة، ومنها اللغة العربية، ولكن في الوقت نفسه يجب على لغتنا العربية ألا تستسلم أمام اللغات الأخـــرى ولا تستكين أمام الطغيان اللغوي، الذي تفرضه التطورات السريعة الحاصلة، ولاسيّما في الميادين العلمية والتقنية. فاللغة العربية محفوظة في كتاب مبين ولا خـــوف عليها، وهي لغة الأدب والشعـــر والبلاغة قبل ذلك بكثير، وعدد الناطقين بها فـــي تزايد مستمر. لكن من سمات العصر الحالـــي والعقود المقبلة هو التغيير المستمر وبشكل متســـارع، بالإضافة إلى التمـــازج الاجتماعي والثقافـــي والاقتصادي والتعليمي وغيـــره، الذي لا يشكل خطـــراً على جوهر اللغة، وإنما على مكانتها وقدرتها على مواكبة هذه التغيرات.

وللتدليـــل على ذلك نستذكر معاً عشرات المفردات والعبـــارات الأجنبية، التي باتت على ألسنة كثير من المسؤولين والعامة، في جامعاتنا ومدارسنا، وحتى داخل بيوتنا، مثل (الميديا والإنفورميشن والسيمينار، الموندديال وستاد العباسيين وكرة الفاينال، الدايت والريجيم، بودي غـــارد، الفرمتة والتشيكينـــغ، «تيل» ومشتقاتها.. إلى ماتحفل بـــه أعمالنا الدرامية وبرامجنا التلفزيونيـــة بشكل يومـــي). وهذا غيض من فيض. وشيئاً فشيئـــاً تتحول هذه المفردات من المنطوق إلى المكتوب، لأنها تعبر عن (بريستيج) مستخدميها.

إنها حرب نشنها على لغتنا الأم على مرأى ومسمع من الجهات المعنية، التي تغض الطرف عن الأخطاء اللغوية المرتكبة في المناهج التربوية والتعليمية، وفي وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة. واذا ما عدّ بعضهم ذلك هفوة تحصل، فماذا عن فرنجة أسماء المحلات التجارية والخدمية في قلب العاصمة وباقي المدن، وحتى الأرياف، المصممة بأحدث التقنيات وبشكل جميـــل وأخاذ، على الرغـــم من وجود توجيه بتعريبها وإعادة تسميتهـــا بأسماء عربية؟! كيف نحاســـب طفلاً أو تلميـــذاً أو طالباً على خطأ لغوي صغير ونحن مـــن يجعله يعيش ازدواجية لغويـــة وثقافيـــة في وطنه؟! كيف يمكننا إقناعـــه بجمالية اللغة العربيـــة وإمكاناتها وهو في الشارع وأماكن التسوق والتجول، وحتى في المدرسة والبيت، يعيش خلاف ذلك؟!

تثبت المصادر التاريخية أن اللغة العربية واجهت تحدّيات جمة عبر تاريخها الطويل، كان أخطرهـــا حرق الكتب والمخطوطات العربية عبر قرون. ولعل أخطر التحديات التي واجهتها كانـــت مع الاستعمـــار الحديث، الذي هاجم اللغة في جوهرها وعمـــل على تقويض دعائمها

مـن حيث الدعوة إلـى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينيـة، واستخدام العاميات بدلاً من الفصحى، وصولاً إلى محاولة إلغائها وفرض لغة المستعمر بديلاً عنها.

أمـا في العصر الحديث فإنهـا تواجه تحدّيات داخلية تتعلق بانتشـار اللهجات العامية، وقضايـا عامة أخرى تشمل حتى الخط العربـي، إذ يتحول الإنسان إلى مجرد محرك لأزرار بسيطة لتشغيل آلات تنسخ بدقائق ما يفوق فعل الإنسان عبر مئات السنين.

يرى علماء الاجتماع أن كل شيء يبدأ من الطفولة. وهذا ينطبق على تعلّم اللغة الأم، وفي حالتنـا، فمرحلة الطفولة هي المرحلة الذهبية لتعليـم الطفل اللغة السليمة وتفصيح لسانه وتهذيب لهجته، وحمايتها من التحريف كي لا تطغى اللغة العامية على الفصحى، وإذ لا يشعر بالاغتـراب اللغوي عندما ينتقل من بلد عربي إلى آخر، وكذلك كي لا يواجه الازدواج اللغوي عندما ينتقل من بيئته الأولى إلى البيئات الاجتماعية الأخرى لاستكمال تعليمه أو البحث عن فرصة عمل.

ومادامت اللهجـات العامية هي السائدة في الأحاديث العامـة في التعبير عن الحاجات اليوميـة، وإلغاء استخدامها ليس بالأمر اليسير، فيجب تقويمها وتقريبها من الشكل الفصيح والنطق الصحيح، وذلك من أجل الناطقين بها، والأجانب الذين يتعلموها، على حد سواء.

وهناك تحديات خارجية تتعلق بظاهرة العولمة وسيادة ثقافة الإنترنت واللغات المسيطرة عليها، والانفجار المعلوماتي، وعدم تمكنها من التلاؤم مع التكنولوجيا الحديثة.

فالإنترنت على سبيل المثال تقنية حديثة واللغة التي تسيطر عليها هي الإنكليزية. حتى الفرنسية تسعى لتبوّأ مكاناً في هذا المجال. أما العربية فلا تملك سوى مجرد الوجود كمواقع فحسب. ويحـق لنا أن نخاف علـى اللغة مثلما فعل الفرنسيون في خوفهم مـن غزو اللغة الإنكليزية، لكننا في الحقيقة نقف أمام مسألة تطور اللغة، وعلينا في مثل هذه الحال أن نتّبع الخطوات العملية الكفيلة بذلك بدلاً من الخوف عليها.

إن عصـر التقانة والإنترنـت وتكنولوجيا الاتصالات يتسم بالانفجـار المعرفي والتشتت المعلوماتي والاتصال السريع والإعلام المفتوح، ويشهد تطوراً متسارعاً في مجالات استخدام المنتجـات التقنية والمصطلحات المترافقة معهـا، وزوال الحواجز بين الأفراد، ويؤدي إلى تشكل جماعات افتراضية ذات توجهات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة. وبما أننا نعيش في عصر الإنترنت علينا أن نرتقي بطرائق التواصل الخاصة بهذا العصر.

أهمية اللغة العربية كلغة حيّة تكمن في أنها في تماس مباشر مع كل اللغات الحيّة الأخرى، ولأن انفتاح الآفاق المعرفية والعلمية بما فيها وسائل التواصل الاجتماعي يؤدي إلى فتح منابر كل لغة على اللغة الأخرى. وقضية التواصل الاجتماعي هي الأهم اليوم في العالم العربي، ويجب الارتقاء بلغة التواصل، بالتوازي مع الارتقاء بأطراف التواصل، وتطويعها لتلبي احتياجات المستخدمين من دون اللجوء إلى استخدام لغة أجنبية وسيطة، إذ نلاحظ لجوء الشباب العربي إلى استخدام لغة هجينة فيما يكتبون على وسائل التواصل الاجتماعي، ويقلبون الأحرف العربية إلى أحرف وأرقام لاتينية. وهنا يكمن الخوف على اللغة العربية من أبنائها أنفسهم.

إن غالبية حالات انقراض اللغات تحدث بصورة تدريجية وبطيئة، تأتي في سياقها ظاهرة **الازدواج اللغوي**. يتيح الازدواج اللغوي تحقيق بعض الفوائد في الوظائف والأجور والحصول على الخدمات العامة. وتدفع تلك الفوائد بمن يتملّكون الازدواج اللغوي إلى الاستهانة بلغاتهم الأصلية وإهمالها، واللجوء إلى استخدام اللغة المتفوقة اقتصادياً، كما يشجعون أبناءهم على تعلّمها. وحاضراً، تبرز تلك المعالم بوضوح في دول الخليج العربي، ودول المغرب العربي، وبشكل تدريجي في سورية ولبنان.

ما نلاحظه اليوم هو استبعاد تدريجي للغة العربية في المناهج التعليمية في بعض الجامعات العربية، إذ تهيمن اللغة الفرنسية على بعضها، والإنكليزية على بعضها الآخر. وفي مجال العمل نجد أن إتقان لغة أجنبية هو من شروط التقدّم للتعيين والفوز بفرصة عمل في القطاع الخاص، أو في القطاع السياحي مثلاً، دون أن تتضمن شروط التعيين إتقان اللغة العربية، أو التأكد من سلامة استخدامها. وهذا التراخي لاينطبق على طالبي العلم والعمل فحسب، بل يتعداه إلى النخبة، إذ تغيب اللغة العربية من على المنابر الدولية والمؤتمرات والندوات، على الرغم من أنها لغة رسمية معتمدة في هذه المحافل، ونلاحظ غيابها على ألسنة معظم ممثلي الدول العربية، وكذلك الباحثين والمشاركين في هذه الفعاليات. والأكثر غرابة هو استخدام اللغات الأجنبية من الباحثين العرب في فعاليات تنظمها دول عربية على أرض عربية، وترجمة أوراق بحثهم إلى الإنكليزية أو الفرنسية وغيرها.

إن تداعيات العولمة وتحوُّل العالم إلى قرية كونية صغيرة، حسب التعبير السائد، يحتّم على اللغة العربية أن تطور نفسها، ولكن في الوقت نفسه عليها أن تحصن نفسها ضد الغزو

اللغوي، الذي يدخل كل مناحي ثقافتنا العربية ويهدد مكوناً أساسياً من مكونات هويتنا العربية هو اللغة، ويفرض علينا الاستجابة لمتطلبات العصر الحديث، والتفاعل مع مستجداته، والسعي لتوسيع الدائرة القطرية والقومية والانتقال إلى العالمية، ليس على المنابر الرسمية فحسب، وإنما على المستوى الشعبي.

تنفق الدول المتقدمة مبالغ طائلة على إعلامها وتجنده لصالح مشروعاتها، وتستخدم في سبيل تحقيق أهدافها وغاياتها أساليب مختلفة متجددة، مادية ولا مادية، إذ تستخدم لغة غامضة وبمفاهيم مزدوجة، هي في الحقيقة كلام حق يُراد به باطل، وتلجأ إلى تفسيرها في الوقت المناسب بما يتناسب وتنفيذ مآربها وتحقيق سيطرتها على الدول الضعيفة والشعوب المستضعفة من خلال محاولات تغيير القيم الأخلاقية والمعنوية السائدة، وتدمير العادات والتقاليد، وفرض اتجاهات اجتماعية وثقافية جديدة تتلاءم مع الثقافة الاستهلاكية التي تسعى إلى نشرها.

وحري بنا القول إن الدعوة إلى تمكين اللغة العربية في مواجهة الازدواج اللغوي في المفاهيم، والاستخدام والتحدي المعلوماتي ليست موجهة ضد التمكن من اللغات الأجنبية والعالمية. فالحاجة إلى إتقان لغة أجنبية أو أكثر ضرورة ثقافية وعلمية، ومطلب أساسي للمختصين للبقاء على اتصال واحتكاك بآخر المستجدات العلمية على مستوى العالم ونقلها إلى اللغة الأم.

ما العمل؟

من أهم القضايا المطروحة لايجاد الحلول هي قضية التعريب والترجمة، التي انشغل بها العرب منذ القدم، فقد قاموا بترجمة كتب الفلسفة والطب والرياضيات والأدب وغيرها، وهي السبيل إلى نمو اللغة وحيويتها، والتقصير بها يؤدي إلى تقلّصها والانكفاء على نفسها.

والتعريب بمفهومه الواسع يهدف إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع التخصصات العملية والطبية والتقنية، ويتضمن رؤية أكثر تحديداً لعملية التعريب هي وضع مقابل عربي للمصطلحات الأجنبية. فلكي يُدَرَّسُ أي حقل باللغة العربية لا بد أولاً من تعريب مصطلحات ذلك الحقل، وتطوير واتخاذ السبل المتاحة التي من شأنها جعل اللغة قادرة على التعبير عن المصطلحات العلمية الحديثة، وكذلك الحد من انتشار المفردات الأجنبية في اللغة العربية سواء أكانت علمية أم تقنية أم طبية وغير ذلك.

لقـد استطاع العـرب عبر التاريخ استيعـاب مصطلحات العلـوم المختلفة الواردة من اللغـات اليونانية والفارسيـة والرومانية. ولاشك أنَّ اللغة العربية اليـوم قادرة على القيام بالدور نفسه، شرط أن تتوافر الرغبة والإرادة لدى اللغويين والمهتمين والناطقين بها وذلك بالتنسيـق مع العاملين في شتى فروع المعرفة، تفادياً لتكرار الجهود وضياع الوقت. واللغة العربيـة غنية بالمفردات وقادرة على الاشتقاق والتصريف والنحو واستيعاب كل جديد في مختلـف العلوم. وهـذا يتطلب وضع معاجم في مختلف فـروع المعرفة، تجمع بين القديم والحديـث والمعاصر، على غرار المعجم الطبي الموحد، مثـل معجم الإنترنت أو المعجم المعلوماتـي. وهنا يجدر التنويه إلى صدور أربعة مجلدات من موسوعة العلوم والتقانة في سورية حتى الآن.

ويجـب أن يكون هناك مقابـل حركة التعريب والترجمة مـن الآداب العالمية والعلوم الحديثـة نشاط واسع في ترجمـة الآداب العربية إلى اللغات الأخرى في الشرق والغرب، وتعريف الآخرين بها، إذ يلاحظ قصور في هذا الاتجاه. واهتمام الأجانب باللغة العربية له طابع فردي. كما أن العناية بالترجمة من وإلى اللغة العربية تتطلب إتقان اللغة العربية أولاً والتمكـن منها، ثم إتقان اللغة الأجنبية، بما يسهم في إغناء اللغة الأم وليس إهمالها والاغتراب عنها، والشعـور بالدونية تجاه بعض اللغات الأخرى. وهذا يتطلب وضع خطة مدروسة على الصعيدين القطري والقومي من أجل تعريب التعليم في المؤسسات التعليمية العربية، وتكثيف الترجمة في المجـالات التخصصية والحديثة والبحث العلمي، وتيسير تدريس المـواد المتعلقة بالتقنيات الحديثـة باللغة العربية، وتوفيـر برامج المعلوماتية وأنظمتها الملحقة والنشرات الشارحة لكيفية تعريبها وتوطينها، إضافة إلى تطبيق التعريب فـي كل الدول العربية، واعتماد اللغـة العربية لغة تدريس في الجامعات العربية، بما في ذلك في الكليـات العلمية، ووضع المصطلحات العلمية العربيـة المكافئة للمصطلحات المستحدثـة في اللغات الأخرى، وتوحيد المصطلحـات ذات الاستخدام العالمي الواسع التي لايوجد لها مكافئٌ أو مقابلٌ عربيٌّ كي لا يكون هناك أكثر من تفسير عربي للمصطلح الواحد.

وهنا يبرز دور مجامع اللغة العربية والارتقاء بها لمواكبة الانفجار المعلوماتي السريع ورصـد المصطلحات المستحدثة وإيجـاد البدائل المناسبة لها بالسرعة الممكنة قبل أن تنتشـر على الألسن وفي وسائـل الإعلام والاتصال، وتصبح على درجة من الشيوع بمكان

يصعب فيه محوها واستخدام البدائل العربية، إذ إنَّ هناك مئات الكلمات التي تدخل العربية في وقت وجيز. وكما قال العرب أنفسهم «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك». مع الإشارة إلى أهمية جمعيات تمكين اللغة العربية، والعمل على إكثارها وانتشارها لتصل إلى المناطق النائية، التي سبقتها إليها الصحون اللاقطة والبث الفضائي، وتفشّي التلوث اللغوي، إذ أصبح الناس يتكلمون بلسانين أو أكثر، ولاسيما في المجال الإعلامي.

من أولى مهام مجامع اللغة العربية وجمعيات تمكين اللغة العربية العمل على الحد من ظاهرة التلوث اللغوي والاستخدام المزدوج للمفردات وارتكاب الأخطاء اللغوية، ولاسيما في المجال الإعلامي والأعمال الدرامية، وكذلك الدعاية والإعلان. كلنا نرى بأم أعيننا اللافتات والإعلانات والتسميّات على واجهة المحلات التجارية وكتابة مسميات الماركات الأجنبية والعربية بلغة أجنبية، أو بأحرف عربية مع المحافظة على اللفظ الأجنبي، والأخطاء المرتكبة فيها. ولا بد من تأكيد أهمية توظيف التقانات الحديثة في خدمة اللغة العربية في مجالي التعليم والتعلم الذاتي، إذ توفّر هذه التقانات أدوات التعليم الحديث من حواسب وشابكة وأقراص ووسائل داعمة. كذلك أمّنت أساليب التعلم الذاتي من خلال تلك الأدوات. وهنا تلح الحاجة لوجود اللغة العربية بشكل قوي عل شبكة الإنترنت ليس من أجل الناطقين بها فحسب، وإنما من أجل نشرها وانتشارها على مستوى العالم. وهذا يتطلب مضاعفة حجم المعلومات المتوافرة على الشابكة باللغة العربية والعمل باستمرار على زيادتها من أجل تمكينها واندماجها في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

الهوامش

(١)- اليوم العالمي للغة الأم احتفال سنوي في جميع أنحاء العالم لتعزيز الوعي بالتنوع اللغوي والثقافي والتعليم متعدد اللغات، وتسليط الضوء على ضرورة زيادة الوعي بأهمية التعليم القائم على اللغة الأم.

(٢)- عدّ ٢١ شباط يوماً عالمياً للغة الأم. وأُعلن للمرة الأولى في المؤتمر العام لمنظمة (اليونسكو) في ١٧ تشرين الثاني عام ١٩٩٩م، ومن ثم أقرّته رسمياً الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ويرمـــز اختيار هذا التاريـــخ إلى اليوم الذي فتحت فيه الشرطة النار فـــي مدينة دكا، عاصمة بنغلاديش حاليًا، على تلاميذ خرجوا متظاهرين للمطالبة بالاعتراف بلغتهم الأم (البنغالية) كواحدة من لغات البلاد الرسمية (باكستان آنذاك).

نظمــت اليونسكو عام ٢٠١٨م احتفالاً بهذا اليوم تحت عنوان «الحفاظ على التنوع اللغوي، وتعزيز التعدد اللغوي من أجل دعم أهداف التنمية المستدامة».

تقريـــر المنظمـــة أعطى صورة سوداوية عن واقع الغالبية من اللغات الأم في العالم والمصير القاتم الذي ينتظرهـــا. وقالـــت المنظمـــة إنها تخشى من اندثار نحـــو ٣٠٠٠ لغة من مجمـــوع ٦٠٠٠ لغة موجودة في العالـــم حالياً، مع حلول العام ٢١٠٠، بسبب الحروب والتهجير وازدراء اللغات، إضافة إلى امتزاج اللغات. والاندثـــار يهدد عدداً كبيراً من اللغات التي لا يتحدث بها إلا عددٌ قليل من البشر ممن يعيشون غالباً في بيئات اجتماعية لا تملك آليات الصمود أمام تحديات العصر. وهذا لا يعني خسارة البشرية للغة فحسب، بل اندثار تراث شعب من الشعوب.

اللغة
من النطق... إلى الكتابة

عباس حيروقة

إن المتأمـلَ لهذا الإنسـان العظيم... هذا المخلوق الربّاني ومـا يكتنزه من حيوية وطاقات دفعتـه بجـدارة لأن يكـونَ تمامـاً كما شـاء له باريـه خليفته على هـذه الأرض الطافحـة بالنور وبالظلمـة... بالخير وبالشّـر بالحبّ والجمال والسـلام والإيمان كما هي تمامـاً طافحة بالكره والحقد والقبح والكفر وأتون الحروب... . الله والأرض والإنسان وهذا السرمد الأزلي الأبدي...

إن المتأملَ لهذا الإنسان وما خلّفه من حضارات هنا وهناك وقدرته العجيبة على الكلام... على الكتابة... على الرسم والرقص وممارسة كلّ أنواع الفن والإبداع والخلق لا تدعونا كثيراً للدّهشـة، بـل للإيمـان بأنه قام ويقوم بالـدور المنوط له وبه من إعمار هـذه الأرض، وما من دليل أو مثال حاضر قد نورده هنا عن حيويته وذهنيته المتقدة أوضح من اللغة هذا الفيض الربّاني المهيب...

القدرة على الكلام وما سبقها مـن مخاضات عسيرة حيناً ويسيرة أحياناً أنتجت إشارات وعبـارات ورمزاً ومرموزاً وتلميحـاً وتصريحاً إلى أن آلت إلى ما آلـت إليه من نضوج فكان الحرف وكانت الكلمة ببهاء حروفها ترسم على جدران الكهوف وتنقش على رقم طينية، ومن ثـم على جلود الحيوانات فـورق البردة إلى رسم على شاشة الحاسب، فنجد كلمة من حرفين وحسب (حب) مثلاً قابلة للتداول والعبور والانتقال في جميع أصقاع المعمورة حاملة وناشرة المعنى عينه في وجيب قلوب العباد قاطبة...

كان الرسم والنقش والحرف وكانت الكلمة... اللغة ببهاء حروفها وجمال تناسقها الأخّاذ ورموزها وإشاراتها... وكانت الأداة والوسيلة المعرفية الأساس والأهم لهذا الإنسان العظيم لأنها الناقل والحامل الموضوعي لفكره وثقافته وهويته.

فكانت اللغة وكانت الثقافة... اللغة وطرائق التعبير المرافقة لها، وهذا الكم الهائل من المفردات... من الأحرف... وما تنشره من إيقاعات صوتية موسيقية (التنغيم)... من مدّ وتفخيم وترقيق... من إدغام وإطلاق هذا ما عكس ويعكس وعياً مجتمعياً ونضوجاً بَلْوَرَه الحراك الإنساني الخلّاق.

إنَّ الحديثَ عنِ اللغةِ أو الكتابة عنها ماتعٌ جداً وشيّقٌ من حيثُ هي كائنٌ حيٌّ حيويٌّ له ما له من مراحل وأطوار وأدوار مرَّ ويمرُّ بها كغيره من الكائنات، وهو خاضع لناموس التطور والتنامي والارتقاء كما هو خاضع أيضاً لناموس الموات والاندثار والفناء.

فاللغة هي ذاكَ الكائن الحيّ البهيّ الوضّاء القادر على التجديد والنمو بمقتضى الحال، والمولّد والمتولّد من حيوية أبناء الزمان ومفردات المكان.

اللغةُ ذاكّ الوجود الكونيّ المهيب... الوجود الحقيقي الواقعي المتجسّد مادياً ومعنوياً إذ يحضرنا دائماً قول سقراط لجليسه ذاتَ يوم: تكلّم كي أراك... ليتأكد لنا أنّ اللغة تجسيد لوجود الماهية، ماهية الشخص فتنفرد أمامنا وبشدّة الأسئلة الكبرى والأهم حول الماهيّة... الـ(أنا)... الـ(أنت)... الـ(نحنُ)... سؤال الهويّة، ولأن اللغة هوية تمثّل شعباً ما... حضارة ما... جغرافية ما... تاريخاً ما... فإن ثمة لغات انقرضت وثمة أُخرى مهدّدة بالانقراض على صعيد العالم «المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم - اليونسكو - تحذر المجتمع الدولي من خطورة انقراض عدد من اللغات الأم، الأمر الذي دعاها إلى تخصيص اليوم العالمي للاحتفال باللغة الأم في الحادي والعشرين من شهر شباط من كلّ عام كي تقوم المجتمعات بالحفاظ على لغاتها عنواناً لشخصياتها ورمزاً لذاتياتها الثقافية، في ضوء ما اعتمدته المنظمة الدولية من الأخذ بالتعدد الثقافي والتنوع اللغوي»[1].

والحديث عن اللغة أو الكتابة عنها هو حديث عن العالم، عن الوجودِ بأبهى مفرداته، حديث عن النبض، والروح، والعقل، والقلب الطافح بالحب للعالم كل العالم والمستوعب أو المتسع لكل آداب وفنون وعلوم وفلسفات الأرض ومَنْ عليها.

إن الحديث أو الكتابة عن اللغة هو حديث وكتابة سيرة الإنسان الأول منذ وقوفه منتصباً على قدميه متأملاً لذاك الحراك الكونيّ المهيب، وخاشعاً أمام حالات السكون الصارخ في ثواني الغلس الأولى... إلى حالات الهلع والخوف قبالة أصوات رعد وريح ولمعة برق أخّاذ، وعدوه كما أسلفنا تجاه كهف قريب، ومن ثم ممارسته لفعل التأمل والتفكر بتلك الهالات النّوريّة المنبعثة من قمر في عتمة الليل، وحبوّ الشمس تجاه بطن السماء، كل هذا وذاك فجّرَ عنده أو لديه الصرخة الأولى «النطق» معبراً من خلاله عن حالاته وحاجاته الروحية والنفسية والجسدية... بالنطق وبالصراخ من جهة وبالتقليد وبالإشارة مستخدماً أطرافه ومرونة جسده ليعبّرَ للآخر عما يُقلقه أو يُرعبه أو يُبكيه أو يُضحكه من جهة أخرى.

ومن بدهيات البحث هنا أن نذكر أن اللغة مرّت بمراحل وأطوار نمو واعتلال شأنها شأن أي الكائنات وهي الأقرب للإنسان بجلّ حالاته مع فارق التكثيف لمفهوم الزمن الميقاتي والاجتماعي، فالإنسان مثلاً في مراحله الأولى يبدأ ضعيفاً هشّاً، فينمو ويشكّل علاقات خاصة في إرهاصاته الأولى مع العالم المحيط من خلال حركات وأصوات، ومن ثم يبدأ بترجمتها وتطويرها إلى إصدار أصوات غير مفهومة الحروف ليتطور إلى نطق حرف فحرفين فثلاثة مجتمعة إلى مفردات وجمل وقدرة عالية على الكلام.

وتستمر مرحلة الكلام أزماناً... لينتقل هذا الكائن المهيب (الإنسان) إلى فعل الكتابة والتدوين.

هي ذي اللغة بدأت بمفردات معدودة وتطورت وتنامت وفق حراك اجتماعي معرفي أناسيّ... والمتأمل لحال الإنسان البدائي الأول وعلاقاته مع اللغة يلحظ كَمّ من تقاطعات بينه وبين إنسان هذا اليوم أو الأمس، فنلحظ كيف يبدأ الإنسان بمراحله الأولى بالتعبير عن متطلباته وحاجياته النفسية والروحية من خلال الإشارة أولاً، ثم من خلال انتقاله إلى الحالة الأكثر تطوراً وارتقاءً ألا وهي النطق فيبدأ بترجمة إشاراته التي عكست وتعكس حاجياته الروحية والجسدية والنفسية إلى مفردات صوتية ينطق بها ولو بالتقليد، ومن الأمثلة المطروقة جداً عند أهل الاختصاص في هذا الحقل مثلاً أن الطفل إذا أراد إخبار أهله أن ثمة قطة دخلت إلى البيت فنراه يشير إلى مكان القطة ويقلد صوتها... إلخ.

ومن هنا يمكن أن نطرح ما تم تناوله حول نظرية النطق عند الإنسان الأول والمستندة إلى لغة الإشارة المبنية على محاكاة هذا الإنسان لأصواته الطبيعية المعبّرة عن انفعالاته، وأصوات الحيوانات والأشياء الأخرى كأصوات الرعد والريح... إلخ.

(وعلى هذا فإن اللغة نشأت من غريزة الإنسان بالتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ومن استعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة)[٢].

وهــذا يعكس قدرة الإنسان العقلية آنذاك على التقــاط الأصوات، والعمل على ترجمتها وفــق إشارات حسيّة ومقدرات لفظية... وهناك نظرية نادى بها **ابن جنّي وابن سينا** (يذهب أصحابهــا إلى أن اللغة نشأت من الأصوات الطبيعيــة، وارتقت تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية، وتعدد حاجات الإنسان وما إلى ذلك)[٣].

إذن، ومــن خلال ما ذهبت إليه النظرية تؤكد قدرة الإنســان على محاكاة الطبيعة والتقاط الإشــارات والعبــارات التي من خلالها قد عبّر عن مكنوناتــه واحتياجاته النفسية والاجتماعية والروحيــة بدءاً من لغة الإشارة مستفيداً من حيوية الأطراف ومرونة الجسد لديه اللتين أسهمتا في الاستغناء عن بعض طاقاته الصوتية إلى حين ارتقاء الوعي والتفكّر؛ فازدادت الطاقة الصوتية والإغناء المفرداتي، فبدأ رويداً رويــداً الاستغناء عن حركاته ولغاته الجسمانية اليدوية لصالح قاموسه المفرداتي اللغوي (ولو تدبّرت تاريخ اللغة لرأيت المبدأ في نشوئها وارتقائها راجعاً إلى موهبــة جعلها الخالق في الإنسان، موهبة «التقليد» فالتقليد أساس اللغة، وأصل نشأتها، ومدار ارتقائهــا لأن التفاهــم سواء كان بالإشارات أم بالأصوات فهو راجع إلــى التقليد، لأن الإشارات تقليد صور الأشياء أو معانيها، والأصوات تقليد ما يسمعه الإنسان من الأصوات الخارجية على اختــلاف مصادرها. فالتقليد قوة لم تبلغ في نوع من أنــواع الحيوانات ما بلغته في الإنسان... فالاستيضــاح من أعمال العقل، والتمثيل من أعمال اليدين أو ما يقوم مقامهما، والإنسان أقوى سائر أنواع الحيوانات عقلاً وأليقها تركيباً وهذا سبب تفرده بسعة دائرة التفاهم)[٤].

ويعــود **جرجي زيدان** في كتابه (الفلسفة اللغوية) ليقسّم الكلام في تاريخ اللغة إلى دورين همــا (التقليدي، والنطقي). فالتقليدي كمــا تحدثنا آنفاً يقوم الإنسان بتقليد ظواهر الأشياء التــي يريد التعبيــر عنها وهي أشبه بلغــة (الأخرس). فالأخرس يعبّر عــن الفرس بمحاولة الوقــوف على يديه ورجليه معاً تقليداً للفرس فــي مشيه. ويرى بأن الإنسان كان هكذا تماماً فــي أول أدوار وجــوده، فقــد كان كالطفل المولــود حديثاً في العالم يسمــع ويرى ولا يتكلم ولكــن لكل من الموجــودات المحيطة به صورة في ذهنه حصلت من حال اقتضت بقاءها في ذاكرتــه... ويقسم **زيدان** الدور التقليدي إلى قسمين: تقليد الأشكال وتقليد الأصوات، فالأول لغة الإشــارات وهي لغة الذين لا يستطيعون التكلم لعلة طبيعيــة كالخرس. فإنهم يتفاهمون فيما بينهم وبين غير الخرس بالإشارات فحسب. والثاني لغة الأصوات.

وأمــا الحديث عن الصوت عند الإنسان إنمــا هو حديث عن مرحلة مهمة جداً من تاريخ اللغة... من تاريخ الإنسان... إذ سبق وتحدثنا عن علاقة هذا الكائن العظيم بما حوله وتأثره الكبير أولاً قبل أن ينتقل إلى مرحلة التأثير.

فذهــب أهــل الاختصاص إلى أن (الإنســان اقتبس لغته من حكايــة الأصوات الطبيعية الحية وغير الحية على اختلاف مصادرها. فاتخذها أولاً بالتقليد للتعبير عما يحدثها أو ما يتعلــق به، وهذا ما نسميه اللغة الطبيعية، ثــم تنوعت وتفرعت بالنحت والإبدال والقلب تبعاً لاحتياجات الإنسان حتى صارت إلى ما هي عليه بتوالي الأجيال)[٥].

وبقــي الإنســان بمرحلة النطق لسنوات وسنــوات حتى تعلّم الكتابــة والتعبير عن مبتغاه بالكتابــة، هذه المرحلة تشابــه بالمطلق المرحلة التاريخية المجهولــة بدقة والتي مرت بها المجتمعات البشرية... مرحلة النطق والكلام والتفاهم... مرحلة مجهولة المدة الزمنية ربما مئات... آلاف السنين حتى انتقلت هذه المجتمعات إلى وسيلة أرقى بالتواصل فيما بينها وهي وسيلة الكتابة... فكانت الوسيلــة الأرقى للتعبير عن مكنونات النفس البشرية لتكتمل سلسلة وسائــل التواصــل من الإشارات المعبّر عنها باليدين أو الرســم إلى النطق بالأصوات المتفق عليهــا – أصوات المحاكاة أولاً لأصوات الكائنات ولمعالم الطبيعة (رعد، ريح) إلى الأصوات بالمعطــى الكلامي المصطلحــي المتفق عليها (التواصل الشفــوي) الممتد لمئات أو لآلاف السنين وصولاً إلى الوسيلة الأرقى وهي الكتابة).

وممــا لاشك فيه أن ليس كل ما ينطق به يكتــب بطريقة نطقه فهناك لهجات عامية غير قابلة للكتابة (ولأن الكتابة في اللغة بمنزلة (نظام دلالة) قابل للتغيّر ومرتبطٌ بصورة تختلف مــن حــال إلى حال بنظام دلالة آخر هــو النطق. ولا شك أن هــذا الارتباط لم يمنع حدوث تغييــرات على صعيد أحــد هذين النظاميين دون آخر، بدرجــات متفاوتة. ويظهر ذلك أكثر مــا يظهر من خلال وجود لغات عامية ولهجات محلية غير قابلة للكتابة، أي التمثيل بأشكال الحــروف المرسومــة، في كثير من لغات العالم؛ ومنها العربيــة التي تشير إلى وجود حروف كثيــرة يمكن أن ينطقها العرب في كلمــات يستخدمها ملايين الناس، ولكنها لا تقبل الدخول في أشكال اللغة المكتوبة الأساسية إلا بعد تعديل قليل أو كثير)[٦].

إن المتأمــل لسيــرورة الإنسان وصيرورتــه التاريخية، يدرك أن أعظــم الأفعال العقلية والمبتكرات الفكرية والاختراعــات البشرية التي أحدثت تبدلاً عجيباً في الكون بأكمله، كان

لها دويّ هائل وضع هذا الكائن على دروب الإنسان العاقل. أول هذه الاكتشافات وأهمها هي النار، إذ نقلته إلى عالم وحياة أكثر نضجاً وإنسانية...

كما أن ثاني الاختراعات وأهمها هي اللغة المكتوبة، والتي كانت الحدث الأبرز والأهم بعد المنطوقة في إعمال الفكر والعقل والقلب... والروح.

(إن أكبر الكشوف العلمية اللغوية قاطبة تمييز الحروف والأصوات المنطوق بها، والانتقال من إدراك مقاطع الأصوات الكثيرة الزاخرة المختلطة إلى إدراك الحروف المتميزة المنفصلة، وحصرها في عدد محدود ثم إلى التعبير عنها برموز هي الأبجدية. هذه الرموز هي الأساس الذي يستند إليه الفكر في تقدمه علماً أو فناً أو غير ذلك)(٧).

ويـرى الدكتور **عبد الكريم اليافي** في المصدر نفسـه- مباهج اللغة والأدب - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٣م أن هذا الانتقال من سديم الأصوات وعمائها إلى بريق الحروف وتلمُّحها والرمز لها، إنما حصل أوّل مرة في تاريخ الإنسانية في بلادنا العربية. وهو يتضمن الوصول إلى معرفة واسعة، ووعي حصيف، وسمع موسيقي مرهف، وحسّ علمي دقيق. ويتابع الدكتور **اليافي** ليخلص إلى أن الذين سبقوا إليه ومهدوا له وأنجزوا وسهلوا المعرفة، ويسروا الكتابة، وأثّلوا التراث الإنساني.إنهم الفينيقيون وإنها الأبجدية الفينيقية.

يمكن أن نقول إن الكلام أو اللغة حالة متقدمة وراقية ومتطورة تعكس تنامي العقل وهذا ما عبّر عنه أرسطو بقوله (الكلام تمثيل للخبرات العقلية والكتابة تمثيل للكلام).

بعد هذا السرد شبه المطول عمّا مرّ به الإنسان الـ(ما قبل المتكلم)... الـ(ما قبل الكلام) من حالات تطور وارتقاء عقلي سنورد الآن بعض التعاريف المذكورة عند أهل الاختصاص عن اللغـة، ولو أنه ما من تعريف جامع مانع لها علـى الرغم من تعددها بتعدد المشتغلين بها أو عليها ولكن كما سنلحظ هناك كثير من التقاطعات أو الاتفاق فيما بينهم...

كمـا سنلحظ أن ثمة إجماعاً بين أكثـر المشتغلين بتاريخ ونشأة وأصل اللغات بأن هذه اللغة المعمـول بها الآن - أيّ لغة كانت - مـا هي إلا نتيجة حتمية وعقلية ومنطقية لمراحل وأدوار، وأطوار مرّت بها، واشتغالات عدة من الناطقين بها والمشتغلين عليها... إلا أن ما لم يتم الإنفاق بـه أو عليه هو في أصـل اللغة ونشأتهـا وتاريخيتها، وهناك كثير مـن النظريات والطروحات ووجهات النظر والآراء التي قد تقنع بعضهم ويختلف عليها بعضهم الآخر، وهذا ما سنعمل على تأجيل الحديث به وعنه إلى غير موضع لنعود إلى بعض تعريفات أهل الاختصاص للغة:

فيـــرى **جرجي زيـدان** مثلاً في كتابه «الفلسفة اللغوية»: «أن اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عـــن أغراضهم، وقد تعددت أنواع الأصـــوات وطرائق التعبير بتعدد الأمم واختلاف أصواتها، فنشأت عن ذلك لغات تفوق الآلاف عداً، متفاوتة بياناً ومتباينة دلالة ولفظاً، فإن من الأصوات مـــا هو عادي عند هذه الأمة وشـــاق التلفظ به عند تلك، مما يلاحظه كل منا عند من حاول دراسة اللغة العربية من أبناء المغرب... فقد قلّ بينهم من استطاع بعد العناية الشديدة لفظ الحاء أو العين أو الغين أو الضاد وما شاكلها... إلخ».

أمـــا الباحث والناقـــد الدكتور **جمال الدين الخضـور** وهو من أهـــم المشتغلين في حقل الأناســـة المعرفية العربية التاريخية اللغوية ووحدتها ولاسيّما في كتابه المهم «عودة التاريخ» بجزأيه فيرى أن:

اللغة منظومة سيرورية تاريخية اجتماعية إشارية تصف النشاط التفاعلي بإحداثياته المتعددة البنائية (الذاكرة الجمعية، والمخيال، و**السيكيولوجيا** الجمعية) للجماعة وللفرد هادفة للارتقاء بالتواصـــل إلى السويّة الأرقى المأمولـــة. إن اللغة هي الجماعة البشريـــة (الكتلة الاجتماعية) المعينـــة في المكان المعين وعبر سيرورة زمنية (بمفهوم الزمن الاجتماعي) معينة... سيرورية، لأنهـــا ترتبط بالنشاط السيروري للجماعـــة، وبالتفاعل المتصاعد لعناصرها البنائية الداخلية. فهـــي بعلاقتها مع الواقع كفعل سيروري تعبّـــر عن تصاعديته وتطوره وسماته في الآن المناقش ومن خلال علاقتها بالتأثر والتأثير مع الفكر، ترتبط بتصاعده وأدواته وساحة فعله(٨).

إذن، اللغـــة هوية وأداة تفكيـــر وتفكّر ووجود، بل إن الحديث عـــن اللغة حديث عن الأمة بتكوينهـــا النفســـي والاجتماعي والفكـــري المعرفي الوجداني الثقافـــي... حديث عن الأمة بمخزونها الديني والأدبي والفلسفي المعرفي والتاريخي والجغرافي... فاللغة رمز شخصيتها ووطنها الروحي وخازن تراثها.

وأمـــا الباحث المهم والمحاضر الاختصاصي الدكتور **محمود السـيد** صاحب الباع الطويل جدا في بحثـــه الفيّاض والباذخ في تاريخ اللغة العربية من خلال إصداراته العديدة جداً... فقد قال: «لا يتم فكر من غير لغة ذاتية له، ولا علم دون لغة تعبير ذاتية له، ويبقى الفكر العربي ناقصاً وغريباً إذا لم يُقرأ ويُكتب ويُفكّر فيه بالعربية» ويرى أيضاً «أن اللغة ضرورة قومية لأنها مقـــوم أساسيّ من مقومات الوحـــدة... ومن الناحية التربوية هي ضـــرورة حياتية وعلمية لأن المـــرء يفهم بلغته الأم أكثر مما يفهم بأي لغة أخرى، وأما من زاوية الأمن الثقافي فهي ضرورة

لإيقاظ الوعي بالغزو الفكري والتبعية الأجنبية المتزايدة... أما من ناحية الابتكار فهي ضرورة للانتقال من استهلاك الأشياء إلى صنعها ومن ثمّ إلى منحها الاسم العربي»(٩).

ويـورد أيضاً **د. محمود السيد** غير قول وتعريـف لرموز الفكر في العربية في متن بحثه لتعزيز وجهة نظره فيقول: «إن د. طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة» في مصر قال: نحن نشعرُ بوجودنا وبحاجاتنا المختلفة، وعواطفنا المتباينة وميولنا المتناقضة حين نفكر، ومعنى ذلك أننا لا نفهم أنفسنا إلا بالتفكير، ونحن لا نفكر في الهواء، ولا نستطيع أن نفرض الأشياء على أنفسنا إلا مصورة في هذه الألفاظ التي نقدرها ونديرها في رؤوسنا، ونظهر منها للناس ما نريد ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد، فنحن نفكر باللغة، ونحن لا نغلو إذا قلنا إنها ليست أداة للتعامل والتعاون الاجتماعي فحسب وإنما هـي أداة التفكير والحس بالشعور».

ويـورد الدكتور **السيد** في موضـع آخر من المؤلَف نفسه أن الدكتـور ياسين الأيوبي في كتابـه اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية اللبنانية (ص٢٥٢) يرى «أن أهمية اللغة لا تكمن في أنها ليست فقط وسيلة التخاطب والتواصل بين الجماعات والأفـراد، وبيـن المرء وذاته فحسب، بـل هـي رمز للهوية التي تميز شعبـاً عن شعب وتطبع حضارته ودرجة حضوره في مسرح الوجود والحياة، وصولاً إلى الاستدلال على ما في أعماق النفس وتصورات الذهن. وثمة تلازم بين الفكر واللغة فمن لا عقل له ولا فكر فلا لغة سليمة له ولا سبيل إلى عدّه جزءاً ملتحماً بالكل الذي هو المجتمع، ومن لا يحسن النطق أو لا يتمتع بمنطق سليم ولسان معافى فهو مختل التواصل مع المجتمع، ومعتل الفكر»(١١).

ودائماً وفي غير بحث يؤكّدُ الدكتور **جمال الدين الخضور** على فعل اللغة السيروري للإنطاق مـن هذا الفعل إلى قراءة تاريخ اللغة العربيـة بمقارنة نشيطة وفعّالة عبر أناسيتها التطورية في المراحـل المغرقة في القدم وانتقالها إلى الكتابـة الصورية، فالرمزية، فالأبجدية، وكيف صبّت اللهجات العروبية المشرقية والمغاربية في تطوير النماذج الكتابية الأولى، وكيف صبّت لاحقاً في اللغة العربية التي نتحدّث بها ونكتب بحثنا هذا، بحيث تشكّل نموذجاً سيرورياً متواصلاً(١٢).

والقـارئ لسيرورة وصيرورة اللغـة التاريخية يدرك وبشكل بدهي أنها لم تصل إلى ما وصلت إليـه أو عليـه من ألفاظ ومعان وكتابة مقطعية متطورة كالتي تكتـب بها اليوم إلا بعد مخاضات متعثـرة قاهرة في بعضها، فجاءت الـولادات شبه مشوهة فلم تعش أو تعمر طويلاً، ومنها جاءت مدجّنة من غير نوع واصل فكانت الولادات غير ذات أصل وحيوية، فعاشت حياتها في اعتلال.

وما يرافقه من تهدل ووهن... ومنها ما جاءت ولادتها في أجواء سليمة معافاة فنمت وتطورت، وتسامت، وانتشرت كنور وضّاء بهيّ مستقطبة غير شعب وملّة وقومية و... إلخ كلغتنا الأم... اللغة العربية.

وقد شرح أهل الاختصاص تلك الأدوار والأطوار التي مرّت بها اللغة قبل وصولها إلى ما هي عليه... فقالوا إنها مرّت بأربعة أدوار وهي:

١- الدور الصوري الذاتي: وتدّل الصور على المعاني الذاتية وهو دورٌ قاصر لا يمكن التعبير به إلا عن أبسط الحوادث.

٢- الدور الصوري الرمزي وفيه فضلاً عن الصور الذاتية صور رمزية تدّل على المعاني المعنوية التي لا صورة لها في الخارج، بل في ذهن الإنسان وهذا متعب وشاق لأنه يحتاج إلى مئات بل ألوف الصور.

٣- الدور المقطعي وتدل الصورة فيه على أول مقطع من اسمها وهو خطوة كبرى في اختراع الكتابة، فبين أن اللغة في الدور السابق لا يتم التعبير عن معانيها بألوف الصور يكفيها في هذا الدور بضع مئات فحسب.

٤- الدور الهجائي وفيه تصبح تلك المقاطع حروفاً وهو آخر خطوة خطتها الكتابة حتى الآن، فإنك ببضع عشرات من هذه الحروف تعبّر عن كل ألفاظ اللغة مهما تعددت وتنوعت[١٣].

إن الأدوار التي مرت بها اللغة تعكس حيوية ذهنية خلّاقة عند إنساننا البديع ابن هذه البقعة الجغرافية من أرضنا... حيوية العقل... الفكر الذي قادته من التأمل إلى التفكّر وتجسيد كل رؤاه وشعوره ومتطلباته الجسدية بنقش على جدار كهف مثلاً أو رقم طيني، هذا الارتقاء من عالم الأصوات إلى عالم الحروف والكتابة... من عالم العدو هلعاً وإطلاق صيحات وصرخات ومناشدة أبناء جلدته إلى حواراته الصوتية مع أبناء المكان في ذاك الزمان، والانتقال بكامل حيويته العقلية إلى عالم الحرف... الأبجدية، وبذلك يكون قد بدأ بإثراء عالمه بالمنتج العقلي.

نعود ونقول: إن اللغة ما هي إلا تلك الإشارات والرموز التي تدرب الإنسان على توثيقها وترسيخها وهي تلك الوسيلة الحضارية الأرقى للتفاهم والتواصل مع الآخر... بين أفراد وجماعات المجتمع، وهي الأساس في أي حراك أو نشاط مجتمعي بشري سواء كان فكرياً أم

ثقافياً أم معرفياً، وهي أي اللغة مرتبطة ارتباطاً بدهياً بالفكر وبالتفكير وهي الصورة التي يعبّر بها أو من خلالها عن أفكاره ورؤاه.

فيعبّر باللغة عن فكره، وبفكره وحيوية عقله أبدع اللغة فكانت وما زالت وستبقى الديار التي ولدت وترعرعت فيها ثقافة ذاك الإنسان، فاللغة حامل الثقافة ومرآتها، بل هي كما قلنا سابقاً هوية فرد وجماعة ووطن، تميّز هذا الشعب عن ذاك، بل هي وجود بالمطلق.

الهوامش

(١)- أ. د. محمود أحمد السيد، في سبيل العربية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٥ م، ص٤٥.

(٢)- جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية،دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت،١٩٨٧م، ص٦١.

(٣)- انظر ابن جنّي في الخصائص وابن سينا في أسباب حدوث الحروف «ووتني» في اللغة ودراستها سنة ١٨٦٧م، وحياة اللغة سنة ١٨٧٥م.

(٤)- جرجي زيدان، مرجع سابق، ص٦١.

(٥)- جرجي زيدان، مرجع سابق، ص١٤٤-١٤٥.

(٦)- جرجي زيدان، مرجع سابق، ص١٥٢.

(٧)- د. محمد ياسر شرف، تدوين الثقافة العربية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٩م، ص٩٠.

(٨)- د. عبد الكريم اليافي، مباهج اللغة والأدب - منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٣م، ص١١٤.

(٩)- د. جمال الدين الخضور، عودة التاريخ، الجزء الأول، دار الفرقد، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ص١١٣.

(١٠)- د. محمود السيد، في الأداء اللغوي - وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٧.

(١١)- د. محمود السيد، في الأداء اللغوي، الهيئة العامة للكتاب - وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥م، ص١٢٦.

(١٢)- د. محمود السيد، المرجع السابق، ص١٨٢.

(١٣)- د. جمال الدين الخضور، مرجع سابق، ص١١٣.

حركة ما بعد الحداثة والمستقبل

يونس صالح

يمر العالم الآن بمرحلة تتميز في رأي كثيرين بتفكّك النظريات والاتجاهات الفكرية الكبرى في كثير من مجالات المعرفة، بل في المبادئ والمسلمات والمعتقدات الأساسية التي يرتكز عليها التفكير البشري. لقد ازدادت حركات العنف والإرهاب زيادة واضحة تنم عن مدى خطورة هذا التفكك في القيم المتوارثة، وهذه كلها عناصر تميز ما أصبح يطلق عليه اسم عصر ما بعد الحداثة، الذي يمثل نوعاً من التمرد والرفض بوصفها أنساقاً جامدة لا تتلاءم مع التغييرات المتسارعة، التي يمر بها عالم اليوم.

ويعدُّ ظهور هذا الاتجاه علامة مميزة على بدء عصر فكري جديد يختلف كل الاختلاف عن عصر الحداثة، التي اندثرت أو (ماتت) حسبما يقول بعضهم. ويحمل هذا العصر الجديد ثورة اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية متحررة تماماً من كل قيود الماضي، التي كانت تخضع الإنسان لكثير من عوامل الكبت والقهر، وإن كان هذا (الماضي) يبدي على الرغم من ذلك بعض الاهتمام بالمستقبل وتوقعاته وإرهاصاته، وسواء أردنا أم لم نرد، فإن ما بعد الحداثة يُعدّ الآن أحد أهم التيارات الفكرية أو الفلسفية، التي يمكن لنا في رأي أتباعها وأنصارها أن نفهم في ضوئها بشكل أفضل طبيعة العصر، الذي نعيش فيه والمستقبل، الذي سوف يتطور إليه، أي إنَّ معرفة المبادئ والقيم التي تقوم عليها ما بعد الحداثة هي المفتاح، الذي يؤدي إلى استشراف مستقبل العالم على الرغم من أن هذه القيم لم تتحدد بعد،

بل قد يصعب تحديدها بدقة في الوقت الراهن، ولاسيّما أن الآراء لم تتفق بعد على تعريف واحد لما بعد الحداثة، وهل هي حركة - كما يرى كثيرون- أم تيار فكري أم مذهب فلسفي؟ وإن كان كثيرون يرون أنها مجرد حركة فكرية لن تلبث أن تزول، شأنها في ذلك شأن كثير من الحركات التي سارع بعض الكتاب والمفكرين إلى اعتناقها والتحمس لها، إلى أن ظهر تهافتها وزيفها.

من التنوير إلى الحداثة

المهم الآن هو أن ما بعد الحداثة يمثل اتجاهاً قوياً يدعو إلى تحرير الإنسان من الأفكار والاتجاهات والقيم السابقة، بل من دعاوى العقلانية والتمركز حول الذات والمبادئ التي كانت تسود العالم منذ عصر التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر، والتي تزعم ما بعد الحداثة أنها في طريقها إلى الزوال والاندثار، بعد أن استنفدت أغراضها وتعداها الزمن وتجاوزتها الأوضاع المتغيرة الحديثة. فالقيم التي نادى بها عصر التنوير، والتي تسود الحياة الفكرية الآن، تؤمن بوجود حقيقة موضوعية تتسامى فوق الأشخاص وآرائهم وأهوائهم، وبأن التفكير المحايد غير المنحاز وغير المتحيز، والذي يعتمد على المنهج العلمي التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة الموضوعية، كما أنه هو الطريق الوحيد، الذي يؤدي إلى التقدم، مما يعني أن المستقبل سيكون أفضل وأكثر حرية وازدهاراً وسعادة من عالم اليوم ومن الأمس.

وقد ساعدت على ترسيخ هذه الدعاوى ثورات الشعوب في الماضي والحاضر، وتستوي في ذلك الثورات الكبرى والانتفاضات الشعبية المحدودة. وتعلي فلسفة التنوير من شأن القيم الفردية، التي تميز الفرد عن الجماعة العرقية أو الدينية، التي ينتمي إليها بحكم المولد، والتي تدفع إلى التعصب. إنها قيم تحقق للفرد مكانته وكرامته وتميزه وتفرده من الجماعة وعن غيره من الأفراد. ولكن على الرغم من ذلك، فإن العقلية العلمية تستطيع من خلال دراستها للتنوع البشري والفوارق بين الأفراد، أن تصل إلى تحديد العناصر العامة والمشتركة والكامنة وراء هذا التنوع والاختلاف، وإلى العامل الإنساني المشترك، الذي يوحِّد بين الجميع. وهذه العناصر العامة المشتركة هي الأساس، الذي ترتكز عليه مبادئ المساواة في الحقوق. فالعقلانية والموضوعية والفردية والعمومية الشاملة تعدُّ إذن أهم القيم والمبادئ التي تحكم المجتمع البشري، وتوجهه حسب التفكير السائد في عصر التنوير، والممتد حتى الآن فيما يعرف باسم (الحداثة).

إذن، مرحلة (ما بعد الحداثة) تبدأ من التشكك أو عدم الوثوق في كل تلك المبادئ العامة والأسس الكلية والشاملة، التي سادت عصر التنوير ووجهت الفكر الحديث. كما أنها ترفض التسليم بوجود مجموعة المبادئ والمعتقدات والمسميات الفكرية العامة، التي يمكن لها أن تسيطر على الفكر الإنساني، فكأن (ما بعد الحداثة) تنظر إلى كل هذه الأمور على أنها مظاهر بائدة تنتمي إلى الماضي ولم تعد تصلح للمرحلة الجديدة، التي يمر بها عالم اليوم والغد، والتي لها دعاواها وافتراضاتها الخاصة. وإذا كان بعض المفكرين المعاصرين- ولاسيّما الإنسانيين- يرون في تلك القيم والقواعد والمبادئ المتوارثة، مبادرة خير بالنسبة إلى المستقبل، فإن (ما بعد الحداثة) ترى أن الاعتماد على العقل (السليم) والتفكير (المنطقي) والعلم والموضوعية والفردية والعمومية الكلية الشاملة لم تؤدّ إلا إلى الاغتراب، وسيطرة قيم البيروقراطية الطاحنة وظهور (عالم من الخبراء) الذين يرون أن القوة توجد في كل شيء إلا في الإنسان الفرد، وأنها انتهت إلى قيام أشكال وصور كثيرة من الكبت والقهر والتسلط، التي تمثلها الرأسمالية، والتي أتاحت الفرصة لظهور الشمولية والنازية بكل ما ارتكبتاه من جرائم ضد الجنس البشري، والعمل على إبادته والقضاء على فصائل معينة من الناس.

فالتمسك بالموضوعية والبحث عن المعرفة الموضوعية يؤديان في آخر الأمر إلى الظن بأن الحقيقة توجد خارج الفرد، بكل ما قد يترتب على ذلك من انعدام ثقة الإنسان في نفسه، والشك في قواه وقدراته وإمكاناته الذاتية، وذلك بعكس ما سوف يترتب على المبادئ، التي تنادي بها (ما بعد الحداثة)، من عدم وجود حقيقة موضوعية في الخارج تستحق عناء البحث عنها والتمسك بها. إذن، من شأن هذه الأفكار ازدهار الذاتية والاعتزاز بها على حساب الموضوعية، مما يعيد للفرد ثقته في نفسه وفي قدراته، كما أن عدم الاعتراف بوجود مثل هذه الحقيقة الموضوعية من شأنه إمكان إخضاع كل الأفكار والآراء للتساؤل والشك، فليست هناك أفكار مجردة، كما أن كل القيم والمثل والمبادئ المتوارثة هي مجرد أقنعة تخفي وراءها أهدافاً أخرى من شأنها مساعدة الذين يملكون القوة (الإنسان الأبيض أي الغرب، الذي يمارس الغزو، والاستعمار والتمييز العنصري، وإبادة الجنس البشري، والتحرر الجنسي وغيرها) على التمكن والتحكم والتسلط.

وبقول آخر أكثر وضوحاً، إنّه بدلاً من الموضوعية تدعو (ما بعد الحداثة) إلى الذاتية، وبدلاً من الإيمان بالتقدم فإنها تشكك في إمكان تحقيق هذا التقدم، وبدلاً من الإيمان

بالأخلاق ترى أن كل شيء يخضع للذوق والمفاضلة والاختيار الشخصي، وبدلاً من البحث عن العموميات تهتم بما هو خاص وشخصي وهكذا. وباختصار فإن (ما بعد الحداثة) تذهب إلى التشكك في الصدق واليقين وتهتم بقيم التجربة الذاتية، وترى أن إمكانات الاتحاد والتعاون والتجمع والتكافل هي أمور نادرة الحدوث وصعبة التحقيق، بل إنها دعوات مراوغة. كما ترى أن من الصعب قيام حكومات ديمقراطية صالحة وعادلة، وتستجيب لمصالح الشعوب. وإذا كان الفيلسوف الألماني ف. نيتشه الذي يعدّ أحد رواد الدعوة الأوائل إلى (ما بعد الحداثة)، قد ذهب إلى القول بموت الإله، فإنه لم يلبث أن قال بموت العلم والعقل والأخلاق، وإنَّ المشروع العلمي في القرن التاسع عشر قد سلب الإنسان المعاصر قواه وملكاته، وإنَّ من شأن الأخلاق أن تجعل الإنسان مخلوقاً عاجزاً عن إدارة نفسه بنفسه، ولذا فإنه كان يفضل الإنسان (غير المتحضر) على الإنسان المتحضر المتقدم، لأنه يتصرَّف حسب ما تمليه عليه طبيعته، وكيفما شاء دون أن يؤنبه ضميره على ما يفعل.

كأن المبدأ العام الذي يجب أن يحكم الإنسان هو (إرادة القوة) في عمل كل ما من شأنه هدم أسباب القهر وفرض الإرادة على العالم. ولا يعني ذلك أن (ما بعد الحداثة) تعتقد أن العلم والتكنولوجيا والعقلانية قد أسيء استخدامها، إذ نتجت عن ذلك كل تلك المساوئ والمتاعب والأضرار، وإنما هي تذهب إلى أبعد من ذلك، فهي ترى أن هذه القيم والمبادئ، وكذلك المجتمع الحديث، الذي تنتشر فيه هذه القيم والمبادئ هو بالضرورة مجتمع يؤدي بطبيعته إلى قيام هذه النزعات والمثل والقيم، ويؤمن باستخدام القوة وتدمير المجتمعات والجماعات المحلية الصغيرة، ويعمل كل ما من شأنه أن يساعد على ازدهار أساليب التسلط والقهر والكبت وغيرها، ومن هنا كانت (ما بعد الحداثة) تمثل هجوماً واضحاً وصريحاً على كل القيم والمبادئ والقواعد المحورية، التي يؤمن بها المجتمع الحديث.

السؤال المهم هو: إلى أين يقودنا هذا كله؟ وهل يمكن أن توفر (ما بعد الحداثة) بدائل عن القيم، التي تشكك في أهميتها، بل تنكرها تماماً؟ وما نوع المجتمع، الذي يمكن أن تقوم فيه القيم الجديدة البديلة على فرض وجودها؟

يتوقع كثير من المفكرين (المناوئين لما بعد الحداثة) أن يؤدي إنكار القيم، التي أتت بها فلسفة التنوير إلى قيام مجتمع يغلب عليه التفكك والصراع، ولا يرتكز على قواعد أو مبادئ راسخة وثابتة، ولن تكون له سياسة عامة أو مثل عليا مشتركة تستطيع أن توحد بين

الناس وتربط فيما بينهم، وإنما ستكون هناك بدلاً من ذلك جماعات متمايزة ومتنافرة داخل المجتمـــع الواحد، تحاول كل منها فرض إرادتها وسطوتها على بقية الجماعات الأخرى، دون أن تكون هناك أي محاولة جادة للتعاون معاً، وإنما سوف تعمل كل فئة على تحقيق مصالحها الخاصة بصرف النظر عن المصلحة العامة، والالتزام السياسي والوطني.

وتجــد هذه النظرة (المتشائمة) ما يؤيدها في الواقع القائم الآن بالفعل، ولاسيّما في أمريــكا، التي تعدّ مجتمعاً تعددياً بكل معاني الكلمـــة، وقد يؤدي استفحال هذه الأوضاع المترتبـــة على (ما بعد الحداثة)، إلى سيطـــرة مشاعر اليأس والوقوع في براثن العدمية، والعودة إلى العصور المظلمة، إلا إذا بذلت جهود ضخمة للتغلب على هذا التيار العدمي، الـــذي تنجرف فيه الحضارة الإنسانية، ولاسيّما أن (ما بعد الحداثة) تنظر إلى المستقبل علـــى أنه شيء صعـــب التحديد أو التحكم فيه، لأن كل شيء يعـــدّ نسبياً في الحياة، ولذا ليســ ثمة ما يمكن الحكم عليه بالصواب أو الخطأ، مما يؤدي إلى تداخل الأمور وتهافت القيـــم في المستقبل. ولذا لن يكون أمـــام الإنسان إلا أن يقنع بالعيش في الحاضر، الذي يحيط به.

إن الماضـــي برأي (ما بعد الحداثة) ما هو ســـوى عبارة عن (نص) لا يمكن أن نتعلم منه شيئـــاً، ولذا يتعين علينا أن نعيش في الحاضر وحـــده، وهذا في رأي بعضهم منتهى العدمية واليأســـ. ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن العالم الغربي هو الذي سوف يواجه مرحلة (ما بعـــد الحداثة) بكل (مساوئها) لأن العالم الـــلا غربي لا يزال يرسف في قيود مبادئ وقيم ما قبـــل الحداثة، ولم يصل بعد إلـــى مرحلة الحداثة، التي بدأت مع حركـــة التنوير. والمشكلة التـــي تواجه (ما بعد الحداثة) والمفكرين ما بعد الحداثييـــن، هي عدم وجود نظرية واحدة أو موحـــدة عن هذه الحركة أو التيار الفكري، بـــل لا يوجد لها تعريف واحد مقبول ومعترف بـــه، وإنما توجد بدلاً من ذلك مواقف متضاربـــة ومتصارعة ناجمة في الأغلب عن الغموض المحيط بالتغيرات الاجتماعية والسياسية الحالية. ولكن على الرغم من عدم وجود مثل هذا التعريف، فإن الفكـــرة الأساسية في هذه الحركة هي الاعتقاد بأن أساليب العالم الغربي في الحيـــاة والفكر لم تعد تصلح للحاضر والمستقبل لأنها مستمـــدة من مبادئ قديمة أصبحت مرفوضـــة، وأن عصر الحداثة قـــد انتهى بالفعل، ولذا فمن الضروري تهيئة المسرح وإعداده لمستقبل جديد.

يقـود حركة (ما بعـد الحداثة) مفكـرون مشهـورون، أسهموا في وضـع أسس الحركة وإستراتيجيتها الأساسية وحددوا مسارها، وقد حدد أحد مفكريها الأهداف الكبرى الأساسية لهـا في عبارته الآتية (إن كل تحليلاتي تنكر فكرة وجـود أساسيات أو ضرورات واحتياجات عامة في الوجود الإنساني).

فمثـل هذه الأساسيات والضرورات يجب إزالتها ومحوها تماماً، لأنها متوارثة من الماضي، كما أنه ليس ثمة معنى في الدفاع عن العقل أو الحقيقة أو المعرفة أو مهاجمتها، وهذا معناه في آخر الأمر أنه لم يكن هناك ما يستحق الفهم، وليس ثمة فائدة من التفكير أو الفعل، كما أنه ليس هنـاك ما يمكن أن يتحكم في مشاعرنا وأفكارنا أو يوجهها، ولذا فإن في استطاعة أي شخص أن يتكلم أو يتصرف بالطريقة التي تحلو له ما دامت الحضارة الغربية لم تستطع أن تنجح سوى في السيطرة والقهر والدمار، من خلال التمسك بدعاوى العقل والصدق والحقيقة.

وتختلف الآراء حول طبيعة (ما بعد الحداثة)، فهناك من يرى أن دعوات (ما بعد الحداثة) ليسـت جديدة تمامـاً، وإنما هي مجرد تعديـلات وتحويرات نشأت نتيجـة لتغير الظروف والأوضـاع المحيطة بالحضارة الغربيـة، ولا تتأثر بها المبادئ الأساسية والمقومات الأصلية لتلـك الحضارة. ولذا فإن (ما بعـد الحداثة) لا تؤلف مرحلة قائمـة بذاتها ومتميزة، وإنما هـي مجرد استمرار لمرحلة الحداثـة إلى درجة أن ملامحها الأساسيـة لم تتضح بعد. في مقابـل ذلـك يذهب فريق آخر من المفكريـن إلى أن (ما بعد الحداثـة) تمثل الفجوة، التي تفصل بين الثقافة الرفيعة الراقية، التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وحتى منتصف القـرن العشريـن، والثقافة الشعبية المتدنية أو المتردية الضحلـة، التي تسود الآن في كثير مـن الأوساط فـي مختلف شعوب العالم، والتـي تمثل حالة من التدهـور والتخلف الثقافي والاجتماعي والسياسي ينبغي التصدي لها.

وهـذا معنـاه أن الاختلاف جوهـري بين حالتين مـن الثقافة، لكل منهمـا خصائصها، ومقوماتها المتميزة، وذلك على عكس ما يذهب إليه بعضهم من أن الاختلاف بين المرحلتين هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع، وأن أقوال وآراء وأفكار وتعبيرات (ما بعد الحداثة) ليسـت سوى نوع من التلاعب اللغوي بالألفاظ، وهو تلاعـب يتقنه تماماً كثير من المفكرين المعاصرين، الذين تأثروا بالبنيوية الفرنسية وأفلحوا في صياغة مصطلحات غامضة للإيحاء بأنها حركة فكرية جديدة وأصلية وتمثل كسراً في مسار التفكير.

وعلـــى أي حال فإنه لم تُحدَّد حتى الآن ملامح (مـــا بعد الحداثة) بدقة ووضوح، إذ نجد أن هناك من المفكرين من يذهب إلى أن المفهوم يتضمن (استحالة التحديد) نظراً لغموضه واتســـاع مجاله، إذ يشمل كل المعرفة الإنسانية بكل تفرعاتها وتنوعاتها، وما تحققه الآن وما يمكن أن تحققه في المستقبل من تقدم علمي وتكنولوجي.

ويترتب على هذا كله ما يقوله **ستيفن بست ودوغلاس كلنز** في دراسة عن (سياسات ما بعـــد الحداثة والصراع من أجل المستقبل) أن يجـــد الإنسان نفسه في الوقت الحالي موزعاً ما بين الحداثة و(ما بعد الحداثة)، أو بين التقاليد والمعاصرة، أو بين ما هو عالمي وما هو محلـــي، أو بيـــن ما هو عام وشامل وما هو خاص وجزئي، أو بين أشياء أخرى كثيرة متناقضة يصعـــب معها تحديد موقف الإنسان من الحياة في مجتمع الغد ونظرته إلى الأشياء وعلاقته هـــو نفسه بكل ما يحيط به. وهذا موقف مؤلم بكل المعايير ومملوء بالضغوط والتوترات، ممـــا يتطلب العمل علـــى تغيير هذا التناقض والتضارب ومحاولـــة إيجاد صيغة للتوفيق بين الحداثة، بكل ما يرتبط بها من مبادئ وقيم وأخلاقيات وسلوكيات وأفكار، و(ما بعد الحداثة) التي تنكر كل هذه المقولات وتتمرد عليها.

أي إنَّ الأمر يقتضي العمل على إزالة التوترات القائمة بين الأوضاع المتوارثة، التي تدور حـــول أفكار وتصورات واضحة عن مفاهيم التماسك والتضامن والحقوق العامة والانتماءات الاجتماعيـــة والسياسية، والتحديـــات التي تمثلها (ما بعد الحداثـــة) والأفكار الجديدة التي تدور حول الاختـــلاف والتعدد وتشعب الاتجاهات والتوجهـــات الفكرية عن الهوية وغيرها. إذن، فالأمـــر يقتضي التوصل إلـــى صيغة ينطبق عليها التعبير الشائـــع في بعض الدراسات عـــن الحداثة ومـــا بعدها، وهو (الوحـــدة متفاضلة الأطراف) وذلك علـــى وصف أن الوحدة المجردة أو المطلقة، التي ارتبطت بحركة التنوير وفلاسفته، والتي تمثلت في وحدة الطبيعة البشريـــة، هي في حقيقتهـــا - من وجهة نظر (ما بعد الحداثة) - وحـــدة زائفة تخفي وراءها كثيراً من الاختلافات والتمايزات والانشقاقات والجماعات والاتجاهات والمواقف المتضاربة والمتناقضة، والتي يمكن أن تؤدي إلى انفجار المجتمع الإنساني.

والمعضلـــة، التي تواجه مفكري (ما بعـــد الحداثة) هي البحث عن طريقة يمكن أن تؤدي فـــي المستقبل إلى تجنب الصراع والحروب، وإقـــرار العدالة الاجتماعية والقضاء على عدم المساواة وعلى الفقـــر والتغلب على النتائج السيئة المترتبة على النمو اللا عقلاني وسيطرة

الاقتصاد الرأسمالي (العولمة) والمتمثل في بعض المؤسسات والمنظمات الأمريكية أو الدولية الكبرى، التي خلقت كثيراً من الأزمات الاقتصادية والبيئية. وثمة محاولات يبذلها المهتمون بمستقبل العالم، للتقريب والتوفيق بين متطلبات الحداثة و(ما بعد الحداثة)، وإزالة التنافر بين الاتجاهين وإيجاد صيغة موحدة، بدلاً من الرفض المتبادل، واستخدام هذه الصيغة في تحقيق المصلحة العامة للمجتمع الإنساني ككل، ولكن تبقى بعد هذا كله المشكلة الأساسية المرتبطة بـ(ما بعد الحداثة)، والتي قد تكون عقبة أمام جهود التقريب والتوفيق، وهي عجز (ما بعد الحداثة) الوصول إلى تحديد دقيق لتصورها عن عالم المستقبل وما سيكون عليه الوضع الإنساني في ذلك العالم.

الخبز وصناعته في التاريخ القديم

د. محمود حمود

يعد الخبز أحد العناصر الأساسية في غذاء معظم شعوب العالم منذ عصور ما قبل التاريخ، ولولا الخبز المعتمد على القمح، والحبوب عموماً، والقدرة على زراعته واستغلاله وتخزينه من فصل إلى آخر، لما تمكن البشر من الاستقرار والاستيطان والتحضر في الزمن القديم.

وقد اختلفت مادة صنعه تبعاً للبيئة الجغرافية والمناخ السائد في كل منطقة، فصنع من الشعير في الرافدين ومن القمح والشعير والشوفان في مصر وبلاد الشام، ومن الذرة في أمريكا، ومن الأرز في شرق آسيا، ومن الدخن في إفريقيا ومنطقة جنوب الصحراء.

شهدت منطقة الهلال الخصيب أولى محاولات تدجين الحبوب ولاسيّما القمح في مواقع المريبط وأبي هريرة وحالولا والجرف الأحمر وجعدة المغارة وتل أسود وأريحا وكان ذلك خلال العصر الحجري الحديث قبل نحو عشرة آلاف سنة من الآن، وقد عثر في بيوت هذه المواقع على أدوات جرش الحبوب ومواقد وتنانير لصناعة الخبز. أما زراعة القمح فقد انتقلت إلى جنوبي غربي آسيا، وأوروبا، وشمالي إفريقيا وشبه القارة الهندية، ولأن القمح لم يكن محصولاً ناجحاً في جنوبي بلاد الرافدين، نظراً لملوحة التربة، فقد كان الشعير هو البديل الأساسي لصناعة الخبز، الذي كان في بدايته من النوع الخشن والمسطح وغير المخمر.

يحتاج الخبز لكي ينضج ويصبح مذاقه مستساغاً ورقيقاً وبنوعية جيدة، لحدوث التخمير والــذي يُكسب العجين أيضاً المرونة التي تسهل عملية إنتاجه. ولم يكن التخمّر معروفاً على نطــاق واسع في تلك العصور، قبل أن يتوصل الناس لاستخدام مصادر متعددة للتخمير منها الاحتفــاظ بقطعــة صغيرة من العجين السابــق لإضافته إلى العجين اللاحــق، لأن جراثيم الخميــرة تنشأ في كل مكان، بما في ذلك سطح العجين، لذا يصبح أي عجين يترك ليستريح مُخمــراً بشكل طبيعي. كما استخدم اللبن الرائب والحليــب الحامض ورغوة البيرة للتخمير أحيانــاً، واستخدمــت شعوب أخرى عجينة مكونة من خمر العنــب والدقيق، أو نخالة القمح الغارقــة في النبيذ كمصــدر للخميرة. ويبدو أن بلاد الرافديــن عرفت الخميرة بين عامي (٤٠٠٠ و ٣٥٠٠ق.م)، وعرفت مصر خميرة الخبز والبيرة نحو (٤٠٠٠ق.م).

مرت عصور طويلة قبل أن يعرف الإنسان الطواحين التي تعمل على طاقة الماء والرياح، فقد كانت تُطحن الحبوب، ومنذ العصر الحجري الحديث، بهرسها بحجارة متعددة الأشكال، نتــج عنها خبز خشــن ورديء، لكن استطاع سكان المشرق العربــي القديم استعمال طاحونة الجرشــ المؤلفة من رحوين من الحجارة دائرية الشــكل توضع البذور من فتحة في الأعلى، وذلك منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، مما أدى إلى إنتاج طحين أكثر نعومة وخبزٍ أكثر جودة، وقد وجدت أنواع مختلفة من حجارة طحن الحبوب على أرضيات ومصاطب البيوت في جميع المواقع الأثرية في المشرق العربي.

جــاء ذكر الخبز في ملحمــة جلجامش على لسان أنكيدو، الــذي كان أول شيء تعلّم أكله بعدمــا تخلّى عن رضع الحليب مــن ضرع الحيوانات، كما ذكر فــي الملاحم الأخرى بشكل مجــازي بوصفه خبز وماء الحياة، وذكــر مراراً في النصوص القديمــة إذ كان يستخدم في الاحتفالات الدينية التي تجري في المعابد وقُدِّم للآلهة، كما كانت تقدمه الأمهات لأولادهن الذاهبيــن إلى المدرسة، وهذا ما سطّره أيضــاً المصريون الأوائل في ألواحهم وجدارياتهم، كمــا رافق الأموات إلــى قبورهم زاداً لهم في حياة ما بعد المــوت، وقد عثر عليه في كثيرٍ مــن المدافــن ومنها قبر الملكة «باوبي Puabi» في مدينة أور. وما يدل على أهميته في بلاد الرافدين أن الرمز الذي يشير إلى الأكل في اللغة السومرية يتكون من شكل رأس إنسان وفمه وأمامــه الخبز، وفي الأكادية تــدل كلمة «أكالو akālu» على الخبز وهي تشير إلى فعل الأكل. وقــد صنع الخبز بأشكال مختلفة، إلا أن النوع الأكثــر شيوعاً عند السومريين كان ذو الشكل المسطــح، ثم ظهرت أنواع أخرى صنعت من طحين أفضل أضيفت إليه في كثير من الأحيان

مواد حيوانية ونباتية مثل: الجبنة والزبدة والحليب والفواكه وعصير الفواكه وبذار السمسم. أما الخبازون في بلاد الرافدين وخاتي فقد كانوا موظفين لدى القصر أو المعبد تحت إمرة رئيس الخبازين، فيما صنع السكان العاديون خبزهم في بيوتهم.

يعكس تبجيل سكان المشرق العربي القديم للإله «دجن Dagan»، المرتبط بالقمح والغلال، تقديرهم الشديد للحبوب والقمح الذي يصنع منه الخبز وهو أساس الحياة، وقد بنوا لهذا الإله كثيراً من المعابد في إيبلا وماري وتوتول وإيمار وترقا وأوغاريت والعديد من المواقع السورية والرافدية.

على الرغم من انتشار استخدام القمح في سورية خلال الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أن الوثائق تثبت أن سكان إيبلا استخدموا أحياناً في غذائهم خبز الشعير. ولكن النصوص المتعلقة بالاحتفالات والطقوس تشير إلى استخدام خبز القمح، ومنها احتفال جلوس الملك على العرش وتجديد الولاء له، وكان يجري كل سبع سنوات مرة في عيد الحصاد، فتُحصَى كمية القمح في العنابر الملكية وما لدى السكان ويقارن الناتج الفائض مع السنوات السابقة.


رحى طحن الحبوب في إيبلا

وقد عثر في إيبلا على أدوات كانت تستخدم في عمليات طحن القمح، إذ وجد في إحدى غرف القصر الملكي المخصصة لتخزين الحبوب بعد طحنها، ست عشرة بلاطة مع مدقاتها من الحجر البازلتي تبعد بعضها عن بعضٍ مسافات متساوية موزعة على مصطبة من اللبن، كما عُثِرَ على فرن متنقل من الفخار في القصر الغربي من مدينة إيبلا، أما أفران السكان العاديين فكانت تقام داخل المنازل في الباحات.


قالب لصناعة الخبز من ماري

أما في ماري فقد عثر في القصر الملكي على عدد من الأفران وقوالب الخبز الفخارية دائرية الشكل والتي تحمل زخارفَ على شكل حلقات دائرية أو حلزونية، وكانت مخصصة لإنتاج الخبز والحلويات للقصر

الملكي. وتورد نصوص ماري أربعة أنواع للخبز، أكثرها انتشاراً كان من النوع غير المخمَّر المصنوع من دقيق الشعير على شكل ألواح طرية مسطحة. وهناك نوع آخر استخدمت فيه الخميرة ووصف بخبز إلهة ماري المخمَّر. أما الأنواع الأخرى فربما كانت تشير إلى المعجّنات والفطائر والحلويات، لأنهم أضافوا إليها موادَّ كزيت السمسم والعسل ودبس التمر وغير ذلك.

وفي أوغاريت يرد ذكر الخبز مراراً ولاسيّما في النصوص التي تتضمن قوائم بالمواد المقدمة للآلهة، وهناك نص يذكر فيه تقديم الخبز للإلهين سحر وسالم.

وفي إيمار كان الخبز أهم المواد التي قدمت في مختلف الاحتفالات ومنها احتفال تنصيب «نين دينجر Nin- dingir» كاهنة معبد بعل، وتنصيب «ما ش أرتو Maš-artu» كاهنة لمعبد عشتار، وقدم الخبز مع الجعة والنبيذ بكميات كبيرة في احتفالات الكيسو kissu التي ربما كانت تشير إلى جلوس الملك على العرش، وجرت العادة في هذا الاحتفال على إدخال أربع قطع من خبز النذور لوضعه أمام الآلهة، ثلاث منها من الخبز المجفف، وواحدة من المجفف المعجون بالفواكه. وفي احتفال خاص بالإلهة «إيريش كي جال Ereš- ki- gal» كانت تقدم لها الأضاحي ثم يوضع أمامها سبعون رغيفاً من الخبز، وسبعون قطعة من اللحم، وأربع جرار ممتلئة بالجعة، بعدها يتقاسم المرتلون، الذين قاموا بإحياء الطقس، كل ما في الجرار، ثم يأكلون ويشربون ويطوفون بالمعبد.

ترد في الحوليات الآشورية التي يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، قوائم مملوءة بأسماء المواد التي كانت تصادر أو كان يُفرض تقديمها على السكان في جميع المناطق السورية ومن بينها الخبز، الذي صنعه الآراميون من طحين الشعير ومن القمح، وربما من الذرة أيضاً، وبنوا التنانير لخبزه في بيوتهم، في حين اقتصر وجود الأفران العامة على القصور الكبرى والمعابد، كما في كل المراحل السابقة، إذ اقتضى العدد الكبير من الموظفين والخدم، وجود أفران عامة تنتج كميات كبيرة من الخبز لتخدم هذا العدد. وعرفت خلال هذه المدّة طريقة الخبز على الصاج، ووجدت أيضاً القوالب الفخارية المخصصة لصنع المعجنات والتي كُشِف عنها في كثير من المواقع الأثرية ومنها قطنا. وكان تحضير الخبز في المنازل الآرامية منوطاً بالنساء وفق ما يظهره نقش الفخيرية: (ومئة امرأة لترضعن طفلاً ولا يروى، ومئة امرأة لتخبزن في تنور خبزاً ولا تملأنه).

ونظـــراً لشغف الآراميين برغيف الخبز وما يمثله من قيمـــة فقد صكوا عدداً من النقود الفضيـــة بحجم يشبه رغيف الخبـــز شكلاً ومضموناً، وكان الهدف مـــن ذلك هو استعمالها كوحدة للتبادل التجاري، وتمت في مملكة سمأل (زنجرلي حالياً) نحو (٧٣٠ ق.م)، وهي أول محاولة صك نقود في العالم.

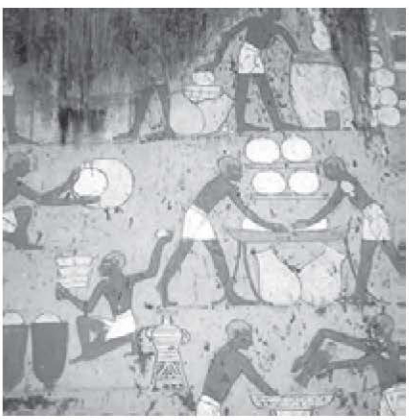
استخدم الحثيـــون كثيراً من أنواع الخبز في احتفالاتهـــم الشعائرية وكان الخبز بأحجام وأوزان وأشـــكال مختلفة ودخلت في صناعته كثيرٌ من المـــواد الأخرى حسب الغرض من كل احتفال.

وقد توجب على الخبازين الذين يصنعون الخبز المقدم للآلهة أن يكونوا خالين من القمل وحالقي الذقون، ومقلمي الأظافر، ونظيفي البدن والثياب النظيفة، ويجب أن يقوموا بتنظيف المطبخ جيداً وكنسه ورشه بالماء قبل البدء بالعمل. ويرد في نص كتابي قيام الكاهن في أحد الطقوس بإضافة الخميرة على العجين، ويترافق ذلك مع قيامه بقراءة بعض الأدعية.



طحن الحبوب - منحوتة مصرية

كان الخبز بالنسبة إلى المصريين الغذاء الأكثر حضوراً فـــي كل الوجبات ولا تعد الوجبة كاملة إذا لم يزيّنها الخبز والجعة، كما كان عنصراً مهماً في الطقوس الدينية، وكشف الآثاريون كثيراً من أرغفة الخبز في مدافن تعود إلى عصر ما قبل السلالات وتنتمي إلى الثقافة «البدارية Badarian» وترجـــع إلـــى (٣٠٠٠ق.م). وقد أظهـــرت التحاليل أن هذا الخبز لـــم يكن يصنع من نوع واحـــد من الحبوب، على الرغم من أن قمح «الإيمير Emmer» والشعير كانا الأكثـــر شيوعاً. وكانت للخبـــز أشكال مختلفة ودخلت كثير من المواد في صناعته، وكثيراً ما كان يخلط مع ثمار التين. أما عملية تحضيره فتوضحها المشاهد المرسومة على قبر ملكي وجد في سقارة، ويعود تاريخه إلى عصر الأسرة الخامسة (المملكة القديمة)، فتظهر ورشة الخبازين وهم يقومون بعملية التخمير والعجن ووضعه في صينيات قليلة العمق،



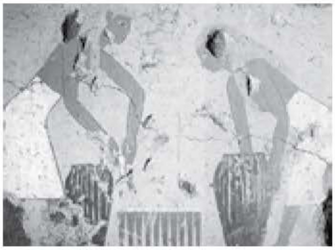
مشهد صناعة الخبز من رسوم القبور المصرية

ثم تنقل إلى الفرن المتوضع بعيداً إلى الجهة اليسـرى، وبعد ذلك تخـرج الأرغفة لتظهر بحجمهـا الكبير. ويشير إنتـاج الخبز بهذه الورش وهذا العدد من العمال المتخصصين إلى إشراف مباشـر ومراقبة الجهات العليا في الدولة على إنتاجه. وقد تطورت صناعة الخبـز تدريجيـاً خلال هـذا العصـر، إذ أظهرت التنقيبات التي تمت في الجيزة صفوفاً



وادي الملوك- عدة انواع من الارغفة لبعضها شكل الحيوانات السلالة ٢٠ رعمسيس الثاني

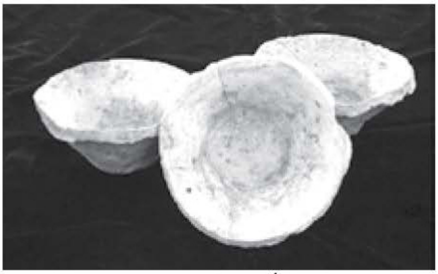
مـن القوالب الفخارية الممتلئة بالعجين وهي مركونة على الجمـر لخبزها. كما استخدم التنـور المحمول وهو على شكل برميل مصنوع من الطين، ويتكون من قسمين أفقيين، أسفل ويتضمن الحاوية التي يوضع فيها الحطب لتوقد فيه النار، وأعلى خصص لوضع الخبز.



رسوم من قبور الجيزة- المملكة القديمة

ومـن عصر المملكة الوسطى توجـد أيضاً كثيرٌ من رسوم القبـور التي تتضمن تفاصيل صناعـة الخبز ومراحله، وآلية عمل الخبازين، ومن أهم الرسوم تلك التي عثر عليها هي في قبور موقع بني حسن. ومن عصر المملكة الحديثة هناك رسوم جدارية وجدت على قبر نيب أمـون Nebamun في الأقصر على الضفة الغربية للنهر. أما الأفران التي استخدمت خلال هذا العصر فكانت ذات شكل مربع وضعت فيها القوالب الفخارية بشكل طولي وبشكل دوائر مخروطيـة. وفي عصر المملكـة الحديثة اعتُمِدَ على تنور جديـد ذي حجم كبير أسطواني الشكل مصنوع من الفخار ومحاط باللبن والطين، وقد صنع الخبز خلال هذا العصر من قمح الإيميـر فيما أصبح الشعير قليـل الاستخدام. وتمت أحياناً إضافة بعض النكهات إلى الخبز ومنها بذار الكزبرة والعسل والزبدة والبيض والزيت والنباتات العشبية وكذلك الفواكه والتمر، وهـي مواد لم تكن بمتناول شرائح المجتمع كافة. وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد أصبح المصريون يشترون الخبز «تا Ta» من الأكشاك في الطرقات.

قام مؤخراً، الباحـث «م. ميلارد M. Millard» من جامعة ميشغن الأمريكية، بإجراء مقارنة بين الأواني الناقوسية Bevel Rim Bowl في بلاد الرافدين مع الأواني المصرية المسماة بيدجا bedja


الأواني الناقوسية

Bowl والتي تعني قالب الخبز، ورأى أن هناك تشابهاً كبيـراً بينهما في الشـكل والحجـم والمواصفات، وتوصـل إلـى أن كليهمـا كان مخصصـاً لصناعة الخبز. وقد اتصفت أواني بيدجا بجدرانها الرقيقة، لاستخدامها في الأفـران المحمولة المتحركة، في حيـن كانت الأوانـي الناقوسية أكثـر سماكة ووزناً واستخدمت في الأفران العاديـة الثابتة. وهناك عدة أدلة على استخدام هذه الأواني للخبز إذ عثر في أريدو قرب المعبد على بناء مملوء بفخار الأواني الناقوسية، وفي إحدى الغرف وجد تنور وحوله كثيرٌ من فخار هذه الأواني، وفي حبوبة كبيرة وجبل عـرودة عثر علـى فخار الأواني الناقوسية مع الرماد في الأفران، وهـذا ما يبدل الفهم الشائع عن وظيفـة هـذه الأواني كمكيال للحبوب. كمـا يستبعد الباحث أن تكون صالحـة لخبز الشعير بسبب مواصفاتـه، وإذا كانت فعـلاً كذلك فلابد أن رغيفها كان ثقيلاً جـداً ورديء الصنعة، ومن ثمَّ فمن المحتمل أن هذه الأواني استخدمت لصناعة خبز القمح. وقد افترض ميلارد أن التشابه بين الأواني الناقوسية الرافدية، وإناء بيدجا، يعكس تأثيراً رافدياً مباشراً على مصر في صناعة الخبز المخمر وافترض أن قوالب الخبز ظهرت في عصر أوروك بعد معرفة تخمير الخبز.

اعتمـد الإغريق على الخبـز الذي نقلوا طريقة صناعته من المشـرق العربي بين عامي (٧٠٠ و١٣٠٠ق.م)، وعـن طريـق اليونان عرفـه الرومان وعرفته أوروبـا. وقد كانت المدن اليونانية تتنافس في إنتاج أجود أنواعه، واشتهرت أثينا بخبّازها الشهير ثييريون Thearion وفـي بداية القرن الخامسـ كان يمكن شراء الخبز في أثينا من الأكشاك. وقد كتب لينكيوس Linekus متغنيـاً بخبـز جزيرة رودس: (أن أهـل رودس يضعون على طاولـة الطعام أفخر أنـواع الخبز، ومنه نوع يطلق عليه اسم رغيف الموقـد، مصنوع مع أشياء حلوة، وهو خفيف ولذيـذ جداً... لدرجة أنه يشعر الرجل الشبعان بالجـوع). وكان الخبز المصنوع من الدقيق الفاخر والزيوت والنبيذ، أحد أهم القرابين المقدمة للآلهة في الطقوس الدينية ومنها الإلهة تشثونيك Chthonic، المعروفة باسم «بساديستا».

أمـا الخبز عنـد الرومان فقد كان جزءاً لا يتجزأ من الأمن الغذائـي والصحي، ودار جدل حول الخبـز الأبيض والأسمر وأيهما الأفضل للصحة والجسم. وعرف الرومان كثيراً من أنواع الخبز منها الخبـز المصنوع بالمحار والبيض والزبدة والحليب والجبن، والخبز المحمص والذي كان حكراً على

الأثرياء فحسب. وقد ظهر الخبازون اليونان في روما منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وعرفت العاصمة الرومانيـــة، علاوة على المخابز الشعبية والخاصة، معاهد تعليـــم الخبازة، وكان الخبازون محترمين جـــداً، لدرجـــة أن العبيد منهم كانوا يعدّون مـــن طبقة الأحرار، وحُظّر عليهـــم ممارسة مهنة أخرى، والاختلاط بالناس العاديين وحضور الاحتفالات الشعبية كي لا تنتقل إليهم الأمراض المعدية.



أفران للخبز

مراجع للاستزادة

1- Don R. Brothwell and Patricia Brothwell, A Survey of the Diet of Early Peoples, expanded edition [Johns Hopkins:Maryland] 1998 (p. 166).

2- Ronald Sheppard & Edward Newton, The Story of Bread (Charles T. Branford:Boston MA), 1957 (p. 107- 109).

3- M. CHAZAN and M. LEHNER. An ancient analogy: Pot baked bread in ancient Egypt and Mesopotamia.(Paleorient. Vol 16-1990 2/).pp 21- 35.

4- J. M. Renfrew, Vegetable in the Ancient Near Eastern Diet, Civilizations of the Acncient Near East, ed J.M. Sasson (New York 1995), pp. 191- 202.

التَّوثيقُ أَمَانَةٌ للأَجْيَال

د. محمَّد عبد الله قاسم

الفِكْرُ حبْلٌ مَتَى يُمْسَكْ على طَرَف
مِنْهُ يُنَطْ بالثُّريَّا ذلك الطَّرَفُ
والعَقْلُ كالبَحْرِ ما غِيْضَتْ غَوارِبُهُ
يَوْماً، ومِنْهُ بنو الأَيَّامِ تغترِفُ

«شيخ المعرَّة أبو العلاء ت ٤٤٩هـ»

أَهمّيّة التُّراث وحفاوة المُسْتشرقين به

هذا التُّراثُ الواسعُ الحافلُ الضَّخْمُ الّذي حَبَّرَهُ آباؤُنا صُنَّاعُ الثَّقافةِ العربيَّةِ جديرٌ بأَنْ نَقِفَ أَمَامَه وِقْفَةَ إجْلالٍ وإكبارٍ، وما أَحْرَانا - نحنُ القوَمَةَ على الثَّقافَةِ العربيَّة - أَنْ نَنْهَضَ بعِبْءِ نَشْرِ ذلك التُّراثِ الضَّخْمِ وتَجْليَتِهِ وَفاءً منّا لحَضَارَتِنا ولأَنْفُسنا ولأَجْيَالِنا القَادِمَة.

إنَّ الصَّيْحَاتِ المَشْبُوهَةَ التي يُرَدِّدُها أَدْعِيَاءُ الثَّقَافَةِ ودُعَاةُ الاستعمارِ الثَّقافيِّ أَنْ ينبغيَ أَنْ نَطْرَحَ هذا التُّراثَ ونَنْبِذَهُ وَرَاءَ ظُهُورِنا لم تَجِدْ قَلْباً يُصْغي إليها، فَذَهَبَتْ صَيْحَةً في وَادٍ، ومَنْ صَفَّقَ لها مِنْ ضِعَافِ القُلُوبِ وأَرِقَّاءِ التَّفكيرِ يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَهْدِمُوا هذا الصَّرْحَ الثَّقافيَّ العظيمَ، ويَسْعَوْنَ في سبيلِ ذلك ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ = رُدُّوا على أَعْقَابِهم، وما سَرِقَةُ الفرنسيين والإنكليز لنفائِسِ المخطوطاتِ في بلادِ الشَّامِ والعراقِ وأَرْضِ الكنانة إبَّانَ الاستعمارِ الحديثِ

إلَّا إيْمَانٌ منهم بقيمةِ ما انْتَهَبُوا، وسَعْيٌ لبَتِّ جُذُورِ العَرَبِ عَنْ نُصُوصِ تراثِهم وما يَرْبِطُهم بأُمَّتِهم، صُنْعَ المَغُوْلِ حِيْنَ أَغْرَقُوا الكُتُبَ في دجلة يريدونَ استئصالَ شَأْفَةِ هذه الأُمَّةِ وانْبِتَاتَ صِلَتِها بماضيها وتَارِيْخِها.

حاولُوا أَنْ يَقْضُوا على الكتابةِ العربيَّةِ ليَحُوْلُوا بَيْنَ حَاضِرِ العَرَبِ وماضيهم، وسَعَوا إلى ذلك سَعْياً، فبَاؤُوا بالإِخْفَاقِ. ثمَّ تَصَاعَدَ مَكْرُهم، فحارَبُوا العربيَّةَ الفصيحةَ، ودَعَوا أَنْ تَحُلَّ العَامِّيَّاتُ المحليَّةُ الضَّيِّقَةُ مَحَلَّها، ثمَّ نَادَوا أَنْ نَدَعَ أَهَمَّ خصّيصة مِنْ خَصَائِصِ العربيَّة، وهي الإِعْرَابُ مِلَاكُ العربيَّةِ وقِوَامُها، ذلك أنَّه عِبْءٌ نَاءَتْ به بَعْدَ القُرُوْنِ قُرُوْنٌ. ثمَّ أَرَادُوا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ مَقَايِيْسِ اللُّغَةِ وأَنْظِمَتِها، فنَقُوْلَها فَوْضَى اعْتِبَاطاً مِنْ غَيْرِ نِظَام. ثمَّ سَفَّهُوا مِنْ أَمْرِ هذا التُّرَاثِ الضَّخْمِ، فلم يَتْرُكُوا مَطْعناً ولا عُوَاراً ولا مَثْلَبَةً إلَّا أَلحقوها به يَتَحَيَّفُوْنَ المُشْتَغِلِيْنَ به ويَتَنَقَّصُوْنَهم، ثمَّ لم يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا أَرَادُوا.

إنَّنا نُقَدِّرُ كُلَّ فِكْرَةٍ عِلْمِيَّةٍ مُجَرَّدةٍ تُعَالِجُ شَأْناً مِنْ شُؤُوْنِ تُرَاثِنا واللُّغَةِ الّتي حَمَلَتْهُ، ولكنْ إِذَا كَانَ البَاعِثُ لهذه الأَفْكَارِ غَرَضاً تَخْرِيْبِيّاً يُهَوِّنُ مِنْ ثِقَتِنا بتُرَاثِنا ورِجَالِ أُمَّتِنا لَمْ يَكُنْ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ نُلْقِيَ لَهَا بَالاً.

ومِنَ الإِنْصَافِ أَنْ نَشْكُرَ أُولَئِكَ الّذين هَوَّنُوا مِنْ شَأْنِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ، إِذْ أَيْقَظُوا فينا الشُّعُورَ بالعِزَّةِ حِيَالَ هذا التُّراثِ، وأَغْرَوْنا بأَنْ نُخْرِجَ مِنْ نُصُوصِهِ الكُنُوْزَ تَعْقُبُها الكُنُوْزُ. فقَدِ اتَّجَهَتْ أَقْسَامُ اللُّغَةِ العَربيَّةِ في الجَامِعَاتِ السُّوريَّةِ إلى تكليفِ طُلَّابِ الماجستير تحقيقَ مَخْطُوْطٍ يَمُتُّ بصِلَةٍ إلى مَوْضُوْعِ رِسَالتِهم، وقَدْ حَدَّثَني خَلْقٌ مِمَّنْ أَعْرِفُ أَنَّ الكُتُبَ التُّراثيَّةَ المحقَّقةَ هي أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الكُتُبِ مَبِيْعاً في المَعَارِضِ السُّوريَّةِ والعربيَّةِ والدَّوْليَّةِ، وانظرْ إلى النُّصوصِ التُّراثيَّةِ الّتي أَخْرَجَها المَعْهَدُ الفرنسيُّ بدمشق، والمَعْهَدُ الأَلمانيُّ في بيروت تَرَ حَفَاوَةَ المُسْتَشْرِقِيْنَ بنُصُوْصِ التُّراثِ العربيِّ وحِرْصَهم على إِخْرَاجِه.

ولَمَّا ظَهَرَتِ المَطْبَعَةُ في القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ الميلاديِّ كَانَ المُسْتَشْرِقُوْنَ مِنْ أَسْبَقِ النَّاسِ إلى طَبْعِ الكتابِ التُّراثيِّ العربيِّ. وإنَّ المرءَ ليَحَارُ مِنْ غَزَارَةِ ما طَبَعُوْهُ مِنْ تُرَاثِنا، وكَأَنَّ هذا الاختراعَ العظيمَ إنَّما جاءَ لخِدْمَةِ تراثِنا العربيِّ وَحْدَه، وإِذَاعَتِهِ ونَشْرِه، وكَأَنَّه لم يكنْ بَيْنَ أَيْدي النَّاسِ في تلك الأَيَّامِ مِنْ تُرَاثِ الإنسانيَّةِ إلَّا تُرَاثُ العَرَبِ.

وقَدْ نَقَلَ المُسْتَشْرِقُوْنَ الاهتمامَ بالتُّراثِ العربيِّ إلى دَاخِلِ الجَامِعَاتِ الأُوْرُوْبِيَّةِ، فأَنْشَؤُوا بها كَرَاسِيَ للُّغَاتِ الشَّرقيَّةِ والأَدَبِ العربيِّ، كما في جامعاتِ السُّوربون في فرنسة،

وإكسفورد وكمبريدج بإنكلترة، وليدن بهولندة. ومِنْ غريبِ ما فَعَلَهُ المُستَشرِقُونَ أنَّهُمْ قَدِ اصْطَنَعُوا في هذه الأقسامِ التي تُعنَى بالتُّراثِ العربيِّ وَظيفةَ قارئِ نُصُوصٍ بجانبِ الأساتذةِ والمُحاضِرِينَ.

لم يَقْتَصِرْ جَهْدُ المُستَشرِقِينَ عَلَى نَشْرِ النُّصُوصِ التُّراثيَّة فحَسْبُ، بَلِ انْصَرَفُوا إلى دِراسَةِ التُّراثِ العربيِّ، في فُنُونِهِ وأَطْوارِهِ المُختَلِفَة، ورَصَدُوا لَهُ الجَوائِزَ، وأَنْشَؤُوا لَهُ مجلّاتٍ مُتَخَصِّصَةً مِنْ أَشْهَرِها: مجلَّةُ الجمعيَّة الملكيَّة الآسيويَّة، والمجلَّةُ الشَّرقيَّة الألمانيَّة، وعَقَدُوا المؤتمراتِ التي تَبْحَثُ في شُؤُونِ التُّراثِ العربيِّ، وأَسَّسُوا دَوائِرَ المَعارِفِ العربيَّة، وأَشادُوا المكتباتِ التي تُعنَى بجَمْعِ المَخْطُوطاتِ العربيَّةِ وصِيانَتِها، كالمكتبةِ الأهليَّةِ بباريس، (١٦٥٤م)، ومكتبةِ المُتْحَفِ البريطانيِّ (١٧٥٣م)، ومكتبةِ جامعةِ لَيْدن.

ولَمَّا تُوُفِّيَ المُستَشرِقُ الإنكليزيُّ إلْياس جون جيب سَنَةَ (١٩٠١م) أَرادَتْ والِدَتُهُ تخليدَ ذِكْرَاهُ، بمَبَرَّةٍ دائِمَةِ الرَّيْعِ، فاقترحَ عليها المُستَشرِقُ إدوارد جرانفيل براون وَقْفَ مَبْلَغٍ مِنَ المَالِ، يُنْفَقُ رَيْعُهُ على نَشْرِ البُحُوثِ العِلْمِيَّة في تاريخ العربِ والفُرْسِ والتُّرْك وآدابِهم وفَلْسَفَتِهم ودياناتِهم، وهِيَ العُلُومُ التي كان ابنُها قَدْ تَخَصَّصَ فيها، ففَعَلَتْ، وأُنْشِئَتْ لجنةُ جيب التَّذْكاريَّةُ بلندن، ونَشَرَتْ كُتُباً مِنْ أُمَّهاتِ مَصادِرِ التُّراثِ العربيِّ: الأَنْسَاب للسَّمْعَانيِّ ومُعْجَم الأُدَباء لياقوتٍ، وتجارب الأُمم لابْنِ مسكوَيْه، والوُلاة والقُضاة للكِنْدِيِّ، وديوان الأعْشَى (الصُّبْح المُنِيْر في شِعْرِ أَبي بَصِيْرٍ مَيْمُوْنِ بْنِ قَيْسِ بْنِ جَنْدَلٍ والأَعْشَيْنَ الآخرينَ)، وقَدْ صُدِّرَتْ مَطْبوعاتُ لجنةِ جيب التَّذكاريَّة بهذا البَيْتِ:

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا
فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الآثَارِ

ومُعْظَمُ النُّصُوصِ التي نَشَرَها المُستَشرِقُونَ حَوْلَ التَّاريخ والبُلْدانِ والجَغْرافيةِ والتَّراجِمِ والطَّبَقَاتِ والأَدَبِ ودَوَاوِيْنِ الشِّعْرِ ولا سيَّما الجَاهِلِيِّ والمَجْمُوعَاتِ الشِّعْرِيَّةِ الخاصَّةِ كالنَّقائِضِ وشعرِ هُذَيْلٍ.

إنَّ هذا النَّشاطَ الاسْتِشْرَاقِيَّ المَحْمُوْمَ في تَحْقِيْقِ النُّصُوصِ العَرَبِيَّةِ وإِخْرَاجِها للنَّاسِ في لَبُوْسٍ عِلْمِيٍّ حديثٍ لدليلٌ قاطعٌ على مَعْرِفةِ القَوْمِ بقيمةِ هذا التُّراثِ وجَلالِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَعَارِفَ وأَسْرَارٍ.

تَحْقِيْقُ النُّصُوص

مصادر الكلام على فَنِّ تحقيق النُّصوص

١- تحقيق النُّصوص ونَشْرُها، عبد السّلام محمّد هارون، القاهرة، (١٩٥٤م). وهو أَوَّلُ كتابٍ عربيٍّ في هذا الفَنِّ يُوضِّحُ مَنَاهِجَهُ ويُعَالِجُ مُشكِلَاتِه.

٢- محاضراتٌ في أُصُول نَقْدِ النُّصوص ونَشْر الكتب، المُستَشْرِق الألمَانيّ برجستراسر، نُشرت سنة (١٩٦٩م) بدار الكتب المصريّة في القاهرة بعناية د.محمَّد حمدي البكريّ.

٣- مقال عن تحقيق النُّصوص: نشره د. صلاح الدّين المنجِّد في العدد الثّاني من مجلّة معهد المخطوطات بالقاهرة.

٤- المبحث الثَّالث مِنْ كتاب بنت الشاطئ «مقدّمة في المنهج»: توثيق المخطوطات والمصادر، وتحقيق المتن، ودراسة النّصّ.

٥- الفصل الثَّالث من كتاب شوقي ضيف «البحث الأَدبيّ»: التَّوثيق والتَّحقيق، أَفاد فيه من تجاربه فيما أَخرج مِن كتب محقَّقة.

٦- منهج تحقيق النُّصوص ونشرها، د.نوري حمّودي القيسيّ، ود.سامي مكّيّ العاني.

٧- أمالي مصطفى جواد في فنِّ تحقيق النُّصوص، عبد الوهّاب محمّد العدوانيّ، نشرها في العَدَدِ الأَوَّل مِنَ المُجَلَّدِ السَّادِسِ مِنْ مجلَّة المَوْرِدِ البغداديَّة.

٨- تحقيق التُّراث، د.عبد الهادي الفضليّ، جُدَّة، (١٩٨٢م).

٩- مَدْخَل إلى نَشْرِ التُّراث العربيّ، د. محمود محمَّد الطّناحيّ، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٨٤م).

لعلَّ أحمد زكي باشا (١٨٦٧ - ١٩٣٤م) أوَّل مَنْ نادى بفكرة إِحياء التُّراث العربيّ على وفاق المنهج الحديث للتحقيق، فقد أتقن الفرنسيَّة، وكان يفهم الإنكليزيَّة والإيطاليَّة، وكان وثيق الصِّلة بعلماءِ الاستشراق، وأحكم صلته برجالات العرب في جميع أقطارهم، وكان محبّاً للعربية، فتسمَّى بشيخ العروبة، وسمَّى داره بيت العروبة، وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب، ووَقَفَها، فنُقلت بعد وفاته إلى دار الكتب المصريّة، وسُمِّيَت فيها المكتبة الزّكيّة، ورُمِز لها في فهارس الدَّار بالحرف «ز».

حقّق «أنساب الخيل» و«الأصنام»، وكلاهما لابن الكلبيّ سنة (١٩١٤م)، ولعلّ هذين الكتابَيْنِ من أوائل الكتب التي كتب في صدورها كلمة «بتحقيق»، وهو مَنْ أشاع إدخال علامات الترقيم

الحديثة في المطبوعات العربيَّة، وألَّف في ذلك كتاباً سمَّاه «التَّرقيم في اللُّغة العربيّة»، طبع بمطبعة بولاق سنة (١٩١٣م).

ولقد كانت فكرة إحياء التُّراث العربي وبعثه فكرة قوميّة، قبل أنْ تكون فكرة علميّة؛ فإن طغيان الثقافة الأوروبيّة والنفوذ التركي وضغطه وطمس معالم الشخصية العربيّة كاد يغتال العرب في بلادهم، ويَحْدُرُهم نحو الفناء، فوجدوا في بعث هذا التراث المنسول من كيان أسلافهم إقامة لكيانهم واستيلاداً لثقافتهم بعد أن رأوا المستشرقين يتراكضون للكشف عن خبيئة هذا التراث، إذ هم أَوْلى بهذا العمل الجليل، وأقدر على الإحساس بما انطوى عليه من عِلْمٍ غزيرٍ وماءٍ نمير.

التَّحقيق

فَنُّ إِخْـرَاجِ النُّصُوص وبَذْلُ عنايةٍ خاصَّةٍ مِنْ وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ حَتَّى تَغْدُوَ أَقْرَبَ ما تكونُ إلى الصُّورة الَّتي تركها عليها مُؤَلِّفُها.

تَنْصَرِفُ الجهودُ في تحقيقِ المخطوطاتِ إلى الجوانبِ الآتية:

١- تحقيق عنوان الكتاب.

٢- تحقيق اسم المؤلِّف.

٣- تحقيقِ نِسْبَةِ الكتاب إلى مُؤَلِّفِهِ.

٤- تحقيق مَتْنِ الكتابِ تحقيقاً يُدْنِيْهِ مِنَ الصُّورة المُقَارِبَةِ لصَنِيْعِ المُؤَلِّف.

وأصل التحقيق مِنْ قولهم: حقّق الرجلُ القولَ: صَدَقَهُ، أَوْ قال: هو الحَقُّ. والإحقاق: الإثبات؛ يقال: أحققت الأَمْرَ إحقاقاً، إذا أَحْكَمْتَهُ وصَحَّحْتَهُ.

تحقيق العنوان

وليس ذلك ضرباً من العمل سهلاً، إذ كثيراً ما تعدو عوادي الدّهر على الورقة الأولى من المخطوطة، فإمّا أَنْ تُتْلِفَها، وإمَّا أَنْ تطمسها، وكثيراً ما تعدو عليها أيضاً أَيادي العابثين أو الجَهَلَة أو المزيِّفين، فيضعون عنواناً يتطابق مع ما هم عليه من رُتْبَةِ العبث أو الجهل أو التزييف.

ومن أمثلة هذا الضَّرْب من تغيير العنوان بعد فَقْدِ الورقة الأولى من المخطوط: كتاب «جواهر القرآن ونتائج الصَّنْعة» لجامع العلوم الأصبهانيّ الباقوليّ المتوفَّى سنة (٥٤٢هـ): فُقِدَت الورقة الأولى منه، فجاء مَنْ وضع عليه بخطٍّ حديث: إعراب القرآن، وقدَّر أَنَّ مُؤَلِّفَه

أبـو إسحق الزَّجَّاج المتوفَّى سنة (٣١١هـ)، ثمّ تولّى تحقيقه من رجّح أنَّ مصنِّف الكتاب مكّيّ ابـن أبي طالب القيسيّ المتوفَّى (٤٣٧هـ)، ثمّ تحرَّك من كتب في تحقيق العنوان، والمؤلِّف، حتّى جلا حقيقة الكتاب على نحوٍ قرَّتْ به عيون العلماء والباحثين.

إنَّ تحقيـق العنـوان يحتاجُ إلى مهاراتٍ جمّةٍ وفراسةٍ ونَبَاهـةٍ، ومِمّا يُعين المحقِّقَ النّظرُ في كتب المؤلَّفات أو الطبقات (الفهرست والدّرّ الثمين في أسماء المصنّفين وكشف الظنون وسواها)، أَوْ أَنْ يقع على نصوصٍ من كتابه وقعت منسوبة إلى صاحبها في بَطْنِ كتابٍ آخَرَ، أَوْ أَنْ ينظرَ في أُسلوبِ صاحب الكتاب لعلّه يجد فيه ما ينماز به من غيره أَو يُعرفُ به في الكتب الأخرى ما صنَّف منها أو ما نُقِلَ عنه فيها، أو لعلّه يلتمس إحالة في داخل كتابه على كتاب له آخر، كلّ أولئك مِمّا يتهدّى به المحقّق الحاذق الخبير.

ويحاول في رتق الانطماس الجزئيّ للعنوان ما حَاوَلَه في معرفة العنوان المُزَال.

أمّا العنوان المزيّف الذي ربّما اختلقه مَنْ وضعه تعمية أو ترويجاً أو مطاوعةً لرغبةِ بعض جامعي الكتب، وهو يقارب ما بين خطّه ومداده وخطّ الأصل ومداده = فإِنَّ هذا لا يخفى على من يصطنع الحَذَرَ والرِّيبة في النظر والمعالجة.

تحقيق اسم المُؤَلِّف

لا يكتفي الباحث الفطن بما يجدُهُ على الورقة الأُولى من المخطوط من اسم المؤلِّف، بل ينبغـي أَنْ يُجْرِيَ تحقيقاً علميّاً يُؤَدِّيه إلى اليقيـن أَنَّ الكتاب صادق النِّسبة إلى صاحبه، كأَنْ يعرض بعض ما اتّفق من نصوص المخطوط على ما في المصادر الأخرى التي عَزَتْ ما في بطونها إلى أصحابه، وكأَنْ يُرَاجِعَ كتب الكَشَّافات والفهارس وبرامج العلماء، ولا شكَّ أَنَّ المادَّة العلميّـة الهاجعة في مخطوطك مِمّا يعين على تعيين زمن المؤلِّف بالنظر إلى وفيات الشيوخ الذين اتفقت عنهم الرِّواية، والحوادث والمعلومات والزّمان الذي شهد مولدها.

وربّمـا آفَ اسمَ المؤلِّف تصحيـفٌ أَوْ تحريف، فالخرّاز تُصَحَّف إلـى الخَزَّاز أَو العكس، ولَيْسَ يَجْتَلِبُ الطَّمأنينةَ للمحقّق مثلُ معاودةِ النَّظـر فيما انتهى إلينا مِنْ مَصَادِرِ الفَنّ الّذي ينتمي إِلَيْهِ الكتابُ الّذي هو مُشْفٍ عليه وبصَدَدٍ مِنْ تحقيقِهِ.

ومـن المصادر ما طُبِعَ ولم يَهْتَدِ المحقِّقُ فيه إلى صاحبه كمجموعة المعاني التي حقّقها عبـد المعين الملّوحي مرَّةً، وعبد السَّلام محمَّـد هارون مرّة أخرى، ورَوْح الرُّوح الذي حقَّقه إبراهيم صالح.

تحقيق نسبة الكتاب إلى مُؤَلِّفِه

الاعتبارات التاريخيّة أهمّ ما يُعين المحقّق في حسم تصحيح الكتاب إلى مؤلّفٍ أَوْ دَفْعِها عنه، من ذلك كتاب «تنبيه الملوك والمكايد» المنسوب إلى أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفَّى (٢٥٥هـ)، فيه أبواب عن كافور الإخشيديّ المتوفَّى سنة (٣٥٧هـ)، وهذا وحده كافٍ لإسقاط نسبة الكتاب إلى الرَّجل، فضلاً عمّا وقع فيه من الأساليب التي تباين ما جرى عليه قلم الجاحظ في كتبه الثابتة النِّسبة إليه كالحيوان والبيان والتبيين.

ومِن الكتب الّتي طُبعت دون أَنْ يفطنَ مُحَقِّقُوها أنَّها لا تصحُّ نسبتُها إلى مَنْ نُسبت إليه: **تلقين المُتَعَلِّم مِنَ النَّحْو** لأبي محمَّد عبد الله بن مُسْلم بن قُتيبة الدّينوريّ المتوفَّى (٢٧٦هـ) نشره جمال عبد العاطي مخيمر في القاهرة (١٩٨٩م)، ثمّ نشره عبد الله النَّاصير في بيروت (١٩٩٣م)، ولم يفطنا أنَّه لا يصحُّ شيءٌ من هذا الكتاب لابن قُتيبة.

وفي كتاب «ابن قتيبة الدّينوريّ أديب الفقهاء وفقيه الأدباء» لجيرار لوكونت الذي ترجمه محمود المقداد، وطبع في وزارة الثّقافة (٢٠٠٦م) = دَفْعُ أَنْ يكون الكتاب للرّجل بأدلّةٍ (ص٣٢١ - ٣٢٢):

١- لم يكن أسلوب المخطوطة أسلوب ابن قُتيبة، لأنَّه لم يكن معتاداً مثل هذا الجفاف في الأسلوب.

٢- لم تكن فيه مقدّمة، وهذا ليس من طريقة ابن قُتيبة في مصنَّفاته.

٣- ليس في الكتاب صيغة «قال أبو محمَّد» التي ترد عادة في مؤلَّفاته الصّحيحة النِّسبة إليه.

٤- كان ابن قُتيبة يظهر في كتابَيْه الشعر والشعراء والمعاني الكبير انتقائيّة واضحة في اختيار شواهده، وكانت من الشعراء المُحْدَثين.

٥- وكان على مُخْتَصَرٍ كهذا في العادة أَنْ يَتِمَّ إنشاؤه في زَمَنٍ يكون النَّحْويُّون فيه قد مهَّدوا سبيل النَّحْو على نطاقٍ واسع، لأَنَّ أَيَّ كتاب تعليميّ - بالمعنى المُبْتَذَلِ جدّاً له - في هذا الميدان لا يمكن إلّا أَنْ يُستخلص من بحوثهم ا هـ

فضلاً عمّا يُعْرَفُ عن ضعف الرّجل في النَّحْو حتى نَبَزَهُ أبو عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ) في كتابه البصريَّات ١/ ٦٤٣ ببعض الجُهَّال، وذكره أبو منصور الأزهريّ (ت ٣٧٠هـ)، فقال في تهذيب اللُّغة ١/ ٣١: «فأمَّا ما يستبدُّ فيه برأْيِه من مَعْنًى غامضٍ، أو حَرْفٍ مِنْ عِلَلِ التَّصريف والنَّحْو مُشْكِلٍ، أَوْ حَرْفٍ غريبٍ = فإنَّهُ ربَّما زَلَّ فيما لا يخفى على مَنْ لَهُ أَدْنى معرفة. وأَلفيتُهُ

يحدسُ بالظَّنِّ فيما لا يَعْرِفُهُ ولا يُحْسِنُهُ. ورأيتُ أبا بكر بْنَ الأنباريّ ينسبُهُ إلى الغَفْلَةِ والغَبَاوَةِ وقلَّة المعرفة، وقد رَدَّ عليه قريباً مِنْ رُبْعِ ما أَلَّفَهُ في مُشْكل القرآن» اهـ

وقــد نُسِبَ إليه ما لا يصحُّ أَنْ يكون له **ككتاب الجراثيـم** تحقيق محمَّد جاسم الحميدي، طُبــع في وزارة الثَّقافة (١٩٩٧م)، **وكتاب الإمامة والسّياسـة**، وقــد دفع هذه النِّسبة عن ابن قُتيبة السَّيّد أحمد صقر بأَدِلَّةٍ دامغةٍ في مُقَدِّمَةِ تحقيقِهِ لكتابِ تأْويل مُشْكل القرآن.

ومن هذه الكتب التي ضَلَّ محقِّقوها عن تصحيح نسبتها إلى أَصحابها **كتاب الجمل لابن خالويه** المتوفَّى (٣٧٠هـ)، فقد طُبع بعنوان **المحلّى** ونُسب إلى أبي بكر أحمد بْنِ الحسن **بْنِ شقير** البغدادي (ت ٣١٧هـ)، في بيروت (١٩٨٧م)، وطُبع بعنوان **الجمل**، ونُسِبَ إلى **الخليل بن أحمد** (ت ١٧٥هـ)، في بيروت (١٩٨٥م).

ومنهــا كتاب **العوامل والهَوَامل لابن فَضَّـال المجاشعِيِّ** (ت ٤٧٦هـ) طُبع بعنوان «معاني الحــروف»، ونُسِبَ ضلالاً إلــى أبي الحسن علي بن عيسى الرُّمَّانــيِّ (ت ٣٨٤هـ)، وقد بسط الدكتــور سيــف بن عبد الرَّحمن العريفيّ الأدلّة العلْميّة التي تدفــع عنوانَهُ ونِسْبَتَهُ في مجلّة عالم الكتب، الرِّيَاض، مج ٢٣، ع ٥ و٦، ص ٤٩٨ - ٥١٥، عام (٢٠٠٢م).

تَحْقيقُ مَتْنِ الكتاب

أَنْ يُــؤَدَّى الكتــابُ أَدَاءً صَادِقاً كما وَضَعَه مُؤَلِّفُه كَمّاً وكيفــاً بقدر الإمكان، وذلك بنَسْخه، وترقيمــه، وتفقيره، وأدائه على معانيه. وليس معنى ذلــك أَنْ نتدخّل في أسلوب المؤلِّف كأَنْ نُقِيْمَ له جملة رأينا غيرَها أَقْعَدَ منها وأَحْسَنَ في ذا الموضع، أَوْ أَنْ نستبدل كَلِمَةً بأُخْرَى خَيْرٍ منها، أَوْ أَنْ نُغَيّرَ ما وَهِمَ المؤلِّفُ في نسبته.

بَــلِ العُهْدَةُ فيما وَقَعَ في مَتْنِ الكتابِ مِنَ الأَوْهَامِ على صَاحِبِها، نُؤَدِّيها عَنْهُ، ونُنَبِّه على ما فيها مِنْ خَطَلٍ وفَسَادٍ في الحَوَاشي.

والتَّحقيق عملٌ خطيرٌ جليلٌ يحتاجُ مِنَ الجُهْدِ والعناية أَكْثَرَ ممَّا يحتاجُ إليه التَّأْليف، وقدَماً قَالَ أَبو عُثمانَ الجاحظُ (ت ٢٥٥هـ) في الحيوان ١/ ٧٩: «**ولرُبّما أرادَ مُؤَلِّفُ الكتاب أَنْ يُصْلِحَ تصحيفاً أَوْ كَلِمَةً سَاقِطَةً، فيكونُ إنشاءُ عشرِ ورقاتٍ من حُرِّ اللَّفْظِ وشريفِ المَعَاني أَيْسَرَ عَلَيْه مِنْ إتْمَامِ ذلك النَّقْصِ حتَّى يَرُدَّهُ إلى مَوْضِعِهِ مِنِ اتِّصَالِ الكَلاَم**» اهـ

وقضيّة التَّصحيف والتَّحريف من أخطر قضـايا تحقيق النُّصوص، لأَنَّها تتّصل بسلامة النّصّ وتَأْدِيَتِهِ على الوجه الّــذي تركه عليه مؤلِّفه، وهي الغاية التــي ليس وراءَها غاية من

تحقيــق النُّصوصــ وإذاعتها . وقد يُتَسَامَحُ في بعض جوانب التَّحقيــق الأُخرى على أهمّيّتها كتوثيقِ النُّقُول، وتخريج الشَّواهد، وتحرير المسائل التي تقع في المتن بعَرْضِها على أُصُولها، وصناعة الفهارس الفنّيّة الكاشفة، وأمَّا أنْ يُتْرَكَ اللَّفْظُ مُصَحَّفاً أوْ مُزَالاً عن وَجْهِهِ فهذا مِمَّا لا يصحّ، ولا يُعْفَى مُرْتَكِبُهُ.

والتَّصحيــف تغييرٌ في نَقْطِ الحروف أَوْ حَرَكَاتِها مَعَ بَقَاءِ صورة الخطِّ، نحو: نَمَتْ ونِمْتُ، ولعلَّه ولعلَّةٍ، والثّوريّ والتّوّزيّ.

والتَّحريــف العُدُوْلُ بالشَّيْءِ عَنْ جِهَتِهِ، وقد يكونُ بالزِّيادة في الكلام، أو النَّقْصِ منه، وقد يكــونُ بتبديــلِ بعضِ كلماتِهِ، وقد يكونُ بحَمْلِهِ على غيرِ المرادِ منه، فهو بكُلِّ هذه التَّعريفات أَعَمُّ مِنَ التَّصحيف.

وأَصْــلُ التَّصْحِيْفِ أَنَّ قوماً كانوا قد أَخَذُوا العِلْمَ عن الصُّحُفِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْقوا العلماءَ، فــكان يقعُ فيما يَرْوُوْنَهُ التَّغْيِيرُ، فيقال: قد صَحَّفُوا، أَيْ رَدَّدُوْهُ عن الصُّحُفِ، وهم مُصَحِّفُونَ، والمَصْدَرُ: التَّصحيف.

قال قائِلُهم:

مَنْ يَأْخُذِ العِلْمَ عن شَيْخٍ مُشَافَهَةً
يَكنْ عن الزَّيْفِ والتَّصحيفِ في حَرَمِ

ومَنْ يكنْ آخِذاً للعِلْمِ عن صُحُفٍ
فعِلْمُهُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ كالعَدَمِ

وقال أَبو نُوَاسٍ يرثي خَلَفاً الأَحْمَرَ:

أَوْدَى جِمَاعُ العِلْمِ مُذْ أَوْدَى خَلَفْ
راويـــةٌ لا يَجْتَبِي مِنَ الصُّحُفْ

وقال مَنْ هَجَا أَبا حاتمٍ السِّجِسْتَانيَّ:

إذا أَسْنَدَ القَوْمُ أَخْبَارَهُمْ
فإِسْنَادُهُ الصُّحْفُ والهاجِسُ

أَمْثِلَةٌ على التَّصحيف والتَّحريف:

١- وَقَــعَ بيت جَزْءِ بْنِ ضِرار أَخي الشَّمَّاخ فـــي ضرائر الشّعر لابن عصفور ٦٥، والبحر المحيــط ٧/ ١٥١، وارْتِشَاف الضَّرَب مِن لِسَان العَرَب لأَبي حَيَّان ٥/ ٢٣٩٥، والدّرّ المَصُوْن ٩/ ٢٠ على النَّحْوِ الآتي:

أَمْــهَــرَ مـنـهـا حَــيَّــةٌ ونـيـنـانْ

والبيت مِنْ شَوَاهِدِ النُّحَاة على زيادةِ «مِنْ» دُوْنَ أَنْ تُسْبَقَ بنَفْيٍ، أَيْ أَمْهَرَها.

وقــد أَزْرَى التَّحريفُ بالبيتِ وطَمَسَ صباحــةَ وَجْهِهِ، وهُوَ مُزَالٌ عن وَجْهِهِ إزَالَةً جَعَلَتْهُ بلا مَعْنًى.

والبيــتُ اتَّفَــقَ في سياقِ خَبَــرٍ رَوَاهُ الجاحظُ في البيان والتبييــن ٤/ ٣٤ - ٣٥ مَفَادُهُ أَنَّ ضِرَارَ بْنَ ثعلبةَ ماتَ وتَرَكَ الثَّلاثةَ الشُّعراءَ صِبْيَاناً، وهم: شمَّاخٌ، ومُزَرِّدٌ، وجَزْءٌ، ثمّ أَرَادَتْ أُمُّهم - وهي أُمُّ أَوْسٍ - أَنْ تتزوَّج رَجُلاً يُسَمَّى أَوْساً، وكَانَ أَوْسٌ هذا شَاعِراً، فلمَّا رَآهُ بنو ضِرارٍ بفناءِ أُمِّهم للخطبةِ، تَنَاوَلَ شَمَّاخٌ حَبْلَ الدَّلْوِ ثُمَّ مَتَحَ، وهو يَقُوْلُ:

أُمُّ أُوَيْــسٍ نَـكَـحَـتْ أُوَيْـسـا

وجَاءَ مُزَرِّدٌ فتَنَاوَلَ الحَبْلَ، فقال:

أَعْـجَـبَـهـا حَـــدَارَةً وكَـيْـسـا

وجَاءَ جَزْءٌ فتَنَاولَ الحَبْلَ، فقال:

أَمْــهَــرَ مـنـهـا لَـجْـبَـةً وتَـيْـسـا

فلمَّا سِمَع أَوْسٌ رَجزَ الصِّبيانِ بها هَرَبَ وتَرَكَها.

النِّينان: الحوت، الحَدَارَةُ: الامتلاءُ واجتماعُ الخَلْقِ في سِمَنٍ. اللَّجْبَة: الشَّاة قليلة اللَّبن.

فانظر ما أَصْلُ البيتِ، وإلى أَيِّ شَيْءٍ انتهى به التَّحريفُ؟!

٢- قال بَعْضُ مَنْ يهجو الحَجَّاجَ:

أَيَـنْـسَـى كُـلَـيْـبٌ زَمَـانَ الـهُـزَالِ
وتَـعْـلِـيْـمَـهُ سُــوْرَةَ الـكَـوْثَـرِ

رغـيـفٌ لَـهُ فَـلَـكٌ دائـرٌ
وآخَـرُ كـالـقَـمَـرِ الأَزْهَـرِ

الكامل ٢/ ٧٩، والمعارف ٥٤٨، وإكمال تهذيب الكمال لمُغْلطاي ٣/ ٤٠٦، وغُرر الخصائص الواضحة وعُرر النَّقائص الفاضحة للوطواط ١/ ١٩١.

يُشيــرُ الهاجــي إلى أَصْلِ ما كَانَ يَعْمَلُــه الحجَّاجُ، واسمُه كُليبٌ، مِــنْ تعليم الصِّبيان، وما يَتَقَاضَاهُ مِنْ خُبْزِ المعلِّمين؛ فإنَّهُ مختلفٌ في الصِّغر والكِبَرِ على قَدْرِ بيوتِ الصِّبيان.

فظاهــرُ ما في البَيْــتِ الأَوَّل مِنَ المعنى مُسْتَقِيْمٌ: تعليم الحجّــاج سورة الكوثر للصِّبيان، والصَّحِيْــحُ أَنَّ تعليــمَ القرآن ولو ســورةً قصيرةً منه مِمَّا لا يُهْجَى به المــرءُ في ذلك الدَّهْرِ، وصَوَابُهُ:

وتَـعْـلِـيْـمَــهُ صِـبْـيَـةَ الـكَـوْثَـرِ

والكوثر: قُرَيَّةٌ بالطَّائف كَانَ الحَجَّاج مُعَلِّماً بها كما ذَكَرَ ياقُوْتٌ في مُعْجم البُلْدان.

٣- لأَنْ يَدْنُو الرَّجُلُ مِنْ حَتْفِه **ومنيّته** خيرٌ له مِنْ أَنْ يدنوَ مِنْ ذي سُلْطان.

غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النَّقائص الفاضحة ٢/ ١٠٨٥.

صَوَابُهُ: مِنْ جِيْفَةٍ مُنْتِنَةٍ.

٤- جَاءَ حَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ إلى الأَعْمَشِ، فاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فقال:

قُوْلُوا لَهُ: **ابنُ** [كذا] أَرْطَاةَ على البَابِ.

فقال الأَعْمَشُ: **أبكي عليّ، أبكي عليّ** [كذا!]، فلَمْ يَأْذَنْ لَهُ اهـ

الثُّقَلاء لابْنِ المَرْزُبَان ٦٦ – ٦٧.

والصَّوَابُ: أَبُو أَرْطَاة على البَابِ، وهي كُنْيَةُ حَجَّاجٍ.

فقَالَ الأَعْمَشُ: أَيَكْتَنِي عَلَيَّ، أَيَكْتَنِي عَلَيَّ؟!

٥- حَدَّثَنِــي محمَّدُ بْنُ سلّام الجُمَحيّ، قَــال: سَمِعْتُ يُوْنُسَ يقولُ: ما جَاءَنا عن أَحَدٍ مِنْ رَوَائِعِ الكَلَامِ ما جَاءَنا عَنِ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلم.

البيان والتبيين ٢/ ١٨.

والصَّــوَابُ: عَنِ البَتِّيِّ، وهُوَ عُثْمَــانُ البَتِّيُّ، وكَانَ مِنَ الفُصَحَاءِ أَرْبَــابِ الفصاحةِ والبَيَانِ واللَّسَــنِ. قــال عنه الأَصْمَعِــيُّ: «كَانَ عُثْمَانُ البَتِّيُّ نَحْوِيّــاً، وكَانَ يُسَمَّى عُثْمَــانَ العَرَبِيَّ، مِنْ فَصَاحَتِهِ» اهـ

٦- قال امرؤُ القَيْسِ:

علـى ظَهْـرِ عــاديٍّ تُـحَـارُبُـهُ القطا

إذا سَـافَـهَ الـعَـوْدُ الـدّيـافـيُّ جَـرْجَـرا

الشِّعر والشُّعراء ١/ ١٠.

صَوَابُهُ: تَحَارُ بِهِ القطا.

قال السّيّد أَحمد صقر: لَسْتُ أَدْري ما الّذي صَنَعَهُ العَادِيُّ - وهو الطَّريقُ القديمُ - مَعَ القَطَا حتّى تُحَارِبَهُ؟ والصَّوَابُ: تَحَارُ بِهِ القَطَا.

«وتَحَارُ بِهِ القَطَا» تعبيرٌ شَائِعٌ في الشِّعر القديم.

٧- وأَمَّا مسكويهِ ففقيرٌ بينَ أَغنياء وغبيٌّ بين أَنبياء.

الإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٥.

صَوَابُهُ: وعَيِيٌّ بين أَبْيِنَاء.

٨- قال الجاحظ: «فإنَ تعجَّبْتَ من استسقاطي عقل كِسْرى أَبْرويز وآبائِهِ وأحبَّائِه، وقرابينِهِ وكُتَّابِهِ وأَطبَّائِه»اهـ

الحيوان ٥/ ٣٢٧.

وأَحبَّائِهِ كذا خَطَأً، صَوَابُهُ: وأَحْبَائِهِ. والأَحْبَاءُ: جَمْعُ حَبَأ، وهو جَلِيْسُ المَلِكِ وخَاصَّتُهُ.

مقدّمات ينبغي للمحقّق الامتراسُ بها:

١- التَّمرُّن بقراءة النُّسخة التي يتولَّى تحقيقها، حتَّى يأْنس إلى خَطِّها وطريقة الناسخ في رسم الحروف، ولا سيَّما أَنَّ النَّقْط تختلفُ طرائقه في الكتابة المشرقيَّة والكتابة المغربيّة، ففي إملاء المغرب تُنْقَطُ الفاء بنقطة من أسفلها، والقاف بنقطةٍ واحدةٍ أعلاها، وبعضهم يدلّ على السين المهملة بنُقَط ثلاثٍ من أسفلها، وبعضهم يُعْجِمُ الشين بنقطةٍ واحدةٍ فوقها، والمدّة، وهي السَّحبة التي في آخرها ارتفاع، قد ترد في الكتابة القديمة فيما لم نألفه، نحو «مآ» التي نكتبُها الآن «ماء».

وهناك علامة التمريض، وهي صاد ممدودة «ص» توضع فوق العبارة الّتي هي صَحِيْحَةٌ في نَقْلِها، ولكنَّها خطأً في ذاتها، وتسمَّى هذه العلامة أيضاً علامة التَّضْبِيب، إلى غير هذه العلامات التي يعرفها من طال تعاطيه لهذا الفَنّ.

٢- التَّمرُّس بأسلوب المؤلِّف، وتعرُّف خصائصه، يتأتّى له ذلك من قراءة المخطوط مرَّةً بعد مرَّةٍ، والاطلاع على مصنَّفات المؤلّف الأخرى.

٣- الإلمامُ بالمَوْضوع الّذي يُعَالِجُهُ الكتاب حتَّى يفهمَ النَّصَّ فَهْماً سليماً.

لا يتأتَّى له هذا الإلمام إلّا بالاطّلاع على مصنَّفات الرّجل الأخرى، وأمَّات الكتب التي لها علاقة وثيقة بموضوع كتابه، والكتب التي اعتمدت اعتماداً كبيراً على الكتاب حتّى غدت نسخةً أخرى منه، والكتب التي استقى منها المؤلِّف وعوَّل عليها في صناعة كتابِهِ.

علــى الجملة لَيْسَ تحقيقُ النُّصُوصِ أَمْراً هَيِّناً، بَلْ هُوَ عَمَلٌ شَاقٌّ عسيرٌ أَصْعَبُ مُرْتَقًى مِنَ التَّأْليف، يحتاجُ إلى مَعَارِفَ جمَّة، ومهاراتٍ مختلفةٍ، ويقظةٍ تامَّةٍ، وصَبْرٍ وحِلْمٍ، وقَدْ رَأَيْتَ فيما بَسَطْتُهُ كَمْ مِنْ قَدَمٍ زَلَّتْ، وكَمْ مِنْ قَلَمٍ طَغَى في هذه الصِّناعة.

إنّنا حين نُحَقِّــقُ أعلاق تراثنا العربيِّ نأخذ أجيالنا أَخْذاً إلى تاريخ أُمّتهم ولغتهم، ونُعَمِّقُ انتماءَهم إلى هذه الحضارةِ العربيَّةِ الشّامخة الذُّرا المُترامية الأَطراف.

إنَّ تحقيــق نصوص تراثنا وإبرازها في لبوس علْميّ حديث قشيب موقفٌ حضاريٌّ، وليس نَبْشــاً في الماضي وبعثــاً لأصنامِهِ كما يدّعي زعانفة الاستعمــار الثَّقافيّ الغربيّ، ونتمثّل ما تَمَثَّلَه عبد الله بن الزُّبير حين قيل له: يا بْنَ ذات النِّطاقين، فأنشد:

وعَـيَّـرَهـا الـواشـون أنِّـي أُحِـبُّـهـا
وتـلـك شـكـاةٌ ظَـاهِـرٌ عـنـك عـارُهـا

جَوانِبُ حَضَاريَّةٌ في التُّراثِ العربيّ

تراثُنــا العربيُّ زَخَّارٌ بضُرُوْبٍ شتّى مِنَ المعارف الّتي تجلو كثيراً من غَوَامِضِ العلْمِ وأَوَّليَّةِ السَّبْقِ فيه، وهو أَيْضاً ملآنٌ بنوادرَ وطرائفَ تشحذُ الرُّوحَ، وتغذو الذِّهْنَ، وتُمْتِعُ اللِّسَانَ.

فممَّا قَيَّدَهُ آباؤُنا القدماءُ أُمُورٌ حضاريَّةٌ يَزْهو بها عَصْرُنا الحَاضِرُ ويَعُدُّها مُنْجَزاً حَضَاريّاً انْفَرَدَ بابتكارِهِ ويَزْهو به على أنَّهُ مَفْخَرةٌ مِنْ مَفَاخِرِه.

١- تنظيم خِدْمَةِ العملاء: (الحيوان ٧/ ٢٦٢)

وكان أهل المِرْبَد يقولون: لا نرى الإنصافَ إلَّا في حانوتِ فَرَجٍ الحَجَّام؛ لأنَّهُ كان لا يلتفتُ إلــى مَنْ أَعْطَاهُ كثيراً دونَ مَنْ أعطاهُ قليلاً، ويُقَــدِّمُ الأَوَّلَ ثمَّ الثَّانيَ ثمَّ الثَّالثَ أَبَداً حتَّى يَأْتِيَ على آخرِهم. على ذلك يَأْتيهِ مَنْ يَأْتِيْه. فكانَ المُؤَخَّرُ لا يَغْضَبُ ولا يشكو.اهـ

يزدحِــمُ النَّاسُ على التَّاجرِ أَوِ العاملِ، فيُحْدِثُ تَدَافُعُهم اضطراباً أَو اشتجاراً لَيْسَ يعالجُهُ إلّا ما يُسَمَّى في حياتِنا المعاصرةِ «تنظيم الدّور»، وهذا فَرَجُ الحَجَّامُ يُنَظِّمُ زبائنَهُ في صفوفٍ، يبيعُهــم تِبَاعاً وهُمْ راضونَ مُطْمَئِنُّوْنَ في مَشْهَدٍ حَضَــاريٍّ أَنِيْقٍ يرويهِ الجاحظُ المُتَوَفَّى سنة (٢٥٥هـ) عن أَهْلِ المِرْبدِ، أَيْ في منتصفِ القرنِ الثَّالثِ الهجريِّ.

٢- الاحتفال بعيد الميلاد: (التُّحف والهدايا للخالديَّيْنِ ٩٧)

كتب الحسينُ بن الضَّحَّاك إلى أحمد بْنِ يوسف الكاتب ليلة عيد الميلاد يستهديه شَمَعاً:

وليلةُ ميلاد عيسى المَسِيْـ
ـحِ قَدْ طالبتْني بميثاقِها

فهذي قُدُوْري على نارِها
وفاكهتي مِلْءُ أَطْباقِها

وبِنْتُ الدِّنَانِ فقد أَبْرِزَتْ
مِنَ الخِدْرِ تُجْلَى لعُشَّاقِها

فكُنْ مُهْدِياً لي - فَدَتْكَ النُّفوسُ -
فجُوْدُكَ مُمْسِكُ أَرْمَاقِها

نَظَائِرَ صُفْراً غَدَتْ فتنةً
بلُطْفِ أَنَامِلِ حُذَّاقِها

ومِثْلَ الأَفَاعي إذا أُلْهِبَتْ
ولِلرُّوْمِ زُرْقَةُ أَحْدَاقِها

ولَمْ أَرَ مِنْ قَبْلِها أَنْفُساً
تُذيبُ الجُسُوْمَ بإِحْرَاقِها

وإِنْ مَرِضَتْ لم يكنْ بُرْؤُها
بشَيْءٍ سوى ضَرْبِ أَعْنَاقِها

فهذا النَّصُّ قاطع بأَنَّ الاحتفالَ بعيدِ ميلادِ السّيّد المسيح تقليدٌ قديمٌ لا حديثٌ كما توهَّم بعضهم، وأحمد بن يوسف الكاتب وزيرُ المأْمُوْنِ تُوُفِّيَ سَنَةَ (٢١٣هـ).

٣- تَرْجِيْلُ الشَّعر وتَصْفِيْفُهُ: (القاموس المحيط للفيروزآباديّ [ح س ن])

كان لعَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مُرَجِّلَةٌ تَتَعَهَّدُ شَعَرَهُ وتُرَجِّلُه.

وشَعَرٌ رَجِلٌ: بَيْنَ السُّبُوْطَةِ والجُعُوْدَةِ.

ويُسَمِّي الفيروزآباديّ هذه المُرَجِّلَة الّتي اتّخذها الخليفة للعناية بشعره حُسينة. وحُسينة عَلَمٌ نادر من أعلام النِّساء، منه صاحبة ابن ميَّادة حُسيْنَةُ اليساريَّة؛ منسوبة إلى آل يَسَارٍ من موالي عثمان، وكانت على حظٍّ باهرٍ من الجمال، وكانت حُسَيْنَةُ هذه تحت رجلٍ من قومها يُقَالُ له: عيسى بن إبراهيم بن يسار، وكان ابن ميّادة يزورُها وهي عنده، وفيها يقول:

ستأتينا حُسينة حيث شئنا
وإِنْ رَغِمَتْ أُنوفُ بني يَسَارِ

ودخل عليها زوجها عيسى يوماً، فوجد ابن ميَّادة عندَها، فهَمَّ بِهِ هو وأَهْلُها، فقاتلهم ابنُ ميَّادة، وعاونتْه عليهم حُسينة صاحبتُه حتّى أَفْلَتَ، وفي ذلك يقول:

لقد ظَلَّتْ تُعَاوِنُني عليهم
صَمُوْتُ الحِجْلِ كاظمةُ السِّوارِ
وقد غادرتُ عيسى وهو كَلْبٌ
يُقَطِّعُ سَلْحَه خَلْفَ الجِدَارِ

٤- الجُمَّة «الباروكة»: (الأغاني ١/ ٩٥)

روى أبو الفرج أنَّ ابن سُرَيْج هو أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ بالعود في الغناءِ العربيّ في مكَّة، وكان قد رآه مع العَجَمِ الذين قَدِمَ بهم ابنُ الزُّبير لبناءِ الكعبة بعد احتراقها، وقد أُعجِبَ النَّاسُ بغنائهم، فقال ابن سُريج: أنا أضربُ به على غنائه، فضَرَبَ به، فكان أحذقَ النَّاسِ.

وذكر أبو الفرج أَنَّ ابْنَ سُرَيْج كان آدَمَ أَحْمَرَ ظَاهِرَ الدَّمِ سِنَاطاً (لا لِحْيَةَ له)، وأَنَّهُ بلغ خمساً وثمانين سنةً، فصَلِعَ، فكان يلبسُ جُمَّةً مُرَكَّبَةً.

فلُبْسُ الشَّعر المُستعار الذي يُوارى فيه الصَّلَعُ مظهر قديم في الحضارة العربيّة ظهر في القرن الأوَّل الهجريّ.

ومِن فوائد هذا النّصّ العزيز أَنَّه حَوَى لَفْظَةً عَرَبِيَّةً صَلِيْبَةً نَدْفَعُ بها ما شاع في لغتنا المعاصرة من اللَّفظ الفرنسيّ «الباروكة»، ما أحرانا أنْ نصير إليها.

٥- المُوَجَّه: (اللِّسان [و ج هـ])

قال ابن منظور في اللِّسان [و ج هـ]: وكساء مُوَجَّهٌ أَيْ ذو وجهَيْن.

عرف العرب الثوب ذا الوجهَيْن: وجه يحمل لوناً خاصّاً، وخَلْفَهُ وَجْهٌ آخر يحملُ لوناً آخر، وهو ما تسمّيه العامّة في عصرنا «دبل فيس»، وفي لُطْفِ هذا اللَّفظ «المُوَجَّه» وأصالته ما يُغني عن جريان ذاك الأعجميّ على الألسن.

٦- الجراحة التجميلية: (الإصابة ٨١٧٩)

في ترجمة المقداد بن الأسود الكنديّ أَنَّه كان عظيم البطن، وكان له غُلامٌ روميٌّ، فقال له: أَشقُّ بطنك، فأخرج شيئاً من شَحْمِه حتَّى تَلْطُفَ - تصير رشيقاً - فشَقَّ بطنه، ثمَّ خاطه، فمات المقداد، وهرب الغلام.

قال الجاحظُ: (الحيوان ٢/ ١٤)

رأيـتُ كلباً مرَّةً في الحيِّ ونحـنُ في الكُتَّاب، فعرض لـه صبيٌّ يُسَمَّى مَهْدِيّاً منْ أولاد القَصَّابيـن، وهو قائـمٌ يمحو لَوْحَهُ، فعَضَّ وَجْهَهُ، فنَقَـعَ ثَنِيَّتَهُ دُوْنَ مَوْضِـع الجَفْنِ مِنْ عَيْنِهِ اليُسْـرَى، فخَرَقَ اللَّحْمَ الّذي دون العظم إلى شطر خدِّه، فرمـى به مُلْقِيّاً على وَجْهِهِ وجانب شدقِـه، وترك مُقْلَتَهُ صحيحـةً، وخَرَجَ منه مِنَ الدّم ما ظننْتُ أنَّـهُ لا يعيشُ مَعَه، وبَقِيَ طَائِرَ القَلْبِ. ثُمَّ خِيْطَ ذلك المَوْضِعُ، ورأيتُهُ بعد شَهْرٍ وقد عاد إلى الكُتَّاب وليس في وَجْهِه مِنَ الشَّتْرِ إلَّا مَوْضِعُ الخَيْطِ الّذي قَدْ خِيْطَ.

٧- خيال الظِّلِّ: (النُّجوم الزَّاهرة ٦/ ١٧٦)

قال ابن الجَوْزِيِّ (ت ٥٩٧هـ):

رَأَيْـتُ خَيَـالَ الظِّلِّ أعْـظَمَ عِبْرَةً
لِمَنْ كَـانَ فـي أَوْجِ الحقيقةِ راقـي

شخـوصٌ وأشـكـالٌ تـمرُّ وتنقضي
وتَـفْـنَـى جميعاً والمحرِّكُ باقـي

هذا هـو الأَصْلُ للسِّينما المعاصرة، إذ تَتَحَرَّكُ الشُّخوصُ خَلْـفَ السِّتار وقَدْ سُلِّطَ عليها الضَّوْءُ، فتبدو صورُها مُتَحَرِّكَةً مِنْ خَلْفِ السِّتار.

وابنُ الجوزيّ عَرَضَ حكايةَ البَشَرِ في هذه التمثيليّةِ، كُلٌّ يُؤَدِّي دَوْرَه، ويتحرَّكُ وَفْقَ مَشِيْئَةِ مَنْ لا يَطَالُهُ الفَنَاءُ!

٨- النَّشَرَاتُ الصّحّيّة: (أَخبار الأُوَل فيمَنْ تَصَرَّف في مِصْرَ مِن أَرباب الدُّوَل للإسْحَاقيّ (ت ١٠٦٣هـ) ١٦٦)

في حديث الإِسْحَاقيِّ عن عليّ باشا الوالي التركيِّ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلة العُثمانيَّة سَنَةَ (١٠١٠هـ)، قال:

«وفي زَمَنِه ظَهَرَ الدُّخانُ، المُضِرُّ بالأَبْدَانِ، اليابسُ الطِّباع، الّذي لا شَيْءَ فيه مِنَ الانتفاع، المُبْطِلُ لحركة الجِمَاع، المُسَوِّدُ للأَسْنَان، عاقبتُهُ وَخِيْمَةٌ، ومُدَاوَمَةُ شُرْبِه ذَمِيْمَةٌ، يُوْرِثُ النَّتَنَ في الفَمِ والمَعِدَةِ، ويُظْلِمُ البَصَرَ، ويَطْلُعُ بُخارُهُ على الأَفْئِدةِ. ومَنْ زَعَمَ أَنَّ شُرْبَهُ مُحْرِقٌ للبَلْغَم فقد أَخْطَأَ فيما زَعَمَ» اهـ

هـذا ضَرْبٌ مِـنَ التوعية والإرشادِ الصّحّيّ يتجلَّى فـي عَصْرِنا مِنْ خلال وسائل الإعـلامِ المختلفةِ والحَمَـلاتِ الصّحّيّة المنظَّمـةِ لمحاربةِ التدخيـنِ ومكافحتِه،

فالإسْحَاقيُّ يُحَوِّلُ أَسْجَاعَه إلى نَشْرَةٍ صحّيّةٍ تُفَنِّدُ مَضَارَّ التَّدخين ومَسَاوِئَهُ على نَحْوٍ لا يَخْلُو من لُطْفٍ.

٩- مَسِيْرةٌ نَسْوِيَّةٌ حَاشِدَةٌ: (تاريخ بغداد ٤/ ٤٢٢)

فُجِعَتْ بَغْدَادُ بفَقِيْهِهــا أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ سَنَةَ (٢٤١هـ)، وبكاه المسلمونَ والنَّصارى واليهودُ والمجوسُ، ورَوَى الخطيب البغــداديُّ (ت ٤٦٢هـ) بسنده إلى بَنَانِ بْــنِ أحمدَ القصبانيِّ أَنَّهُ حَضَرَ جِنَازَةَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ مَعَ مَنْ حَضَرَ.

قــال: فكَانَتِ الصُّفــوفُ مِنَ الـمَيْدَانِ إلى قنطــرةِ ربع القطيعة، وحَزَرَ مَــنْ حَضَرَها مِنَ الرِّجَالِ ثمانمِئةِ ألف، ومِنَ النِّساءِ ستّين ألف امرأة.

١٠- الجَوائزُ الأَدَبِيَّةُ التَّشجيعيَّة: (وَفَيات الأَعْيَان ٣/ ٤٩٥)

يُــرْوَى عَنِ الملك الـمُعَظَّم شرف الدّين عيسى بْنِ العادل بْنِ أيُّوبَ، صاحب دمشقَ أَنَّهُ كان يُحِــبُّ الأَدَبَ كثيراً، ومَدَحَه جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعراءِ، فأَحْسَنُوا في مَدْحِه، وكانتْ لَهُ رَغْبَةٌ في فنِّ الأَدَبِ، كَانَ قَــدْ شَرَطَ لكلِّ مَنْ يَحْفَظُ «الـمُفَصَّــل» للزَّمخشريِّ (ت ٥٣٨هـ) مِئَةَ دينارٍ وخِلْعَةً، فحَفِظَهُ لهذا السَّبَب جماعةٌ.

هــذا وَجْهٌ حضاريٌّ مِنْ وُجُوهِ عنايةِ القَوْمِ بلغتهم ونَحْوِهــا وصَرْفِها، وتشجيعِ النّاسِ على حِفْظِ مُتُونِها مِمَّا يُمَكِّنُ لِلِسَانِهم العربيِّ الـمُبين.

١١- الإِحْصَاءُ الـمَدَنِيّ: (رسائل الجاحظ ٤/ ١٢٣)

ذَكَرَ الجَاحظُ أَنَّ آلَ أَبِيَ طالبٍ أُحصُوا مُنْذُ أَعْوَام وحُصِّلُوا، فكَانُوا قَرِيْباً مِنْ أَلْفَيْنِ وثلاثمئة، ثمَّ لا يزيدُ عددُ نسائِهم على رجالِهم إلّا دُوْنَ العُشْرِ. وهذا عَجَبٌ. وقَدْ تهيَّأَ في آلِ أَبي طالبٍ مِنَ الإِذْكَارِ ما لم يُعْرَفْ في قديمِ الدَّهْرِ وحديثِه، ولا فيما قَرُبَ من البُلْدَانِ ولا فيما بَعُدَ.

يُلْمِــعُ الجاحــظُ إلى فضيلة خُصَّ بها الطَّالبيُّــون، وهـي فضيلــةُ الإِذْكَار، أَي إنَّ نِسَاءَهم مَذَاكِيْرُ لا يَلِدْنَ إلا الذُّكور، مَعَ أَنَّ ما اسْتَفَاضَتْ معرفتُهُ أَنَّ النَّسْلَ في عَالَم الإِنْسَانِ والحيوانِ والنَّباتِ يزيدُ عددُ الإناثِ على عددِ الذكورِ زيادةً ظاهرةً، وكَأَنَّ ذلك حكمةٌ بالغةٌ للحفاظِ على بقاءِ النَّوْعِ.

ويَضْبِــطُ لنا الجَاحِظُ طَرِيْقَةً مِنْ طُــرُقِ الإِحْصَاءِ الدَّقيقِ الّتي تُؤَدِّيْــكَ إلى نتائجَ دقيقةٍ صادقةٍ، فيقول:

وإنْ كُنْـتَ تريدُ أنْ تتعـرَّفَ فَضْلَ البَنَاتِ على البنين، وفَضْلَ إناثِ الحيواناتِ على ذكورها فابـدأْ فخُذْ أربعينَ ذراعاً مِنْ عَنْ يمينك، وأربعينَ ذراعاً مِنْ عَنْ يسارِك، وأربعينَ مِنْ خَلْفِك، وأربعينَ مِنْ أمامِك، ثمَّ عُدَّ الرِّجَالَ والنِّسَاءَ حتَّى تعرفَ ما قُلْنا.

ثـمَّ انظرْ في شَأْنِ ذَوَاتِ البَيْضِ وذَوَاتِ الأولادِ فإنَّكَ سَتَرَى في دارٍ خمسينَ دجاجةً وديكاً واحداً، ومِنَ الإبل الهجمة وفَحْلاً واحداً، ومِنَ الحميرِ العانةَ وعَيْراً واحداً.

١٢- تَرْوِيْضُ الحَيَوَانِ وتَعْلِيْمُهُ: (التنبيه والإشراف ٣٤٠)

كان الأسـودُ الكذَّابُ العنسيُّ – أَحَدُ مُتَنَبِّئَةِ اليمـنِ في صدر الإسلام – يُلَقَّبُ ذا الحمار، فقد كان له حمارٌ راضَه وعلَّمه، فكان يقولُ له: اسجدْ، فيسجد، ويقول له: اجثُ، فيجثو، وغير ذلك مِنْ أمورٍ كان يدّعيها، ومخاريقَ كان يأتي بها، يجتذب بها قلوبَ مُتَّبعيه.

فهذا الحمارُ المنبوزُ بالطَّويلِ الأُذُنَيْنِ كنايةً عن ذَهَابِه في الغَبَاءِ أمكنَ الإنسانَ العربيَّ أنْ يَلِجَ به بابَ التَّعليم والتَّدريب، حتّى صحّ انقيادُه واستجابتُه على نَحْوٍ لا يخلو مِنْ طَرَافَةٍ، فِعْلَ كثيرٍ من السَّحَرةِ والمُشَعْبِذِيْنَ في عَصْرِنا.

١٣- حُسْنُ التَّأَتِّي لمحنة اللَّفْظِ: (الأغاني ٣/ ٣٦)

من مظاهر النُّبل والمروءة واللّباقة الاجتماعيّة ما رواه أبو الفرج من قول العبّاس بن خالد ابنِ بَرْمَكَ:

كان الزُّوَّارُ يُسَمَّوْنَ من قديم الدَّهر إلى أيَّام خالد بْنِ بَرْمَكَ – يعني أباه – بالسُّؤَّال، جمع سائـل، فقـال خالدٌ: هذا، والله، اسمٌ أستثقلُه لطُلَّاب الخير، وإنِّـي لأرفعُ قَدْرَ الكريم من أنْ يُسمَّـى به أمثال هؤلاءِ المُؤَمِّلِيْنَ؛ لأنَّ فيهـم الأشرافَ والأحرارَ، وأبناءَ النَّعيم، ومَنْ لعلَّه خيرٌ ممَّنْ يقصدُ وأَفْضَلُ أدباً، ولكنَّا نُسمِّيهم الزُّوَّار، وكان بشَّار بن بُرْدٍ حاضراً، فقال بداهةً:

حـذا خـالـدٌ فـي فِـعْـلِـهِ حَـذْوَ بَـرْمَـكٍ
فَـمَـجْـدٌ لَـهُ مُـسْـتَـطْـرَفٌ وأصـيـلُ
وكـان ذوو الآمـالِ يُـدْعَـوْنَ قَـبْـلَـهُ
بِـلَـفْـظٍ عـلـى الإعْـدامِ فـيـه دلـيـلُ
يُـسـمَّـوْنَ بـالـسُّـؤَّالِ فـي كُـلِّ مَـوْطِـنٍ
وإنْ كـانَ فـيـهـم نَـابِـهٌ وجـلـيـلُ
فـسَـمَّـاهُـمُ الـزُّوَّارَ سَـتْـراً عَـلَـيْـهِـمُ
فـأَسْـتَـارُهُ فـي الـمُـهْـتَـدِيْـنَ سُـدُولُ

فأَعْطَاهُ لكلِّ بيتٍ ألفَ درهم.

١٤- التُّبَّان «المايوه»: (النُّجوم الزَّاهرة ١٠/ ١٦٩)

تُبَّـــان على مثال رُمَّان: سِروال صغير مقدارُهُ شِبْرٌ، يستر العَوْرَةَ المُغَلَّظَةَ، يكونُ للمَلَّاحِيْنَ، وهو ما يُسَمَّى في عصرنا «المايوه».

ذكــر ابن تَغْري بَــرْدي أَنَّ السُّلطان المظفَّر بن النَّاصر قَــلاوون كان إذا لَعِبَ مع الأَوْبَاش يَتَعَرَّى ويَلْبِسُ تُبَّانَ جِلْدٍ، ويُصَارِعُ مَعَهم، ويَلْعَبُ بالرُّمْحِ والكُرَةِ.

أَوْبَاشُ النَّاس: أَخْلاطٌ متفرِّقون.

١٥- الإِعْفَاء مِنْ خِدْمَةِ العَلَم: (معجم البُلْدان: رَسْم صِقلية)

ذكــر ياقوتٌ فــي كلامه على صِقلية وقصبتهــا مدينة بَلَرْم أَنَّ الغالــبَ على أهل المدينة المعلِّمــون، فكان في بَلَرْم ثلاثُمئة معلِّم، فسألتُ عن ذلك – والسَّائل ابنُ حَوْقَلٍ مَنْ يَرْوي عنه ياقوتٌ – فقالُوا: إنَّ المُعَلِّمَ لا يُكَلَّفُ الخروجَ إلى الجهاد عند صدمةِ العَدُوِّ.

١٦- التسربل بأغصان الشّجر تَخَفِّياً عن أعين الأعداء: (خزانة الأدب ٢/ ٢٩٩)

ممّا يشيع في عصرنـــا إكْسَاءُ الدّبّابات والمَدَافع والجنــودِ بأَغْصَانِ الشَّجَرِ للتَّخَفِّي عَنِ العَــدُوِّ. ولهذه الحِيَلِ الحربيّة عِرْقٌ عَرِيْقٌ في تراثنا، إِذْ رَوَى البغداديُّ في خبرِ زرقاءِ اليَمَامَةِ أَنَّ حسَّــان بْــنَ تُبَّع سَاقَ إليها جَيْشاً مِنْ قبيلةِ طَسْــم، فلمَّا كانُوا على مسيرةِ ثلاثِ ليـالٍ منها صَعِــدَت الحِصْنَ الّذي يُقَالُ له «حصن الكلب»، فنظرتْ إلى ذلك الجيش وقد استتر كلّ رجلٍ بشجرةٍ تَلْبيساً عليها، فقالت:

أُقْسِـــمُ بِـــالله لَـقَـدْ دَبَّ الشَّـجَـرْ
أَوْ حِـمْـيَـرٌ قَـدْ أَخَـــذَتْ شيـئـاً تَـجُـرّ

١٧- البَرِيْدُ الصَّوْتِيُّ: (إمْتاع الأَسْمَاع للمقريزيِّ ٢٧٨)

التَّخَاطُبُ في الحُرُوبِ عَنْ طريق الأَجْهِزَةِ اللّاسلكيَّةِ والرَّاداريَّة أَمْرٌ مُستفيضُ الشُّهرة في الحروبِ المعاصرة، وقد رَوَى المَقْرِيْزِيُّ خَبَراً يَدُلُّ على استعمالِ العربِ هذه التِّقْنية وإنْ على نَحْوٍ بِدَائيٍّ، لكنَّ الفكرةَ وَقَعَتْ لهم، مُؤْذِنَةً بسَبْقٍ حضاريٍّ قديم.

«بَلَغَ أَهْلَ مَكَّةَ خُرُوْجُ رَسُوْلِ الله – في غزوةِ الحُديبية سَنَةَ ستٍّ من الهجرة –، فرَاعَهم ذلك وتَشَاوَرُوا، ثمَّ قدَّمُوا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبي جَهْلٍ، أَوْ خالدَ بْنَ الوليد، على مِئَتَيْ فَارِسٍ إلى كُرَاعِ الغَميم

(موضــع بينَ مكَّة والمدينة)، واسْتَنْفَرُوا مَنْ أَطاعَهم مِنْ حُلَفَاءِ قُرَيْش مِنْ بني كِنَانَة (كَانُوا قَدْ تَحَالَفُــوا تَحْتَ جَبَــلٍ يُقَالُ لَهُ حُبْشِيّ)، وأَجْلَبَتْ ثَقِيفُ مَعَهــم (انْضَمَّتْ)، ووَضَعُوا العُيُونَ على الجِبَالِ، وهُمْ عَشَرَةُ رِجَالٍ يُوحي بَعْضُهم إلى بَعْضٍ بالصَّوْتِ: فَعَلَ مُحَمَّدٌ كذا وكذا، فيُرَدِّدُ مَنْ بَعْدَهُ قَوْلَهُ، وهكذا حتَّى يَنْتَهِيَ ذلك إلى قُرَيْش» اهـ

١٨- ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه: (إنجيل يوحنّا الإصحاح ٤/ ٤٤)

«وبعــد اليومَيْنِ خرج مِنْ هناك، ومَضَى إلى الجليــل؛ لأَنَّ يسوع نفسَه شَهِدَ أَنَّهُ لَيْسَ لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه»اهـ

يظنُّ خَلْقٌ كثيرٌ وأنا منهم أَنَّ ما جرى على ألسنة النّاس اليوم من التعبير عن هوان الرّجل الكريم في بَلَدِهِ: «ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه» تعبيرٌ حديث جرى مجرى المثل، ومِن النّاس من يَهِمُ أَنَّهُ تعبيرٌ إسلاميّ، وقد رأيتَ النَّصَّ في الإنجيل غارقاً في القِدَمِ.

منهجيّات: طرائق ومُقارَبات جديدة

د. معن النقري

البحث في الطرق والطرائق والمقارَبات، أودراسة النهج والمنهج، أو ما يُعرَف أجنبياً بالنَّهجْ (الطريق) - ميثود = Method وعلم هذا النهج (الطريق) أي المنهج -ميثودولوجيا methodology كلّ أولئك من القطاعات المعرفية والعلمية والفلسفية الأكثر إهمالاً ومظلوميةً في الثقافة العالمية، ولا زالت ضائعةً في نثاراتٍ مفتَّتة مشتَّتة حتى الآن موزَّعة بين علوم اختصاصية وفرعية عديدة وكثيرة جداً، ومذاهب فكرية وفلسفية متباعدة جداً أغلب الأحيان، ولا يوجد علم أو قطاع علمي معرفي متخصص يستجمع شتاتها وينظم أمورها كما ينبغي، فبقيت حكراً تقريباً على بعض المذاهب الفلسفية، جزئياً وعبوراً باهتاً، أو بعض مدارس الفكر العلمي الأحدث والأرقى كبدايات فحسب. وحظُّ المنهج / الميثودولوجيا متعثر جداً ولا يُقارن بحظوظ دراسات: تاريخ العلم ومنطق العلم ومعرفيّات العلم واستعرافيّاته (غنوسيولوجيا/إبستيمولوجيا) وفلسفة العلم... إلخ.

صحيحٌ أنَّ لديَّ على الطاولة أو مِن المتاح، عدداً كبيراً من الأعمال البحثية والمقررات الجامعية الدَّرْسية التي تحمل شارة «مناهج البحث» في هذا العلم التفصيلي أو الفرعي أو «الإقليمي العلمي» أو ذاك، غير أنها مزعزعة ومخلخلة ومتوزعة في جزر معزولة لا رابط بينها، وربما احتفظت بشتاتها لإبقاء الإشكالية قائمة ولإدامة التفكُّر بإشكاليةٍ لافتةٍ كهذه لا تجد من يحاول فك عُقَدِها وطلاسمِها.

اقرأ معي بعض عناوين أُراودها وتُراودني في هذا المجال وكلها وثائق: مناهج البحث الأدبي، ومناهج البحث التربوي، ومناهج البحث الإعلامي، ومناهج البحث في المعرفة العسكرية، ومناهج البحث التاريخي، ومناهج البحث في علم الاجتماع، ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية، ومناهج البحث في العلوم الطبيعية...إلخ واذهب بعيداً أيضاً.

ويبدو أن الأمر سيكون أسهل مع رصد بعض الطرق والطرائق - النهج والمناهج الأكثر مركزيةً ومحوريةً والأكثر حضوراً وتأثيراً وراهنيةً في حقول ومجالات كثيرة متباينة معاً لتأتي بمنزلة طرائق ومناهج عامَّة أو شبه عامة علمياً ومعرفياً وثقافياً، فلسفياً وفكرياً؛ وهنا تذكير ببعضٍ من هذه مما انتشر وساد على مساحة القرن العشرين بأكمله مع حضورٍ واضحٍ أحياناً وباهتٍ أحياناً في الفكر العربي والثقافة العربية: الطريقة التطوُّرية (الطريقة النشوئية الارتقائية) -المَوْدلة (النَّمْذجة/الأَمْثَلة)، والطريقة التاريخية و«المقارَنة - التاريخية» (مِن مبدأ التاريخية والمذهب التاريخي: التاريخوية أو التاريخانية)، والتحليل البنيوي - الوظيفيّ (اعتماداً على دمج والتحام تياري أو مذهبيّ: البنيوية والوظيفية): هذه الطرائق دخلت الساحة العربية ثقافياً بصورةٍ أو بأخرى بقليل أو شيءٍ من النجاح؛ أما طرائق المنطق والرياضيات وما إليها فسنكتفي بالمرور عليها لماماً وسريعاً في عناوين عابرة للتذكير بتسميات موجودة عالمياً في المرجعيات الفكرية الفلسفية للإتاحة عند اللزوم، ولاسيما أنها لا تهمنا هنا إلا عبور وتثبيت، لأن أصل التركيز الحالي هو الطرق والطرائق، المنهجيات والمقاربات، الأحدث والأجد عالمياً.

-١-

إذن، هي طرائق لم تجد الأرضية الملائمة عربياً ولا الشعبية الكافية للانتشار خارج الدوائر المتخصصة، ومن ذلك: الطريقة الإنشائية/البنائية، والطريقة المنطقية، والطريقة الاستدلالية، و«الافتراضية - الاستدلالية»، والمنطق المَوْدَلي/النَّمْذجي، والمَوْدلية/النَمْذجية، في حين انتشرت جزئياً المَوْدلة/النَمْذجة نفسها، وبقي خَجولاً جداً انتشارُ كلِّ ما له علاقة بالمنظومات والمنظوميّات: المنطق المنظومي، والنظرية العامة للمنظومات، والتحليل المنظومي، والمقاربة المنظومية (المقارَبة/المدخل/ المنْطَلَق)، والنهج والمنهج المنظومي، على الرغم من الأهمية الخارقة والحضور الطاغي لهذا القطاع المنهجي المتقدم في كل مكان وكل اختصاص وفي سائر فروع المعرفة والثقافة والفكر والعلم كلاً وأجزاء

فــي البلدان المتقدمة. والحديث في الطرائق: التاريخية، والمقارَنة، والتاريخية – المقارَنة، يمتدّ إلى الحديث في المقاربة المسماة بالمقاربة الثقافية – التاريخية، وسيكون لزاماً علينا الربــط تاريخياً ونشوءاً ومحتوىً فكرياً بين هذه «المقارَبــة»... وَالطريقة التطوُّرية... وتجد لدى الاختصاصيين العرب تخبُّطاً عجيباً في استخدام المفاهيم والمصطلحات المنهجية (لا ذنب للعربيةِ فيه)، واختلافات مريعة فيما بينهم في اختيار المقابِل العربي الملائم للمصطلح الأجنبي الواحد فعلياً في سائر لغات أوروبا، مما يُثير فوضى مصطلحية ومنهجية تُثير الخجل والإشفاق من حجم الاستهانة والارتجال وانعدام المسؤولية العلمية والمعرفية، وليس اللغوية فحسب؛ وكثيراً ما تجد كلمة أو مفردة المنهج تحل محل النهج أو الطريقة لتجد كل الطرائق المذكــورة آنفاً وكأنها مناهج: أمرٌ تهيَّب الديالكتيــك، بطموحاتِه الواسعة الشاسعة والشاملة علــى مدى قرنين مضيــا، أن يفعله إلا بالحديث عن ذاته كمنهج واحــد عام وشامل وموحد لسائر العلوم والمعارف والقطاعات الفلسفية، غير أن العلم المعاصِر تجرَّأ على الحديث عن ميثودولوجيا أُخرى علمية (وليســت فلسفية فحسب ولا جدلية ديالكتيكية فحسب) حتى في بلدان الشرق الأيديولوجية والمؤدْلجة عقوداً مديدة قرابة القرن العشرين بأكمله.

ولدى الحديث في الطرائق والمناهج لا يمكن إغفال الجهد التأسيسي الذي قام به فرنسيس بيكــون في القرن السادس عشر بابتكار الطرائــق العلمية في التجريب (النزعة التجريبية أو المذهــب التجريبي)، تلاه رينيه ديكارت في القرن السابــع عشر، في السير على هذا النهج العلمــي التأسيسي بتأكيد التجريبية وتأصيل الشــك المنهجي معاً، ولاسيما في أحد مؤلَّفاتِه الرئيســة «مقال فــي الطريقة»، هذا مع العلم أنّ بيكون كان قد سبق إلى إيضاح أهمية الشك المنهجــي وضرورات الانطلاق افتراضياً من الشك في الطموح للوصول إلى اليقين، ولاسيما في مؤلَّفِه الرئيس «الأورْغانون الجديد».

ومِــنَ الإشكالات الاصطلاحية والمصلحية العربية ما يأتــي كأمثلة فحسب: عَنْونة كتاب ديكارت «مقال في **المنهج**» (بدلاً من النَهج أو الطريقة) – المنهج الأكسيومي (بدلاً من النهج أو «الطريق»الأكسيومي) –والأكسيومي بدوره للإيضاح هو المسلَّماتي، أي إنَّ الأمر على صلة بطريقــة المسلَّمات أو الطريقــة المسلَّمية/المسلَّماتية؛ وستجد في مواقع أخرى ضياعاً بين البنيويــة والبنائية/الإنشائية (كطرائق)، وستجد في أماكن تسمية «مبــدأ» التاريخية تَحدِّياً للأصــول الأجنبية التي يغيب فيها كلياً ذكر كلمة أو مفردة مبدأ. ومقابل الطريقة التطورية/ **النشوئية – الارتقائية** (وهي تسميتُنا) تجد قارةً من المقابلات الفعلية والممكنة والافتراضية

علـى السواء أمثال التوليدية (وهـي توليفتُنا بدورها) والتكوينيـة والبنائية وأستطيع رفدها الدلالي بالتشييدية والتعميرية والإنشائية... بسبب الثنائية Genetic (Constructive).

-٢-

مـن الطرائق غيـر التقليدية والجديدة نوعياً تلك التـي تأسست على ظواهر جديدة في العلم والمعرفة والاستعراف إجمالاً هي الظواهر والتشكلات العلمية - العامة، والاستعرافية- العامـة نتيجة الميل المتزايد في عصرنا صوب التركيـب والتكامل إثر استفحال التخصص والتحليل والتفاضل في كلّ مكان وكردّ فعل استجابي على ذلك. وهكذا نشأت في نهاية القرن العشرين ظاهرة المفاهيم والمقـولات العلمية العامة، وكذلك المبادئ والقوانين والنظريات والتصـوّرات وأنمـاط التفكير والرؤى الكونيـة العلمية - العامة بدورهـا، وقليلون جداً هم العلمـاء ومفكرو العلم الذين انتبهوا إلى ذلك في حينه وفـي الوقت المناسب، والمفارقة أنَّ مـن نضج في هذا الحقل قبل غيرهم عالمياً هم من ترعرع وتربَّى في بيئة عقائدية مؤدلجة في الشرق، وشبّوا عن الطوق، وخرجوا عن المألوف، وتجاوزوا الحواجز بسلاسة على الرغم مـن الصعوبـات البالغة، هم كثر نسبياً مـع أنهم فئةٌ قليلة في الريـادة العالمية ويمكن ذكر بعضهـم أمثال: سيمينوك، وغوتّ، وأورْسول... وقد أشاروا جميعاً إلى جهود إي.ب سيمينوك السبّاقـة المتبلورة الناضجة على أعتاب الثمانينيـات، ولا سيما في كتابهِ (بالروسية) بعنوان «المقولات والمقاربـات العلمية العامة للاستعراف»، لفوف، ١٩٧٨م. ويشير آ.د.أورْسول منذ بداية الثمانينيات إلى أنَّ سيمينوك أكد محقّاً - (في كتابِه آنف الذكر)- أنَّ عدداً من مقاربات الاستعـراف البازعة ارتبط بصلة وثيقة مع المفاهيـم العلمية العامة ومع منظومتها، كما أن هـؤلاء الروّاد معاً وجماعةً في كتابهم المشترك منتصف الثمانينيات ينتقلون إلى تسمية هذه «المفاهيم» - لدى أورسول- باسم «مقولات» علمية عامة (وليس مفاهيم فحسب)، والمقولات أعـمّ إذْ تعكس المفاهيم الأكثر أساسيةً وجذريةً وشمولاً. والمفاهيم المذكورة - أو المقولات لاحقـاً - هي: المنظومة، والبنيـة، والوظيفة، والنموذج، والمعلومـات، والاحتمال... وإليها ارتكزت المقاربـات الخاصة استعرافياً التي حملت رايتهـا وأسماءَها، أي المقاربات الآتية: المنظومية، والبنيويـة، والوظيفيـة، والنموذجية/«الأنموذجية»، والمعلوميـة، والاحتمالية، وستجـد أنَّ نصفها الأول موجود في المرجعيات المألوفـة المختصة، أمَّا نصفها الثاني أو ثلثها الأخير فغائب تماماً عن الأدبيات والمرجعيات الفكرية الفلسفية مِن معاجم وقواميس وموسوعات متخصصة على مدى قرن كامل وحتى النهاية: تأخر ذميم.

تجـــدر الإشارة إلى أن الكتابين الواردين هنـــا هما من المؤلّفات المنهجية الميثودولوجية النـــادرة والاستثنائية في بابها واختصاصها الفكـــر -العلمي العام، وليس الفلسفي أو الفلسفي - العلمـــي حصراً، وهذا ما جعلها تشب عن الطـــوق، وعناوينُها عينها نادرة المعالجة من حيث الموضـــوع أيضاً: أورْسول: الفلسفة والعمليات التكامليـــة العلمية العامة؛ وكذلك أورسول مع غـــوتّ وسيمينوك جماعةً في: مقولات العلم المعاصر؛ وقـــد أرسوا أعرافاً نضجت وتبلورت لاحقاً، وهم يذكرون في كتابهم منتصف الثمانينيات ويشيرون صراحةً (ص١٤٧) إلى أنَّه: «في العقد الأخير تزداد أهمية وسائل وأساليب في الاستعراف ليست ذات طابع فلسفي بل ولدت ونشـــأت في علوم أخرى وعلى الرغم من ذلك اكتسبت وضعاً علمياً عاماً...»، وكي نقدّر هذه المقولـــة حق قدرها علينا أن نتذكر التلازم الطويل المديد بين الفلسفة والمنهجيات عموماً، مـــن مناهج وطرق وطرائق ومقاربات ووسائـــل استعرافية مختلفة - التلازم المستديم سابقاً بين الميثودولوجيا والفلسفة.

-٣-

إنَّ البـــازغ الأقوى والأكثر زخماً وكموناً وتخفّياً في عالم الميثودولوجيا والمنهجيات ليس هـــو شيئاً من المقاربات الريادية المذكورة حتى، بل طرائق ومقاربات بقيت موجودة «بالقوة» مكتومـــة مضمرة لم يأتِ على ذكرها حتى هـــؤلاء الطليعيون آنفو الذكر في حينه؛ وبالطبع لا تذكرها الأدبيات والمرجعيـــات الفكرية أو الفلسفية في قواميسها ومعاجمها وموسوعاتها علـــى مدى سنواتٍ وعقودٍ تالية لاحقة، على الرغم من حضورها فكرياً، بل استخدامها الحر فـــي شذرات وحالاتٍ مبعثرة هنا وهناك بكثافة مرةً وبانتقائيةٍ مراتٍ وفي حالات. إنني أعني بذلك عبر الاختصاصية، وبَيـــن الاختصاصية (أوْ بَينيّة الاختصاص أو تَداخُلية الاختصاص أو مـــا فضَّلْتُ تسميته أيضـــاً: ميزو- اختصاصية) هذا من جهة، ومـــن جهةٍ أخرى التركُّبيّة والمنهجيات المركَّبة المعقدة. ولأنّي متابعٌ وفاعلٌ عنيدٌ أستطيع رصد وتوثيق هذه المسارات الميثودولوجيـــة ومصائرها منذ إشراقاتِها الأولى، ولاسيّما أن الجهات المشتغلة بالمنهجيات عادةً وعرْفاً هي مؤسسات ومعاهد أكاديمية فلسفية تُعلن عن أعمالها واشتغالاتها عبر مجلاتها الأكاديمية الرصينة المتخصصة (وفيها مكان مرموق للمنهجيات وحيِّز بارز للميثودولوجيا)، عَنيـــتُ بذلك مجلة «قضايـــا الفلسفة» الصادرة عن معهد الفلسفـــة الأكاديمي، وكنت متابعاً جـــاداً لها ومشتركاً شخصياً بها على مدى عقود منذ أواسط وأواخر السبعينيات ثم لاحقاً... وهنـــا إحدى المحطات التوثيقيـــة التي يصعب إغفالها أو تجاوزها بلا مبالاة، وقد وردت في

العــدد الأخير (العدد ١٢) من المجلة لعــام (١٩٧٩م) في الدراسة الافتتاحية الأولى المعبّرة عــن رأي جهاز التحرير ككل، بل المعهــد الأكاديمي الأعمق بالأحرى، عدا التوجهات الكبرى المستجدة في دولةٍ عظمى وسياستها، في ضوء مستجدات وتيارات عميقة شاملة بدأت تظهر على السطح منهجيــاً ميثودولوجياً، وجاء الافتتاح تحت عنوان: «حول وضع/حالة واتجاهات الدراســات الفلسفيــة» (ص٣- ١٧) وقــد أردتُ توثيق ما ورد من بعضــ سطور في (ص١٥) مثلاً (من منهجيــات): «التطوُّر/التنمية المجتمعية المعاصرة تُقــدِّم إلى الواجهة والصدارة مشكلاتٍ يغلــب عليها الطابعُ المركَّب المعقَّد (كومبْليكْسّ) الذي يتطلب توحيد جهود ممثلي العلوم المجتمعية والطبيعية والتقنية الهندسية المختلفة». ونتابع هنا دلالاتٍ من أمثال: الدور التركيبي التكاملي للفلسفة لا يعني أن تدَّعي لذاتها دور «العلّم الخارق» (العلمٍ الأعلى = سوبّر/ نــاؤوكا) متمثلاً في نظير معاصر لما عُرف بـ «علم العلوم»، بل الفلسفة مدعوّةٌ لوضع منهج/ ميثودولوجيــا تفاعل العلــوم، وبالتعاون والتكاتف مع العلوم الأخــرى تحسُّس ودراسة طبيعة «التماسَّــات» (الالتقاءات) و«التحولات» بين الحقــول المختلفة للمعرفة... ويجب التذكير أن لا منظومات ونماذج مجــرّدة «شموليّة» (أوّنيفيرسال...) لا مبالية تجاه الطبيعة الخصوصية للحقــول الملموسة للمعرفة ولا منظومات ولا نماذج كهذه تستطيع استبدال التحليل الملموس للحالــة الملموسة في كل علــم، تماماً كما أنهــا لا تستطيع تحليل الطبيعــة الملموسة لهما ولصلاتهمــا وروابطهمــا العامة... وتالياً دعوة إلى معالجة فعّالــةٍ واستخدام لجهاز المنطق والميثودولوجيــا (المنهج) الخاصين بالدراسات المركبة (كومبليكســ)... وعلىً أًساس ملموسية الحقيقــة يمكن تعاون اختصاصيِّي العلوم المختلفة وتكاتفهــم لوضع وصياغة لوحة تركيبية كليــة متكاملة – وليست تجميعية – للظاهرة المدروسة ، ومــن ثم وضع وصياغة مقترحات علميــة ملموسة ومحددة، وهنا إعادة تأكيد مراراً وتكراراً ضرورة إشراك الجميع، في الوسط العلمي المعرفي وخارجه، في دراسة وحل ومعالجة المشكلات المركّبة.

وثمة توجيهات في خصوص الطابع المركَّب عينه (كومبليكْسْنَسْت = Complexity = التركُّب) والتبسّيطيــة الإرجاعية الفجة الساذجة، والتأويــلات التجميعية التلفيقية غير الخصيبة في هــذا الخصوص أيضاً. هنا بعض التوثيقــات الاقتطافية مِن (ص١٦): التركُّب ليس تنظيمياً فحسب بل مشكلــة منهجية ميثودولوجية جدية أيضاً. إنَّ الاغتنــاء المتبادل للعلوم بالأفكار والطــرق/ الطرائــق والمفاهيم والمصطلحــات – كل أولئك بمنزلة شــرط ومقدمة وكذلك نتيجــة لتفاعل العلوم الخــلاَّق.. التركُّب لا يعني التجميع البسيــط للنتائج المحصَّلة في كل

علـم، كما أنه لا يعني محـو الحواجز بين العلوم وفقدان أي منهـا «لِوجْهِه» الخاص (لهويته -د.م.ن). إنَّ التنسيق التلفيقي للأفـكار والطرق/الطرائق مُحظَّر مثلما يُحظر إرجاع تنوعها إلى شيء ما واحد: كإرجـاع المشكلات الاجتماعية مثلاً إلى إحيائية بيولوجية، والبيولوجية إلـى فيزكيميائية، والسيكولوجيّة إلى فيزيولوجية... ويلـزم أن تُقدِّم الفلسفة إسهام النظرية والمنهجية الميثودولوجية في آنٍ واحد معاً لحل المشكلات المركَّبة (ولاسيما مشكلة الإنسان مثلاً...). ويجب الاعتراف أن الحدود الفاصلة بين المعرفة الرؤيوية، والفلسفية - المنهجية/ الميثودولوجية، والمعرفة الاختصاصيـة باتت حدوداً متحركةً ونسبيةً الآن أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أنها قائمة ويستحيل تجاهلها في البحوث العلمية.

كانـت هذه شذرات توثيقيـة مفصلةً جزئياً لأنها تعكس حماساً وتوقـداً فكرياً وإحساساً ذهنيـاً بضروراتِ استيلاد جديـد منهجي لم يعد يقبل أو يتحمـل التأجيل؛ ولحظات صدق وحقيقـة كهـذه انطلاقاً وتأسيساً يعـزّ لَحظُها وتكرارُها لاحقاً. وبالفعـل لم أجد على مدى عقـد كامل تالياً دراسـةً جادةً في هذه المجلـة الجادة نفسها تملأ الفـراغ وترضي الطلب إلـى المركَّـب وإلى المقاربة هذه - المنطلق والمدخل المركَّـب، لم ألحظ ذلك في عشرات الأعداد سنوياً لعشرات السنين وأنا المتابع العنيد، ربما كانت المحطة التالية اللافتة للانتباه - (مـن خارج تجربتي الكثيفـة والثرية جداً في هذا المجال ومن بعدهـا بخاصة) - دراسةٌ رصينـة كتبها البروفيسور س.ن. سميرنوف في المجلـة نفسها «قضايا الفلسفة» (العدد ٣)، عـام (١٩٨٥م)، تحت عنوان «بعض توجهات تطور العمليـات بَينيّة - الاختصاص في العلم المعاصر» (بَينية أو تداخلية أو ميزوّاختصاصية)، وذلك ضمن عنوانٍ بات ثابتاً محورياً تقريباً في المجلة هو: المشكلات المنهجية الميثودولوجية للدراسات المركَّبة المعاصرة. وهنا تجد دخـولاً مباشراً إلى العلبةِ أو الصندوق عبر عناوين فرعية أمثال: التفاضُل والتكامل، التنظيم الاختصاصـي والميزواختصاصي للعلم، وديالكتيك الدراسات الأساسية والعلمية/التطبيقية، ونشـوء الميزواختصاصيّـات الإقليمية/المناطقية، والحَدِّية/التَّماسِّيَـة، وعبّر -الحدّية...، والمنظومية المركَّبة ، عمليات ميزوّ تخصُّصـ (وتَخصيص) العلم: العلمية العامة، والعلمية التقنيـة، والاجتماعية القيمية (القيمية -أكسيولوجيـة). وغابت المسألة المحورية والراهنة هـذه مجدداً لتحضر بعد غياب بوضوح لافتٍ وقوةٍ أكبـر نسبياً، في ظل فراغ أوْ خواء، عبر أحد الإصدارات الدورية الشهرية في كتب وكتيبات سلسلة «المعرفة» (زْنانِيي) الفلسفية، (من بين ميادين أخـرى) والكرّاس/الكتيّب من تأليف المختص بالعلوم الفلسفية ف.آ. كوطيريف

وبعنـــوان «المشكلات الفلسفية للتركّب»، العدد٩/لعام (١٩٨٧م) من سلسلة المعرفة/الفلسفة وهـــو العمل شبه الوحيد الأكبر حجماً في هذا المجال حتـــى حينه وبعد سنوات أيضاً. ومن مباحثـــه التفصيلية: الشروط الاجتماعية - التاريخية لظهـــور التركُّب، المركّب والمنظومة: تلاقيهمـــا وتفارقهما، التركّب في الاستعراف، الدور الرؤيوي للفلسفة في الدراسات المركبة. أمـــا المرجعيات الفكريـــة الفلسفية من معاجم وقواميس وموسوعـــات متخصصة - وهي تتأخر - فبقيـــت سنواتٍ عجافاً مديدةً تالية تُقصي وتُبعـــد وتُغفِل كل ما هو مركَّب وتركُّب وكل ما هو ميزو اختصاصي /عبر اختصاصي.

-٤-

يجب الاعتراف بأن المشكلات المركبة وعبر الاختصاصية، والموضوعات من هذا الصنف، نضجـــت ودخلت الوعي قبل سنواتٍ وردحٍ من الزمن مديـــد حتى نضجت وتبلورت مقارباتها ومنهجياتها المطابقة، فالمشكلات المركبـــة والجهات المؤسسية التنظيمية العلمية المركَّبة سبقـــت التركُّب منهجياً والمقاربات المركَّبة التركيبيـــة، وكذلك فإن الموضوعات والإشكالات عبر الاختصاصية (الميزواختصاصيـــة) سبقت إنضاج مقاربات ومنهجيات لها، وبالتسميات والمواصفات نفسها، بسنوات كثيرة مديدة، مع العلم أن التعددية الاختصاصية قابلت تعددية الوجوه والجوانب المشكلية الإشكالية.

عـــودةً إلى طرائق ومقاربات حديثة وبازغة، لكنها لم تحتضن التركُّبية عبر الاختصاصية بوضوح وتحديدٍ بعد، وذلك لدى سيمينوك- أورّسول- غوتّ، وعبر كتب: المقولات والمقاربات العلميـــة العامة للاستعـــراف، والفلسفة والعمليات التكاملية العلميـــة العامة، ومقولات العلم المعاصر، وذلك على التوالي كرونولوجياً زمنياً أيضاً؛ وهي جميعاً مؤلفات فريدة واستثنائية في بابها، وسنحاول الدخول إلى صناديقها تباعاً للتعرف على المقاربات (إثر المقولات والمظاهر والظهـــورات العلمية العامـــة): المنظومية، والبنيويـــة، والوظيفية، والمودليـــة (النَّمذجية)، والمعلوميـــة، والاحتمالية. وفي الفصل الرابع والفقرة الثانية بعنوانيّ «الترابُط العضوي بين المقـــولات العلمية العامة والأشكال والوسائل العلمية العامة للاستعراف»، و«صياغة مقاربات وطرائـــق علمية عامة لدراســـة الواقع» تتالياً (ص١٤٧-١٥٨) مـــن كتابهم الجمعي: «مقولات العلـــم المعاصر» يبدأ المؤلِّفون مشكورين بتدقيق وتحديد تواصل وتفاصل مفهومي، المقاربة والطريقة، ومشتركاتِهما واختلافاتهما أيضاً، مما ترصده الأدبيات المنهجية الميثودولوجية؛

فالمقاربــة من حيــث المضمون تمتاز بشيءٍ مــن عدم التعيين وعــدم التحديد ولا واحديّة الدلالــة، مع أن المفهوميــن يتقاربان ويتواشجان أكثر مصطلحياً عنــد الاستخدام في حقل الاستعــراف فيترادفان؛ الاختلاف فــي أن المقاربة تُثبّت اتجاهــاً وتوجيهاً محددين للبحث العلمي، فالمقاربة المنهجية الميثودولوجية بمنزلة توجيهٍ منهجي مبدئي للبحث كوجهة نظر حيال موضوع الدراسة، وكمفهوم أو مبدأ يدير الإستراتيجية العامة للبحث (بلاوبيرغ ويودين)، فــي حين وبخلاف ذلك فإن مفهوم الطريقة يوصِّف الاستعــراف من منظور تحديد أسلوبه: في الطريقة والأسلوب يكون الأساس هو توضيح مسألةِ كيفية إجراء البحث وما هي «تِقانته» (تكنولوجيَّته)، وليس بالمعنى التقني التكنيكي التقليدي فحسب.

أيُّ طريقــةٍ أكثــرُ تحديــداً وملموسيــةً، بمعنى التثبيــت الحازم فــي مضمونها للعلائم والخصائصــ الفارقــة الأساسية التي يعبر عنها أسلوب البحــث. إن الطريقة والطرائق هي مجموعــة إجــراءات البحث أو العمل البحثــي ذات المحتوى الصارم والمحــدَّد والتي تقدم خَرْزمــةً متميزة لأفعال الباحث (خَرْزمة = ألغوريتم = بَرْمجة)؛ في حين مقاربة الاستعراف من الجانب المنطقي- المنهجي/الميثودولوجي هي ظاهرة (فينومين) أقل تحديداً وملموسيةً بكثير. ويستخلص المؤلفون مجتمعين معاً النتيجة الآتية (ص١٤٩): «يبدو لنا أن مضمون مفهوم «طريقة الاستعراف» أغنى وأملى (أتمّ وأكمل) وأكثر تحديداً وملموسيةً مما «مقاربة الاستعراف»».

ويبــدأ المؤلفون جماعةً ما سبق أن فعلــه أورْسول فرداً في رصد ومتابعة أهم المقاربات التي سبق ذكرُها آنفاً:

١ -**المقاربــة المنظوميــة**: والمتابع العربي على شيء مــن الاطلاع في هذا الحقل، لذا فربما لــن يسمح الحيز المحدود هنا بالاسترسال مطــولاً، ولاسيّما أن دراسة ومعالجة هذه المقاربة هي الأنضج والأوفر عالمياً، وليس عربياً، إذ أكاد لا ألحظ تراثاً ملموساً في الثقافة العربية يلفت الانتباه خارج كتابي الوحيد سورياً في خصوص المسألة: «المنظومات وعلومها (المنظومات في الواقع وفي الفكر)»، دمشق، ٢٠٠٤م؛ وقبل ذلك في عددين من مجلة المعرفة الشهريــة السورية:العــدد٤٦٢، آذار، ٢٠٠٢م: المنظوميات...، وكذلــك العدد٤٧٠/، تشرين الثانــي، ٢٠٠٢م: أنطولوجيا وإبستمولوجيــا المنظومات...، إذ تجد كلَّ شيء عن المنظومات بانوراميــاً. ولذا سأكتفي فــي هذا البند بالإشارة إلى ما ورد في الكتاب وقبل ذلك في أعداد المجلة ضمن عنوان: المنظوميَّات علمياً ومنهجياً:

١ – البحوث والدراسات المنظومية، ٢- النظرية العامة للمنظومات، ٣- الطرق المنظومية للبحث والدراسات، ٤- المدخل المنظومي (المقارَبة المنظومية)، ٥- التحليل المنظومي...

٢ –**المقاربة البنيوية** ومن دونها لا تكتمل المقاربة المنظومية فهي تنضاف إليها «عضوياً»، والإشكاليـة فـي هاتين المقاربتين مترابطة جداً داخلياً ترابطـاً لا ينفصم إذ يغلب الحديث عـن مقاربة تواشجية اندماجية هـي المقاربة **المنظومية- البنيويـة** الموحدة «المقاربة أو الطريقـة»، وبالطبع فهذه التركيبة المهمة غير معروفة عربيـاً بعد، ربما بسبب عدم تقدير وانتشـار المنظومية أساساً بعد، في حين لا تستغرب الثقافـة العربية والفكر العربي تركيبةً مشابهـةً هي الوظيفية – البنيوية أو «البنيوية – الوظيفيـة»، على أي حال فإن المنظومية- البنيويـة لم تجد أصداءهـا بعد حتى في الأدبيات والمرجعيـات الفكرية الفلسفية العالمية المتخصصـة، بخلاف طليعة روّادِنـا الحاليين في سبقهم وأسبقيّاتهـم. إن الانبنائية- كما يؤكد مؤلفون كثيرون – صفة شاملة العمومية وجوهريةٌ للوجود (صفة أو خاصّية)، وللظواهر والمظاهر (فينومينـات) المثالية الفكرية أيضاً، ومن هنا اكتسبت المقاربة البنيوية وبسرعةٍ طابعـاً علمياً عاماً، ونالت حظاً وفيراً من الاهتمـام كمقاربةٍ للاستعراف. إن مبدأ الانبنائية يعكـس الشمولية الوجودية الأنطولوجية لانبنائيةِ المادة والوجـود... وهو كمبدأ يتطلب من الناحية المعرفيـة الغنوسيولوجية- في رأي لياخوف- النظر إلى سائر الخصائص والأشياء والعمليـات والعلاقات فـي الطبيعة، الماديـة والمثالية على السـواء، كموضوعاتٍ لها بنية (ذات بنية) وكعناصر مسـتوى معين للبنية الواحدة للمادة. إن المهمة والهدف الأهم منهجياً ميثودولوجيـاً للمقاربة البنيوية هما كشف الانبنائية التعددية (التعددية = بولي) لموضوعات الواقع الفعلية، والتلاحمـات والتشابكات المعقدة لكثيرٍ من البنى متباينة الأبعاد والأطياف، والتـي تستقر في أساس فرزها علائم مختلفـة مشكّلةً للمنظومة. وقد حرص عدد كبير من الفلاسفة السوفييت حيناً ما على التمييز جيداً بين المقاربة البنيوية مذهب البنيوية الغربي بتصوراتـه الفلسفية خارج العلم وأبعد منه، وارتأوا أن مذهـب البنيوية الفلسفي الغربي هو إطـلاقٌ ميتافيزيكي للمقاربة البنيويـة العلمية المنهجية مع تبهيـراتٍ بعناصر المثالية، مع اعترافهـم في الوقت نفسه – عند التمييـز- بأهمية الطريقة **المنظوميـة- البنيوية** كأحد عناصر المنهج/الميثودولوجيا العلمية، وهذا هو رأي وتقويم سيتكوفسكي على أي حال.

٣ –**المقاربـة الوظيفيـة**، وحسبها يتركّز اهتمـامُ الباحث على سلوك ونشاط المنظومات ووظيفتهـا. وسميت هذه بالمقاربة **المنظومية الوظيفية** (وهـذه كالمنظومية البنيوية غير

مألوفة عربياً بعد). ومركز الاهتمام البحثي في هذه المقاربة هو ذاك الجانب من كينونة المنظومات الذي يدعم انحفاظها الذاتي وصيانتها وتثبيتها في وسطها المحيط. إن وظائف المنظومة كوحدةٍ وككلٍ عضوي هي التي تحدد الخصائص الوظيفية لأي جزء في الموضوع المنظومي (كالعنصر وتحت المنظومة/المنظومة الدنيا ...).

والخلافات المنهجية الميثودولوجية بين المقاربتين البنيوية والوظيفية تتجسد وتتركز في التالي حسب كثيرين: المقاربة البنيوية ترصد أساساً تعايش وترتيب العناصر في المنظومة وتراتبيتها، أما المقاربة الوظيفية فتسمح باستخلاص انتظامية المنظومة بما تعنيه من أداء أفضلي أمثلي للوظائف المكرّسة والموجهة إلى حماية المنظومة. وثمة علاقة طردية (اضطرادية) بين ما سبق الحديث عنه من انبنائية تعددية (بولي...) لموضوعات الواقع المدروس، وما يرافقها عضوياً من التوظيف التعددي (بولي...): كلتا الخاصيتين متشارطتان.

وكما جرى التفريق بين المقاربة البنيوية منهجياً كمكون في الميثودولوجيا العلمية والبنيوية كمذهب فلسفي غربي «نشاز»! كذلك الحالُ هنا في التفريق بين المقاربة الوظيفية منهجياً علمياً والوظيفيّة كتيارٍ غربي من شطحات الفلسفة «المثالية»!

٤- **المقاربة الاحتمالية**، وفيها يتجسد وعي ودراسة معيار الإحصائية (سّتاتيستيكا) للأشياء والمواصفات والعلاقات، مما يتقدم في العلم حالياً إلى المرتبة الأولى في رأي ي.ب.نوفيك وهو عالم مجيد وطليعي ريادي، ولاسيما في المنهجيات الأحدث والأكثر تقدماً، عرفتهُ عن قرب كمراجعٍ رئيس ومُبارِك ومعجَب برسالتي د.م.ن، إذ يلزم تحديد درجة احتمال الظواهر في مجالات الواقع الأكثر تبايناً. وقام عدد كبير من الاختصاصيين بدراساتٍ لهذه المقاربة ومحتواها وللطرائق الاحتمالية - الإحصائية الملموسة التي تتحقق من خلالها، ومن بين هؤلاء الدارسين البروفيسور ف. ي. كوبتصوف (رئيس قسمنا - قسم الفلسفة لكليّات العلوم الطبيعية في جامعتنا -ج.موسكو الحكومية)، وكذلك البروفيسور «ل.ف.سميرنوف» (وهو غير «س.ن.سميرنوف» الوارد ذكره سابقاً هنا).

٥- **المقاربة المعلومية للاستعراف**: ومحتواها الأساس هو فرز ودراسة الجانب المعلومي من الظواهر الأكثر تبايناً، الجانب المكمل عضوياً للجوانب الشيئية والطاقية المعروفة والمدروسة منذ زمن لا بأس به قبل هذا - منذ قرون، ويشير إي. ب. سيمينوك إلى أنّ

المقاربــة المعلومية لا تُطابــق المقاربة السيبرنيتيكية بــل إن إشكاليتها باتت الآن أوسع من تلــك بكثير في عمله: «المقاربة المعلومية للاستعــراف في العلم المعاصر، والمعلوماتية»... وممــا قاد هذه المقاربة لتصبح وسيلة استعــراف علمية عامة كثرةُ الدراسات حول الجوانب المختلفــة للارتباط بين «مفهوم» المعلومات وهذا مــا بات يحتاج تدقيقاً بالتوصيف كمقولة وليســ كمفهوم د.م.ن فحسب و«مقولة» الانعكاس وهــذا يتطلب خفض الأدلجة د.م.ن، وقد شهــد مسارُ الأمور الأحدث، وتالياً، رفــع الاهتمام بالتناسب والتعالق بين مفاهيم المعلومات والمعرفة تصعيــداً حتى الآن (عندي مثلاً: المعرفة والمعلومات/مناقشة المصطلح والمبنى اللغــوي والفكري؛ السفير الثقافي، بيروت، (٢٥/١٢/١٩٩٨م)، (ص١٣)؛ وقبل ذلك بالروسية (٨٢/٨١) - البدايات: آ - التبادل المعلومي وتنظيم المعلومات (إكمالاً لتبادل الأشياء والطاقة وانحفاظهما)؛ ب - نمــوّ المعلومات والعملية التكاملية العلمية: الموضوعان منشوران عربياً بترجمتــي الذاتية في دورية أسبوعية سوريــة (١/٢٨ وَ١١/٢/١٩٨٦م). والمقاربة المعلومية لقيت انتشــاراً ملحوظاً في الفلسفة وفي علم العلم وفي التوليف على البحث العلمي ونشاط العالِم وعلى العلم بإجمال.

٦- **المقاربــة النَّمذجية (المَوْدليّة)**: وقــد شهد العلم المعاصر استخداماً نشطاً لطرائق النمذجــة المختلفة، وهي وسائل وأساليب ومهارات استعرافية ترتكز إلى المماثلة والمحاكاة المضمونيــة بين النمــوذج (الموديل) وموضوع النمذجــة، حيث تُعطــى للمحاكاة/المماثلة توجهــاتٌ إبداعية استكشافية (يوريستيكية). ومن الضــروري توعي الطابع المبدئي لتعددية الخيــارات/أو للخيارات المتعددة (بولي فاريانْتْ...) في نمذجة/مودلة الواقع بوسائل العلم، إذ إنَّ كلَّ ظاهــرة قابلــة للنمذجة بأساليــب كثيرة عديدة وليست وحيدة. ومــن بين أساليب ووسائل النمذجة الوفية يجري اختيار الأسهل والأنسب تطبيقيةً والأعلى فعاليةً. ومن خصائص علمنــا المعاصر الميل المتصاعد إلى زيادة حضور وكثافــة ودور النمذجة المثالية الفكرية (المنطقيــة) مقارنةً بالنمذجة المادية (الفيزيائية)، ولاسيمــا باستخدام النمذجة الرياضية الحاسوبية في ظل تكثيف حضور الرياضيات والحواسب في علمنا وحياتنا (ما أسميه الميل إلــى الترييضــ والحوسبة)، بالتقاطع مع الميــل المرادف في ازدياد الطابــع النظري للعلم (تنظير المعرفة العلمية) بمعنى اشتداد لحظات التنظير والتأسيس التجريدي. إن الأمر الأهم فــي المقاربة النمذجية هو الاستخدام الاستكشافــي (اليوريكي) لطريقة المحاكاة والمماثلة في كل مجال.

٧- **المقاربة البرمجية الخَرْزميَّة**: (مِن ألغوريتم = ألخَوارِزْم)، ويشير بيريوكوف إلى أن إمكاناتِ تحول المقاربة الخَرْزمية إلى مقاربة علمية عامة -(وليست رياضية فحسب)- ارتبطت إلى حدٍّ كبير بـ «ل.زادي» وتطويره نظرية البرمجات /الخَرْزمات المائعة السَّيَّالة وغير الصارمة ولا شديدة التحديد والتأكيد تطرُّفياً.

ويلاحظ في الغرب تحويل أي من المقاربات المذكورة أو بعضها إلى لحظاتٍ مضخَّمة منفوخة «كفلسفاتٍ جديدة». كان يلزم سرد تجربتنا المنهجية المبكرة جداً والمديدة الطويلة والثرية في هذه الحقول وأمثالها لكنَّ هذا يتطلب مقالةً مطوَّلة.

ريحٌ تهزُّ البابَ!...

أحمد يوسف داوود

كلّما هزّتِ الرّيحُ بابي هَمَسْتُ:
- اعذُريني...
ولكنّني رُحتُ أفْتحُ!...
تَعتذِرُ الرّيحُ منّي وتُكمِلُ أنّاتِها
في طَريقِ الرّحيلْ!.

كُنتُ قَبلاً أرُدُّ عليها بشيءٍ من الغَيظِ...
لكنّني الآنَ أعرِفُ كم قد تَغَيّرتُ:
صرتُ أَراني ضَئيلاً،
ولا صَوتَ لي كَيْ أرُدَّ على حُزنِها
بالصّهيلْ!.

أستَريحُ قليلاً وأُغْضي...
فمن أينَ آتي بما صارَ يكفي لأقدارِنا
ولِخَيباتِ أعمارِنا
من صَدى الغَضبِ المُستحيلْ؟!.

تَتَساقَطُ حَولي هَزائِمُ قلبي تِباعاً
كأوراقِ داليَةٍ...
هَرِمتْ في خَريفٍ ثقيلٍ
ونامتْ على دمِها في رِثاءٍ ثقيلْ!.

وأراني أجوبُ هزائِمَ عَصرٍ
ولاظِلَّ لي...
وجَناحايَ قد ضَيّعا طُرُقي في الحِدادِ
فناما مع الموتِ مُنكَسِرَيْنِ
وضاعا غَريبَينِ بينَ رُكامِ الفصولْ!.

- العمل الفني: الفنان تحطان طلاع.



إنّني لا أُريدُ قِراءةَ سَطرِ البِغاءِ
الذي في الحِيادِ...
ولا حَقَّ لي في قِراءةِ نَصِّ البِلادِ...
ومازالتِ الرّيحُ تَعصِرُ وَحشةَ قَلبي
فأمْضي إلى البابِ كالطائرِ المُتلهِّفِ:
لاشيءَ في البابِ غيرُ انتظاري
وغيرُ عَذابِ الرُّؤى والذُّبولْ!.

قُلتُ للباب:
- يا بابُ شُكراً، توقّفْ قليلاً!...
توقف مثلي عن البَوحِ مرتَعِشاً
تحتَ بَردِ هَزائمِهِ...
ومضَينا معاً خائبَينِ
ومُستسلمَينِ لهذا الخَواءِ الطّويلْ!.

غادِرْ فقدْ وصلَ الغُرابْ!

أتراكَ مَغدوراً؟!...
إذاً غادِرْ فقد وَصلَ الغُرابُ...
ولستَ أوّلَ عالِقٍ
في لُعبةِ (الأرضِ الخَرابِ) (١)
لكي تُفاجَأَ بالمِياهِ الآسِنةْ!.

لا شيءَ كانَ ولم يَقُلْهُ لكَ الرُّواةُ...
فما الذي في السّردِ قد أغْواكَ:
أهيَ بَلاغةُ الزّنْخِ العَتيقِ...
أم انتهَيتَ إلى ضَلالِكَ في الحِكايةِ
عن مَسالكَ آمِنةْ؟!.

ليلٌ هنا... وَحلٌ هُناكَ...
على مَسافةِ خنجرٍ
يَترَصّدُ الفُتّاكُ قَتْلاهم بلا عَجلٍ...

فيأتي المَيِّتون على عَجلْ!.

تَمضي الحكايةُ في عَراءِ السَّردِ:
وَحدَكَ في المَتاهَةِ...
لا طريقَ إلى حَياةٍ حَيثُ أنتَ
فكيفَ يَعصِمُكَ الجَبَلْ؟!.

فاهدَأْ كَفاكَ تَحسُّراً..
لم تَبقَ كأسٌ كي تُدَقَّ بها الكُؤوسَ!...
أفِقْ فإنّكَ صرتَ في مَنفاكَ:
تُلهيكَ الوُحولُ عن الشَّرابِ...
وعن رُؤاكَ الخائِنةْ!.

لم يَبقَ شَيءٌ في تَوابيتِ الجهاتِ
سِوى احترافِ الهَمِّ...
قد وَصلَ الشُّهودُ فرُحتَ تبحَثُ
عن حَياتكَ...
صارَ يُروى عَنكَ أنّك ضائعُ التّعريفِ
مابينَ القصيدَةِ... والمَكيدةِ...
والنِّكاتِ الماجِنَةْ!.

غادرْ إذاً..
كنْ في الغيابِ مُؤبَّداً!...
ماهمَّ إنْ وَصلَ الغُرابُ إلى سَمائِكَ
أو رَحلْ؟!.

لم تَحنِ ظَهرَكَ بَعدُ للشُّطّارِ
فانظرْ كَمْ أمِلتَ...
وكم قُتِلتَ...
وكَمْ حَللْتَ..
وكَمْ رَحلْتَ على عَجَلْ!.

غادرْ فإنّكَ ضائعٌ!...
وصلَ الخَرابُ وأنتَ في مَنفاكَ:
مُدَّ يَدَيكَ للأَوْهامِ أَقْفَلها بلا أَسَفٍ...
ألستَ وقد هُزِمتَ الآنَ مَنْسيّاً؟!...
أما ضَيَّعتَ عُمْراً في الأنينِ
وما تزالُ مُضَيَّعاً
وَبلا أملْ؟!.

في لَيلةِ الرَّحيلْ!

كُلَّ صُبحٍ
هذه الأُنثى التي في ثَغرِها كَنزُ ابتِسامٍ
تَسألُ البَحرَ عنِ الريحِ:
لماذا انْشغَلتَ في آخرِ الصَّيفِ
وقد حَنّتْ قُلوعٌ للسَّفرْ؟!.

في الصّباحاتِ تحومُ الطيرُ أَسراباً
على شُبّاكِها المَفتوحِ...
ما في كفِّها إلَّا بَقايا حِنطةِ النّجوى...
كأنّ الطَّيرَ لاتَهوى سوى ثَغرٍ
من الجوريِّ والجُوريُّ قد أدلى
بآياتِ العَبيرِ المُنتَظرْ!.

هاهيَ الآنَ على الشُّبّاكِ
والطّيرُ كحُلمٍ في حريرِ النَّومِ...
حَيّتْها يَماماتٌ وحَطّتْ تَنقُرُ الوَقتَ

على الشُّرفة...
ردَّ القلبُ: (أهلاً)...
واستوى في أفُقِ التَّرحالِ:
ـ (يا اللّهُ هل من جُزُرٍ أخرى لعُشّاقٍ
وأسرارِ قُلوبٍ أغفلَتْها شهرَزادْ)؟!.

إنّها الآنَ على مُفترَقِ الرَّغْبات...
من يَهدي إلى نورِ السَّلامِ الصَّعبِ
نَجواها؟!...
يقولُ النورُ (ضُمّيني) فيُغضي القلبُ...
أنّتْ في هَديلٍ دامعٍ روحُ اليَماماتِ:
ـ (اهدَئي..لاتترُكينا للحِدادْ)!.

أغْمضَتْ إلّا قليلاً واستَدارتْ...
رتّلتْ رائِحةُ القَهوةِ آياتِ سَلامٍ...
جاءَ رَفٌّ من حَساسينَ وفي وَهرتِهِ
راحَ يُغنّي عن بلادٍ
كلُّ شُبّاكٍ لهُ فيها قَمرْ!.
نَطقَ البحْرُ أخيراً:
مَركَبٌ أرسلَ نَحوَ الشّاطئِ الخالي
صَفيراً للوَداعِ انداحَ مِلءَ اللّيلِ...
كانَ اللّيلُ منحازاً
ولكنّ التي في ثَغرِها كَنزُ ابتِسامٍ
أومأتْ صَوبَ اليَماماتِ:
(اسكُني قَلبي)...
ونامتْ في هَديلِ الرّوحِ
تَدعوها إلى مُستقبلِ الأحلامِ
أحوالٌ أُخَرْ!.

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- عنوانُ قصيدةٍ لـ: «ت. س. إليوت».

❁ ❁ ❁

بَوّابات الصداْ

سليمان السلمان

أتسلَّقُ أعمدةَ النورِ بأهدابي
وأطاردُ أحلامي...
في صيحاتِ الغربانْ.
أنشرُ أوراق الليلِ...
وأكتبها باللهفةِ نجماً... نجماً...
وأعودُ بلا برهانْ.
أفتحُ بواباتِ الصداْ السّحريّةَ
كيْ أبحثَ عن بابٍ في مملكةٍ
لا يملكها الشيطانْ.
أتنفّسُ في مَدَدِ الأشواقِ
وأرسلُ آهاتي في الوديانْ.
مَنْ مِثلي... يحمل دنيا الهمِّ
ويسكنُ مدحوراً في الأحزانْ
أذكرُ... طفلَ الماضي... أحضنُهُ...
يستقبلني الفيض الآتي بالهذيانْ
ماذا نعملُ... كي لا نحبلَ بالموتِ
المقرون بأظلاف الثيرانْ.
سلسلةُ الأعوام تُقَطّعُنا
أيقوناتٍ صدئاتٍ
مشفوعاتٍ بالنسيانْ.
يا وجدَ أبيكَ على وجدِ أبي
يا أمي يا أمّكَ...!
ضِعنا في مَصْدأةِ الوجدانْ.
دنيانا... «فستانٌ» فراغٍ...
عُلّقَ بالمقلوبِ
لِننظرَ فيه غيَّ السِّيقانْ.

- العمل الفني: الفنان قحطان طلاع.

وَزّعْ أمرَ البيع شراءً لي...
واعرضْ أدرانَ الثورةِ في الدكّانْ.
من يشري الهمَّ المزروعَ
بقلب حبيباتي المنشوراتِ
سلاحفَ خلفَ الجدرانْ.
أين حدائقُ عمري...؟!
ما ظلَّ بها غرسةُ حب...
من قالَ: تملّكها الموتُ...؟!
ومن يزرعها الآنْ.؟!
أضواء الصبحِ...
إذا أشرقَ فيها قمرٌ
من ينظرُهُ... والشمسُ على نافذةِ الفجرِ
تصيحُ بكلّ الألوانْ؟!
يا عمري!... كنتَ...
وكانت دنياكَ
وكان هواكَ
وكانت أوطانْ.



أين مكامن عهر اللّعْناتِ...
موزّعةً... تتلقّانا...
بالخيبةِ والخسرانْ.
قربَ دمي... قِرْدٌ يلهو...
مزّقَ أوردةَ الشجرِ
ليغرسَ في نبض القلب النافرِ
بعضَ القضبانْ.
كيف سأسألُ روحي
عن روح أخرى؟!
وأرى أنفاسي لا روحَ لها
تَلْهَجُ بالنكرانْ؟!.
يا وردةَ نبعِ الغبطةِ...!
كيفَ وَرَدْتِ الكدرَ الموصولَ
بشوقِ النبعِ...
وطينِ الغدرانْ
كَدَرٌ هذا... أمْ قَدَرٌ...؟

مَنْ أوصلني للجنّةِ...
في قبرٍ...
ضاق على الأحياءِ...
وأنْكَرَهُ الإيمانْ...؟!
خُذني عَنّي...
منّي...!
فأنا الآنَ... أُغنّي...
فاحذَرْ أن تسمعَ دندنةَ اللحنِ الآنْ.
ملعونٌ من صاغَ حروفَ النشوةِ...
مِنْ عَلَقِ الشّهوةِ...
ساعةَ رقصِ الأطفال
عُرَاةً... في أرديةِ النّيرانْ.
افتحْ عيناً
أغلقْ أخرى...
تستقبلْ صبحَ الدنيا
بالفرح العينانْ.

❁ ❁ ❁

على خَدِّ السَّراب

طارق مقبل



-١-

ولاحتْ

كآخرِ نشوةِ لحنٍ

يُطلُّ على مُعْجَمِ العاشقِينَ

تُلوِّنُ لغزَ التَّلاقي

بعطْرِ الغِيابْ

تُفتِّحُ في فِضَّةِ النَّغَمِ المُتثائِبِ

سِحْرَ السُّؤالِ

وصَمْتَ الجوابْ

تُزخرفُ في عُمقِ رُوحكَ

بحراً

على غَفلةٍ منكَ

- العمل الفني: الفنانة ناديا علي داوود.

عَرَّافَتاها
يَداها
تُهَدهِدُ أمواجَه السَّاهراتِ
وتمحو ببوح الضَّفائرِ
عُقدةَ هذا الضَّبابْ
تُعانقُ أسرارَ حِبْرٍ تَوارَتْ
كَعُشِّ العَصافيرِ معنىً
يُراوغُ معنىً
يُغازلُ سطراً
ويَمحُو كِتَابْ

-٢-

تَنوسُ على أُهْبَةِ الضِّفتينِ
يُسافرُ ضوئي إليكَ... نَعَمْ؛
لا،... يسافرُ ضوئي إليكَ
ويطغى السَّرابْ
....
....
فماذا إذن بعدَ هذا؟
أُيمِّمُ وجهي إلى حيثُ
تسكنُ كيفَ؟ وماذا؟
لعليَّ أقرأُ في فَيضهنَّ انكشافَ الحِجَابْ

-٣-

أقولُ: أيا أنتِ كيفَ ذهبتِ
بأمواجِ صَمتي
بعيداً... بعيداً
وكيفَ الإيابْ؟!
تقولُ: أنا ما غَزَلتُ بخيطكَ ثوباً
ولكنْ
توهَّمتَ أنتَ انتشاءً
بقَطْرِ السَّحَابِ
وما مِنْ سَحَابْ
ويصحو سؤالٌ: لماذا جعلتِ
(النَّهَاوَنْدَ) يرقصُ في
عاتياتِ بهائِك
(لمَّا بدا يتثنَّى)
على نيَّةٍ لاشتهاءِ العَذابْ؟
ويغفو جَوابٌ: وهل كان ذَنْبيَ أنِّي
عشقتُ بهائي؟!
تناثَرَ منه على ظِلِّ روحكَ
لمحُ رؤىً
في عَمَاها ارتيابْ

-٤-

ومنِّي إليَّ أجيبُ:
تأرجَحَ شكّاً يقينيَ
بينَ الـ(يجوزُ)
وما لا يجوزُ
إذنْ، نتلاقى احتراقاً
هو المستحيلُ

تُعربدُ أخطاؤُهُ في الصَّوابْ
على يَقظةٍ من نُعاسِ الزمانِ
التقينا/ افتراقاً
تشابَهَ مائي وضوءُكَ
كلٌّ يشيرُ إلى مُنتهاهُ
وليسَ سوى أنْ يتِمَّ التَّلاشي
ولكنَّما
هِيَ بذرةُ شِعْرٍ
سيحنو عليها ترابُ الكلامِ
ويحضنُها كي يهيمَ
عميقُ الفناءِ
بِذاتِ التُّرابْ

❁ ❁ ❁

جمرات

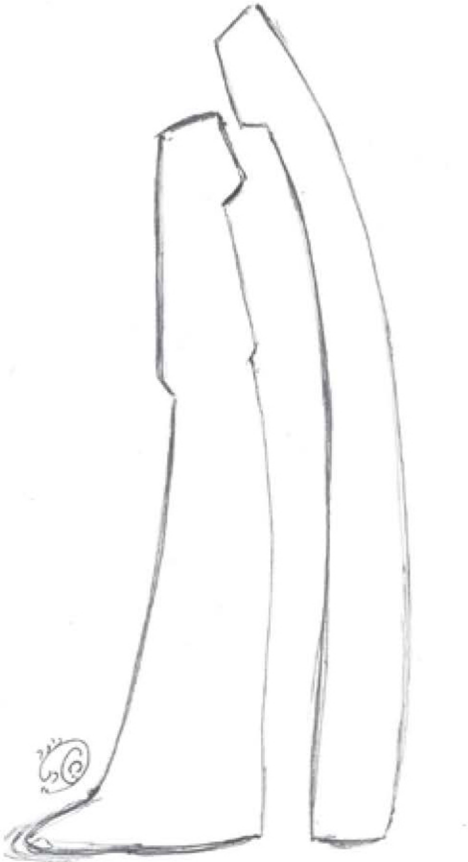
طلال سليم

البيدق

أذكره الآن
عائداً من دمشق
حاملاً أحجار
الشطرنج لي
لم تكن أصابعي
قد عَرفت
غير رائحة البراري
والبنفسج
وقلم الرصاص المغشوش
والممحاة
التي لا تهدأ
تلمست الحصان
الساكن
وودت لو أمتطيه
خارجاً من جبالٍ
تحيطني كالاختناق
كان يشرح لي
وكنت أضحك
ملك يختبئ
خلف بيدق
كبرت دمشق الآن
غرفتي وحيداً ألعب
الشطرنج

- العمل الفني: الفنانة ناديا علي داوود.

مع كمبيوتر
بليد
لا يضحك عليَّ
ولا يحزن
إن انتصرت



عدالة

قال صيّاد :
العصافيرُ دائماً
تحتلُّ أقفاصي
الآن ... الآن
سأشتري بندقيّة
دفاعاً عن وحدتي وأقفاصي

سؤال

اللّباسُ المعلّق
فوق حبلِ الغسيل
يسألني دائماً
لماذا تمسكني الملاقطُ
من عنقي
ولا تتركني إلّا بعد
أن يجفّ دمي !؟

ناظم سليم

أذكره كيف كان
يعلّم النّحل أبجديّة العسل
يقلّم وحشةَ الشّجر
بأنهار يديه
يحاورُ عنادَ الصّخر
بإزميل روحه
ويفرشُ الأرضَ الباسمة
له أبداً
بغيمةٍ تتأبّط مطراً
ومن أضلعه يصنع فحماً
يضيء سواد أيّامنا

الحقيقة

بعض السّاسة
يشبهون حبّة الذّرة
قبل استلام المناصب
وحبّة « البوشار» بعد ذلك
وكلا الحبّتين
تنتظرهم أسناني
بفارغ الحبِّ

أمنية

جارتنا « كوافيرة»
دائماً تُعيد النّساء المبهمات
إلى وضوح شمس
ترتّبُ وحشةَ شعرهنّ
إلى ينابيع رقراقة
تُنبِتُ في وجوههنّ
حبّات كرزٍ لا تغرب
تُرسي فوق عيونهنّ
بحراً فيّاضاً بالزّرقة
وأبداً أدعو لتخرجَ
جارتنا بمقصّها الحادّ
ووجهها الجميل
لترتّب هذا العالم
كما تجمّل تلك النساء
تقصّ سواده
تجفّف دموعه
بمحارم من مطر
وبفرشاة خدودها
تلوّن صحراء قلوبه
بعشبٍ ينمو كلّما نظرت إليه

❁ ❁ ❁

السرد...

روائح حارة المؤيد[1]

عماد ندّاف

قـلْ للمـرأة التي قبلتْ أن تُحبُّك خلال الحـرب، قلْ لها ولا تخفْ: ضعي يدكِ هنا، عند قلبي تماماً، عند نهرِ الدمِ المتدفقِ في الأوردة المتعبة في قلبي، ضعي يدكِ هنا، ودعيني أشعرُ أن ثمّة واحداً في هذا العالم يحسُّ بأن الدمَ هو للحب وليس للحربِ!

نوبة الحُمّى الثانية

الغيـومُ غطّـتْ الشمسَ. جـاءتْ العتمة باكراً. توقفـتْ أصواتُ القذائـف. كأن القذائفَ ندِمتْ فصمتَـتْ. لا أصـدق أن الدكتـور رضـوان المؤيد كفَّ بلاهُ عنّـي ومات. لا أصدق. بكـوا جميعاً. استعـادوا حركاته. قالت فدوى: كان واثقـاً أن إصابة فادي بسيطة. كان يروح ويجيء في الغرفة وكأنـه هو المحموم وليس فادي. مسكين أصابتـه قذيفة فموتته من دون حُمّـى، وقالت مزنة لا أصدّق. خسارة، وقال حامد: لا حول ولا قوة إلا بالله...

- العمل الفني: الفنانة ناديا علي داوود.

سمعـتُ بكاءً. وسمعتُ صوتَ تنظيف أنف فدوى. وسادَ صمتٌ. كأنهم ذهبوا ليتفقدوا الطبيب الدمـث. وأنـا كنتُ صامتـاً أيضاً. لم أحزنْ. ولـم أقلْ شيئاً. لم أكـن أريدُ أحـداً... أريدُ النوم. نامـوا جميعاً. طيـفُ الأمير الجزائري ظلَّ ساهراً معي. كان واهـن الجسد يتكئ على عكازة من الخيـزران. كان وجهُه مشعشعـاً بالنور. حملَ بيده كمّادة بيضاء واقترب مني وهو يتمتمْ. وضعها علـى رأسـي. أحسستُ أن الحرارة خفّتْ. شعرتُ بالراحة. مسحـةُ رسول كانتْ. قلتُ: سأنام. لم أنم. أنا بين النوم واليقظة. ذهبت روحي إلى الجسر الأبيض. كان ذلك منذ زمن طويل. طويل. دخلـتُ الجامـع. رأيتُ شيخاً يجلس على الأرض ولا يُصلّـي. كان يجلس عند الدرج الصاعد إلى المئذنـة. يلتفُ الـدرجُ صاعداً لتنكشفَ في جهـة اليسار فُسحة تشبه القاعـة وتطل على صحن الجامـع بنوافذَ خشبيةٍ مستطيلةٍ محكمـةِ الإغلاق. كانت القاعة واسعةً وبـاردةً وفي زاوية منها يجلسُ رجـلٌ كبيرٌ يشبه الشيخ. علـى رأسه طربوشٌ أحمر، وعلى الطربوش خصلةٌ من خيطان حريريـة صفراء. تحلّق حول الرجـل عدة أولاد يجلسون وكأنهم يتعلمون حروف اللغة العربية في أحد كتاتيب الخجاتي!

شاهدني الرجلُ فقال: اقعدْ يا بني. هذه أول مرة أراك فيها هنا. عرّفْنا على حالك يا بني. قلت وأنـا أنظر إلى خصلة الخيطان الصفراء: أنا فـادي أريد أن أصعد إلى المئذنة. ضحكَ الرجلُ. سعـلَ واهتزّ الطربوش الأحمر فوق رأسه ورقصتْ خصلة الخيطـان الصفراء من السعال. قلتُ لـه: أنا تبرَّعت للجامـع بعشرة قروش. فقال الحسنة بعشرة يعني صاروا مئة. سألتُه من يعطيني المئة.

قال: الله.

قلتُ: أين هو.

قال: فوق في السماء وإليه نصلّي كل يومٍ خمسَ مرات.

سألتُه: لماذا تجلس ولا تصلي؟

أجـاب: أنـا أصلّي أحياناً هنا في غرفتي خارج الحـرم والله يقبل كل شيء يا بني. المهم النية الصادقة في العبادة وفعل الخير. سألتُه ما عندك بيت؟

فقال: هذا بيت الله وأنا أسكن فيه.

قلت: هل بإمكاني أن أسكن في المئذنة؟

قهقه الأولاد وقال واحد منهم: (الشيخ الجزائري الأمير ما بتعرفه).

فقلت: (لأ. ما بعرفه). طلبوا مني أن أجلس وأسمع. جلستُ وسمعتُ...

قال الأمير الجزائري: (لازم نحب الله.

قال: حبوا الله وبلادكم الله حاميها. نحنا في الجزائر دافعنا وندافعُ الآن عن بلادنا والله معنا وسنطرد الفرنساوي. واجبنا الديني الدفاع عنها).

سألته: (طيب كيف اليهود أخذوا فلسطين وأخذوا القنيطرة من الشراكس[٢] وماحدا دافع عنها؟).

ابتسم. قال: (لكي نصحصح من غفلتنا. اسمك فادي. يا فادي يوجد حكمة من وراء كل قصة... تركنا ديننا فأراد الله أن يذكرنا.

قال تعالى: يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون صدق الله العظيم!).

وسألني الأمير الجزائري: (هل تحفظ جزء عمّ في القرآن الكريم).

قلت: (لأ. حافظ قل هو الله أحد والحمد لله رب العالمين).

قال: (لا. لا. ما بيصير لازم تحفظ جزء عمّ).

فقلت: (أحفظه إذا تركتني أصعد إلى المئذنة).

فقال بهدوء ووقار: خذوه. خذوه يا أولاد إذا كان يحب المئذنة فهذا يعني أنه يحب الجامع والجامع بيت الله. وقال لي انتبه. ابق بحدود الدرابزين!).

صعدتُ إلى المئذنة والدرجُ يدورُ ويفتلُ وأنا أدورُ وأفتلُ وأحسُ بالدوار. أصير في أعلى المئذنة. أرى ممراً ضيقاً ودرابزين. خفتُ. شعرتُ بالدوّار. ثم تجرأتُ. أمسكتُ خشب الدرابزين، ورحتُ أراقب كل شيء. رأيتُ جبلَ قاسيون. أحسستُ أنه قريبٌ. أحسستُ أنه يريد أن يحكي معي. رأيتُ بيوته وكأنها تعمشقت عليه. نظرتُ إلى أسفل فرأيت الجسرَ الأبيض ونوري باشا. بحثتُ عن ديمة بين المارة الصغار الذين حدّقتُ فيهم من فوق فلم أجدها. لم أجد ديمة.. ناديت من فوق: أين أنت يا ديمة.. ديمة. مة... مة...مَهْ؟

ديمة هي كل شيء في الجسر الأبيض. والجسر الأبيض يغلي بالناس. ناسٌ في كل الاتجاهات. ناس يذهبون وناس يأتون. كلٌ ينظرُ في اتجاه. لا أحد ينظرُ إلى فوقْ. لا أحد ينظر إلى أعلى المئذنة. لا أحد ينظر إليّ. رأيتُ حارتنا. حارةُ المؤيد. لم تكن حارتُنا كما أراها من تحت. كانت حارة أسرار. حارة لها رائحة. منذ ذلك الوقت صرت أحب رائحتها. رائحتُها لا تروح أبداً



مــن أنفي. شممتُ رائحتَها من فــوق. عندما أشم الرائحة من فــوق لا أنسى أبــداً تلك الرائحة. خرابــة بيت المؤيد وبيتُنا لا يظهران. تظهر دكان أبو صلاح في رأس الحارة. نظرتُ إلى الشام. هذه هي الطريق إلى الطلياني. وهنـاك في الشارع الفرعي كان يسكــن جارنا شكري القوتلي. وتلك البعيــدة هــي بناية الكويتــي[٢]. أعلى بنايــة فــي الشام. هــذه سوق الحميدية... يا الله ما أجمل الشــام مــن فــوق.. تصورتُ نفســي حمامــة. كنــت أحلم كثيــراً أننــي حمامــة. قلــتُ لجــدّي ذات مــرة: يــا جدي لماذا لا نطيــر؟ وجدّي شيخ عمــره تسعون سنــة. يصلي. لا يمــلّ من الصــلاة. عندما يتوضأ صباحاً يغمر رأسه بماء البحرة البارد، ثم يُخرج رأسه تتساقط منه حبات الماء، ويشهق. عندما سألته شهق جدّي. كأن رأسه كان في الماء. ذقنُه بيضاء مثل الأمير الجزائري. لكن ذقن جدّي طويلة. تحركتْ ذقنُ جدّي البيضاء. قال لي بعد أن فكّر: نحنُ لسنا حماماً. الحمام يطير. نحــن لا.. ومــن وقتها صرتُ أحلم أنني حمامة لكي أغيظ جــدّي. كنتُ أرى حارة المؤيد من فوق أحلى. شاهدت بيت مزنة من فوق. بيت كبير واسع فيه أشجار. ناديتها. مزنة. مزنة. نة. نة. نْ. لم تسمعني. كأنها نائمة. شاهدت بيت أبو صلاح من فوق. بيت واسع فيه بحرة وأشجار. شاهدت كل تفاصيــل الحارة. تذكرت الأمير الجزائري وهــو يحذرني أن أتخطى الدرابزين. صرختُ من فوق: رُحْ يا أمير. رُحْ يا ستين عاماً في بيت الله. رُحْ يا جدي يا ذقن طويلة بيضاء. رُحْ. رحْ. رحْ. حْ. حْ. وانكسر الدرابزين. صرتُ أطير مثل الحمامة. طرت فوق الشام. فوق بيوت كلها حكايات. فوق بيــوت تفوح منهــا رائحة ياسمين وخبّيزة وزهر الليمون وزهر البابونــج. وقلتُ سأذهب إلى سوق

الحميدية. وذهبتُ. كان هناك خلقٌ كثيرون. شاهدتُ جمال عبد الناصر. حملني أبي على كتفيه. مثل البطيخة المدورة جلستُ على كتفيه. قال: انظر بابا. انظر إلى جمال عبد الناصر.. ونظرتُ لـم يكن جمال عبـد الناصر كان سوق الحميدية معتماً وفيه خلق كثيـرون. جاءت سيارة سمينة سـوداء مكشوفة. وفيها رجـلٌ أسمرٌ طويلٌ يلوح بيده. صاح أبي من جديـد: السيارة المكشوفة يا فادي... انظر هاهو أبو خالد يقف فيها... وأنا بطيخة صغيرة مدورة جلستُ على كتفي أبيها قلتُ لجمال عبد الناصر: ماذا تفعل في سوق الحميدية؟

فقـال: الوحدة العربية. بيّة. بيّة. القومية العربية. بيّة. بيّـة. فلسطين. والاستعمارررررر...رْ. سمعـتُ نبضَ أيادٍ كثيرة. ورأيتُ حناجرَ تهتف من دون سعـال وعبد الناصر يردد: الاستقلال ل ل ل لْ وأرعد الناسُ موجاتٍ وموجات. سقطتُ البطيخة المدورة بين الموجات. سقط فادي بين الرعد. كاد يختنق لولا أبوه... انثقب سقف سوق الحميدية من رعد الموجات. خرج الرعد منه. صار حماماً وطيوراً وصهيلاً وصلاة. فهَمْهَمَ أبي في الحارة: عبد الناصر صلّى في الأموي يا أبو صـلاح وأنتم تقولـون عنه إنه كافر. اصطكت أسنان أبو صلاح... قالـت أسنانُه: السياسة يا أبا حامد. فرد لهاث أبي: عبد الناصر صلى عن حق وحقيق!

كانـت المظاهـرات تدور في الشام... مع عبد الناصر. مع شكـري القوتلي. مع الوحدة العربية. مع فلسطين. قال أبي عن القوتلي. هذه أعجوبة. رئيس يتنازل عن الحكومة. القوتلي أكرم رجل في العالـم. تخلى عن زعامته من أجـل الوحدة. قال عمي القوتلي أذكى رجل في العالم. وصار حديث طويل. عبد الناصر والقوتلي. وأكرم الحوراني. وعبد الحكيم عامر. والانفصال ل ل ل ل لْ.

لم أعدْ حمامة. وقعتُ من فوق. وقعت على حرف اللام في كلمة الانفصالْ. نزلت عن المئذنة حزيناً. جلستُ على الدرج. دعوتُ ربي. دعوتُه من قلب مهزوم. يا رب اجعلني حمامة. لم يجعلني الله حمامـة؟ نزلـتُ عن الدرج إلى مـكان الأمير الجزائري كان يحمل كمـادات ماء بارد. سألتُه معك حمى. فجاءت الحمّى. الحمّى تأتي ولا تروح. الحمّى لا تذهب أبداً. الكلُّ نيام. لا أحد يضع كمـادات علـى رأسي. الأمير الجزائـري وضع كمادات. راحت الحُمى. وعـادت. جاء صوت أبي. صوت أبي مثل هدهدة لطفل نعسان.

قال أبي لأمي: حامد صار شبٌ. كانت أمي تجلسُ قبالة أبي تشرب الشاي.

قالت أمي: فدوى صارت عروس وضحكتْ. وكانت أختي فدوى فتاة صغيرة كبيرة العيون تحلم أن تصير حمامة.

قال أبي: فادي وُلد أيام العدوان الثلاثي.

قالت: (لا. يا أبو حامد وقت خطب عبد الناصر من الجامع بمصر. كان فادي وَلْدان وخالص. كان صغيراً. كنا نخاف يصير شي. كنا نخاف تجي الحرب للشام ويصير شي. وغنى العرب وطني حبيبي وطني الأكبر. الشام وقفت مع عبد الناصر. وقالت أمي الناس بتحب عبد الناصر).

قال أبي: (بحرب الستوخمسين بيّن العرب من غير العرب).

قالت أمي: (النسوان بيحلفوا براس جمال عبد الناصر).

قال أبي: (النسوان حلفوا من قبل براس أكرم الحوراني وغنّوا له...).

قالت أمي: (تركوه وقت الانفصال). قال أبي: (تركوا الحُسين قبله).

قالت أمي: (كنا نتباهى لو ظل شكري القوتلي جارنا).

قال أبي: (ربما ندم. الله معه. صار بلبنان...).

توابع النوبة

تحول قصرُ المؤيد مع مرور الزمن إلى خربة تجمّعتْ فيها الأوساخُ والملابسُ المهترئةُ وأطباقُ التنكِ المستهلكة وقطع البلاستيك التالفة وأكياس الورق التي تأتي بها حركة الهواء من الشارع والأماكن المجاورة مع كل عاصفة غبار.

وشاهد بعضُ السكان أفاعٍ صغيرةً تتسللُ بين الأشياء المرمية في الزوايا، ثم تختبئ بين حجارتها المكدسة، وكانت الخربة تغصُّ بالجرذان والفئران التي تخرج وتعود إلى جحورٍ بنتْها بين الركام، وكأن المساحة المهدمة قد أصبحت ملعبها. كذلك تحولت الخربة إلى مكان لقطط وسخة ومريضة تموء في الليل والنهار، وهي تبكي على حالها.

تحوّلَ حائط البلوك الأجرد إلى سورٍ يخفي وراءه بقايا مأساة القصر الذي هجرهُ صاحبُه ثم خرّبه وتركه كما هو الحال عليه. حلّ حائطُ البلوك مكانَ جدران كانت تزيّن المنطقة كلها، بأحجارها البيضاء ومنحوتاتها المتقنة وعرائش الورد الجوري والياسمين والمجنونة واللبلاب وكانت تغطيها بكثافة على مدار العام، وكان هذا ينذر بأيام ليست كأيام قصر المؤيد...

كان الرئيس شكري القوتلي يمرُ بمحاذاة الحائطِ وهو يركب سيارته إلى قصر الرئاسة في المهاجرين. وفي كل مرة يتحول هذا الحائط إلى شريط سينمائي كأنه يخفي خلفه أحداثاً تأخذ

البــلاد إلــى مآسيها. يمر بسيارته بجــوار الحائط، فيبدأ الشريط بالــدوران. أحياناً يتذكّرُ أيامَ فرنســا ومقاومة الاستعمار.. يتذكرُ أحكام الإعدام التي لاحقوه بها. وكان يقول: (كنا يداً واحدة فانتصرنا). وأحياناً يتذكر حسني الزعيم المجنون الذي غيّر هوية سورية وفتح باب الانقلابات عندمــا أطاح به وأنزله عــن رئاسة البلاد. وكان يقول: (سامــح الله الزعيمَ دفع الثمن حياته). وأحياناً يتذكر العقيد أديب الشيشكلي ويُحدّث نفسه (كاد يخرب البلد بحرب أهلية وسريعاً دفع الثمــن وقتلوه). كان القوتلــي يتذكّرُ أيضاً أصدقاءَه أولاد المؤيد. كان يريدُ لهذا القصر أن يبقى كذاكــرة حيّة لحيويةِ مدينةٍ يحبُهــا ولا يتخلى عنها أبداً، وسألَ نفسَــه باستغراب وحزن: (لماذا يتغير كل شيء في هذه المنطقة؟!).

كانــت وحدةُ العرب هاجسَ شكري القوتلــي الأولَ والأخيرَ، ولم يكن ذلك يرضي جميع حلفائه السابقيــن. أعجبــه عبــد الناصر ولم يعجــب الآخرين. وعندما أعلــنَ عبد الناصــر تأميمَ قناة السويــس. توهجتْ عينا القوتلي. وخافَ على عبد الناصر. ومــع تصاعد معركة القناة دعا الله: (يا رب تمر الأمور على خير بين فرنسا وبريطانيا وجمال).

عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر. كان بيت القوتلي في جادة الرئيس يغصُّ بالزوار. كان البيــت يبقــى مضيئاً إلى صلاة الفجر. لم يكــنْ ينامُ كثيراً. كانت الأحــداثُ تشغله، ويفكر بعمل كبيــر. وعندما جــاءت أخبار دخول السوفييت علــى الخط وإنذار بولغانيــن ردد بتلقائية: (كنت أتوقع ذلك. الله يحميك يا جمال...).

لــم تنسَ سوريــة مصرَ ولم ينسَ عبد الناصــر مواقفَ السوريين في العــدوان الثلاثي، وكانت تلك العلاقة المتينة أيام الحرب مفتاحاً لحدثٍ كبيرٍ وقعَ بعد أقلّ من سنتين هو قيام الجمهورية العربية المتحدة التي جمعت مصر مع سورية في دولة واحدة.

فــي آخر مــرة شاهد فيها الرئيس القوتلي خربة قصر المؤيد كانت بعدَ أن استلم عبد الناصر الحكــم فــي سورية عــام (١٩٥٨م). سأل نفسه عــن جيرانه الذين شغله الحكــم عنهم. استعادَ هواجســه مع قصر المؤيد الذي كان غبــارُ خرابته الوليدة قد بدأ يتناثر عندما سكن شكري بك بيته القريب، وغدا جاراً لحارة المؤيد!

انكشفــتْ حــارةُ المؤيد، بعد تهديم القصــر، على الشارع العام. دبّــتِ الحيوية فيها، فصارت واضحة بعد أن كانت مخفية، صار يمكن لنوافذ بعض بيوتها المجاورة للخربة أن تكشفَ الشارع بدورها، وصارت حركة الترينات الصاعدة والنازلة تشغل جلسات المساء في بعض النوافذ التي

تحولت إلى إطلالات مسلية للسكان، وكان بعض الأطفال يحكون عن موكب القوتلي عندما يمر صباحاً أو عندما يعودُ مساءً من قصر المهاجرين...

كان ضوء النهار يدخلُ عمقَ حارةِ المؤيد عندما تميل الشمس إلى الغروب، فيتسلل شعاعُها ليلامس أبواب بيوت عبد ربه وأغريبوز وإيتوني والعطار المتلاصقة في حركة تدل على معانقة الجدران والنوافذ بعضها لبعض. تبدو الشمسُ عند الغروب وكأنها طلعتْ لتوها. لم يكن هذا يحصل من قبل. كانت الحارة معتمةً، فقصر المؤيد كان يحجبُ الشمس والنور عنها..

تحولت المشرقة الشمالية في بيت أبي مالك عبد ربه إلى مكانٍ يتسع لجلساتٍ وسهراتٍ تمتد حتى العاشرة ليلاً. وطلبت أم مالك تحويلها إلى (طيارة) ذات نوافذ من زجاج، لتتمكن من الجلوس فيها شتاء، إلَّا أن الخطوةَ تراجعتْ ولم تنفّذ فكرتها تلك لأن ما حصل فيما بعد جعلها تقلع عن الفكرة!

اجتمع في واحدة من جلسات تلك المشرقة نصف رجالات حارة المؤيد. وسريعاً سيطرت خطوات شكري القوتلي وجمال عبد الناصر والوحدة على الحوار الذي دار بين ضيوف أبي مالك. وعلى الرغم من أن آلافاً مؤلفة من السوريين كانت تؤيد الوحدة، فقد عاندتها حارة المؤيد وخافت منها. علا صوتُ سعيد بك العطار في المشرقة: (الوحدة مع مصر سترجع بسورية إلى الخلف كثيراً. مصر تريد أن تنقل مشاكلها مع العالم لبلاد العرب ونحن حمّالين الأسية!).

أيّدهُ في ذلك أبو صلاح البوشي، والشيخ عبده الخرسا سريعاً ودون تردد. وتوقع الشيخ الخرسا أن ينقلَ عبد الناصر أجهزة مخابراته إلى الشام. فهذا الرجل، كما قال الخرسا، «لا يستطيع أن يعيش ويحكم دون مباحث وسطوة»، ورد أبو صلاح موافقاً:

(علاقات عبد الناصر مع الروس لا تنبئ بخير. لم يبق إلا أن يأتي الروس إلى بلادنا بعد الفرنساوي).

وتساءل الشيخ الخرسا متأسفاً: (لا أعرف ما الذي يجعل شكري بك يعشق الروس!).

وضع أبو مالك عبد ربه طبقاً كاملاً من الحلويات أمامهم، وأخذ مالك يوزعها في أطباق صغيرة مذهبة على الضيوف، وهتف بهم بعد أن أمسك بعضهم بالصحون: (ارتاحوا قليلاً من السياسة يا شباب. القوتلي بذات نفسه سيريّح حاله من السياسة لو شاهد المدلوقة بالقشطة...).

ضحك أبو صلاح وقال: (يبدو أنه سلم الحكم لعبد الناصر من أجل ذلك...).

فضحك الجميع، وتابع أبو صلاح: (اتركوا شكري بك ينام مرتاح).

ورغم أن القشطة كانت تدور بطعمهما الأخاذ في أفواههم، فقد جاء قرار سعيد بك العطار، والصحن في يده: (لنقل الحقيقة. أخطأ شكري بك بالتنازل عن الحكم لعبد الناصر. صارت البلاد سيّاحة نيّاحة لرجال عبد الحكيم عامر، وخربت البلاد وضاعت مصالح الناس).

لم يتدخل أبو مالك كثيراً بالحديث، كان مشغولا بضيافتهم. وعندما جاء ورد اسم فلسطين في حديثهم قال: (مهما كان. يظل عبد الناصر مكسباً لفلسطين).

ولم يرق ذلك للشيخ الخرسا، فعلّق ساخراً: (في ظل عبد الناصر على فلسطين أن تتوقع الأسوأ!).

أما ابنه مالك، فكان مهتماً بحديث ضيوف أبيه. كان يخالفهم في كل ما يقولونه عن عبد الناصر، وكان يرى مواقف القوتلي (تاريخية) ومع ذلك لم يتدخل إلّا مرة واحدة عندما قال باستغراب: (أستغرب أن تفتح مصر أسواقها أمام تجار الشام ولا يقبلون!).

لم يناقش أحد هذه الفكرة. الشيخ الخرسا فحسب. علّق بعد الخروج من البيت: (أولاد أبي مالك يجهلون ما ستجلبه الأيام القادمة لهذه البلاد).

وأضاف الشيخ عبده الخرسا: (الله يسامحك يا شكري بك!).

❀❀❀

في ذلك المساء. نظر الرئيس القوتلي من نافذة السيارة إلى جدار الخربة نظرة خاصة، وراودته خواطر سريعة:«اشتقت لوفد هذه الحارة. لا أعرف ما الذي جرى لهم. زاروني ولم أعد أعرف عنهم شيئاً. كان يجب أن أكون جاراً صالحاً فأسأل عنهم!».

بعد نحو شهرين، من توقيع اتفاق الوحدة خرج شكري القوتلي من بيته فجراً، لم يرتدِ ملابسُه الرسمية. ترك طربوشه في البيت، ورمى على رأسه شالاً مطرزاً بخيوط صفراء، ومشى وحيداً باتجاه جامع الجسر الأبيض، وهناك صلّى صلاة الفجر، وجلس مع المصليين فعرفه بعضهم، وتجمهروا حوله، يحدثونه عن الوحدة وعن عبد الناصر؟!

كان يتوقع أن يجد كثيرين من حارة المؤيد في الجامع، لم يكن هناك إلا أبو صلاح البوشي وأبو مالك عبد ربه. كانت أجوبة الناس تتداخل. كثيرون منهم يحبون عبد الناصر، لكنهم لا يعرفون لماذا. وكثيرون يتخوفون منه ولكن لا يعرفون لماذا. لمحَ القوتلي أبا صلاح وأبا مالك بين الناس، فحيّاهما، وقال بصوت أراد أن يسمعاه: (أنا مقصر بحق الجيرة!).

هـز أبو مالك رأسه، ولم يفهم أبو صلاح قصده. وتابـع القوتلي حديثه مع المصلين، ثم قال: (سأحكي لكم قصتي مع هذا الشاب الذي اسمه عبد الناصر).

ساد صمت بين الحضور، جلس كثيرون ممن كانوا واقفين. ومط آخرون رقابهم ليسمعوا ماذا سيقول شكري بك. وظل أبو صلاح وأبو مالك في مكانهما، وسمعا ما قاله القوتلي حرفياً: (كنت أزور القاهرة عندما كنت رئيساً لسورية قبل انقلاب الزعيم حسني الزعيم. وهناك زرتُ الجامع الأزهـر لأصلي فيـه، وكانت أخبارنا قد وصلت إلـى أهل مصر الذين يعـدّون السوريين شجعاناً وقوميين...).

وصمت شكري بك، وكأنه يسترجع ذكرى غريبة ومؤثرة في حياته، ثم أضاف: (عندما أنهيت صلاتـي تقدم مني فجأة ضابط مصري شـاب. حيّاني بكبرياء وفخر. وقال: سيدي الرئيس. أنا جمـال عبد الناصـر حسين ضابط في الجيشـ المصري. رأيت موكبك يدخـل الجامع الأزهر، فأحببت أن أصافحك وأتحدث معك...).

كان جامـع الجسر الأبيض قد هـدأ تماماً، فكثيرون ممن كانوا يغادرون الجامع لم ينتبهوا إلى أن حلقة من المصلين التفّت حول رئيس بلادهم المتنازل لعبد الناصر، وأن هذا الرئيس يحكي شيئاً من تاريخ لم يسمع به أحد. وتابع القوتلي: (رحبتُ به. قلت له. أهلاً وسهلاً يا بني بك وبكل جنود مصر. وكان متحدثاً يختصر ويكثف المعنى. حكى لي عن مصر وسورية ومعركة فلسطين. حدّثنـي عن ضرورة وحدة سوريـة ومصر، ولا أخفيكم. أحببت فيه حماسـه وشجاعته وأفكاره. وعندمـا انتهـى اللقاء وأراد أن يودعني وجدتُ نفسي أقول له: أتمنى يا جمال أن نلتقي مرة ثانية وتكـون سورية قد توحدتْ مع مصر، وأرجو أن تكون أنت رئيسا لمصر. ومرّت سنوات وصار هذا الضابط رئيساً لمصر...).

وجاءت أصوات بين المصلين: (الله أكبر. الله أكبر...).

انتشـر الخبر فـي الجسر الأبيض وحارة المؤيـد ووصل إلى كل أنحاء الشـام، وتناقل كثيرون زيـارة القوتلي للجامع وماحكاه عن عبد الناصر وعن حكم الله في شؤون عباده، ولاسيّما بعد أن غادر القوتلي الحارة.

أثارت تفاصيل اللقاء التي نقلها أبو صلاح وأبو مالك إلى أهل الحارة. كثيراً من وجهات النظر. وكان الشيخ الخرسا أحد من ضايقته تلك الأخبار، فردد باستنكار: (يعني شكري بيك يحاول أن يغير مكان العبادة إلى مكان للخطابات).

ورد أبو مالك: (لا. يا شيخ. ليس لك حق بهذا القول. الرجل صلّى كما تصلي الناس. وتجمّعنا حولَه دونَ قصدٍ. وهذا يحدث منذ زمن الصحابة).

فردَّ الخرسا: (اترك الصحابة جانبا يا أبا مالك!).

❀ ❀ ❀

الهوامش

(١)- هذا النص هو جزء من تجربة في نص سردي روائي جديد.

(٢)- في النص يرتبط النزوح من الجولان والقنيطرة بفتاة من الشركس.

(٣)- فندق الشام حالياً.

❀ ❀ ❀

حلم

يونس محمود يونس

لعل ما حدث كان حلماً أو شبيهاً بالحلم، وقد يكون واقعاً مثل كل الأشياء التي تحدث في الواقع. لأنها وفي حين كانت تتلمس طريقها في عتمة الليل محاولةً الوصول إلى حبيبها الذي ضيعته الحرب. أخذت تتعثر بأكوام من الأشياء الملقاة على قارعة الطريق، وإذ اعتقدت بداية أنها تتعثر بنفايات أحد المواطنين الشرفاء. تبيَّن لها لاحقاً أنّ هذه النفايات ليست سوى كلمات ألقت بها الريح في طريقها... كلمات، وأسماء كتاب من كل أصقاع البلاد.

هذا ما تبيَّن لها بعد أن رأت أنّ أغلبها خواطر ورسائل لا شأن لها بها، وبعضها ليست أكثر من حكم وأقوال مأثورة عفا عليها الزمن. أما بعضها الآخر فكانت تشبه الشعر، أو تشبه النثر المصاغ بأسلوب شاعري خال من أي مضمون يمكن الإمساك به. هذا إذا لم تكن معانيها متضادة وفق خلجات كاتبها الممزق نفسياً والمرقع على طريقة الأثواب الحديثة التي يلبسها أشخاص من هذا الزمن.

لكن ما لفت انتباهها حقاً هو بعض النصوص التي تتناول أهم القضايا الإنسانية، والحق أنهما قضيتان فحسب. هما الحب والحرب، ولعل الأهم في كل ذلك الحلم هو رؤيتها لتلك النصوص

- العمل الفني: الفنان تمطات طلاع.



بوضـوح تـام. بل إنّ ما رأته، ومـا وجدته من استسهال رخيص لهاتيـن القضيتين. أثار في نفسها أسئلـة متوالية تعدّت أصحاب الكلمات إلى المجتمع الـذي يعيشون فيه. إضافة إلى طبيعة وجوهر المدينة التي يقيمون فيها، وصولاً إلى طبيعة وجوهر معالمها المدنية.

ولأنّ الحلـم كان طويـلاً على مـا يبدو. فقد رأت كثيراً مـن المتلطين في أروقـة تلك المعالم... رأتهم وهم يكتبون نصوصاً مخادعة لا تعبأ بحقوق الغير، ولا تأبه بأيّ مسؤولية أخلاقية أو قانونية تجاه المجتمع والقانون.

وبغض النظر عن الدخول فـي أيّ تفاصيل تتعلق بمضامين تلك النصوص. سواء أكانت تافهة أم مهمّـة. لأنّ تلـك المرأة المتعثّرة كانت قد فقدت منذ بداية الحرب المرونة التي تؤهلها للتعامل نقدياً مـع النصوص والأفكار. بغض النظـر عن كل ذلك. فهي لم تنس. علـى الرغم من وجودها فـي الحلـم. أنها سورية، ولم تنسَ أنّ الحرب التي حصـدت مئات آلاف الشباب مـا تزال جاثمة على الأرض السورية بكل ثقل هذا العالم، والحقيقة أنها كانت قد توقفت عن قراءة تلك النصوص الملقاة أمامها لتتساءل:

«كيـف يمكن لـكل هذه الكلمات الملقاة على قارعة الطريق أن تصمـت أو تتجاهل أهم الأسباب التي تفعل فعلها في هذا القدَر الذي يصيب الشباب السوريين بكل أسباب الموت. فهم يموتون في جبهات الحرب، والمرض، والهجرة، والانتحار، والأحداث التي تشبه الانتحار، و....، و...؟».

آنذاك وفي اللحظة التي أنهت فيها تساؤلها. نهض نص من تلك الكومة المعفَّرة بصقيع الشتاء وأمطـاره. إذ كانت السماء ترسل مطـراً بارداً كالثلج، وكان لتلك القطـرات المتساقطة وقع الإبر

حين تلامس وجهها. لكن النص لم يكن عابئاً على الرغم من رقته بشيء من ضروب ذلك الطقس البارد، ولعله كان يمتلك روحاً وثّابة لا تعرف الخوف. لأنه ما إن نهض حتى ظهرت كلماته لتعلن بوضوح:

«إنّ هذه الأكوام من الكلمات ما هي إلا نفايات حرب تتوالى فصولها، وبقدر ما هي نفايات من الماضي. أي من الأمس وقبل الأمس. هي أيضاً أدوات يعاد تدويرها لحرب اليوم وغداً، وعموماً الكلمات ليست سوى أداة تعبير لهيبة القوى المتصادمة وغبائها، وبما أنها ليست في الطريق نفسه، ولا في الاتجاه عينه، ولأنها ليست سلمية ولا قانونية. سينتج عن تصادمها أحقاد وخراب، وستطير شظاياها لتحط أكواماً على الطرقات».

هكذا أدركت المرأة أنها تسير في طريق لا يشبه أي طريق. لأنّ أكوام الكلمات. بحسب اعتقادها. لا توجد على كل الطرق، وحتى لو وجدت. فإنها لا تظهر أمام كل العابرين، وإن ظهرت. لا تعثّر أحداً كما عثّرتها، ولأنها تعرف أسرار الكلام، وبوح الكلام. تحرّك فيها ذلك الخوف المضني. فأخذت تجري مبتعدة. إذ كانت تريد الوصول إلى حبيبها، ومع أنها لم تخطئ الطريق. إلا أنّ ذلك الليل الحالك السواد سرعان ما ابتلعها تماماً...

عندئذ فحسب. ندّت عنها صرخة لم يسمعها أحد سواها، وعلى الرغم من أنّ الصرخة كانت صرختها هي. فقد أوقعتها من شدة الرعب.

❁ ❁ ❁

وكانت طفولة...

أدهم سراي الدين

- «أصبحتَ ولداً كبيراً»: هذا ما قالته أمي وهي تلبسني ثيابي المدرسية الجديدة، وتمسح على أعطافي. ثم أردفت اليوم سوف تذهب إلى المدرسة.

كان هذا ذات صباح خريفي. في البداية لم آبه بكلامها، وأنا أطرد أذيال النعاس عن عيوني، لكن بعد ذلك شعرت بخوف وقلق بدأا يتعاظمان في داخلي كطنين أسراب النحل عندما اصطحبني والدي معه إلى المدرسة. وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي لم تستطع الشمس الوليدة أن تطفئها. كانت نسائم الهواء الباردة المفعمة بندى الصباح قد أيقظت وجيب قلبي الذي أخذ يزداد شدة وسرعة وأنا أفارق البيت وكأنني سأفارق أمي إلى الأبد.

كم تمنيت أن تكون المدرسة مغلقة وأعود أدراجي. صرت أدعو الله أن يطول الطريق ويمتد بنا أو أن يتوه والدي فلا يصل إلى المدرسة المزعومة أبداً فييأس أن يجدها. عندها سوف أخبره أن الحوت الأزرق الكبير قد ابتلع المدرسة. إنه كبير هائل الحجم هكذا (وحركت يدي وأنا أفكر) بحجم السماء والغيوم، فنعود إلى البيت سعيدين لأن المدرسة ما عادت موجودة بعد أن ابتلعها ذلك الحوت الضخم.

❁❁❁

- العمل الفني: الفنان قحطان طلاع.

لكن هذا لم يحدث.لم يأت ذلك الحوت اللعين الشرير. ربما لأن البحر بعيد جداً عن مدينتنا... لا أدري!؟

وهكذا وصلنا إلى مبنى ذي طابقين، تحيطه ساحة كبيرة تتوسطها شجرة كينا عالية.

- «هذه هي المدرسة» قال والدي ثم أردف «هنا أولاد كثيرون سوف تصادقهم وتفرح باللعب معهم».

- «أنا لا أحب المدرسة» تجرأت وأخبرت والدي الحقيقة.

- «سوف تحبها... لا تبتئس» وضحك والدي.

أخيراً دخلنا المبنى ذا النوافذ الكبيرة وكثيرة العدد. عبر بوابة حديدية سوداء. سرت مع والدي في ممر طويل حتى وصلنا آخره وهناك أوقفت والدي صبية جميلة تفوح منها رائحة عطرة كرائحة شجرة الياسمين في بيتنا. تحدث والدي إليها قليلاً ثم التفت إلي وقال: «إنها معلمتك. أنا سأذهب إلى عملي... كن شاطراً».

استدار وذهب بسرعة دون أن يلتفت نحوي أو حتى يلوِّح لي بيده. أردت أن أوقفه، أن أناديه: «لا تتركني». أردت أن أصرخ وأن أقول له «إنني خائف من هذا المبنى الكبير المسمى مدرسة ومن جموع الأولاد الكثيرين فيه».

- «أنا لا أحب المدرسة... أنا لا أحب المدرسة»

صرت أصرخ باكياً إذ كنت خائفاً ومتوتراً جداً... اقتربت المعلمة الصبية، صاحبة رائحة الياسمين وتطامنت نحوي، و و ضعت يد ها



على رأسي، ومرَّرت يدها برفق على شعري. كانت يدها مملوءة بحنان غريب وامتلأ صدري الصغير برائحتها العطرة بعد أن خفقت بجسدها العذب بجانبي.

همست: «لا تبكي... سوف نذهب إلى الصف معاً وستكون سعيداً»، ثم أعطتني ليرة سورية واحدة. فرحت بالمال كثيراً، وقررت أن أذهب معها إلى الصف الجديد.

❁❁❁

كان هذا أول يوم لي في المدرسة، لكنني ومنذ ذلك الحين بقيت مواظباً على الذهاب إلى المدرسة، مع أن المعلمة توقفت عن إعطائي النقود. ربما لأنني قررت أن أتزوج المعلمة صاحبة رائحة الياسمين.

إنَّ الذكريات القديمة تمسني الآن وتصبغ نفسي بذلك الحزن الشفيف، وأنا أنطلق مع ولدي كريم نحو مدرسته في يومه الأول، في حين هو يحاول إقناعي أن المدرسة لم تعد موجودة بعد أن التهمها ذلك الحوت الأزرق الكبير والشرير...

لكنني ابتسمت له وأخبرته أننا بعيدون عن البحر، لكنني ولسبب ما رفعت رأسي نحو الفضاء وكأنني أرنو إلى طفولتي البعيدة.

حقاً مرَّ الزمان سريعاً وكأنني انتقلت من غرفة إلى أخرى وعلى الرغم من أنني كبرت كثيراً لكنني وفي تلك اللحظة، شعرت أن الحوت الأزرق حقاً قد التهم المدرسة والمعلمة صاحبة رائحة الياسمين، وذلك الطفل الذي نسيته هناك.

❁ ❁ ❁



للفنان أحمد عبد الرزاق

التاريخ الفينيقي لفيلون الجبيلي

د. عيد مرعي

ساد الاعتقاد في العصور القديمة أن الإغريق هم أول من عرف التاريخ، وذلك بسبب ظهور أسماء كثيرة عندهم اهتمت بكتابة التاريخ ودراسة الماضي كهيرودوت Herodot (٤٩٠- ٤٢٥ ق. م)؛ الذي أطلق الخطيب الروماني شيشرون لقب «أبي التاريخ عليه»، وتوكيديدس Thucydides (٤٦٠- ٣٩٥ ق. م)، وبوليبيوس Polybius (٢٠٠- ١٢٠ ق. م)، وكزينوفون Xenophon (٤٣٠- ٣٥٤ ق. م)، وديودور الصقلي diodorus Siculus (٩٠- ٣٠ ق. م)، وغيرهم. إلا أن المكتشفات الأثرية والدراسات الحديثة أظهرت خطأ هذا الرأي، فالمشرق العربي القديم المعروف بأنه المهد الأول للحضارة، عرف سكانه التاريخ منذ عصور موغلة في القدم. فما الحوليات والكتابات الملكية التي خلّفها ملوك سومر وأكّاد وبابل وآشور ومصر القديمة وماري وإبلا وأوجاريت وفينيقيا وآرام إلا ضرباً من ضروب التاريخ، فهم يتحدثون فيها عن أعمالهم وانتصاراتهم ومشروعاتهم وتوسّعاتهم ومعتقداتهم وغير ذلك.

ويظهر الاهتمام بالتاريخ بشكلٍ أوضح عند الفينيقيين، كنعانيي الساحل السوري، منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ممثلاً بكتابات كاهنٍ يدعى سنخونياتون Sanchunyatun، التي اعتمد عليها مفكر فينيقي يدعى فيلون الجبيلي Philon of Byblos في العمل الذي عنونه باسم «التاريخ الفينيقي». فمن هو فيلون الجبيلي هذا؟



فيلون الجبيلي

هو مفكر فينيقي كنعاني عاش ما بين عامي (٦٤- ١٤١م)، أي في العصر الإمبراطوري الروماني، وقد تشبّع بالثقافتين الإغريقية والرومانية اللتين كانتا سائدتين في عصره. وكما يدل عليه اسمه فهو ينتسب إلى مدينة جُبيل الفينيقية الكنعانية المشهورة التي ترقى بدايات تاريخها إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وارتبطت بعلاقات تجارية وثيقة مع وادي النيل وبلاد الرافدين خلال العصور التاريخية المختلفة. وأسهم تجَّارها بشكلٍ كبير في تأسيس كثيرٍ من المحطات التجارية في حوض البحر المتوسط، وأشهرها على الإطلاق قرطاجة في تونس حالياً. وأطلق عليها الإغريق منذ القرن السادس قبل الميلاد اسم بيبلوس Byblos نتيجة شهرتها بتجارة البردي مادة الكتابة الرئيسة في وادي النيل.

وقد أدت الحفريات التي تمت فيها ما بين (١٩٢١- ١٩٢٤م) و(١٩٢٦- ١٩٣٦م)[1] بقيادة كلٍ من بيير مونتان وموريس دونان إلى الكشف عن كثيرٍ من الأنصاب التي تحمل كتابات كنعانية فينيقية تذكر بعض حكام جبيل في القرن العاشر قبل الميلاد، وأشهرهم أحيرام Ahiram- الذي نُقشت على تابوته الحجري أقدم وأطول كتابة فينيقية معروفة حتى الآن، والتي تعدُّ أقدم الأدلة الموجودة على الكتابة الأبجدية الفينيقية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً، ويعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. كما كُشِفَ في موقع المدينة القديم عن أساسات السور الفينيقي الذي كان يحيط بها، وعن بقايا أحجار معبد «بعلة جبيل» إلهة المدينة، الذي ترقى بدايات تاريخ بنائه إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

باختصــار ينتسب فيلون إلى مدينة قديمة لها تاريخ عريق وإنجازات حضارية متميزة. وقد وعــى فيلون هذه الحقائق بشكلٍ كبير، فراح يهاجم الإغريق ويدحض ادعاءاتهم عن المنجزات الحضارية، ويشكك في نسبتها إليهم منطلقاً من فهمٍ وإدراك عميقين للأرضية الحضارية التي يستند إليها كما سنرى فيما يأتي.

كتب فيلون كثيراً من المؤلفــات الأدبية والتاريخية[٢]، إلا أن أهمها وأشهرها «التاريخ الفينيقي» Phoinikike Historia الذي هو عبارة عن سجل للتقاليد والأساطير والمعتقدات الدينية الفينيقية. وهو ترجمة بل تحقيق لمصدر أصلي كتبه قبل فيلون بقرون- شخص فينيقي يدعى سنخونياتون.

يقول فيلون إن عمله أكثر دقة وثقة من أي شيء آخر موجود في المصادر الإغريقية، لأنه اعتمــد على تقارير الكهنة الفينيقيين، في حيــن تجهل المصادر الإغريقية التاريخ الحقيقي للفينيقيين الذي وصل عن طريــق التقارير القديمة تحت اسم الاستعارة والأسطورة الخارقة للطبيعة. وقد ولَّد هذا الادعاء نقاشاً حاداً بين الباحثين المعاصرين الذين شكك بعضهم في أن يكون العمل ترجمة للمصدر الأصلي الذي كتبه سنخونياتون غير المعروف حتى الآن.

ممــا لاشك فيه أن اسم سنخونياتــون هو ترجمة للاسم الفينيقي المعــروف «ساكُّون ياتون» Sakkunyathon. وقــد وجــد هذا الاسم في كتابــات بونية من القرن الثالــث قبل الميلاد من حضروميتوم، المستوطنة التجارية الفينيقية الواقعة على الساحل الشرقي لتونس جنوب قرطاجة، ومن جزيرة سردينيا حيث كانت توجد مستوطنات فينيقية كثيرة. وبالمقارنة مع الأسماء الفينيقية الأخرى المعروفة مثل «بعل ياتون» (الإله بعل أعطى) يجب أن يعني اسم سنخونياتون «الإله ساكُّون أعطى»، وهو اسم علم. كان «ساكُّون» «ناظراً» أو «إلهاً مهيمناً»[٣]. وقد افتُرض أن وجود حرف نون فــي اللغة الإغريقية يدل علــى وجود كاف مشددة في اسم سنخونياتون. ولكن مما تجدر الإشارة إليــه أنه لا توجد معلومات عن الإله «ساكُّون» ولا عن وظيفتــه ودوره في مجمع الآلهة الكنعانية الفينيقيــة. وشُرح الاسم بناءً على افتراض وجــود علاقة بينه وبين الاسم «ساكُّون» المعروف من الكنعانية التوراتية، ومن النقوش والكتابات الفينيقية، ويعني «حاكماً» أو «وزيراً».

وبناءً على ذلك فالإله «ساكّون» كان «ناظر» الآلهة الكبرى في مجمع الآلهة الفينيقية[٤].

لم يَرِدْ ذكر سنخونياتون قبل زمن فيلون الجبيلي، وذُكر في العصور التالية لزمن فيلون، أولاً عند «أثينايوس» Athenaeus البليغ الإغريقي الوثني الذي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلاديين، إذ يصفه بـ «الصوري» (أي من مدينة صور).

ويرد ذكر سنخونياتون بعـــد ذلك بقرون في معجم سودا Sudas Lexicon[٥] (القرن العاشر الميلادي)، ويُوصف أنه فيلسوف صوري عاش زمن حرب طروادة وكتب عن عقائد الفينيقيين. وتوجد في هذا المعجم معلومات عن فيلون أيضاً إذ نقرأ فيه ما يأتي:

«فيلون الجبيلي عالم نحوي وُلد في عهد نيرون تقريباً، وعاش حياة طويلة. هو نفسه يقول إنّـــه عندما كان عمره ثمانية وسبعين عاماً في العام ٢٢٠ من الألعاب الأولمبية (١٠١- ١٠٤ م) كان سيفيروســـ Severus الذي دُعي إرينيوس Erennius قنصلاً. هو كتب عن الكتب المقتبسة والمختـــارة في اثني عشر مجلداً، وعن المـــدن والرجال البارزين الذين أنجبتهم كل واحدة في ثلاثين مجلداً، وعن حكم هدريانوس الذي عاش خلاله فيلون، وكتباً أخرى.

فإذا سلَّمنا بحقيقة أن سنخونياتون هو المؤلف الأول لـ «التاريخ الفينيقي» الذي ترجمه فيلون الجبيلي فيما بعد، وأضاف إليه، يحق لنا أن نسأل عن المصادر التي استقى منها سنخونياتون معلوماته.

يذكر الفيلسوف الفينيقي فورفوريوس[٦] (٢٣٤- ٣٠٥ م) (على لسان المؤرخ البيزنطي ورجل الكنيسة يوزيبيوســـ) أن سنخونياتون حصل على معلوماته من هيروم بالوس، كاهن الإله «إيو»، الـــذي أهدى تاريخه إلى «أبي بالوس» ملك بيـــروت، والذي قُبل من الملك والعارفين بالحقيقة في عصره. ويذكر أيضاً: «سنخونياتون الذي كان محباً للحقيقة، والذي جمع وكتب وأتم باللغة الفينيقية التاريخ القديم من سجلات كل مدينة، ومن النصوص التي كانت في معابد الآلهة، عاش فـــي عصر سميراميس ملكة بلاد آشور، والتي سُجِّل أنها عاشت قبل حرب طروادة، أو ربما في ذلك الزمن. كان هذا عمل سنخونياتون الذي ترجمه فيلون الجبيلي إلى اللغة الإغريقية. ويذكر فيلون في مقدمة كتابه (الجزء الأول) ما يأتي:

«هذه هي الحقائق، سنخونياتون صاحب علم غزير محب للاطلاع رغب في أن يعرف من كل إنسان مـــا حدث منذ البداية عندما بدأ الكون بالتشكل. بعناية تامـــة بحث أعمال تَوْتُوس Tautos. هو فعل ذلك لأنه عرف أن توتوس كان أول شخص بين أولئك الذين تحت الشمس الذي فكَّر باختراع الأحرف، والذي بدأ بكتابة السجلات واضعاً بذلك أسس التعليم كما كانت[٧]. المصريون يسمونه تحوت Thouth والإسكندرانيون ثوث Thoth، وترجم الإغريق اسمه هرمس Hermes»[٨]. - ويتابع فيقول:

«سنخونياتون حصل على الأعمال السرية من المعابد والمؤلفة في كتب (حروف) الأمّونيين والتـــي هي غير مألوفة لكل إنســـان. هو بحث تفسير كل هذه النصوص، وعندما أتم بحثه أزال الأساطير الأصلية والحكايات محققاً بذلك هدفه».

يتضح مما تقدم أن سنخونياتون اعتمد في تأليف عمله على كتابات أقدم منه لكتّاب آخرين، وعلى الكتابات والوثائق القديمة المحفوظة في المعابد المنتشرة في مختلف المدن الفينيقية، حيث كان يوجد في كل مدينة معبد أو أكثر من معبد يوجد فيه أرشيف خاص تُحفظ فيه الوثائق والكتابات المختلفة التي تتناول جوانب الحياة المختلفة. وقد ساورت الشكوك بعض الباحثين حول تاريخية سنخونياتون، وصحة المعلومات الواردة عنه عند فيلون الجبيلي وغيره من المفكرين القدماء، وذلك قبل اكتشاف نصوص مدينة أوجاريت في ثلاثينيات القرن العشرين.

لكن النصوص المذكورة، ولا سيما الأساطير، أكدت صحة كثيرٍ من المعلومات التي أوردها فيلون الجبيلي في كتابه نقلاً عن سنخونياتون. وكان أول من أشار إلى أهمية نصوص أوجاريت لفهم عمل فيلون الجبيلي عالم اللغات والخطوط القديمة الفرنسي شارل فيرولّو Ch. Virolleaud في العام (١٩٣١م)،- والذي كان له فضل كبير في فك رموز الكتابة واللغة الأوجاريتية[٩].

هذا وقد بيَّنت النصوص والشواهد الأوجاريتية أن سنخونياتون ومصادره يعودان إلى التقاليد الفينيقية الأصلية، ولكن لا تُعطي تلك النصوص والشواهد أيّ إشارة إلى تاريخ أو طبيعة مصادر سنخونياتون. وقد أدى هذا إلى اختلاف آراء الباحثين حول المكان والزمان اللذين عاش فيهما سنخونياتون. فقد رأى الألماني أوتو أيسفيلت Eissfeldt O. أنه عاش في مدينة بيروت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وترجم فيلون الجبيلي عمله من اللغة الفينيقية إلى اللغة الإغريقية[١٠]. وهذا يعني، إن صح، أنه عاش زمن كتابة الأساطير الأوجاريتية، ومن ثمَّ اعتمد على مصادر مباشرة وأصيلة في كتابة عمله التاريخي.

أما الأمريكي ألبرايت Albright فقد افترض أن سنخونياتون كان لاجئاً من مدينة صور، وأقام في بيروت في الربع الثاني من القرن السادس قبل الميلاد[١١]. لكنه لا يورد برهاناً على ذلك الأمر الذي جعل افتراضه ضعيفاً. وبحسب مؤرخ الكنيسة يوزيبيوس والمفكر الفينيقي بورفوريوس «عاش سنخونياتون في عصر سميراميس ملكة بلاد آشور، والتي سُجِّل أنها عاشت قبل حرب طروادة أو، ربما في زمنها». لذلك قال بعض الباحثين: إنَّ سنخونياتون يجب أن يكون قد عاش في أواخر الألف الثاني، أو في بداية الألف الأول قبل الميلاد في بيروت أو صيدا أو صور[١٢].

ولكن عمل سنخونياتون لم يصلنا بنصه الأصلي، بل مترجماً إلى لغةٍ أخرى، ومحقَّقاً من ابن جلدته فيلون الجبيلي الذي عاش في عصرٍ كانت تسود فيه اللغة والثقافة الإغريقية. لذلك

تظهر فيه بعض أفكار ذلك العصر ومصطلحاته. فكثير من الآلهة تُذكر بأسمائها الفينيقية مع مقابلاتها الإغريقية مثل «إيل Il» كبير الآلهة الفينيقية، ويقابله «كرونوس Kronos»، و«كُسُور Kausor» إله الفن والحرفيين، ويقابله «هيفايستوس Hephaistos». وتُذكر بعض الآلهة الأخرى إما بأسمائها الإغريقية أو الفينيقية مثل أبوللو Apollo، وأثينة Athena، وأطلس Atlas، وبيتيلوس Baitylos. كما إن بعض الأسماء الفارسية تظهر في «التاريخ الفينيقي» مثل «زردشت Zoroaster»، و«أوستانيس Ostanes». وهذا ما يؤكد أن فيلون الجبيلي أضاف ملاحظاته وشروحه الخاصة إلى عمل سنخونياتون الأصلي.

وبناءً على ذلك يمكننا القول بشكٍ جازم إنَّ عمل فيلون الجبيلي ليس ترجمة محضة، بل هو تحقيق لمؤلف فينيقي كتبه سنخونياتون قبل المصلح الديني الإيراني زردشت بقرون متعددة[١٣]. يُضاف إلى ذلك أن طبيعة المؤلف تعود إلى العصر الهللنستي الذي سادت فيه فكرة كتابة تاريخ العالم. فتاريخ فيلون الجبيلي تاريخ عالمي يبدأ بأصلٍ محلي، ويشبه غيره من الأعمال التي كُتبت في ذلك العصر مثل- مكتبة «ديودوروس» الصقلي التاريخية وغيرها. كما إن الحديث عن تاريخ الحضارة ونسبة المنجزات الحضارية إلى شعوب معينة هو سمة من سمات ذلك العصر[١٤].

دوافع فيلون لترجمة وتحقيق «التاريخ الفينيقي»

يبدو أن فيلون الجبيلي قام بعمله لتحقيق فكرة أساسية ألا وهي عرض التاريخ الفينيقي بشكلٍ صحيح، وإبراز إسهامات الفينيقيين في تحقيق الإنجازات الحضارية الكبرى التي عرفتها البشرية منذ نشأتها. لذلك نجده ينسب كل الاكتشافات والابتكارات المهمة في تاريخ الإنسان، كبناء البيوت ، ومعرفة الصيد، وبناء المراكب، والزراعة وغيرها ، إلى بني قومه الفينيقيين. والهدف من ذلك التعبير عن «وطنيته الفينيقية»، وإظهار معاداته للتفوق الثقافي الإغريقي-الروماني الذي كان سائداً في عصره[١٥]. لذلك فهو يبتهج بمقارنة المصادر الفينيقية «الموثوقة» مع النسخ «المقتبسة» أو «المشوهة» المتداولة بين الإغريق والرومان عن ماضي البشرية السحيق. ويخلص بالنتيجة إلى أن الإغريق والرومان لم يكونوا مبدعين بل مقلدين ومقلدين سيئين.

لكن فيلون الجبيلي لم يكن الفينيقي الوحيد، أو المشرقي الوحيد، الذي عبَّر عن عدائه للإغريق بهذا الشكل. إلا أنه أفضل مثالٍ عن ذلك. وقد سبقه إلى ذلك مفكران آخران هما بيروسوس Berosus البابلي، ومانيتون Manethon المصري، اللذان عاشا في القرن الثالث قبل

الميلاد. وضع الأول كتاباً عن تاريخ بابل (بابيلونياكا) منذ بداية خلق الكون حتى عصر الإسكندر المقدوني، تحدَّث فيه عن إنجازات سكان بلاد الرافدين (العراق القديم). أما الثاني فألف كتاباً عن تاريخ مصر القديم (إيجيبتياكا) تحدث فيه أيضاً عن إبداعات المصريين القدماء. وقد وضع كلا المفكرين عمليهما باللغة الإغريقية، لغة الثقافة في عصرهما، ليكون عمليهما مفهومين للمثقفين والحكام الإغريق. وكأن ذلك ردة فعل ثقافية محلية على السيطرة الإغريقية العسكرية والثقافية. وقد برزت فكرة العداء هذه وإظهار التفوق الفينيقي في مجالات أخرى، كالنقود مثلاً، فهناك بعض نماذج من النقود أصبحت شعبية في مدينة صور خلال القرن الثالث الميلادي، أي بعد أكثر من قرن من زمن فيلون الجبيلي، وهي تُظهر مشاهد من حياة «ديدو Didu» (إليسا Elisa– بالفينيقية) المؤسسة الأسطورية لمدينة قرطاجة، أو مشاهد من حياة قدموس Cadmus وهو يعلِّم الإغريق القراءة والكتابة(١٦).

باختصار يمكننا القول: إن أتباع هذا التيار، وعلى رأسهم فيلون، يمثلون ردة «الفعل المشرقية» المعتزة بالحضارة المحلية على سيادة الحضارة الإغريقية في العصرين الهللنستي والروماني.

إن عمل فيلون الجبيلي، أي التاريخ الفينيقي، وعلى الرغم من أهميته، لم يُكتشف كاملاً، أو بلغته الأصلية، بل حُفظت مقتطفات منه في عمل مؤرخ الكنيسة واللاهوتي البيزنطي يوزيبيوس Eusebius(١٧) القيصري المدعو «التاريخ الكنسي Praeparatio Evangelica» فحسب. كما تورد بعض المصادر الأخرى معلومات قليلة جداً عنه(١٨).

حفظ يوزيبيوس تلك المقتطفات من تاريخ فيلون الفينيقي ليس حباً بالفينيقيين أو رغبة منه في إظهار إبداعاتهم الحضارية، بل من أجل أن يستخدمها كمسيحي متدين في حربه ضد الوثنية وأتباعها في القرن الرابع الميلادي، وليظهر طبيعة الديانة المسيحية وجوهرها الصحيح من خلال مقارنتها مع المعتقدات الوثنية. لذلك أوردها في الكتاب الأول من عمله، ولم يدوّنها من باب الاهتمام بالمعتقدات الدينية الفينيقية أو التاريخ الفينيقي، بل ليظهر بدايات ظهور المعتقدات الوثنية وتطورها، ومن ثمّ عيوبها، وذلك من خلال اقتباس شواهد من مؤلفات أتباعها ومعتنقيها في الأزمنة الغابرة. وقد فعل الشيء عينه في الكتاب الثاني من عمله بالنسبة إلى معتقدات المصريين القدماء، معتمداً في حججه على الكتَّاب الإغريق الذين كتبوا عن التاريخ المصري القديم مثل ديودوروس الصقلي.

كيف وصل عمل فيلون الجبيلي إلى يوزيبيوس؟

كان هـذا موضع نقاشات كثيـرة تمخضت عنها آراء مختلفة. فاعتقـد بعض الباحثين أن يوزيبيوس نسخ المقتطفات من عمل الفيلسوف الفينيقي الوثني المؤمن بالأفلاطونية الحديثة المدعو بورفوريوس «مجادلة معادية للمسيحيين Anti Christian Polemic». في حين رأى فريقٌ آخر من الباحثين أن يوزيبيوس عرف عمل فيلون بشكلٍ مستقل[١٩].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل نقل يوزيبيوس عمل فيلون بدقة وأمانة؟

مما لاشك فيه أن يوزيبيوس اقتبس من عمل فيلون الأشياء التي تناسب غرضه، ولم يترجم العمـل كاملاً، إذ لم يكن هدفه ذلك. ومن ثـمّ يمكننا القول إنَّ فصولاً كثيرة لم تصلنا من هذا العمل المهم.

كانت الأجزاء المعروفة من عمل فيلون الجبيلي، على الرغم من قلة حجمها، موضوعاً لكثيرٍ مـن الدراسات والأبحـاث منذ عصر النهضة الأوروبية وخلال القـرون الأربعة الماضية، فقد صـدر أول بحث عنها في العـام (١٨٥٣م). وكان الدافع لدراستها آنذاك أنها كانت حتى القرن التاسـع عشـر المصدر الوحيد (عدا العهد القديم) الذي يتحدث عـن الفينيقيين وحضارتهم ومعتقداتهـم الدينية، وأنها تتضمن معلومات شبيهة بمعلومـات العهد القديم، ولا سيما قصة الخلق، وكذلـك للميثولوجيا الإغريقية، وبشكلٍ رئيس لبحث أصـل الآلهة وأجيالها المتعاقبة. لذلـك كانت تعد بفهمٍ أفضل للعهد القديم والميثولوجيـا الإغريقية[٢٠]. من هنا كان الاهتمام المتواصل والمستمر- بدراستها.

فـي العام (١٨٣٦م) نشر اللاهوتي الألماني فريدريش ڤاغنفيلد F. Wagenfeld من مدينة غوتينغـن Göttingen دراسـة بعنوان «التاريخ الأول للفينيقييـن لسنخونياتون في ملخصٍ من الكتابـة اليدويـة المكتشفة لترجمة فيلـون الكاملة»، مع ملاحظات منـه، ومقدمة من جورج فريدريشـ غروتيفنـد Grotefend- G.F- أبرز المسهمين بفك رمـوز الكتابة المسمارية[٢١]. وأعلـن ڤاغنفيلد أن لديه عمـل سنخونياتون كاملاً، وأنه عرف نصـ سنخونياتون مع ترجمة فيلـون له عـن طريق تبادل رسائل مع ضابط برتغالي. ونشر فـي العام التالي طبعة كاملة عن «سنخونياتون» المزعوم، وأتبع ذلك في العام نفسه بترجمة ألمانية لها.

أثـارت كتابات فاغنفيلد اهتمامـاً كبيراً بين الباحثين، وعدّهـا المختصون بتاريخ الشرق القديم، وغيرهم حدثاً بارزاً، لأن المرء أصبح، بنظرهم، لديه مصدراً قديماً، وبالتحديد فينيقياً،

عــن نشوء الكون والمعتقدات الدينية القديمة، إلى جانب العهــد القديم. وأصبح سنخونياتون الرجل الموثوق عن حكمة الشرق وحضارته.

لكن تبين فيما بعد أن كل ما ادعاه فاغنفيلد لا أساس له من الصحة، إذ اتضح أن الرسائل التي ادعى أنه تلقاها من ضابط برتغالي هي من كتابة يده. أما المعلومات التي جمعها ونشرها فقـد أخذها من عمل يوزيبيوس، وظهرت فيها الأخطاء المطبعية التي كانت معروفة في طبعة تلـك المدّة. يُضاف إلى ذلك أن الورق الذي استُخدم فـي مجمل تلك العملية كان من النوعية نفسها المستخدمة في ذلك الوقت.

وهكــذا انكشفت أكبـر عملية تزوير علمية فـي ذلك الوقت. لكن ذلك لم يـؤد إلى توقف الدراســات والأبحاث عن فيلون الجبيلي وتاريخه الفينيقــي في السنوات اللاحقة. وكان أشهر مــن كتب عن فيلون في القرن العشرين الألماني أوتُّو أيسفيلت O. Eissfeldt الذي خصه بكثير من المقالات والدراسات اللغوية والتاريخية.

التاريخ الفينيقي

تتألف بقايــا «التاريخ الفينيقي» كما يوردها يوزيبيوس مــن ملاحظات مأخوذة من مقدمة فيلون، ومن منتخبات من الكتاب الأول من الكتب الثمانية أو التسعة التي تؤلف العمل المذكور. وقد أخذ يوزيبيوس ستة مقتطفات تعالج الموضوعات الآتية[٢٢]:

١- علم نظام الكون Cosmology:

يبحــث فيلون فيه نظرية نشوء الكون، إذ يفترضــ كأصل للكون هواء مظلم عاصف أو تيار مظلم مــن الهواء وهيولى معتمة مظلمة. كانت هذه الأشيـــاء، بحسب رأيه، لا متناهية، وبقيت عصوراً طويلة بلا حدود. يقول فيلون:

«عندمــا عشقت الرياح عناصرها الأولى نتج عن ذلك مزيـــج، ودُعي ذلك الاتحاد «بوثوس Pothos» (رغبــة، إثــارة). كان هــذا بداية تكوين كل شـــيء. لكن «الرغبة» لــم تعرف تكوينها الخاصــ بها. ونشأ مــن اتصالها مع الريح «مــوت Mot». بعضهم يُسمي هــذا طيناً، ويُسميه بعضهــم الآخر عفونة المزيج الرطب. ونشأت من هذه المادة كل بذور الخلق وأصول كل شيء. كانــت هناك مخلوقات حية مــن دون إحساس تولدت منها مخلوقات ذكيــة دُعيت «زوفاسَمين Zophasamen»[٢٣]، أي «مراقبو السمـــوات». وتشكلوا على هيئة بيضة تقريباً[٢٤]. وهكذا ظهر «موت» مع الشمس والقمر والنجوم والكواكب الضخمة». ويتابع فيلون فيقول:

«وعندما أصبح الهواء مضيئاً، عندها، وبسبب سخونة كل من البحر والأرض، نشأت رياح وغيوم وأمطار وطوفانات غزيرة من المياه السماوية. وهذه انفصلت وتحركت من أماكنها الأصلية عبر حرارة الشمس. وعندما التقت هذه الأشياء بعضها مع بعضٍ مرة أخرى في الجو وتصادمت، نتج عن ذلك صوت الرعد ولمع البرق. ونتيجة لصوت الرعد استيقظت المخلوقات الذكية المذكورة سابقاً، وأصبحت خائفة نتيجة للضجيج، وبدأت المخلوقات المذكرة والمؤنثة بالتحرك على البر وفي البحر».

يتضح مما تقدم أن الفينيقيين حاولوا وضع نظرية متكاملة عن كيفية نشوء الكون وظهور المخلوقات المختلفة.

٢- تاريخ الحضارة

يذكر فيلون هنا أسماء الرياح والجنوب والشمال وغيرها فيقول:

«ووُلِدَ من الريح «كولبيا Colpia»، وزوجته «باو Baau» (ليلة) «أيون Aeon» و«بروتوغونوس Protogonos»، وأطلق عليهما اسم مخلوقات بشرية، أي مخلوقات تموت. اكتشف «أيون» ثمار الأشجار، وأُطلق على الأولاد الذين ولدوا منهما «غينوس Genos» و«غينيا Genea»، وأقاموا في فينيقيا. وعندما كان يحدث جدب كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء باتجاه الشمس، إذ عدُّوها سيد السماء الإله الوحيد، وأسموه «بيل سمين» (بعل شامين) الذي كان يعني «سيد السموات» للفينيقيين، و«زيوس Zeus» للإغريق».

ويقول فيلون بعد ذلك:

«من غينوس بن أيون وبروتوغونوس وُلد أولادٌ آخرون كانت أسماؤهم «فوس Phos» (ضوء)، و«بُر Pyr» (نار)، و«فلوكس Phlox» (شعلة). اكتشف هؤلاء النار عن طريق احتكاك أعواد الخشب بعضها مع بعض، وعلَّموا استخدامها. وقد أنجبوا أولاداً فاقوهم في الكبر والقوام، أُطلقت على الجبال التي كانوا يحكمونها. وهكذا سُمي بأسمائهم «كاسيوس» (جبل صاپون، الأقرع) ومقابل لبنان (جبال لبنان الشرقية)، وجبل «برَثي Brathy»».

بعد ذلك يتحدث فيلون عن أنسال هذه المخلوقات، وعن منجزاتها الحضارية المتمثلة بمعرفة الأكواخ المبنية من القصب والحلفاء والبردي، وكيفية الإبحار، وتعلم صيد السمك، والصيد البري، واكتشاف الحديد، ومعرفة سبكه، وصناعة القوارب، وبناء البيوت من الطين والقش، وابتكار الأبجدية. باختصار يعزو فيلون هنا كثيراً من المنجزات الحضارية إلى بني جلدته الفينيقيين لإظهار تفوقهم الحضاري على الإغريق.

٣- تاريخ حياة كرونوس:

يروي فيلون هنا الصراعات الدامية التي نشبت بين الآلهة التي انقسمت إلى فريقين، فريق بقيـــادة أورانوس (السماء) (إيل عند الفينيقييـــن)، وفريق بقيادة ابنه كرونوس، وينتهي الصراع بمـــوت أورانوس وتسلـــم كرونوس السلطة الإلهية مكانه. ويذكر فيلـــون أن كرونوس أحاط مقر إقامته بسورٍ، وأوجد المدينة الأولى جبيل في فينيقيا.

تشبـــه تفاصيل الصراع الذي دار بين الآلهة القديمة بقيادة أورانوس، والآلهة الشابة بقيادة كرونوســـ، والتي يوردها هنا فيلون، تلك التي ترد في أسطـــورة الخلق البابلية (بالأكادية إنوما إليش: عندما في العُلى) التي يحقق فيها الإله الشاب مردوك إله بابل الرئيس انتصاراً ساحقاً على الآلهة القديمة بقيادة تيامات (إلهة البحر). إنه الصراع بين القديم والجديد.

٤- تقارير عن الحكام المتأخرين:

يتابـــع فيلون في هذا القسم من «التاريـــخ الفينيقي» حديثه عن الأجيال اللاحقة من الآلهة فيقول:

«عشتارت (إلهة الخصوبة) العظيمـــة وزيوس دِماروس أو أدودوس (أدد، هدد: إله الطقس) ملـــك الآلهة حكمـــوا البلاد بموافقة كرونوســـ. ووضعت عشتارت فوق رأسهـــا رأس ثور كرمزٍ للملكية. وفي حين كانت تتجول حول العالم اكتشفت نجماً سقط من السماء، فالتقطته وقدَّسته في صور الجزيرة المقدسة. يقول الفينيقيون إنَّ عشتارت هـي أفروديتي. وعندما كان كرونوس يتجول حول العالم أعطى ابنته أثينة ملكية أتيكا (مقاطعة في اليونان). وعندما ذهب كرونوس إلى أرض الجنوب أعطى مصر كلها إلى الإله تَوّتوس[٢٥]، تلك يجب أن تصبح مملكته».

بعد ذلك يعيب فيلون علـــى الإغريق تشويههم لتلك القصص القديمة، وابتعادهم عن جادة الصواب بقوله:

«الإغريـــق الذين فاقـــوا كل البشر بذكائهـــم الطبيعي وضعوا يدهـــم أولاً على معظم هذه القصص، ثم أعـــادوا كتابتها بطرائق مختلفة مع زخرفات أدبية إضافية قاصدين بذلك إلباس الشخصيـــات فرح الأساطير، ودبجوها بكل أنواع الزخرفة. من هنا ألَّف هسيودوس Hesiodus وشعـــراء الأجيال المشهوريـــن رواياتهم الخاصة، ووضعوا ملخصات عـــن نظريات نشوء الكون ومعـــارك الجبابرة والعمالقة وقصص الخصـــي، والتي نشروها، فهزمـــوا بوساطتها الحقيقة بشـــكلٍ كامل. وقد تعودت آذاننا على هذا عصوراً طويلـــة واستسلمت لأوهامهم. فبتنا نحتفظ

بالميثولوجيا التي تلقوها كحقيقة مقدسة، كما قلت سابقاً في البداية. وساعدت على ذلك قوة الزمن التي جعلت التخلص من قبضتها صعباً، إذ بدت الحقيقة ثرثرة لا معنى لها والقصص المزورة حقيقة».

٥- عن الأضاحي البشرية:

يذكر يوزيبيوس نقلاً عن بورفوريوس وفيلون أن الفينيقيين كانوا يضحون بأبنائهم عندما تحيق بهم أخطار جسام، وذلك كفدية تُقدم إلى الآلهة الغاضبة. حتى إن كرونوس الذي دعاه الفينيقيون «إيل»، والذي أُلِّه بعد موته قدَّم ابنه الوحيد قرباناً للآلهة عندما حلت بالبلاد أخطار حربٍ جسيمة.

يبدو أن هذا كان معروفاً عند الفينيقيين، فالقرطاجيون، أو فينيقيو الغرب، ضحّوا بنحو مئتي طفل من أشرف العائلات عندما حاصر أغاثوكليس Agathokles الصقلي قرطاجة في العام (٣١٠ ق.م). وأحرقوا في مناسبة أخرى ثلاثة آلاف أسير بعد انتصارهم على الصقليين كشكر للآلهة على النصر الذي تحقق. وكانت هذه الأضاحي تُقدم وفق طقوس خاصة، منها أنه لا يجوز لأهل الأضحية إظهار حزنهم على فقيدهم عند المذبح، وكل دمعة أو أهة تقلل من قيمة الأضحية المقدمة[٢٦].

٦- عن الأفاعي:

يجري الحديث هنا عن الأفعى وصفاتها، ومنها أنها تُعمِّر طويلاً، ولا تموت إلا إذا تعرضت لضربة قوية. إلا أن لها صفات أخرى طيبة جعلتها موضع تقديس من الشعوب المختلفة كالفرس والمصريين القدماء.

إن مثل هذا الأفكار عرفتها شعوب كثيرة في العصور القديمة، ولا يزال بعضها معروفاً حالياً عند فئات قليلة من البشر. علماً أن الأفعى عُرفت في حضارات أخرى كالحضارة الرافدية، فالأفعى هي التي سرقت النبتة التي تعيد الإنسان شاباً من جلجامش بطل الملحمة المعروفة باسمه. وتتحدث أسطورة «إتانا» عن صراعٍ بين الأفعى والنسر.

وهكذا نجد أن فيلون الجبيلي قدَّم لنا في المقتطفات المحفوظة عند يوزيبيوس فكرة عن معتقدات الفينيقيين الدينية، وعن نظرتهم إلى الكون والحياة. وبالتأكيد ضمَّن فيلون في «التاريخ الفينيقي» جوانب أخرى من حياة الفينيقيين، غير أنَّ ذلك غير معروف بسبب فقدان النص الأصلي لهذا العمل المهم.

الهوامش

(1)- Dunand, M., Foulles de Byblos, I - II, Paris 1939 -1954.

(٢)- مرعي، عيد، فيلون الجبيلي، دار الأبجدية، دمشق ١٩٩٣، ص ١٧.

(3)- Benz, F.I., Personal Names in the Phoenician and punic Inscriptions, Rome, 1972 p 147-365. Baumgarten, A.I.,- the Phoenician history of the Philo of Byblos, a commentary, Leiden, 1981 p 42.

(4)- Baumgarten, op.cit, p 43.

٥- معجم سودا أو سويدا Suida: معجم بيزنطي واسع فيه أكثر من ثلاثين ألف مادة، سواء أسماء علم أم أسماء جغرافية أم اقتباسات من كتّاب إغريق قدماء ومتأخرين. يرقى تاريخه إلى القرن العاشر الميلادي، ويتميز بغناه بمعلوماته الأدبية والتاريخية. غير معروف فيما إذا كان اسم «سودا» أو «سويدا» هو عنوان المعجم أم اسم المؤلف.

٦- فورفوريوس Porphyrios: فيلسوف فينيقي من أتباع الأفلاطونية الحديثة. ولد نحو (٢٣٤م) في مدينة صور، أو في بتانيا Patanaea في شمالي فلسطين وشبَّ هناك، وتوفي نحو (٣٠٥م) في روما. اسمه الفينيقي الأصل «مَلْخوس Malchus» (ملك) هُذِّب في مدينة أثينا من معلمه في البلاغة «كاسيوس لونجينوس»، فأصبح فورفوريوس، ويعني «الأرجوان الملكي»، إشارة إلى «ملك» في اسمه الأصلي، وإلى موطنه فينيقيا كمصدر للصباغ الأحمر الأرجواني.

وضع نحو سبعة وسبعين مؤلفاً في العلوم المختلفة، ولا سيما في الفلسفة والعقائد الدينية. ذكر النديم صاحب كتاب «الفهرست» تسعة من أعماله تُرجمت إلى العربية.

٧- مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ١٣- ١٤.

٨- هو إله القمر المصري «تحوتي» الذي كان إلهاً للقمر والحكمة، وهو الذي سمى الأشياء بأسمائها، وعلَّم البشر الكتابة والكلام والصيد والزراعة والتقويم وحساب الأيام. انظر: كتابنا: معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، دمشق ٢٠١٨م، ص ٢٠٤- ٢٠٦.

(9)- Virolleaud, Ch., Le dechiffrement des tablettes alphabetiques des Ras Shamra , in: Syria XII 1931, P. 21 ff.

(10)- Eissfeldt, O., Zur Frage nach dem Alter der phönizischen Geschichte des Sanchunjaton, in: Ras Schamra und Sanchunjaton, Halle 1939, S. 67.

(11)- Albright, W.F., Neglected Factors in the Greek intellectual Revolution, proceedings of the a merican philosophical society, Vol. 116, 1972, p. 240.

(12)- Baumgarten, op.cit, p. 262; Wörterbuch der Mythologie, I., S. 307 ff.

(13)- Eissfeldt, O., Art und Aufbau der phonizischen Geschichte des Philo von Byblos, in : Kleine Schriften 3, Tübingen 1966, S. 406.

(14)- Oden, R.A.JR., Philo of Byblos and Hellenistic historiography, in: Palestine Exploration Quartely, vol. 110, 1978, P. 119 ff.

(15)- Baumgarten, op.cit., p. 267.

(16)- Ibid., p. 268.

١٧- يوزيبيوس القيصري: (نحو ٢٦٠- ٣٤٠ م)، رجل كنيسة ومؤرخ بيزنطي بدأت على يديه الكتابة التاريخية في الإمبراطورية البيزنطية. له مؤلفات كثيرة أشهرها «التاريخ الكنسي» المؤلف من عشرة كتب، يتحدث فيه عن تاريخ المسيحية منذ ظهورها حتى العام (٣٢٤م). ويعدُّ مؤلفه هذا أول عمل من نوعه لم يسبقه إليه أحد، ويتميز بسعته وتنوع معلوماته وحسن ترتيبه. لذلك استحق عليه لقب «أبو التاريخ الكنسي»، ويكتسب هذا المؤلف قيمة خاصة أيضاً لأنّه يشمل «مقتطفات» كثيرة من مؤلفات مفقودة كمؤلف «التاريخ الفينيقي»، موضوع هذه الدراسة.

١٨- مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ٩، ٢٣، ٤٤، ٤٥.

(19)- Baumgarten , op.cit., 261.

(20)- Eissfeldt, O., Art und Aufbau. S. 398.

٢١ - العنوان بالألمانية :

Sanchunjatons Urgeschichte der Phönizier in einem Auszuge aus der wieder aufgefundenen Handschrift von Philos vollstandiger Übersetzung. Nebest Bemerkungen von Fr. Wagenfeld. Mit einem Vorworte von Grotefend.

٢٢- انظر الترجمة الكاملة لهذه الموضوعات في كتابنا «فيلون الجبيلي» ، ص ٢٩ وما يليها .

٢٣- المرجع السابق ، ص٦٥ ، الهامش ٣٠.

٢٤- المرجع السابق ، ص ٦٥ ، الهامش ٣١.

٢٥- انظر الهامش رقم ٨.

(26)- Herm, G., Die Phonizier, Das Purpurreich der Antike, Dusseldorf- Wien 1980, S. 285 ff.

الأختام الأسطوانية في مملكة أوغاريت

(الأختام المعدنية أنموذجاً)

مُحمَّد عادل الرَّحّال

يمكن القول وبكل صراحة إن شرقنا القديم لديه كثيرٌ من الخصائص والمميزات التي تجعله يتميز عن باقي بقاع العالم بأسره، وطبعاً هذه المميزات والإنجازات الحضارية لم تقف عند اختراع الكتابة والأبجدية والموسيقا والفلسفة والملاحم والأساطير والفخار والخزف و...، بل يعدُّ أنه أوّل من عَرِف المعادن بأنواعها كلّها، كما عَمِلَ على استخراجها، وقام بتصنيعها والاستفادة منها في حياته اليومية، فصنع من هذه المعادن جميع أدواته ومستلزماته، معلناً بذلك نهاية العصور الحجرية وبداية عصور المعادن (عصر البرونز ومن بعده عصر الحديد).

الصناعة

«بمعناها المبسط»: هي نشاط إنساني مهم يحوّل به الإنسان المادة من شكل إلى آخر أو يغيّرها لكي تلائم غرضاً من أغراضه، يميز هذا النشاط الإنسان الذي كان منذ عصور ماقبل التاريخ صانعاً قبل أن يكون عاقلاً، فمثلاً قام بتحويل قطعة الصوان إلى سكين حجرية وتحويل قطعة الصلصال إلى آنية فخارية أو تحويل الخام في أفران بدائية إلى معدن يشكل منه بعض الأسلحة والأدوات التي تفيده.

وقد لبّت هذه المنتجات حاجات المجتمع الضرورية لهذه المواد الحضارية من أدوات الزراعة والجيش والمنزل. وفي أوغاريت نلاحظ اهتمام الأوغاريتيين بالصناعات المعدنية

بشـــكل ملحوظ خلال مـــدّة الألف الثاني قبل الميـــلاد، إذ تعدّ صناعة المعـــادن في أوغاريت مـــن الصناعـــات المرموقة، وذلك لما حظيت به من اهتمام ورعايـــة من السلطة السياسية في أوغاريت والمتمثلة بالأسرة المالكة، وهذا ما عبَّر عنه مكتشف مملكة أوغاريت العالم الفرنسي «كلـــود شيفر» بقوله: «كان الكنعانيون لا يُبارَون فـــي صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير فقد كانوا يصنعون البرونز والنحاس بكثرة».

وكان الهـــدف من صناعة المعادن هو تأميـــن حاجات القصر اليومية من اللباس والأواني والأثاث المتنوع والعربات ولوازم الأبهة والهدايا الدبلوماسية والقرابين الشعائرية، إضافة إلى تأمين حاجات الناس من المواد المختلفة.

وقد توافرت لأوغاريت كل الشروط المطلوبة لقيام صناعات معدنية متطورة، فإضافة إلى توافر الخامـــات المعدنية التي كانت ترد إلى أوغاريت من مصادرها المعروفة (كالذهب من مصـــر، والفضة من جبال الفضة «طوروســـ»، والنحاس من قبرص، والقصدير من بادخشان فـــي شمال أفغانستان)، توافرت أيضاً كمية كبيرة مـــن الثروة الخشبية في جبال لبنان كمواد احتراق مساعدة على استمرار الأفران القيامِ بعملها بدرجات حرارة عالية.

أضف إلـــى ذلك أن قيام صناعة معدنية متطورة يستلـــزم وجود ورش حرفية متخصصة ومتعددة لإنتاجها، وهذا يستدعي بدوره وجود عدد من الحرفيين المهرة الذين لديهم معرفة واسعة بعلم صناعة المعادن وطرقها.

أضف أيضاً أنه كان يوجد في أوغاريت سوقٌ صناعية - تجارية ضخمة، وقد كشفت فيها لقـــى أثريـــة كثيرة وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مـــدى الرقي الصناعي في أوغاريت ولاسيّما الصناعات الدقيقة كصياغة الذهب والفضة وتطريق المعادن وأهمها البرونز.

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى قيام صناعة معدنية متطورة في أوغاريت أُفصِحَ عنها عن طريق المئات من القطع المعدنية المتنوعة التي عُثِرَ عليها في أوغاريت (الأسلحة، والأوزان، والأختام، وتماثيل الآلهة، والحلي، وأدوات الزراعة، والأواني الطقسية...)، والتي تثبت بشكل لا يدع مجالاً للشك صحة ما ذكرناه.

ومـــن هذه الصناعات التي ازدهرت في مملكة أوغاريت كانت صناعة الأختام الأسطوانية Cylinder Seal، وذلـــك باستخدام حجر الهيماتيـــت، والستياتيت، إلى جانب الفخار المزجّج (الفاينســـ)، وقد تنوعت الموضوعات المنقوشة بين مشاهد الآلهة والعبادة وصراع البطل مع

الحيوانـــات الكاسرة، أو الثــور المجنّح، إلى جانب مشاهد من الحياة اليومية، وقد التقت في أختام أوغاريت التأثيرات الآشورية والميتانية والحثية والمصرية واليونانية.

إن اختـــراع الختم جاء كضرورة ملحّـــة، لكي يعبر عن حالة اقتصادية واجتماعية وثقافية متطـــورة كانت بحاجة إلى صـــكّ يرسخ مفهوم تطورها، ويكون بمنزلة رسالة لنا في الحاضر، تُخبرنـــا عما وصل إليه أجدادنا في المجال الاجتماعـــي والثقافي والتطور الاقتصادي، فما الختم الأسطواني إلا دليل على عراقة من صنعه وبرهان على نمو الحركة الاقتصادية والفنية والثقافية لعصور خلت.

ففـــي المدّة الأخيـــرة من استيطان الإنســـان الأول أصبحت المعابد هـــي صاحبة الملك وأخذت في جني المحاصيل الزراعية وتربية الماشية، ومن ذلك بدأت الحاجة لتوثيق وضمان هـــذه المواد، ومن بين كثيرٍ من الحِرَف اليدويـــة كان فنّ النحت على الحجر، ومن هنا بدأت صناعة حفـــر الأختام المنبسطة «المسطَّحة» التي احتاجها المعبد أولاً ثم القصر ليختم بها ممتلكاتـــه ومحاصيله المخزونة. ومن ثَمَّ فإنَّ السبب فـــي إنشاء الختم الأسطواني يرجع إلى الأسبـــاب الاقتصادية، إذ إنَّ توسُّعَ التجارة مع البـــلاد القريبة والبعيدة أدى إلى نقش أشكال متنوعـــة ومفصّلة على سطح الختم، ولاسيمـــا أن الختم الأسطواني يستوعب أشكالاً أكثر من الختم المسطّح، فالختم يساعد على تمييز الملكية الشخصية أو التعريف بالفرد أو المؤسسة، كما كان يستخدم كتعويذة، إضافة إلى استخدامه في ختم البضائع لضمان عدم المساس بها وختـــم المعاهدة أو الاتفاقيات بين الأفراد أو بيـــن الدول لتأكيد شرعيتها، إذ يعد الختم هنا بمنزلة التوقيع.

في بادئ الأمر كان الختم يقتصر على المؤسسات لأن الاقتصاد كان بيد المعبد والقصر، لكن مـــع فصل الدين عن الدولة وشيوع الملكية الفردية أصبح الختم في أيدي الملوك وكبار الموظفين والكتبة والتجار، وكان الختم يُورَّثُ «من الأب إلى الابن فالأحفاد» وهكذا.

الختـم

هو عبـــارة عن قطعة أسطوانية يخترقها ثقب اختراقـــاً طولانياً في الغالب، وهذا الثقب يُمَكـــن من وضع الختم في المغـــزل المعدني الخاص به أو تعليقـــه بوساطة خيط أو سلسلة معدنيـــة، ويتراوح متوسط طول الختم عادة بين (٥-٧ســـم)، لكن قطره لا يتناسب مع الطول بشـــكل ثابت، لكن الغالب أن طـــول قطره يبلغ نحو نصف طوله، ويجري عـــادةً نقش أشكال





معكوسة وغائرة في السطح الخارجي للأسطوانة وتظهر هذه الأشكال ناتئة فيما لو سحبنا الأسطوانة فوق مادة طرية، وتكون مساحة الصورة فيه عبارة عن شريط يعود فيلتقي مع بدايته وحين يُدحرَج على الطين ينتج إفريزاً متصلاً، وقد كان القدماء يستخدمون الطين وهو طري لسحب الأختام عليها.

وللختم عادةً نوعان:

١- **المسطح - المنبسط** Stamp Seal: وهو الأقدم، عبارة عن قرص من الحجر دائريّ أو مستطيل الشكل، تُنقَشُ عليه رسومٌ مختلفةٌ لكنَّها مُختصرَةٌ ومبسَّطةٌ، وكان يستخدم لدمغه على أفواه الجرار المسدودة بالطين، ليكون بمنزلة ختم لضمان عدم الإخلال بالمحتويات، كما أنه استخدم أحياناً بشكل حزوز لغايات سحرية ودينية «طقسية» أو على شكل تعاويذ.

وتعود أقدم النماذج المكتشفة من هذا النوع حتى الآن والتي اكتُشِفَت في أوغاريت، إلى الألف السابع قبل الميلاد، حيث اكتُشِفَت في السويَّةِ الخامسة في رأس شمرا، وكانت عبارة عن أختام مسطَّحة ذات أشكال هندسية وزخرفية صنعت من الأحجار الخضراء الصلبة، وقد أُرِّخَتْ في نهاية الألف السابع قبل الميلاد. كما عُثِرَ على بعض النماذج المشابهة في «تل حالولة» على الفرات والتي كانت تشابه مثيلاتها في أوغاريت، كما عُثِرَ في بلاد الرافدين على كثيرٍ من الأختام المسطَّحة في الربع الأخير من الألف السادس قبل الميلاد.

٢- **الأسطواني**: وهو الأحدث، وسمِّي بذلك لأنه شبيه بالأسطوانة، وكان سائداً، إذ إنَّ أولى هذه الأختام قد اختُرِعَت في بلاد الرافدين «السويّة الرابعة من أوروك نحو ٣٢٠٠ ق.م»، ولكن الثابت الآن أنه في سورية ولاسيّما في المنطقة الشمالية (في موقع حبوبة الكبيرة على الفرات)، وُجِدَت كثيرٌ من القصعات والجرار والقدور التي مُهِرَت سطوحها بالأختام

الأسطوانيـــة والتي تعـــدّ الأولى في سورية، إذ يعود اخترع أقدم الأختام الأسطوانية في تاريخ البشرية إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

أمّا المواد التي صُنِعَت منها الأختام الأسطوانية، فكانت الحجارة سواء الطرية أم القاسية والثمينة «الحجارة نصف الكريمة»، ومن أهم المواد المستعملة في صناعة الأختام: الأحجار الكلسيـــة بألوانها المتعددة، وحجر الـــلازورد الأزرق، وحجارة الكوارتز البلّورية، والكريستال الصخري، وأميتست «الجمشيت» ذو اللون الأزرق النيلي، والعقيق، وحجر الحية «السربانتين»، وحجـــر الستياتيت ومصدره الخليج العربي، وحجر اليشب، وحجر الديوريت، والفريتة: وهي الكتلـــة السائلة المتوهّجة في صناعة الزجاج، وفلز الحديد الخام المسمّى «هيماتيت» والذي يعد مادة مفضّلة لصنع الأختام فـــي العصرين البابلي والآشوري القديمين، والإلكتروم: وهو خليط من الذهب والفضة، إضافة إلى مواد أخرى كأصداف المحار والحلزون والعاج والعظام والقرون والخزف وحتى الخشب، كذلك استعملت المعادن كالنحاس والبرونز والفضة والذهب، وهي أختام نادرة الوجود بسبب تعرضها للسرقة على يد اللصوص.

وقـــد صُنِعَت كثير من الأختام في مصانع أوغاريت الحرفية ولاسيّما الأختام التي صنعت مـــن فلز الحديـــد المسمّى «**هيماتيت**»، وهناك كثيـــرٌ من هذه النماذج التـــي عُثِرَ عليها في أوغاريـــت، إذ أسفرت حمـــلات التنقيب الإحدى والثلاثون التي قام بها «كلود شيفر» في رأس شمرا بين عامي (١٩٢٦-١٩٧٠م) عن تكوين مجموعة عظيمة من نحو تسعمئة ختم أسطواني، وتحتلّ هذه الأختام التي قلما يتجاوز ارتفاع الواحد منها (٢سم) أو (٣سم) مكانة مرموقة بين الثقافات المتنوعة للشرق الأدنى القديم وفي سورية على وجه الخصوص.

إن نوعيـــة المواد المستخدمة في صناعة الأختام فـــي سورية ومنها أوغاريت في العصر البرونـــزي الوسيط (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م) هي فـــي أغلبها من الهيماتيت البرّاق والقاسي. ومن المفارقـــة أن تكون أختـــام القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبـــل الميلاد هي التي أمكنت مقارنتهـــا بنصوص رأس شمرا المثيولوجية التي لا تُقـــدَّر بثمن، والتي تعود إلى قبل الميلاد القرنيـــن الرابع عشر والثالث عشر، وترينا مصورات الأختـــام عدداً - إنه محدود نسبياً في الواقع - من آلهة البانثيون الأوغاريتي.

ففي أوغاريت وبسبب موقعها التجاري المهم عادة ما نصادف كثيراً من الأختام المتنوعة ذات المصادر المختلفة «مصرية وميتانية وإيجية وكذلك حثية» ولكنها في الأغلب عائدة إلى

ملوك العاصمة الحثية «حاتوشا» أو ملوك الدولة الدائرة في فلكها «كركميش» وإلى موظّفيهم المعيّنين في أوغاريت.

وفي الوقت نفسه تنتج المحارف «ورشات الصناعة الحرفية» المحلية الأوغاريتية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ولاسيّما القرن الثالث عشر قبل الميلاد مجموعة من الأختام الأسطوانية ذات نقوش مختزلة ومُهمَلة الصنع قليلاً في أغلب الأحيان إلا أنّها تنمُّ عن بعض القوة.

وفي متحف دمشق الوطني - القاعة الثانية - الخزانة الرابعة عشرة: مجموعة ممتازة من الأختام الأسطوانية المتنوعة من حيث المادة المصنوعة منها «هيماتيت، وخزف، واستياتيت» ومتنوعة أيضاً من حيث الموضوعات، إذ تمثل مشاهد دينية واجتماعية تعبر عن حياة العصر.

وسنورد الآن بعض النماذج لأختام صنعت من الهيماتيت بوصفه فلز الحديد:

- ختم أسطواني في أوغاريت

القسم الجنوبي من المدينة، الزمن: عصر البرونز الحديث، الزمن: نهاية القرن الخامس عشر بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، المادة: من الهيماتيت (حجر معدني حديدي)، الارتفاع ٣،٠ سم، القطر: ٢،١ سم، متحف دمشق الوطني، الرقم: ٢٧٩٥ش. [الشكل رقم ١].

إن هذا الختم البديع والمشغول بعناية فائقة على الأسلوب الميتاني يدل على النمط السوري للتكوين التشكيلي الذي يتغير بوجود مشهد رئيسي ومشهدين جانبيين متناظرين موضوعين أحدهما فوق الآخر، ويفصل بينهما زخرف محبَّبٌ جداً في النحت الحجري السوري في الألف الثاني قبل الميلاد وهو المعروف بالشريط المضفور الذي يحدّ أيضاً الختم من الأسفل، ومما يميز هذا النمط أيضاً الأشكال المكونة للمشهدين الثانويين، ففي الأعلى نرى على جانبي غزالٍ هاجعٍ حيوانين خرافيين، وفي الأسفل عنزتين من نوع «Bezoar» على جانبي تزيين يشبه السّعفة، وهذا التزيين النباتي التجريدي يتألف من عناصر مختلفة منها الزنبق وزهرة اللّوتس.

أما في المشهد الرئيسي فيقف مُصَلٍّ ذو لحيةٍ طويلةٍ مرتدياً مئزراً وعباءةً وجهاً لوجه أمام إلهةٍ شفيعةٍ، ويوجد بينهما مذبح ونجمة سداسية.

وكان من المتوقع إزاء وقفة الرجل التي تشبه وضعية الملك المحارب أن يحمل سيفاً في يده اليمنى المتدلّية، إلّا أننا نرى بدلاً من ذلك طيراً وترتدي الإلهة ثوباً طويلاً حتى أخمص

القدمين، وكما هي الحال عند الرجل ينسبل الشعر من تحت قبعة الرأس المدوّر على الكتفين في غديرةٍ عريضةٍ.

ومن الأشياء المميزة للأسلوب الميتاني استخدام المثقب المتحرك الرفيع الذي حفرت به أفواه الحيوانات على شكل نقطٍ فحسب، أما العيون فتظهر في أغلب الأحيان دائرية وكبيرة. أما بالنسبة إلى الشخصيتين الرئيسيتين فإن الختم لا يزال يشبه النماذج البابلية القديمة.

- ختم أسطواني في متحف دمشق الوطني

الرقم ٢٧٢٩، المصدر: أوغاريت، الطول: ٥, ٣سم، القطر: ٥, ١سم، قطر الثقب: ٥, ٠ سم، المادة: هيماتيت، الوزن: ٦, ٢٠غ، الحالة: تشويه طفيف على حوافه.

وصف المشهد: جنِّي مجنَّح تحيط به الرموز، يقف فوق سمكتين، يرتدي شيئاً على رأسه، وإلى جانبه حزمة أشعة كبيرة وبينهما عددٌ من الرموز.

- ختم أسطواني في متحف دمشق الوطني

الرقم: ٢٦٧٠، المصدر: أوغاريت، الطول: ٤٥, ٢سم، القطر: ٩٨, ٠سم، قطر الثقب: ٤, ٠سم، المادة: هيماتيت، الوزن: ١٥, ٧غ.

وصف المشهد: ربَّة النبات نُقِشَ مشهدان على سطح الختم. المشهد الأول: يتقدم رجل نحو امرأة وهو يمسك بيده اليمنى على الساقين الخلفيتين لظبيٍ يرتدي مئزراً وقلنسوة رأسها كرويٌّ، ويبرز غصن فوق كتفه الأيمن.

المشهد الثاني: تقف امرأة وكائن خليط من إنسان وحيوان قبالة بعضهما بعضاً وبينهما أسدٌ ينتصب على القائمتين الخلفيتين يتبع المرأة إنسان صغير يرتدي مئزراً. [الشكل رقم٢].

- ختم أسطواني في متحف دمشق الوطني

المادة: حجر الهيماتيت، القياس: ٥, ١× ٦, ٠سم، مكان اكتشافه: في الأكروبول.

الوصف: ترتدي إلهة مجنَّحةٌ ثوباً مفتوحاً من الأمام وتتدلّى ثلاث زوائد بين ساقيها تمسك برمح في كل يد يتبعها شخصان حاسرا الرأس يرتدي الأول مئزراً مفتوحاً من الأمام والآخر مئزراً قصيراً يمسك الأول بزهرة والثاني بسعفة نخيل، ربما الإلهة المجنّحة هي وريثة الإلهة المسلَّحة أو على صلة بها. [الشكل رقم٣].

- **ختم أسطواني في متحف دمشق الوطني**

المادة: هيماتيت، القياس: ٢,٢× ١,١سم، مكان الاكتشاف: الأكروبول،

الوصف: شخص ثيابه طويلة يجلس على مقعد بلا مسند أمامه أسد عابر، ونوع من الطيور يقف على الأرض، ومُصَلٍّ ثيابُه طويلة وحاسر الرأس، في الخلف رأسُ ثور وعنزة عابرة وكراتٌ في الحقل. [الشكل رقم ٤].

- **ختم أسطواني٤,٠٢١ RS - في متحف اللوفر**

الرقم: AO ١٥٧٧٢، المادة: الهيماتيت، الارتفاع: ٢,٢ سم، القطر: ٢,١سم.

وصف المشهد: اكتُشِفَ هذا الختم عام (١٩٣٢م) في المينا البيضا، وهو يمثل مشهد صيد ملكي، مع العلم أنَّنا لا نرى سوى دولاب وعربة وحصان يجرّها، فالملك يطلق بالقوس في حين قائد عربته يتصارع مع حيوان، كما يوجد طائر في الجو، ويوجد شكل أسطواني صغير طُبِعَت على جانبيه عبارة ملكية مصرية، وفي الواجهة ينتصب أسدٌ واثبٌ، الحصان يتمثَّل وكأنه يثب على جثة مقلوبة على الظهر، وخلف العربة يتوضَّعُ عُقَابٌ. [الشكل رقم٥].

- **ختم أسطواني مع طبعته في متحف دمشق الوطني**

المصدر: أوغاريت، المادة: الهيماتيت، الحجم: ٣ × ٢سم، وهو يمثل مشهد تقدمة للرب. [الشكل رقم٦].

- **ختم أسطواني في متحف حلب الوطني**

المصدر: أوغاريت، الزمن: عصر البرونز الحديث، مكوناته: حجر أبيض وذهب، الارتفاع: ٢,٢سم، القطر: ٨٥,٠سم، الوصف: لُبِّس طرفا هذا الختم بالذهب والزخرفة الوحيدة عليه تتألف من شريط مزدوج من براعم وزهور اللّوتس. [الشكل رقم٧].

- **ختم أسطواني في متحف حلب الوطني**

المصدر: أوغاريت السطح، منطقة المدافن، الزمن: عصر البرونز الحديث، القرنين الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، مكوناته: حجر ستياتيت «معدن عازل للحرارة»، الارتفاع: ٢,٧سم – القطر: ٣,١سم [الشكل رقم٨].

وصف المشهد: على جانبي تزيين سعفي ترتفع فوقه شمسٌ مجنحةٌ، يقف بطلان عاريان متجهان إلى الأمام ولكلٍّ منهما ستُّ خصلات مجعَّدة، وبالقرب منهما يقف مُصَلٍّ يرتدي ثوباً

طويــلاً يحمل عنزة بين ذراعيه أمام إله يجلس على كرسي ذي عارضتين، ويرتدي أيضاً ثوباً طويلاً ويضع قبعة مخروطية ذات قرون، ويحمل في يده الممدودة دبوساً غليظاً للقتال، وبينه وبين حامل الحيوان شخص صغير يرفع يده متشفّعاً.

- **ختم أسطواني في متحف حلب الوطني**

المصدر: أوغاريت، الزمن: عصر البرونز الحديث، الزمن: القرنان الثالث عشر والربع عشر قبل الميلاد، المادة: من حجر ستياتيت، الارتفاع: ٢,٣ سم، القطر: ١,٣سم. [الشكل رقم ٩].

وصــف المشهد: نرى هنا إلهاً يحمل هراوة على كتفه، ويرتدي مئزراً ويضع على رأسه قبعــة سورية عالية، ومدوَّرة مــن الأعلى ويصارع الحيوان الخرافــي «أبو الهول» بالرمح، والحيــوان الخرافــي ينشــب مخالبه في ظهر عنزة، وفــوق المشهد شمســ مجنَّحة. أما الفراغــات فيملؤها غصن وعدد كبير من النقاط التي حُفِرَت بالمثقب المتحرك، وإضافة إلــى بعض الموضوعات المصرية فــإن الختم مطبوع بطابع شمالي سورية وجنوبي شرقي الأناضول الذي يتميز بوضع الإله السلاح على كتفه. وقد استُخدِمَت طريقة ملء الفراغات بوساطة الحفر في عدد آخر من الأختام الأوغاريتية. ومن المعتقد أنَّ هذا الختم حُفِرَ في أوغاريت نفسها.

- **ختم أسطواني في متحف حلب الوطني**

المصــدر: أوغاريت، الزمن: عصر البرونز الحديث، القرنين الثالث والخامس عشر قبل الميلاد، المادة: حجر ستياتيت، الارتفاع: ١,٣سم، القطر، ١سم. [الشكل رقم ١٠].

وصف المشهد: إله يرتدي مئزراً ويتقلَّد خنجراً ويضع قبعة سورية مروَّسة ويمسك رمحين بذراعيه المثنيين، وفي الأسفل يتبختر أسد، وبالنسبة إلى طريقة العرض المألوفة فقد أُدِيرَ المشهد هنا بمقدار زاوية قائمة، وهو خصوصية ترد كثيراً في هذا العصر.

وكمــا نلاحظ لقــد كسب الفنان مساحة أكبــر لحفر المشاهــد التصويرية على الأختام الأسطوانية التي ينتج عن طباعتها على العجينة الفخارية شريطٌ مستطيلٌ واسعٌ إذا ما قورن ذلك بمساحة أختام ما قبل التاريخ المسطَّحة، لم يشمل هذا التجديد شكل الختم فحسب، بل تعدّاه إلى مادته وأسلوبه التصويريين اللّذين اتّخذا اتجاهاتٍ جديدة كلياً.

وفــي النهايــة يجب الإشارة إلى أنه فــي النصف الثاني من الألــف الثاني قبل الميلاد وصــولاً إلى الألــف الأول قبل الميلاد استبدلت تقنية الأختــام الأسطوانية بشكل تدريجي

بأختام الطوابع ذات الشكل المحدَّب الذي قد يكون مستعاراً من الخنافس المصرية، وهذا مايمثله في أوغاريت خاتم «ربعانو» في عصر البرونز الحديث القرن الثالث عشر قبل الميلاد، من مادة الفضة، مساحة الخاتم: ٢سم، قطر الخاتم: ٢،٢سم، الموجود في متحف حلب الوطني. [الشكل رقم ١١] الذي كان من الشخصيات المهمة في أوغاريت، فكان كما تبيِّن الوثائق الملكية أحد أتباع الملك أميشتمرو الثاني في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان يسكن في حي سكني يقع إلى شمال شرقي القصر الملكي، فيه أبنية فخمة (مقر السلطة)، هذه الأبنية مؤلَّفة من طابقين ويشتمل على مئة وأربع وثلاثين غرفة من الطابق الأرضي، وفي القبر الذي يقع تحت أرضية الباحة الداخلية لهذا البناء عُثِرَ على هذا الخاتم الفضي الذي نقش على سطحه تزيين سعفي مع صورة عنزة من نوع (Bezoor)، وهو نوع من الماعز الإيراني. ويرى شيفر أن الخواتم الطابعة مثل خاتم ربعانو كانت متأثرة بالحضارة الإيجية، الأمر الذي يدلّ على وجود صنّاع مكيثيين كانوا يقيمون في أوغاريت.

كانت صناعة الأختام تتطور شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام، وأصبح الختم أصغر مما كان عليه في السابق، ولاشك بأن مصانع وأماكن الحرف في أوغاريت كان لها باع طويل في صناعة هذه الأختام الأسطوانية، والتي تعبِّر عن حالة متقدمة في مجال الصناعة المعدنية وغير المعدنية ولكن للأسف فإن يد اللصوص لم تدع لنا تلك الأختام التي صنعت من المعادن النادرة ولاسيّما الذهب والنحاس والبرونز والفضة لكي نتعرف عليها وعلى مهارة سكان أوغاريت في تطويع هذه المعادن وجعلها بمنزلة الرسائل التي تعبر عن الحالة الفنية والثقافية التي وصل إليها سكان مملكة أوغاريت في مجال الفنون «النقش».

ويمكن القول إن وجود الأختام دليل على وجود نظام إداري ومالي وتجاري متطور، ويدل التنوع الكبير لهذه الأختام على انتشار الاستخدام الواسع لها بين معظم الناس وعدم اقتصارها على نخبة معينة، ومن دون شكٍّ تشكّل الأختام مصدراً أساسياً لدراسة علم صور الشرق الأدنى القديم، ومنجماً من المعلومات عن الميثيولوجيا والديانة وعن الحياة اليومية أيضاً.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Akkermans. M. M. G. Peter, Schwartz. M. Glenn, The Archaeology Of Syria, Cambridge University Press, Leiden, 2003.

2- Leick. Gwendolyn, A Dictionary Of Ancient Near Eastern Mythology, Routledge, London And New York, This Edition Published In The Taylor & Francis E-Library, 2003.

3- S. A. L. Butler, Mesopotamian Conception Of Dreams And Dream Rituals, Ugarit - Verlag Münster, 1998.

4- Schaeffer. C. F. A, The Cuneiform Texts Of Ras Shamra -Ugarit, Published For The British Academy, Oxford University Press, London, 1939.

5- Schaeffer. C. F. A, Virolleaud. C, (PRU): Le Palais Royal D' Ugarit, VOL: II, Imprimerie Nationale& Klincksieck, Paris,1957.

6- Schaeffer. C. F. A, Virolleaud .C, (PRU): Le Palais Royal D' Ugarit, VOL: V, Imprimerie Nationale &Klincksieck, Paris, 1965.

7- Schaeffer. C. F. A, Nougayrol. J, (PRU): Le Palais Royal D' Ugarit, VOL: VI, Imprimerie Nationale &Klincksieck, Paris,1970.

8- Yon. Marguerite, La Cité D' Ougarit: Sur Le Tell De Ras Shamra, Éditions Recherche Sur Les Civilisations, Paris,1997.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

١- إسماعيـل، سوزان، الأختام الأسطوانية في مملكة أوغاريت في عصر البرونز الحديث ١٢٠٠-١٦٠٠ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م.

٢- تمّـوم، جمال، الجذور ماقبل التاريخية للحضارات التاريخية الباكرة في المشرق العربي القديم، أطروحة دكتوراه منشورة في المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١م.

٣- حمود، محمود، الصناعات المعدنية في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، مجلة مهد الحضارات، العدد ٣-٤، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٧م.

٤- حيدر، جمال، أوغاريت التاريخ والآثار، دار المرساة للطباعة والنشر، اللاذقية، سورية، ط١، ٢٠٠٣م.

٥- درور، مرغريت. س، أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، من كتاب أوغاريتيات – دراسات في تاريخ أوغاريت وديانتها وأدبها، إشراف وتحرير عمر الغول، منشورات دار الأمل، إربد، الأردن، ١٩٩٧م.

٦- الشواف، قاسم، أخبار أوغاريتية وموسيقا من أوغاريت، منشورات دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.

٧- شيفمان، أ. ش، مجتمع أوغاريت، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.

٨- فويت، جابرييلا، برتشنايدر، يواخيم، التطبيقات الإدارية: فن حفر الأختام والكتابة، معرض سورية وأصل الكتابة، منشورات وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٩٠م.

٩ - كوبيه، آني، المركز التجاري أوغاريت، علاقاته الثقافية مع قطنا، كنوز سورية القديمة – اكتشاف مملكة قطنا، الناشر متحف الولاية – فورتمبرغ، شتوتغارت، ٢٠٠٩م.

١٠- كيونه، هارتموت، وبالتعاون مع كلود شيفر، الأختام الأسطوانية في سورية بين ٣٣٠-٣٣٠٠ ق.م، ترجمة: علي أبو عساف وقاسم طوير، دليل معرض جامعة توبنغن رقم ١١، جامعة توبنغن، ١٩٨٠م.

١١- مرعي، عيد- عبد الله، فيصل- أحمد، محمود عبد الحميد، آثار الوطن العربي القديم (العراق – سورية – مصر)، منشورات جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٤م.

١٢- ناجي، عادل، الأختام الأسطوانية، حضارة العراق، الجزء٤، تأليف نخبة من الباحثين، بغداد، ١٩٨٥م.

١٣- نور الله، معزز، حضارة أوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد اجتماعياً واقتصادياً وفنياً وعلاقاتها بالدول والممالك المجاورة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٥م.

١٤- هبو، أحمد أرحيم، تاريخ سورية القديم (بلاد الشام)، منشورات جامعة حلب، سورية، ٢٠٠٤م.

١٥- يونس، إياد، الحياة الاقتصادية في أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٠م.

نزار قباني مسيرة شاعر

ماهر الشدايدة



نزار قباني شاعر جماهيري، وصل شعره إلى أسماع جميع المتلقين على اختلاف أعمارهم وجنسياتهم ومستوياتهم على الرغم من أنه لم يتوقع في بداياته الشعرية أن يتحقق لشعره هذا الانتشار الواسع إذ يقول: «هذه الكلمات، ما فكّرت في يوم من الأيّام، أن تخرج من غرفتي إلى غرف الآخرين، إنها قنديلي الخاصّ الذي... أقدِّمه للقراء كما هو بزجاجته الصفراء، وشعلته النحيلة، وعينه الخضراء أقدمه لهم، ويدي على قلبي».

دمشق... الولادة والياسمين

نزار توفيق قبّاني، الطّفل الذي ولد في ٢١ آذار عام (١٩٢٣م)، من أسرة دمشقيّة، جده أبو خليل القباني من روّاد المسرح العربي. درس الحقوق في الجامعة السورية، وفور تخرجه فيها عام (١٩٤٥م) انخرط في السلك الدبلوماسي متنقلاً بين عواصم مختلفة حتى قدّم استقالته عام (١٩٦٦م). أصدر باكورة دواوينه عام (١٩٤٤م) بعنوان «قالت لي السمراء» وتابع

عملية التأليف والنشر التي بلغت خلال نصف قرن (٣٥) ديواناً أبرزها «طفولة نهد» و«الرسم بالكلمات»، وقد أسس دار نشر لأعماله في بيروت باسم «منشورات نزار قباني» وكان لدمشق وبيروت حيِّزٌ خاصٌ في أشعاره. أحدثت حرب (١٩٦٧م) التي أسماها العرب «النكسة» مفترقاً حاسمــاً في تجربته الشعرية والأدبية، إذ أخرجته من نمطــه التقليدي بوصفه «شاعر الحبّ والمرأة» لتدخله معتــرك السياسة، وقد أثارت قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» عاصفة في الوطن العربي وصلت إلى حد مَنْعُ أشعاره في بعض وسائل الإعلام العربيَّة.

كان والــده توفيق قباني مالكاً لمصنع (سكاكــر)، وشارك في مقاومة الانتداب الفرنسي، وشبّه نزار الطّبيعة النّفسيّة لأمه وأبيه بـ«الماء والنار»، وعلى الرغم من تعلقه بأمه التي ميّزته مــن سائر إخوته بحنانٍ خاص، فإن نــار أبيه جذبته أكثر من ماء أمه، كان له أختان: «وصال، وهيفاء»، وثلاثة إخوة: «معتز، وصباح، ورشيد».

يقــول في كتابه (قصّتي مع الشّعــر): «أريد أن أكتب قصَّتي قبــل أن يكتبها أحدٌ غيري، أريــد أن أرسم وجهــي بيدي، إذ لا أحد يستطيع أن يرسم وجهــي أحسن منّي، وهنا سأسجل بعض تفاصيل رحلتي في غابات الشّعر، ولا أريد أن أدخل غرفة العمليّات، وأسلِّم جسدي إلى مباضــع النّاقدين، قرَّرتُ أن أظهر على المسرح بشكلــي الطّبيعيّ، ووجهي الطّبيعيّ، وأتوجّه إلــى الجمهور بغير وسطاء، وإعلانات حائط، وشُبّاك تذاكر، فلا أحد يستطيعُ أن يكون فمي أكثر من فمي».

لا بــدَّ من العــودة للحديث عن دارنا الدمشقية في دار (مئذنة الشحم)، لأنّها المفتاح إلى شعــري، والمدخل الصحيح إليه، وبغير الحديث عن هــذه الدار، تبقى الصورة غير مكتملة، ومنتزعة من إطارها.

هــل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان قارورة عطر؟ بيتنــا كان تلك القارورة، والذين سكنوا دمشق، وسكنوا حاراتها الضّيقة، يعرفون كيف تفتح لهم الجنّة ذراعيها من حيث لا ينتظرون.

عشرون صفيحة فلٍّ في صحن الدّار هي كلُّ ثروة أمّي، كل زرّ فلّ عندها يساوي صبيّاً من أولادها، لذلك كلّما غافلناها وسرقنا ولداً من أولادها، بكت وشكتنا إلى الله.

هــذا البيت الدمشقيّ الجميــل استحوذ على كل مشاعري، وأفقدنــي شهوة الخروج إلى الزقاق، كما يفعل الصبيان في كل الحارات، ومن هنا نشأ عندي هذا الحسّ (البيتوتي)، الذي رافقني في كلِّ مراحل حياتي:

للياسمين حقوقٌ في منازلنا
وقطّةُ البيتِ تغفو حيثُ ترتاحُ

هنا جذوري، هنا عشقي، هنا لغتي
فكيفَ أوضحُ هل في الحبِّ إيضاحُ

مدرستي الأولى (الكلية العلمية الوطنية) في دمشق، دخلت عليها في السّابعة من عمري، وخرجت في الثامنة عشرة أحمل شهادة (البكالوريا).

حول مدرستنا كانت تلتفُّ كالأساور الذهبية أسواق دمشق الظليلة: سوق الحميدية وسوق مدحت باشا، وسوق الصاغة وسوق الحرير.

كانت المدرسة على بُعد خطوات من بيتنا، وحجرة من حجراته، وطريقنا إلى المدرسة كان طريقاً فلكلوريّاً مغرقاً في شاميته».

نزار والرّسم والموسيقا

في ظلِّ هذه السّنوات كان نزار يبحث عن نفسه، يبحث عن ذاته، يريد استكشاف أغوار ذاته ليجد في نفسه الحقيقة التي يصبو إليها، وظل كالنّحلة يتنقّل بين الفنون علّه يجدها.

«كنتُ أضطجع في سريري، أرفع يدي في الظلام، وأرسمُ في الفراغ خطوطاً ليس لها نهايات، وأشكالاً لا تعني شيئاً ... الرسم ربَّما كان هو قدري، وغرقت سنتين أو ثلاثاً في قوارير اللون، رسمتُ بالماء والفحم وبالزّيت، رسمتُ أزهاراً وثماراً وبحاراً ومراكب، لم أكن رساماً رديئاً، ولكنّني لم أكن أيضاً رسّاماً جيّداً.

في الرابعة عشرة من عمري سكنني هاجس الموسيقا، ظننتُ أنَّ عالم الأصوات أرحب وأغنى، وأنَّه – بخلاف عالم الخطوط– يستطيع أن يكون باب الخلاص.

وبعد الدرس الثاني لي في الموسيقا، رميتُ آلتي وقطعتُ أوتاري، وسقطتُ في حيرتي من جديد».

معلّم نزار الأوَّل... الشَّاعر خليل مردم بك

كان نزار قباني محظوظاً منذ نعومة أظفاره، إذ تهيأت له كثير من الظروف التي ساعدت على نضجه الشّعريّ، ومن تلك الأشياء التي تحدَّث عنها « إنَّ من نعم الله عليَّ وعلى شعري معاً، أنَّ معلم الأدب الذي تتلمذتُ عليه، كان شاعراً من أرقِّ وأعذب شعراء الشّام، وهو

الأستـــاذ خليـــل مردم بك، الذي ولد في دمشق عام (١٨٩٥م)، ومن حُسن حظي أنني كنت من بيـــن التلاميذ الذين تعهَّدهم هذا الشّاعر، إنني أدين لخليل مردم بك بهذا المخزون الشّعريّ الرّاقي، الذي تركه على طبقات عقلي الباطن، فإنَّ خليل مردم بك كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشِّعر تحت جلدي، وفي تهيئة الخمائر التي كوَّنت خلاياي وأنسجتي الشِّعريَّة».

البدايات الشّعريّة

يقول نزار قباني في كتابه (قصَّتي مع الشِّعر):

«أنـــا من أسرة تمتهنُ الحبّ، والحبُّ يولدُ مع أطفال الأسرة، كما يولد السّكَّر في التفاحة، جَـــدّي كان هكذا، وأبـــي كان هكذا، وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهـــاد مثيرة سببها العشق، الشهيدة هي أختي الكبرى وصال، قتلت نفسها بكلّ بساطة وبشاعريَّة منقطعة النظير... لأنَّها لم تتزوَّج حبيبها».

نـزار والدبـلـومـاسيّة

كان نزار قباني على موعد جديد مع الدبلوماسيّة التي كانت بوابته نحو العالم الرَّحب بكلِّ مـــا فيه من متعة وعجائب وغرائب، وكان لهذا العمل الجديـــد أهميَّته الكبرى في حياة نزار حين انضمَّ إلـــى السّلك الدبلوماسيّ السوريّ عام (١٩٤٥م)، إذ يقول عن تجربته الفريدة:«لم أكن أتصوَّر أنني سأصبح هولندياً طائراً، وأنَّ غباري سيناثر كلَّ القارات».

كنتُ في الثانية والعشرين من عمري وعُيّنت ملحقاً بالسّفارة السّورية في القاهرة، وحين ارتفعـــتِ الطائرة بي تاركة خلفها مـــآذن دمشق وقبابها وبساتينها، شعـــرتُ أنّني أنفصل عن جاذبيّة الأرض وجاذبيّة التاريخ».

نـزار... والـزّواج الأوّل

علـــى الرَّغم من شهرة شاعرنا مالئ الدّنيا وشاغل النّاس، إنَّ ثُلَّةً قليلةً تعرف قصَّة زواجه الأوّل، فقد كان نزار يعمل دبلوماسيّاً في القاهرة، عندما أبصر الصَّبية (زهراء آق بيق) وهـي مـــن عائلـــة دمشقيّة عريقة، فخطبها عام (١٩٤٦م)، وتمَّ الزّواج فـــي العام نفسه، وأنجبت له (هدبـــاء) عام (١٩٤٧م)، والولد الثّاني توفيق، عام (١٩٥٠م)، وفي عام (١٩٥٢م) وقع الطّلاق بينهمـــا على الرّغم من الحبِّ الذي جمعهما، لأنَّها لـــم تكن لديها القدرة على احتمال رسائل المعجبات به وبشعره.

كان ديوان نزار الشعريّ الأوّل (قالت لي السّمراء) أول باكورة إبداعه وقد أهداه إلى زهراء، وكتب إهداءه بحرف (ز) وكان ذلك قبل زواجه بأعوام عدّة، وكتب على النّسخة الأولى التي قدَّمها إلى زهراء، إهداء قال فيه: «لزهراء... آق بيق.. فمن يجيء بشعر مثل هذا.. من زهرة الأنبياء».

نزار وبلقيس

كان الشاعر نزار قباني يلقي قصيدته في إحدى القاعات التي ضمت مهرجاناً شعرياً في بغداد عام (١٩٦٢م)، فوقع بصره وهو يشدو بقصيدته على فتاة عراقية في العشرينيات، شديدة الجمال، مليحة القوام، تلاقت أبصارهما مرّات ومرّات فوقعت في قلبه، فهام بها، فسأل عنها، فعلم أنها بلقيس الراوي، تعيش في الأعظمية في بيت أنيق، يطلّ على نهر دجلة، فتقدّم لخطبتها من أبيها، فلم يوافق، فعاد نزار حزيناً إلى إسبانيا إذ كان يعمل في السفارة السورية.

ظلّت صورتها تداعب خياله ولا تغرب عن باله، لكنّه ظلَّ يتبادل معها الرسائل.

بعد سبع سنوات عاد إلى العراق ليشارك في المربد الشعري، وألقى قصيدة أثارت شجون الحضور، وعلموا أنه يحكي فيها قصَّة حبٍّ عميقة، فتعاطف معه الشعب العراقي بأسره، كان يقول في قصيدته:

مرحباً يا عراق جئت أغنيك
وبعضٌ من الغناء بكاءُ
مرحباً، مرحباً أتعرفُ وجهاً
حفرته الأيامُ والأنواءُ
كان عندي هنا أميرة حبٍّ
ثمَّ ضاعت أميرتي الحسناءُ
أينَ وجهٌ في الأعظميَّة حلوٌ
لو رأتهُ، تغار منه السَّماءُ

نُقلت القصَّة إلى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، فتأثّر بها، فبعث بوزير الشباب الشاعر شفيق الكمالي، ووكيل وزارة الخارجية الشّاعر شاذل طاقة، ليخطبا بلقيساً لنزار من أبيها، عندها وافق والدها فتزوجا عام (١٩٦٩م).

وفـــي عام (١٩٨١م) توفيت بلقيس، فترك ذلك في نفس نزار ألماً ومرارةً وحسرة، فرثاها بقصيدة سمّاها (بلقيس):

بلقيس..

كانت أطول النخلات في أرض العراق

كانت إذا تمشي... ترافقها طواويسٌ...

وتتبعها أيائل...

بلقيس... يا وجعي...

ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأنامل

هل يا ترى...

من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل؟

يا نينوى الخضراء...

يا غجريتي الشّقراء...

يا أمواج دجلة...

تلبس في الرّبيع بساقها

أحلى الخلاخل...

في رثاء الأمير الدّمشقيّ توفيق قبّاني

حيـــن امتدّت يد المنيَّة لتخطف توفيقاً ابنـــه، يصدح شاعرنا بشعر وجدانيّ، مفعم بأنّات الـــروح وصدق الأحاسيس، حين يكتوي قلب أب بفقد ابنه وهـــو في عنفوان الشّباب، فكانت قصيدتـــه تعبيراً صادقـــاً عن حرقة أب أراد ردَّ كفِّ الفجيعة بلغة تزفر حزناً ولوعة مستجيبة لعاطفة تتدفّق صدقاً على خفقات روحه الحزينة، إذ يقول:

مكسَّرة كجفون أبيك هي الكلمات

ومقصوصة، كجناح أبيك، هي المفردات

فكيف يُغنّي المغنّي؟

وقد ملأ الدمع كل الدّواة

وماذا سأكتب يا بني؟

وموتك ألغى جميع اللغات

شاعر المرأة

كان لنزار صولات وجولات في ميادين الصّحافة العربيّة، يقول:«صحافتنا العربيّة لها ولع غريب باختراع ألقاب للشعراء، وكلّما فتحتُ صحيفة يوميّة ورأيتُ اسمي مقروناً بلقبٍ جديد، تساءلت بيني وبين نفسي، إذا كنتُ أنا الرّجل المقصود».

أكثر هذه الألقاب مطاردة لي هو لقب (شاعر المرأة)، وأودُّ أن أعترف: «أنَّ شعري قدَّمني للناس تقديماً خطراً، وصبغ سُمعتي بالأحمر الفاقع، وساعد على ترسيخ صورتي (الشّهرياريّة) في رؤوسهم. إنَّ شاعر الحبِّ في بلادنا يُقاتل فوق أرض وعرة، ويُغنّي في غابة تسكنها الأشباح والعفاريت، من كلِّ امرأة.. تعلّمتُ كلمة من كتاب الحبّ.

الشّعر عندي هو سفر إلى الآخرين، هو مهنتي، ويوم أفقدُ جواز سفري، وحقائبي المليئة بالكلمات، سأتحوَّل إلى شجرة لا تسافر وأموت.

الشّعر يدٌ والجمهور باب، والشّاعر الذي لا يتَّجهُ بشعره إلى أحد يبقى نائماً في الشّارع، وأزمة الشّاعر الحديث الأولى: هي أنَّه أضاع عنوان جمهوره، فالشَّاعر يقف في قارّة، والنّاسُ يقفون في قارّة، وبينهما بحار من عقدة التعالي والغرور وعدم الثقة، إنَّهم عاجزون عن الوصل والتواصل، وعاجزون عن تحويل الشِّعر إلى قماشٍ شعبيّ يلبسُه كلُّ النّاس».

القصيدة عند نزار

«ليس من السّهل مراقبة القصيدة وهي تتشكَّل، والشّاعر الذي يحاول أن يتأمّل أصابعه على الورقة، يُشبه سائق الدراجة الذي يتأمّل حركة قدميه فيرتبك، ويفقد توازنه.

القصيدة عندي تأتي كالبرق، تضرب كالبرق، وتختفي كالبرق، لا أحاول إمساكه، بل أتركه يذهب، مُكتفياً بالإضاءة الأولى التي يُحدثها، فهي إذن حاضرة قبل حضورها، ولا تنتظر الفرصة المناسبة لتفتح الباب وتدخل.

صحيح أنَّ هناك كُتّاباً يتفرّجون على الحب، ويكتبون عنه ألوف الصّفحات، وصحيح أنَّ هناك شعراء يقومون بتركيب المرأة تركيباً ذهنياً في مختبرات أحلامهم، غير أنَّ تجربة هؤلاء تبقى تجربة مخبريَّة باردة محرومة من زخم الحياة وحرارتها، وطبعاً، لا يجد القارئ أيّ صعوبة في التفريق بين امرأةٍ من ورق، وامرأة تشطرنا كالسَّيف إلى ألف قطعة، وتحوّل عمرنا إلى قوس قزح.

وحدها القصائد الرّديئة هي التي تشيخ وتموت من دون أن ينال منها أحد».

دمشق نزار قباني

ظلَّت مدينة دمشق ساكنة في وجدان نزار، على الرغم من كثرة المدن التي زارها وتعرف إليها في أثناء عمله في الحقل الدبلوماسي، فقد كانت دمشق بحُزنها وفَرَحها ... ليلها ونَهارها، دَمعها وحربها، بكلِّ ما فيها وياسمينها ... الأعرقُ والأجملُ والأيتَم بالنسبة إليه. فهي مُلتقى الحلم ونِهايَتُه، صبابةُ الشُّعراءِ وقافيتهم، فيها كلُّ المشتَهى، وإليها ما يكونُ دائماً المفَرّ. وهي الأنثى كاملةُ الملامح مستحيلةُ التكوين، لا تَشيخُ... ولا تَكبُر... لا تُفهَمُ... ولا تُكتَبُ... ثابتةٌ رغم الحركة والكلُّ يلهثُ فيها ... وراءها وأمامها يقفزُ، يزحفُ، يسبحُ، يطير وهيَ دائماً مَا تنتظرُهمْ هناك... هناكَ حيثُ يحلمون...

وقد ظلَّ نزار يلحُّ دائماً على أن دمشق هي الرَّحم الأولى التي تكوِّن هويته، وعلى أن ملامحها وموجوداتها ما تزال تتغلغل في كيانه ووجدانه:

هذي دمشقُ وهذي الكأسُ والرّاحُ
إنّي أحبُّ وبعضُ الحبِّ ذبّاحُ
أنا الدّمشقيُّ لو شرَّحتمُ جسدي
لسالَ منهُ عناقيدٌ وتُفّاحُ

كما أنها تمثل بالنسبة إليه فضاءً واسعاً مفعماً بالتفاصيل ساحرة الجمال، ويظل نزار في حنين دائم إلى تلك التفاصيل:

فرشتُ فوق ثراك الطّاهر الهدبا
فيا دمشقُ لماذا نبدأُ العتبا؟

تشرَّب نزار قباني - منذ نعومة أظفاره- عشق الطبيعة الدمشقية، فاستثمر هذا العشق في رسم صورة بديعة لمفرداتها وعناصرها:

قمرٌ دمشقيٌّ يسافر في دمي
وبلابلٌ وسنابلٌ وقبابُ
الفلُّ يبدأُ من دمشق بياضهُ
وبعطرها تتطيَّبُ الأطيابُ
والماءُ يبدأُ من دمشق، فحيثما
أسندتَ رأسك جدولٌ ينسابُ

والشِّعرُ عصفورٌ يمدُّ جناحهُ
فوقَ الشّآمِ، وشاعرٌ جوَّابُ

نزار والشعر

تحدَّث نزار قباني بنفسه عن مفهومه، للشعر بوجه عام، ولشعره بوجه خاص، كما تحدَّث عن العلاقة التي تربط الشاعر بجمهور المتلقين، ومن ذلك قوله:

«سرقة النار كانت هوايتي منذ بدأتُ كتابة الشعر.

مفاتيح شعري هي شعري نفسه، وقصائدي هي الصّورة الفتوغرافيّة الوحيدة التي تُشبهني، وكتبي التي نشرتها هي جواز سفري الحقيقيّ.

دخلتُ بوجهي الطّبيعيّ وبملابسي العاديّة وفي يدي أوّل مجموعة شعريّة لي (قالت لي السّمراء).

الشّعر هو كلمة السّر.. من عرف متى يقولها وكيف يقولها ، استطاع أن يزحزح الصخرة المسحورة ويصل إلى صناديق اللؤلؤ والمرجان، وإلى الحور المقصورات في الجنان..

الشّعر نار الإنسان. ونار الإنسان لا تموت ما دام في شرايين قلبه قطرة زيت.. قطرة حب».

لماذا أقرأ شعري؟!

دعوة الشّاعر إلى قراءة شعره ، نوع من النزيف الروحي العنيف.. يتعب الشاعر ويريحه في آن واحد. هي فتح ثقب صغير في خزّان الوقود قبل أن ينفجر... هي نزع الختم عن زجاجة خمر مات صبرها ... هي تجريد شجرة الكرز من كل أقمارها الحمراء وكل فوانيسها المشتعلة.

الشّعر عافيتي ومرضي ، مولدي ومقتلي ، ضلالي وتوبتي.

الشّعر خنجر ذهبي مدفون في لحمي. أكره أن يتركني، ولا أكره أن يذبحني.

إنني أقرأُ شعري لأنني أريد أن أنام. لأن كلماتي كأجفان الأطفال لا بد لها من أن تسترخي وتنسبل.

نزار وحرب تشرين

لم يكن نزار بعيداً عن الهموم السياسية والوطنية لأمته العربية، وقد برزت أهمية هذا المضمون فيما كتبه شعراً ونثراً، فبعد الانتصار في حرب تشرين، نقرأ له:

«قبل السّادس من تشرين (١٩٧٣م)، كانت صورتي مشوَّشة وغائمة وقبيحة، واليوم ٦ تشرين يبدأ عمري، ولا تستغربوا كلامي، فأنا ولدتُ تحتَ الطّوّافات والجسور العائمة، وخرجتُ من أسنان المجنزرات السوريّة التي تقرقش الصخور في مرتفعات الجولان».

«فـــي السادس من تشرين بدأ تاريخنا الحقيقيّ... الحـــرب هذه هي ولادتنا والحلُّ الأوَّلُ والأخير لقضيّتنا.. إنَّ هذه هي معركة العرب جميعاً».

كما نقرأ تتويجاً لفرحته بهذا الانتصار في قصيدة (ترصيع بالذهب على سيف دمشقي):

أتـــــراهـــــا... تُـحـبُّـنـي مـيـسـونُ
أم تـوهَّـمـتُ... والـنّـسـاءُ ظـنـونُ؟
يـــا بـنـةَ الـعـمِّ، والـهـوى أمـــويٌّ
كـيـفَ أخـفـي الـهـوى، وكـيـف أبـيـنُ؟
جـــاءَ تـشـريـنُ يـــا حـبـيـبـةَ عـمـري
أحـــســـنُ الـوقـتِ لـلـهـوى تـشـريـنُ
ولـنـا مـوعـدٌ عـلـى (جـبـل الـشّـيـخ)
كـــم الـــثّـــلـــجُ دافـــــئٌ وحـــنـــونُ
مـــزّقـي يـــا دمـشـقُ خـارطـةَ الـــذّل
وقـــولـــي لـــلـــدَّهـــرِ كــــن، فـيـكـونُ
اسـحـبـي الـذّيـلَ يـــا قـنـيـطـرة الـمـجـد
وكـــحّـــل جـفـنـيـك يـــا حـــرمـــونُ

مع نجاة الصّغيرة

تكلَّم نزار في كثير من حواراته ولقاءاته الصّحفية على تجربته الشّعريّة مع الفنانين الذين التقاهـــم وغنّى لهم، ومن اللواتي كان لهنَّ مكان في قلبه الفنانة نجاة الصّغيرة إذ يقول فيها: «بالنسبـــة إلي: يعبّر صوت نجاة عن أعماق الأنثـــى الضعيفة الخجولة، التي تخاف من البوح عمّا في عالمها الذاتيّ من الأحاسيس، وأعتقد أنّها أفضل مَن غنّى قصائدي».

غنّـــت نجاة لنـــزار كثيراً من القصائد (أيظنُّ، ماذا أقول له، إلـــى رجل، أسألك الرّحيلا)، ولعـــلّ قصيدة (أيظنُّ) من أجمل القصائد التـــي تعبِّر عن صرخة احتجاج باسم كرامة المرأة العاشقة وفيها يقول:

أيظنُّ أنّي لعبة بيديهِ؟
أنا لا أفكّر في الرّجوع إليه
اليوم عاد كأنَّ شيئاً لم يكنْ

وبراءة الأطفال في عينيهِ

ليقول لي: إني رفيقة دربه

وبأنّني الحبّ الوحيد لديهِ

لمَّا غنَّتها نجاة، واشتهرت، وذاع صيتها في البلدان العربيَّة، تكلَّم كثيرون عليها وقالوا: إن نجاة الصَّغيرة هي مَن قدَّم نزار للنّجوميَّة والشهرة بغنائها له.

ولكنَّها تنفي هذا الكلام وتقول: لا .. لا أستطيع أن أقول هذا، فنزار كان شاعراً كبيراً، ورحل عن الدنيا وهو كذلك، وكنتُ فخورة بالتَّعامل معه كشاعر، وربطتني به علاقات طيّبة مع عائلته في تلك المدّة التي التقينا فيها في عالم الفنّ.

قالوا عن نزار قباني

الأديب السوداني الطيب صالح: «عالَم عربيٌّ ليس فيه نزار قباني أمر يصعب تصوّره».

ويقول كذلك في المقال نفسه المنشور في جريدة الشرق الأوسط « على مدى خمسين عاماً »: «ارتبط نزار قباني، شاعراً وإنساناً بالعالم العربيّ في تقلّبات أحواله، في هزائمه وانتصاراته، وأحزانه وأفراحه كان دائماً واقفاً في قلب خضمِّ الأحداث يشجع ويحدد ويستفزُّ ويهجو».

جهاد الخازن: رئيس تحرير جريدة الحياة سابقاً: «ولم يقدّم نزار قباني بديلاً، كما سجّل عليه نجيب محفوظ، ربما كان نصّب نفسه بديلاً عن الشعب، إلا أنَّ (المهرولون) شغلت الناس ولا تزال لأنّها حرَّكت ضمير الأمّة».

الشاعرة الكويتية (سعاد الصباح) في قصيدتها (ورحل زمن من الشّعر) ترثي نزاراً بقولها:

«يا عصفوراً من عصافير الحرية، يا شاعر كل الفصول، .. مع قمر الصيف تأتي، .. ومع التماعات البرق تأتي، .. مع حزن الصواري تأتي، .. ومع بكاء الوطن تبكي، .. ومع نزيفه تنزف، .. يا أيها النسر الذي حمل تحت جناحيه مئتي مليون عربي، ومليون مئذنة ومليون قصيدة».

فاروق جويدة: «احتار الأدباء والشعراء في وصف الشاعر نزار قباني، إلا أنّهم اجتمعوا على أنه جمع بين الكتابة الشعرية عن المرأة والعشق والسياسة بجرأة أوصلته إلى حد الخروج إلى السّباب».

حسين حمزة: «إنه شاعر وهب حياته لمعشوقتين المرأة والقوميّة العربيّة، وكتب فيهما أجمل الأشعار التي وصلت إلى قلوب الجماهير...».

نجيب محفوظ: «هو أشهر الشعراء العرب فى النّصف الثّاني من القرن العشرين بلا منازع، كانت لغته الشعرية سهلة بسيطة، ومن فرط بساطتها ورقتها تشعر بأنك يمكنك أن تكتب مثلها، لكنّك تقف عاجزاً أمامها».

أحمد عبد المعطي حجازي: «نزار قباني.. شاعر حقيقيّ له لغته الخاصة، إلى جانب كونه جريئاً في لغته واختيار موضوعاته».

غادة السّمّان: «المبدعون لا نزور قبورهم بالضرورة، بل نزور أبجديّتهم في ذكرى رحيلهم»

أعيدوني لمن علّمتني أبجديّة الياسمين

قال نزار موصياً في أثناء خضوعه للعلاج في مشفى (سانت توماس):

«إنّني أرغبُ في أن يُنقلَ جثماني إلى دمشق، وأن أُدفن في مقبرة أهلي، أعدُّ هذه الوصيَّة نهائيّة، لأنَّ دمشق هي الرّحم الذي علَّمني الشّعر، وعلَّمني أبجديّة الياسمين».

ما تراني أقول ليلة عرسي؟
جفَّ ورد الهوى ونام السّامر
ما تراني أقول يا أصدقائي
في زمان تموت فيه المشاعر؟
لم يعد في فمي قصيدة حبٍّ
سقط القلب تحت وقع الحوافر
أنزف الشعر منذ خمسين عاماً
وطعم الجنون طعم باهر
وداعاً يا حبيبتي دمشق
وداعاً أيُّها العاشقون
وداعاً لمن علّمتني أبجديّة الياسمين.

توماس وولف

ترجمة: محمد حنانا



ولد توماس كلايتون وولف في ٣ تشرين الأول عام (١٩٠٠م) في أشفيل. شمال كارولينا وتوفي في ١٥ أيلول عام (١٩٣٨م) في بالتيمور، ماريلاند. وطّد سمعته الأدبية في بلده وخارجها بأربع روايات تتعلق بسيرته الذاتية: «تطلع نحو الدار أيها الملاك» عام (١٩٢٩م) و«الوقت والنهر» عام (١٩٣٥م) نشرتا في أثناء حياته. و«الشبكة والصخرة» عام (١٩٣٩م) و«لا تستطيع العودة إلى البيت ثانية» عام (١٩٤٠م) صدرتا بعد وفاته.

كان والده ويليام أوليفر وولف - أليفر غانت في رواياته، حجاراً. وكانت والدته جوليا إليزابيث ويستول وولف - إليزا في رواياته، تمتلك وتدير نزلاً في أشفيل. شمال كارولينا، حيث نشأ وولف.

دخل وولف في عام (١٩١٦م) جامعة شمال كارولينا حيث كتب ومثّل في عدة مسرحيات ذوات الفصل الواحد. وفي عام (١٩٢٠م) تسجّل في جامعة هارفارد حيث درس أسلوب الكتابة المسرحية تحت إشراف جورج بيرس بيكر الذي قدم نسخة معدلة من مسرحية وولف «الجبال». وفي عام (١٩٢٢م) درس وولف، بعد تخرجه في هارفارد، سنة أخرى على يد بيكر

الذي قدَّم في عام (١٩٢٣م) عشرة مشاهد من مسرحية وولف «مرحباً بمدينتنا». لقد أراد أن يصبح كاتباً مسرحياً. لكنه كان يقول دائماً: «في الواقع، أود أن أكون شاعراً ولا شيء آخر».

فـي عام (١٩٢٣م) غادر وولف هارفارد وقصد نيويورك سيتي واستقر فيها، وكان ما يزال عازماً على أن يصبح كاتباً مسرحياً. وفي نيويورك درَّس وولف اللغة الإنكليزية في كلية واشنطن سكوير التابعة لجامعة نيويورك. لم يستطع وولف بيع أيّ مسرحية من مسرحياته بسبب طولها الزائد عن الحد المعقول. وقد حاولت رابطة المسرح تقديم مسرحية «مرحباً بمدينتنا» لكنها رُفضت في النهاية، ووجد وولف أن أسلوب كتابته يلائم الرواية أكثر من المسرح. وفي عام (١٩٢٤م) أبحر إلى أوروبا ليتابع الكتابة. سافر من إنكلترا إلى فرنسا ثم إلى إيطاليا وسويسرا.

فـي عام (١٩٢٥م)، في أثناء عودته من رحلة، قابل ألين بيرنشتاين (١٨٨٠-١٩٥٥م) وهي مصممة مسرحية ناجحة جداً، وكانت عندئذٍ في الرابعة والأربعين ومتزوجة من سمسار بورصة ناجح أنجبت منه طفلين، لكن ذلك لم يشكل عائقاً بالنسبة إليها. وقع كلاهما في الحب بجنون واستمرت علاقتهما خمس سنوات. كانت علاقتهما مضطربة وأحياناً عدائية، لكنها أثرت عليه تأثيراً قوياً، فقد حثته على الكتابة ودعمته.

فـي صيف عـام (١٩٢٦م) عاد وولف إلى أوروبا وشرع في كتابة رواية بعنوان «O Lost» المبنية على سيرته الذاتية. يروي في هذه الرواية «تطلع نحو الدار أيها الملاك» تجاربه الأولى في أشفيل، وتاريخ الأسرة والأصدقاء وزبن نزل والدته. في الكتاب أعطى اسماً جديداً للبلدة (ألتامونت) ودعا نزل والدته (ديكسيلاند). وأصبح اسم الأسرة (غانت)، ودعا وولف نفسه (يوجين) ووالده (أوليفر) ووالدته (إليزا). وقد بلغ عدد صفحات المخطوطة الأصلية لـ (O Lost) (١١٠٠) صفحة (٣٣٣٠٠٠) كلمة. أُحيلت المخطوطة إلى ماكسويل بيركنز محرر الكتب الأبرز في ذلك الوقت الذي عمل أيضاً مع إرنست هيمنغواي وسكوت فيتزجيرالد. اختصر بيركنز المخطوطة ليركز أكثر على شخصية يوجين التي تمثل وولف. في البداية شكره وولف على تحريره المنضبط، لكنه توجس فيما بعد. فقد قيل إن وولف وجد صورة أب في بيركنز، وإن بيركنز الذي لديه خمس بنات وجد في وولف نوعاً من ابن بالتبني.

نُشرت الرواية، التـي أُهديت إلى بيرنشتاين، قبل أحد عشر يوماً من انهيار سوق الأوراق المالية لعام (١٩٢٩م). بعد ذلك مباشرة عاد وولف إلى أوروبا، وأنهى علاقته بالسيدة بيرنشتاين. سبَّبت الرواية هزة في أشفيل بشخصياتها المحلية التي قُنعت على نحو رقيق.

فاختــار وولــف البقاء بعيداً عن أشفيل طوال ثمانية أعوام بسبــب تلك الجلبة. وغدت رواية «تطلع نحو الدار أيها الملاك» الكتاب الأكثر مبيعاً في المملكة المتحدة وألمانيا.

بعد أربع سنوات من الكتابة في بروكلين، أحال وولف روايته الثانية «The October Fair»، المكونة من عدة مجلدات ضخمة، إلى بيركنز الذي قرر اختصارها على نحو ملحوظ مبتكراً مجلــداً واحــداً دعاه «الوقت والنهر». وقد فاق نجاحه التجــاري رواية «تطلع نحو الدار أيها المــلاك». وفي الكتاب بُنيت شخصية إيستر جــاك على ألين بيرنشتاين. وفي عام (١٩٣٤م) أصبح مكسيم لايبر وكيل وولف الأدبي.

تخلّــى وولف عــن دار نشر سكرابنر التي يعمل فيها المحــرر بيركنز، ووقّع عقداً مع دار نشر هاربر أند براذرز، لأن بيركنز حسب بعض الآراء كان محرراً صارماً لعمل وولف مما دفع وولف للتخلي عنــه. ووصف آخرون امتعاض وولف من بعض الأشخاص الذين نسبوا نجاحه إلى عمل المحرر بيركنز.

أمضى وولف كثير من الوقت في أوروبا خصوصاً ألمانيا إذ كَوَّن فيها كثيراً من الأصدقاء. وفي عام (١٩٣٦م) شهد أحداث تعصُّب ضد اليهود مما أقلقه ودفعه إلى تغيير رأيه بالتطورات السياسية في ذلك البلد. فعاد إلى أمريكا ونشر قصة بعنوان «لدي شيء أقوله لكم» بُنيت على مشاهداته وملاحظاته في ألمانيا. إثر ذلك منعت الحكومة الألمانية كتب وولف، كما مُنع من السفر إلى ألمانيا.

في عام (١٩٣٨م)، بعد أن سلّم مخطوطة ضخمة تتضمن أكثر من مليون كلمة إلى محرره الجديــد إدوارد أزويــل، غادر وولف نيويورك وقام بجولة في الغــرب الأمريكي. وفي طريقه توقَّف فــي جامعة بورديو وألقى فيها محاضرة بعنوان «الكتابة والحياة»، ثم أمضى أسبوعين متنقلاً خلال مناطق الغرب. وكتب إلى أزويل يقول: إنه في حين ركز في كتابته السابقة على عائلتــه، يــود الآن العمل وفق منظــور شامل. وفي تموز من عــام (١٩٣٨م) وفي أثناء زيارته سياتــل غدا مريضاً بذات الرئة مما أجبره على البقاء فــي المشفى طوال ستة أسابيع. وفي أثناء وجوده في المشفى نشأت لديه مضاعفات مرضية خطيرة. وفي النهاية تبين أنه مصاب بالســل الدُخّني، فأُرســل إلى مشفى جون هوبكنز في بالتيمور للعلاج على يد الجراح الشهير والتــرا داندي، لكن العملية الجراحية التي أجراها له أظهرت بأن المرض قد اجتاح الجانب الأيمن من دماغه، فتوفي قبل أن يستعيد وعيه وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

كتب وولف وهو على فراش الموت وقبل سقوطه في السبات رسالة إلى بيركنز اعترف فيها بفضل بيركنز على تحقيق عمله وجعل أعماله محتملة النجاح: «سأفكر فيك دائماً. أتذكَّر حين قابلتني في المركب، وذهبنا لنجلس في مقهى، وتناولنا شراباً، وبعد ذلك صعدنا إلى أعلى البناء الشاهق، وكانت المدينة وغرابة الحياة ومجدها وقوتها في الأسفل».

دفن وولف في مقبرة ريفرسايد. أشفيل، شمال كارولينا، إلى جانب والديه وأفراد أسرته.

بعد موت وولف كتبت صحيفة نيويورك تايمز: «كان وولف واحداً من أكثر الأصوات جرأة في الأدب الأمريكي المعاصر. كان صوتاً نابضاً بالحياة، ومن الصعب التصديق بأن من الممكن أن يخمد على نحو مفاجئ. كانت سمة العبقرية بادية عليه، ولو أنها عبقرية غير منضبطة وغير متوقعة... كان في داخله قدرة غير مستهلكة، وقوة لا تكل، وجوع لا يشبع للحياة وللتعبير الذي ربما رفعه إلى القمم ومن ثمَّ هدمه».

رأى وولف أقل من نصف عمله منشوراً إبان حياته. كان أول كاتب أمريكي يترك بعد وفاته روايتين كاملتين غير منشورتين بين يدي الناشر: «الشبكة والصخرة» و«لا تستطيع العودة إلى البيت ثانية»، حررهما إدوارد أزويل. كانت الروايتان من أطول الروايات التي سبق وكُتبت، فقد بلغ عدد صفحات كل واحدة (٧٠٠) صفحة تقريباً. في هاتين الروايتين غيَّر وولف اسمه في سيرته الذاتية من يوجين غانت إلى جورج ويبر.

وقد أعاد الكاتب ف. سكوت فيتزجيرالد، تلميذ ماثيو بروكولي[1]، بناء رواية (O Lost) «تطلع نحو الدار أيها الملاك» ونُشرت في عام (٢٠٠٠م) في الذكرى المئوية لولادة وولف.

قال بروكولي: إنه في حين كان بيركنز محرراً موهوباً، أتت رواية «تطلع نحو الدار أيها الملاك» أدنى منزلة من العمل الكامل (O Lost) وإن نشر الرواية الكاملة «يمثل لا شيء أقل من عودة رائعة إلى المعيار الأدبي».

حين نُشرت رواية «تطلع نحو الدار أيها الملاك» تجاوب معها معظم نقاد الأدب على نحو مرضٍ من ضمنهم جون شامبرلان، كارل فون دورن، سترينغفيلو بار. وكتبت مارغريت والاس في نيويورك تايمز «إن وولف قدَّم كتاباً مهماً وقوياً لم يُكتب مثله من داخل الظروف الكئيبة لحياة الريف الأمريكي». ونشرت مجلة سكرايبنر دراسة نقدية لكاتب مجهول شبَّه فيها وولف بـ وولت وتيمان. كما أن كثيراً من النقاد والدارسين وجدوا تشابهات في أعمالهما. وقال عنه

سينكلر لويس «ربما كان لديه الفرصة ليصبح أعظم كاتب أمريكي .... في الواقع لا أرى سبباً لئلا يكون واحداً من أعظم كتاب العالم».

وحين نُشرت روايته الثانية «الوقت والنهر» ظل معظم النقاد والجمهور مساندين. وعلى الرغم من أن بعض النقاد وجدوا مواطن ضعف فيها إلا أنهم رحبوا بها لما تضمنته من مظاهر العظمة. وقد استقبل الجمهور الكتاب استقبالاً حسناً وغدا الأكثر رواجاً بين كتبه.

كان وولف موهوباً بالقدرة على تذكر كل شيء. وتتسم أعماله بالشعور الحاد بالمشهد والمكان إضافة إلى القدرة الغنائية الاستثنائية. إن القدرة على استثارة الذكريات العاطفية والسرد الأدبي اجتمعا في أعماله، وهو يتناوب دائماً بين تذكر الأحداث الدراماتيكية المؤثرة والمقاطع المشحونة بالبلاغة العالية. وقد امتد تأثيره إلى عدد من الكتاب من ضمنهم جاك كيرواك، راي براد بيري، فيليب روث. وظل كاتباً مهماً في الأدب الأمريكي بصفته واحداً من أساتذة الرواية المتعلقة بالسيرة الذاتية.

تمتع وولف ببنية قوية وشعر أسود كثيف وعينين ذكيتين. كانت شهيته للطعام والجنس والكحول قوية جداً. كان يحتسي كثيراً من الكحول حين لا يجري قلمه على نحو جيد. وعادة كان يكتب طوال أربعة أيام من دون توقف مستعيناً بالقهوة والفاصولياء المعلبة والسجائر. إن جمال الطلعة والفحولة والشهرة جعلت وولف محط إعجاب كثير من النساء. بعضهن كن يبحثن عن لفت الأنظار، وبعضهن كن محبات للأدب، وبعضهن أردن الاعتناء به. قالت إحداهن: «كان لا يحتمل، وكان رائعاً، يتحدث مثل ملاك، وكان ابن عاهرة حقيقي». وكتبت إليزابيث نوويل «أحبَّ النساء، وكان شهوانياً إلى حد ما».

كان وولف يتوق إلى الحياة العائلية، وكان يبحث دائماً عن فتاة لطيفة يمكنه الزواج بها. كتب يقول: «أؤمن بالحب وقدرته على إنقاذ أنفسنا. أؤمن بحبيب، بمخلِّص ومنقذ. أستطيع الحصول على كثير من النساء، ولكن من الصعب بالنسبة إلي إيجاد امرأة تستطيع قراءة كتابتي وطباعتها على الآلة الكاتبة». لم يخطط وولف للزواج حتى بلوغه الخامسة والثلاثين «بعد امتلاك مئات من النساء حول العالم». وفي النهاية ظل من دون زواج. كانت أفكاره الأخيرة تدور حول ألين بيرنشتاين حبه الأعظم. وقبل موته همس «أين ألين؟ أريد ألين».

الهوامش

(١)- ماثيو بروكولي، بروفيسور اللغة الإنكليزية في جامعة جنوب كارولينا، كتب حول هيمنغواي وتوماس وولف وجون أوهارا.

المراجع

(1)- Encyclopedia Britanica.

(2)- Encyclopedia Wikipedia.

(3)- The Intimate Sex Lives of Famous People.

في ذكرى صديق سورية نصر الدين محمدييف

الشخصية الاجتماعية الأوزبكية البارزة

أ.د. محمد البخاري



نظمت لجنة العلاقات بين القوميات وصلات الصداقة مع الدول الأجنبية التابعة لديوان الوزراء بجمهورية أوزبكستان بالتعاون مع اتحاد الكتاب في أوزبكستان أمسية كرست لذكرى الشاعر الأوزبكي، والصحفي، والمترجم، الحائز على وسام «مهنت شهرتي» نصر الدين محمدييف، ضمت أقرباءه وأصدقاءه، ورؤساء المنظمات الحكومية والاجتماعية، وجمهور غفير من المثقفين والشباب، اقتسم خلالها المشاركون انطباعاتهم وذكرياتهم عن حياته وإبداعاته.

وتعود بي ذكريات الصداقة التي ربطت بيننا إلى أوّل لقاء جرى بيننا عندما كنت طالباً بكلية الصحافة بجامعة طشقند الحكومية، في بداية ثمانينيات القرن الماضي إذ أبدى خلالها إعجابه بسورية وثقافتها وتاريخها وخطها السياسي وشعبها وقيادتها، وساعدني حينها أكثر من مرة على نشر بعض المقالات عن سورية، واستمرت صداقتنا حتى وفاته في تموز عام (٢٠١٧م) (رحمه الله وأسكنه فسيح جناته) عن عمر ناهز الـ(٧٠) عاماً قضى منها أكثر من عقد مديراً للمركز الثقافي الأممي بجمهورية أوزبكستان. وبعد ثلاثة أشهر فقط من

ضـم المركز إلى لجنة العلاقات بيـن القوميات وصلات الصداقة مع الدول الأجنبية التابعة لديوان الوزراء بجمهورية أوزبكستان التي أحدثت في أيار من العام نفسه.

وبوفاتـه توقف مشروع بدأنـاه معاً في مطلع العقد الثاني من القـرن الحادي والعشرين لإصـدار سلسلة من الدراسات عن الجاليات الأوزبكية مـن مواطني الدول العربية. السلسلة التي بدأناها فعلاً بإصدار دراسة عن الجالية الأوزبكية في الجمهورية العربية السورية باللغة الروسية، بالإشترك مع الباحث السوري عماد الأرمشي.

ومقدمـة الكتاب كتبها نصر الدين محمدييف، وأشـار فيها إلى أن: الأوزبك من الشعوب التركية القديمـة، التي تعيش أساساً في ما وراء النهر بحوض نهري آمو، وسيرداريا. وهاجر قسم منهم إلى الدول المجاورة عبر القرون بسبب الحروب المحلية وغزو الجيوش الأجنبية. كما نتج عن احتلال روسيا القيصرية لوسط آسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإقامـة السلطة السوفييتية عام (١٩١٧م) موجة هجرة كبيرة، عندما هرب آلاف الأوزبك من الظلم والتعسف، ووجدوا ملاذاً لهم في الخارج. واليوم يمكن الالتقاء بالأوزبك في أفغانستان، وإيـران، وتركيا، وباكستان، والهنـد، وفي كثير من الدول العربية. وبعـد حصول أوزبكستان على استقلالها فتحت إمكانات واسعة للسفر إلى الدول الأجنبية للدراسة والعمل. وبقي بعض المواطنيـن هناك للعيش والعمل. ولهذا توجد جاليات أوزبكية اليـوم في روسيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والدول الأوروبية.

ويرتبـط تاريـخ الأوزبك في الدول العربيـة ارتباطاً وثيقاً بالحج إلـى المدن الإسلامية المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة. إذ على كل مسلم أن يؤدي الحج ولو مرة واحدة في حياتـه، وهذا يعني زيارة هاتين المدينتين. وفي القـرون السابقة توجهت القوافل إلى الحج علـى الأقدام أو على الجيـاد والحمير. واستغرقت هذه الرحلة المثيـرة عدة أشهر وبعدها لـم تكن لدى كثيريـن منهم القوة لمتابعة الطريق والعـودة. وبعضهم فضل الحياة في هاتين المدينتين بسلام وهدوء هرباً من الحروب المحلية في موطنهم.

وورد في المعلومات الرسمية أنه يعيش في الوقت الراهن بالمملكة العربية السعودية نحو مليـون أوزبكيٍّ، وفي سورية ١٠ آلاف أوزبكيٍّ، وفي الأردن ١٠ آلاف أوزبكيٍّ. ويمكن مصادفة المنحدريـن من أصول أوزبكية فـي مصر، والجزائر، وفلسطين، وفي كثير من الدول العربية الأخـرى. وبينهم علماء مشهورين، ورجال أعمال، وغيرها مـن التخصصات. وفي كل مكان

عاش فيه الأوزبك كانوا مواطنين ملتزمين بالقوانين وقدموا إسهاماتهم في تطوير البلاد التي اختاروها للعيش فيها.

وإذا تحدثنا عن سورية لا يمكن ألّا نذكر أنه في زمن الخلافة العربية الإسلامية الأموية كانت دمشق (شام)، والتي حملت لقب «شام شريف»، من المراكز الدينية والعلمية. حيث درس وعمل فيها علماء مشهورون ورجال دين من ما وراء النهر، أي وسط آسيا. وعلى أراضي مصر وسورية حكمت الأسر الطولونية (٨٦٨-٩٠٤م)، والإخشيدية (٩٣٥-٩٦٩م)، المنحدرة من أتراك بخارى وفرغانة، وتركوا آثاراً عميقة في تاريخ هاتين الدولتين.

وخلال القرون اللاحقة استمرت الصلات الثقافية والاقتصادية بين وسط آسيا وسورية. وقسم من الأوزبك في هذه الدولة كانوا حجّاجاً استقروا على الأراضي السورية في أثناء عودتهم من المدن المقدسة. ووصلت الموجة الأخيرة من المهاجرين الأوزبك إلى سورية خلال عشرينيات القرن الماضي. وهم من الحرفيين والهاربين الآخرين من تعسف السلطات السوفييتية. وأحد مؤلفي هذا الكتاب محمد البخاري هو من أبناء ضابط كبير في قصر أمير بخارى عالم خان، والذي وجد ملاذاً في سورية بعد احتلال الجيش الأحمر لبخارى. وفي نهاية سبعينيات القرن الماضي ربط محمد البخاري مصيره بوطنه التاريخي ويعيش حتى الآن نحو ٤٠ عاماً في طشقند. وهو دكتور في العلوم السياسية، بروفيسور.

ويتحدث هذا الكتاب عن أبناء الجالية الأوزبكية المشهورين في سورية، وعن الآثار المعمارية، والتاريخية للأوزبك في هذا البلد. ومن دون شك سيحظى بنطاق واسع من القراء، ومن كل المهتمين بتاريخ الشعب الأوزبكي.

نصر الدين محمدييف

تشير المراجع المنشورة إلى أن الشخصية الاجتماعية والصحفي والشاعر الأوزبكي نصر الدين محمدييف (Nasriddin Muxammadiev) (اسمه المستعار ناصر محمد – Nosir Muhammad)، ولد بتاريخ ٢ كانون أول عام (١٩٤٦م) بقرية ياككاباغ في محافظة قشقاداريا.

وتخرج في كلية الآداب بجامعة طشقند الحكومية في عام (١٩٦٨م). وفي العام نفسه بدأ نشاطاته العملية وعين محرراً مبتدئاً للمواد الأدبية في إدارة تحرير صحيفة «طشقند أقشامي»، وتدرج فيها حتى تولى رئاسة القسم. وخلال المدّة ما بين عامي (١٩٧٦-١٩٧٩م) عمل مترجماً للغة الفارسية في البعثة السوفييتية بإيران. أمّا المدّة ما بين عامي (١٩٨٣

-١٩٩٣م) شغل منصب السكرتير المسؤول في المجلة الشبابية «يوشليك». والمدّة ما بين عامي (١٩٩٣- ١٩٩٤م) أدار قسم الأخبار الدولية بوكالة أنباء أوزبكستان «UzA». ومن عام (١٩٩٤م) وحتى عام (١٩٩٦م) شغل منصب السكرتير الأول للخدمة الصحفية بوزارة الخارجية الأوزبكستانية. ومن عام (١٩٩٦م) وحتى عام (١٩٩٩م) عين سكرتيراً أولاً بسفارة أوزبكستان في تركيا. ومن عام (١٩٩٩م) وحتى عام (٢٠٠٥م) عين مستشاراً رئيسياً في الخدمة الصحفية بمكتب رئيس جمهورية أوزبكستان. وفي تشرين الأول عام (٢٠٠٥م) أصبح مديراً للمركز الثقافي الأممي في جمهورية أوزبكستان وتولى إدارته حتى وفاته في تموز (٢٠١٧م).

وخلال الأعوام (١٩٨٠-١٩٩٦م) كان معلّقاً رسمياً للعلاقات الدولية الأوزبكستانية. وفي عام (١٩٧٢م) أصبح عضواً في اتحاد الصحفيين بجمهورية أوزبكستان. وفي عام (١٩٨٩م) أصبح عضواً في اتّحاد الكتاب بجمهورية أوزبكستان.

والمناصب المسؤولة التي تولاها نصر الدين محمدييف لم تُعِق مسيرته الإبداعية وألف نحو ٢٠ كتاباً. وكتب كثيراً من القصائد الشعرية باللغتين الروسية والأوزبكية، نشرها في المجلة الأدبية «إستوكي (المصادر)» الصادرة في موسكو (خلال أعوام ١٩٧٧ -١٩٨٠)، و«فدخنوفينيه (الإلهام)» عام (١٩٧٩م)، و«بائيزيا (الشعر)» عام (١٩٨٢م)، وفي الإصدارات الطشقندية «بريزنانيه (الإعتراف)» عام (٢٠٠٧م)، و«رودينا لوبفي (وطن الحب)» عام (٢٠٠٩م)، كما ونشرت إبداعاته بشكل دوري في المجلات والصحف الصادرة في أوزبكستان.

وتقديراً لجهوده منح نصر الدين محمدييف عام (٢٠٠٨م) لقب الجدارة في الثقافة بجمهورية أوزبكستان. وعلى شرف الذكرى الـ(٢٠) لتأسيس المركز الثقافي الأممي بجمهورية أوزبكستان الذي تولّى مسؤوليته لأكثر من عقد من الزمن قلد شارتي الشرف «روسوترودنيتشستفا»، و«لقاء الصداقة والتعاون» الروسية. كما ومنحته وزارة الثقافة بجمهورية بولونيا شارة التميز «لقاء خدماته للثقافة البولونية».

وستبقى ذكراه خالدة في أفئدة أصدقائه ومحبي إبداعاته وأعماله النبيلة.

المركز الثقافي الأممي في جمهورية أوزبكستان

يعيش في أوزبكستان اليوم مواطنون أوزبكستانيون ينتمون لأكثر من (١٣٠) قومية وشعب، وحرصاً من الجهات المسؤولة على رعاية المصالح القومية والثقافية لمواطني الجمهورية جرى قبل (١٥) عاماً تأسيس المركز الثقافي الأممي في أوزبكستان، الذي أداره حتى وفاته

الشاعـر والشخصية الاجتماعية البارزة نصر الدين محمدييف؛ ويشرف على عمله مستشار دولة لرئيس جمهورية أوزبكستان.

ويضـم المركز الثقافي الأممي في صفوفه أكثر من (١٤٠) مركزاً ثقافياً قومياً تضم في نشاطاتها أبناء الأقليات من مواطني جمهورية أوزبكستان، ومنها (١٣) رابطة للمراكز الثقافية القومية على مستوى الجمهورية، وهي:

- الرابطة الكورية (ويشكل الكوريون ٩٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايات: طشقنـد، وخوارزم، وأنديجان، ونمنغـان، وبخارى، وسورخانداريـا، وقشقاداريا، وسمرقند، وسرداريا، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطة الروسية (ويشكل الروس ٣,٨٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في جميع الولايات).

- الرابطـة القازاقية (ويشكل القـازاق ١,٤٪ من عدد سـكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايـات: طشقند، وخوارزم، وجيزاخ، ونوائي، وسمرقند، وسيرداريا، وبخارى، وسورخانداريا، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطـة التترية (ويشكل التتار ٣,٣٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايات: طشقنـد، وخوارزم، وأنديجان، ونمنغان، وفرغانـة، وبخارى وسورخانداريا، وجيزاخ، ونوائي، وسمرقند، وسرداريا، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطـة القرغيزيـة (ويشكل القرغيـز ٩,٠٪ من عدد سكان أوزبكستـان، ويعيشون في ولايات: طشقند، ونمنغان، وفرغانة، وجيزاخ، وسمرقند، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطة الأوكرانية (ويشكل الأوكرانيون ٨,٠٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايـات: طشقند، ونمنغان، وبخارى، وسورخانداريـا، وجيزاخ، ونوائي، وسمرقند، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطـة التركمانية (ويشكل التركمان ٦,٠٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في: وبخارى، وسورخانداريا، وجمهورية قره قلباقستان، وغيرها).

- الرابطة اليهودية (ويشكل اليهود ٥,٠٪ من عدد سكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايات: طشقند، وبخارى، وسمرقند، وغيرها).

- الرابطـة التركيـة (ويشكل الأتـراك ٥,٠٪ من عدد سكان أوزبكستـان، ويعيشون في: طشقند، وسمرقند، وجيزاخ، ونمنغان، وغيرها).

– الرابطـة الأرمينيـة (ويشكل الأرمـن ٣, ٠٪ من عدد سكان أوزبكستـان، ويعيشون في ولايات: طشقند، وجيزاخ وغيرها).

والرابطة الأذربيجانية (ويشكل الأذربيجان ٢, ٠٪ من عدد سكان أوزبكستان ويعيشون في ولايات: طشقند، وبخارى، ونوائي، وغيرها)؛

– الرابطـة الويغورية (ويشكل الويغـور ٢, ٠٪ من عدد سـكان أوزبكستان، ويعيشون في ولايات: طشقند، وأنديجان، وسمرقند، وغيرها).

– الرابطـة الألمانيـة (ويشكل الألمـان ١, ٠٪ من عدد سكان أوزبكستـان، ويعيشون في ولايات: طشقند، وجيزاخ، وسمرقند، وغيرها).

– الرابطة البولونية (ويعيش البولونيون في: بخارى، وغيرها).

إضافـة إلى ذلك هناك خمسة مراكز ثقافية قومية على مستوى جمهورية قره قلباقستان ذاتية الحكم ضمـن جمهورية أوزبكستان، وهي: المركز القازاقي، والمركز الروسي، والمركز التركماني، والمركز الكوري، والمركز الأوكراني.

وبقيـة المراكز هي علـى مستوى مدينة طشقنـد ومدن ومناطق الولايـات الأخرى في جمهورية أوزبكستان.

وتعمل تلك الروابط والمراكز على تعزيز الثقة المتبادلة والتضامن، والصداقة، والتفاهم القومي بين مواطني جمهورية أوزبكستان. ومن متابعة لما نشرته الصحف المحلية المركزية صادفنا تغطيات لأخبار نشاطات قامت بها المراكز الثقافية الآتية: المركز الثقافي الروسي في جمهورية أوزبكستان؛ والمركز الثقافي القومي الروسي في أنديجان؛ والمركز الثقافي القومي اليهودي في جمهورية أوزبكستان؛ والمركز الثقافي اليهودي «شالوم» بمدينة بخارى؛ والمركز الثقافـي القومي القازاقي بجمهورية قره قلباقستان؛ والمركز الثقافي القومي التركماني في أوزبكستـان؛ والمركز الثقافي القومي الطاجيكي بمدينـة طشقند؛ والمركز الثقافي القومي الطاجيكـي بولاية سورخانداريا؛ والمركز الثقافـي القومي الألماني بولاية سمرقند؛ ورابطة المراكز الثقافيـة القومية الكورية في أوزبكستان؛ والمركـز الثقافي الكوري بولاية نمنغان؛ والمركز الثقافـي الأذربيجاني «غارداشليك» بجمهورية أوزيكستان؛ والمركز الثقافي القومي البولونـي بمدينة بخارى؛ والمركـز الثقافي القومي التتري بجمهوريـة أوزبكستان؛ والمركز الثقافـي القومي البشقـردي (البشكيري) بمدينة طشقند؛ والمركـز الثقافي القومي التتري

البشقردي بولاية قشقاداريا؛ والمركز الثقافي القومي الأوكراني بجمهورية أوزبكستان؛ والمركز الثقافي القومي العربي بمدينة قارشي.

وأشارت المصادر الصحفية إلى أن نشطاء المراكز يشاركون باستقبال أبناء قومياتهم التي ينتمون إليها من الذين يعيشون في الخارج ويعرِّفونهم على المتغيرات الجارية في أوزبكستان، ويرسلون لهم: أسطوانات مدمجة مسجل عليها برامج موسيقية، وملخصات لكتب صادرة في أوزبكستان، ويتسلمون من الخارج مراجع أدبية عن التاريخ، والفنون، والثقافة، ويهدون بعضاً منها للمؤسسات التعليمية، والهيئات الاجتماعية في أوزبكستان، ويشاركون بالاحتفالات المدرسية.

ومن الأهداف الرئيسية لهذه المراكز المحافظة على الثقافة والعادات والتقاليد القومية لأبناء الأقليات من مواطني جمهورية أوزبكستان المقيمين فيها وتطويرها، وللمراكز فروع في جميع الولايات والمدن والمناطق، ومن تقاليدها إقامة نشاطات ثقافية وخيرية بالاشتراك مع المنظمات المختصة الأخرى.

وتقوم المراكز بتعليم اللغة الأوزبكية واللغات القومية الخاصة بها، وتعليم الرقصات والفنون الشعبية القومية كافة. وأشارت بعض المراجع إلى حصول كثيرين منهم على جوائز في المسابقات المحلية، كمسابقة «أوزبكستان بيت الجميع».

وتنظم المراكز دورات تدريبية على استخدام الكمبيوتر. وتساعد أبناء الأسر الفقيرة في دفع الأقساط الدراسية لتعليم أبنائها في مؤسسات التعليم العالي المحلية. ويضعون في خدمة زوارهم مكتبات تتوسع بشكل دائم.

كما وتقيم تلك المراكز تجمعات وروابط للشعراء والكتاب والفنانين التشكيليين والنحاتين والمطربين والموسيقيين. وينظمون معارض للفن التشكيلي في صالة المعارض بأكاديمية الفنون الأوزبكية، وصالات المعارض الأخرى. ويسهمون بإحياء أيام ثقافية للدول التي ينحدرون بأصولهم منها في أوزبكستان، وفي إحياء أيام للثقافة الأوزبكية في تلك الدول، ويشارك فيها فنانون من البلدين يقدمون عروضاً مشتركة في تلك الأيام. وينظمون أسابيع للأفلام السينمائية المنتجة في البلدان التي ينحدرون بأصولهم منها.

وأشار رئيس أكاديمية العلوم الأوزبكية ش. صاليحوف في أثناء افتتاحه لأعمال المؤتمر العلمي التطبيقي لمناقشة قضايا المعاصرة وآفاق الوفاق في العلاقات القومية بالمجتمع، وتطوير اللغات والثقافات القومية، وتربية الشباب بروح الوطنية والتسامح الفكري، إلى أنه يتشكل في أوزبكستان نموذج قومي للديمقراطية.

كما هيئت ظروف مثالية لتطوير الثقافات الفطرية، وعادات وتقاليد الجاليات التي تسكن أوزبكستان. كما ويجري التدريس بعدة لغات في المدارس ومؤسسات التعليم العالي، وتصدر الكتب، والصحف، والمجلات، وتبث البرامج الإذاعية والتلفزيونية بتلك اللغات.

وبمناسبة مرور (١٥) عاماً على تأسيس المركز الثقافي الأممي بجمهورية أوزبكستان أصدر رئيس جمهورية أوزبكستان إسلام كريموف بتاريخ (٢٠٠٧/١/١٩م) قراراً بتكريم عدد من نشطاء المراكز الثقافية القومية لقاء خدماتهم البارزة في تعزيز الصداقة بين القوميات، والتفاهم والسلام في أوزبكستان، وتربية أجيال الشباب على المبادئ الوطنية والإنسانية والإخلاص لفكر الاستقلال، وتطوير نشاطات المراكز الثقافية القومية.

وتبين المراجع أنه ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي وحتى اليوم يعيش في أوزبكستان أكثر من (٢٠٠) ألف مواطن أوزبكستاني من أصل كوري يسهمون في عملية الإصلاحات الكبيرة الجارية في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في البلاد. وتعمل في أوزبكستان رابطة للمراكز الثقافية الكورية، تأسست عام (١٩٩١م)، وتهتم بمسائل الحفاظ على تقاليد وعادات وثقافة ولغة الشعب الكوري. وأوّل مرة ومنذ عشرات السنين حصل الكوريون على إمكانية بعث لغتهم الأصلية، وثقافتهم القومية، وتقاليدهم وعاداتهم.

وتضم الرابطة أكثر من (٣٠) مركزاً موزعة في جميع أنحاء الجمهورية، وأعضاء جماعيين من بينهم: الجمعية العلمية والتكنولوجية «تينبو»؛ وهيئة تحرير صحيفة «كوري سينمون»؛ والفرقة الموسيقية «كوري» وغيرهم. وتقوم بنشاطات ثقافية وتربوية، وتنظم مهرجانات، ومسابقات، ومعارض. كما وتعمل رابطة المراكز الثقافية الكورية، بنشاط مع أجهزة السلطات الحكومية، ومع المركز الثقافي الأممي بالجمهورية، والاتحادات الاجتماعية، ومؤسسات التعليم العالي، وغيرها من المؤسسات والهيئات والمنظمات.

وفي عام (١٩٩٢م) أحدث مركز التعليم التابع لسفارة جمهورية كوريا لدى أوزبكستان، ويدرس فيه سنوياً نحو (٣,٥) ألف دارس، وإلى جانب الكوريين، ثلث الدارسين تقريباً من أبناء القوميات الأخرى من: أوزبك، وقازاق، وروس، وتتار، وغيرهم.

كما ويجري تعليم اللغة الكورية اليوم في أكثر من (١٣٠) مدرسة في أوزبكستان، وتعمل أقسام لتدريس اللغة الكورية والأدب الكوري في معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، وجامعة نظامي الحكومية للتربية بطشقند، ومعهد سمرقند للغات الأجنبية. ومضى

علـــى صدور العدد الأول من صحيفة «كوريو سينمــون» باللغتين الروسية والكورية بجمهورية أوزبكستان عشر سنوات.

وتضم رابطـــة المراكز الثقافية الكوريـــة في أوزبكستان جمعيـــة للتكنولوجيين، وروابط إبداعية للعاملين، والشعراء، والكتـــاب، والفنانين التشكيليين، والموسيقيين، ومراكز شبابية، ومسرحية، وفنية، ورياضية وغيرها، ومجلساً لكبار السن.

أما الجالية اليهودية فتعيش في أوزبكستان منذ أكثر من (٢٥٠٠) سنة، ويبلغ عددها اليوم نحـــو (٢٠٠) ألف مواطن أوزبكستاني، يعيشون فيها ويؤدّون دوراً نشيطاً في مختلف مجالات الحياة في البلاد.

كما ويعيش في أوزبكستان نحو (٤٥) ألف مواطن من أصل أذربيجاني، منهم أكثر من (١٦) ألفـــاً يعيشون ويعملون في العاصمة طشقند، ونحـــو (٨) آلاف منهم يعيشون في ثلاثة أحياء بمدينة طشقند وهي: تيمير يوليتشيلار، ودوستليك، وبيرادورليك. وفي منطقة ميرآباد بشارع حيدر علييف، حيث يقع المركز الثقافي الأذربيجاني «غارداشليك».

أمـــا العرب الذين تشيـــر المراجع إلى أنهـــم وصلوا إلى «ما وراء النهـــر»، حاملين معهم الديـــن الإسلامي الحنيف عـــام (٦٥١م). وكان عددهم في أوزبكستان (٢٨٠) ألف نسمة وفق الإحصائيـــات الرسمية عام (١٩٢٦م). فيعيشـــون اليوم بولاية قشقادرايا فحسب، التي تعيش فيها جاليات لأكثر من (٢٠) قومية وشعب، وتعمل في قشقادرايا مراكز ثقافية قومية: روسية، وتترية، وبشقردية، وكورية، وعربية، وتركمانية وغيرها.

والمركز الثقافي القومي العربي بمدينة قارشي في ولاية قشقاداريا، نشاطه محدود جداً بسبب تجاهل السفارات العربية المعتمدة لدى أوزبكستان لنشاطاته وعدم تقديم أي دعم لها كما تفعل سفارات الدول الأخرى المعتمدة لدى أوزبكستان.

أما المواطنون من الأصول التترية في أوزبكستان فيبلغ عددهم أكثر من (٣٥٠) ألف نسمة. وينظمون سنوياً أياماً للثقافة التترية بمشاركة فنانين من تتارستان (لفيدرالية الروسية).

كما ويعيش في بخارى أكثر من (١٥٠) ألف مواطن أوزبكستاني من أصل بولوني، ولهم كنيسة كاثوليكية في منطقة توتزور تضم صالة للعبادة، وداراً للسكن، ومركزاً ثقافياً دينياً، ومكتبة.

وهنـــاك كنيسة أرمينية واحدة في طشقند وفـــي منطقة وسط آسيا، أعيد افتتاحها في شباط عام (٢٠٠٧م)، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى أيام الأمير تيمور، وإلى عهد الدولة الصغدية من قبله.

ومـــن بين أبناء عشرات القوميات التي تعيش بولايــة سورخانداريا يعيش فيها التركمان، وقامــوا بتأسيســن المركز الثقافي القومي التركماني. وأشار رئيســن المركز إلى أن أجدادهم عاشــوا جنباً إلى جنب منذ القدم في أوزبكستان وأن هدف المركز متابعة العمل على تطوير البلاد على خطى التقاليد الأبدية القائمة منذ القدم.

وهكــذا غادر الحياة صديق سورية والشاعــر والشخصية الاجتماعية البارزة نصر الدين محمدييف حاملاً معه حلمه بزيارة سورية والذي أعرب عنه أكثر من مرة خلال لقاءاتنا وكان حريصاً في كل مرة على الاستفسار عن الأوضاع في سورية. والتأكيد على رغبته بزيارة سورية بعد صدور كتابنا المشترك، وغادر الحياة من دون تحقيقه لكثرة انشغالاته، وغادر الحياة وهو يحمل حبه واحترامه لسورية وتاريخها وشعبها وقيادتها.

المراجع

(١)- أ. محمدييف: المراكز الثقافية القومية توحد كل القوميات، طشقند «UZA» ٢٠٠٧/١/١١م. (باللغة الروسية).

(٢)- أحمد الزبيدي: عرب أضاعهم الوقت، طشقند: ملاديوج أوزبكستانا، ١٠ /٣/٢٠٠٠م. (باللغة الروسية).

(٣)- افتتـاح ممثليـة جمهورية تتارستان في طشقنـد، طشقند: «بيزنيس فيستنيـك فاستوكا، ٢٠٠٧/٥/٨م. (باللغة الروسية).

(٤)- بناء كنيسة كاثوليكية في بخارى، طشقند: ٢٠٠٦/٧/١٥م.

(٥)- تكريـم نشطاء المراكــز الثقافية القومية بمناسبة مرور ١٥ عاماً علــى تأسيس المركز الثقافي الأممي بجمهورية أوزبكستان، طشقند: ««UZA، ٢٠٠٧/١/٢٠م. (باللغة الروسية).

(٦)- جســور كينغابييــف: في المركز الثقافي الأممــي بالجمهورية جرى لقاء علمــي تطبيقي حول الطاولة المستديرة، طشقند: نارودنويه صلوفا، ٢٠٠٧/١٢/٧م. (باللغة الروسية).

(٧)- رابطــة المراكــز الثقافية الكورية في أوزبكستان، طشقند: براقــدا فاستوكا، ««UZA، ٢٠٠٦/٣/٢٧م. (باللغة الروسية).

(٨)- رحيمــوف ب.: طريق شعوب أوزبكستــان: السلام، والاستقرار، والوحدة الوطنيــة، طشقند: «نوفوستي أوزبكستانا»، ٢٠٠٧/٤/٦م. (باللغة الروسية).

(٩)- عطـا ميرزاييف و.، غينتشكـه ف.، مرتزاييفـا ر.: أوزبكستان متعددة القوميـات: النواحي التاريخية والديموغرافية، طشقند: دار أبي علي بن سينا، ١٩٩٨م. (باللغة الروسية).

(١٠)- القوة في الصداقة والوحدة، طشقند «UZA»، ٢٠٠٦/٦/١٩م. (باللغة الروسية).

(١١)- كلمة التحية التي وجهها الرئيس الأوزبكي بمناسبة مرور ٧٠ عاماً على قدوم الجالية الكورية للعيش في أوزبكستان، طشقند: الصحف المحلية، ٢٠٠٧/٩/٢٥م. (باللغة الروسية).

(١٢)- أ.د. محمـد البخاري: نحن ممتنـون لك يا أوزبكستان. في كتاب أوزبكستـان بلاد التسامح، طشقند: «أوزبكستان»، ٢٠٠٧م. ص ٢٧٤-٢٧٥. (باللغة الروسية).

(١٣)- أ.د. محمـد البخاري: الوفاق الوطني في التجربة الأوزبكستانيـة، الرياض: صحيفة الجزيرة، السبت ١٤ أبريل ٢٠٠٧م.

(١٤)- أ.د. محمـد البخاري: العرب وعلوم اللغة العربية فـي أوزبكستان، طشقند ٢٠٠٤م. (باللغة العربية لم ينشر بعد).

(١٥)- أ.د. محمـد البخـاري، أ.د. تيمور مختاروف: صور عربية مـن تاريخ العرب في ما وراء النهر. العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٢م.

(١٦)- أ.د. محمـد البخاري: عرب آسيا المركزية: آثار وملامح، دمشق: مجلة «المعرفة»، العدد ٤٤٥، تشرين أول ٢٠٠٠م.

(١٧)- أ.د. محمـد البخاري، د. زاهيد الله إنعام خواجة: أوزبكستـان والعرب: آفاق التعاون، القاهرة: مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٨ نيسان ١٩٩٧م.

(١٨)- مـراد جان أمينوف: جمهورية أوزبكستان، موسوعة (طشقند: قاموسلار باش محررياتي، ١٩٩٧م). ص ٦٠٤ وما بعد. (باللغة الأوزبكية).

(١٩)- موبيل ماميدوف: هذا وطننا المشترك، طشقند: برافدا فاستوكا، ٢٠٠٧/١٢/١م. (باللغة الروسية).

(٢٠)- نازاكات عثمانوفا: مهرجان للصداقة جرى في المركز الثقافي الأممي بأوزبكستان، طشقند: وكالة أنباء «UZA» ٢٠٠٧/٢/٩م. (باللغة الروسية).

(٢١)- نظـاكات عثمانوفـا: الجالية من أصل كوري تحتفـل بذكرى مرور ٧٠ عاماً علـى قدومها للعيش في أوزبكستان، طشقند «UZA» ٢٠٠٧/٩/٢م. (باللغة الروسية).

(٢٢)- نازيرا شابانوفا: شالوم لقاء مع المواطنين، طشقند: «برافدا فاستوكا»، ٢٠٠٧/٩/١٢م. (باللغة الروسية).

(٢٣)- يوم الثقافة التترية، طشقند: «نارودنويه صلوفا»، ٢٠٠٧/١/١م. (باللغة الروسية).

لا فونتين و«الخرافات ذات المغزى»

ترجمة: فريد اسمندر



ولد «جان دو لا فونتين» عام (١٦٢١م) في «شاتو - تيري» في وسط فرنسا لأسرة تتمتع بمكانة مرموقة وتوفي في عام (١٦٩٥م). استلم عدداً من المراكز الحكومية لكنها لم توفّر له المال الكافي فتخلّى عنها. في مرحلة شبابه قرأ أعمالاً لكتّاب أمثال «فرانسوا رابليه» (١٤٩٣-١٥٥٣م) و«فرانسوا دو ماليرب» (١٥٥٥- ١٦٢٨م).

رحل «لا فونتين» إلى باريس لدراسة الطب واللاهوت إلا أن دوّامات الحياة الاجتماعية جرفته. أمضى معظم أوقاته في الحلقات الأدبية مع «موليير» (١٦٢٢- ١٦٧٣م) وآخرين.

عندما كان فتىً صغيراً قاده السأم السائد في المجتمع إلى حالة من الاعتزال لم يخرجه منها سوى وَلَعه بالاستقلالية.

مع بلوغه الثانية والعشرين من عمره سمع عن طريق المصادفة أصواتاً قليلة من قيثارة «ماليرب» مما أيقظ عروس الشعر التي كانت هاجعة في داخله، وسرعان ما بدأ رحلة التعرف

والاطلاع على أعمال: «فيرجيل، وهوراس، وتيرينس، ورابليه، وتاسو، وأريسطو» و«بوكاتشو» وصار محط حظوة لدى جميع الأدباء البارزين في عصره.

كان «لا فونتين» يعدّ متشرداً حالماً ومحباً للمتعة، ولم يهتم بالأمور الدينية إلا في مرحلة متأخرة من حياته إذْ كانت الطقوس الدينية تُشعره بالملل.

احتلّت «الخرافات ذات المغزى» التي كتبها مكانة بين روائع الأدب العالمي، وهي موسومة بحبه للحياة الريفية وإيمانه بمذهب المتعة الأخلاقية، وقد ترجمت تلك «الخرافات» على نطاق واسع وقُلِّدَت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في جميع أنحاء أوروبا وما بعدها، وبسبب طبيعتها العالمية جاءت قصائد «لا فونتين» عن النمل الكادح والأسود الشجاعة والجنادب اللاهية.

كان «لا فونتين» ينظر إلى الحياة والمجتمع على نحو ساخر، وعن طريق استخدامه لرموز الحيوانات والحوار الذكي تناول كثيراً من الأنماط الاجتماعية المختلفة، وقد كتب: «أنا أقارن أحياناً بالصورة المزدوجة، الرذيلة والفضيلة/ الحماقة والحسّ السليم/ الحملان والذئاب/ الذباب والنمل وأجعل من ذلك كوميديا فسيحة الأرجاء تضم عدداً كبيراً من الفصول المختلفة ومسرحها هو الكون».

مع ذلك لم تكن «خرافات لا فونتين» تهدف إلى إعطاء الدروس والعبر الأخلاقية فحسب، بل أيضاً إلى إظهار متعة عملية القص والبراعة في تنوع الأسلوب، وقد أعطته نماذج الحيوانات التي استخدمها ما يكفي من الحرية للتميز والابتعاد عن معاصريه.

ما إنْ ظهرت «خرافات لا فونتين» حتى عدد من الرسامين من بلدان مختلفة بما فيهم: «غوستاف دوريه، ومارك شاغال، وسلفادور دالي».

من بين أعمال «لا فونتين» الرئيسية الأخرى «الحكايات والأخبار الشعرية» (١٦٦٤م)، وهي مجموعة من الحكايات المستقاة من مصادر إيطالية ومن حكايات «بوكاتشيو، ورابليه» وآخرين من أساتذة العصور الوسطى وعصر النهضة، لكنها غالباً ما هدّدت «لا فونتين» بوقوعه في مشاكل مع الكنيسة بسبب محتوياتها الجريئة إذ تناولت مسألة الجنح الزوجية والعلاقات الغرامية، وهي بالأساس قصص لم تُكتب للقراء الذين يحمرّون خجلاً بسهولة.

حيوان على القمر

في حين يخبرنا أحد الفلاسفة أن البشر معرضون لخداع أحاسيسهم باستمرار، يقسم فيلسوف آخـر بأن الأحاسيس لا تخدع أبداً. كلاهما على صـواب فالفلسفة تجزم عن يقين بأن الأحاسيس سـوف تخدع طالمـا البشر قانعون بموثوقية الدليـل الذي تأتي به الأحاسيس. لكـن إذا ما قِيس هـذا الدليل ووضع تحت الاختبار حسب المصادر العلميـة المتاحة فإن الأحاسيس لن تخدع على الإطلاق.

في إنكلترا، منذ زمن ليس ببعيد، عندما نُصب تلسكوب ضخم لمراقبة القمر، أُصيب المراقـب بالذهول وهو يرى ما بدا لـه حيواناً جديداً على هـذا الكوكب الجميل. شعر الجميـع بالإثارة لهـذا الظهور العجيب. شيء ما قد حدث هناك في الأعلى وهو بلا شك يدل على تغيرات كبيرة من نوع ما. مَنْ يستطيع القول إنَّ كل الحروب المروعة التي كانت تهز أوروبا بعنف آنذاك لم يكن سببها ذلك الظهور؟ ترأس الملك مجموعة العلماء ومضوا إلـى المرصـد لرؤية المشهد الغريـب، وهذا ما فعله الملك بنفسـه. الوحش هناك بكل تأكيد. لكن ماذا كانت حقيقة الأمر؟ لا شيء سوى أن فأرة صغيرة مسكينة انحشرت بمحض مصادفـة سيئة بين عدسات التلسكوب. هنا يكمـن السبب في كل الحروب المدمرة! بدا الجميع بالضحك.

الذئب والثعلب في البئر

لمـاذا أعطى «إيسوب»[1] للثعلب ميزة التفوق في كل الخدع الماكرة؟ بحثتُ عن سبب إنما لـم أجد واحداً. عندما يحتاج الذئب إلى حماية حياتـه أو إلى القضاء على حياة أخرى، ألا يُظهر قدراً من الذكاء يماثل ما للثعلب؟ على الرغم من ذلك ها هنا حالة تبين أن كل الشهرة تصبّ، بلا شك، لصالح ساكن الجحور.

ذات مساء صادف أن ثعلباً جائعاً كجوع كلب رأى الانعكاس الدائري للقمر في بئر واعتقده قطعـة رائعـة من الجبنة. كان للبئر دلـوان يستخدمان لسحب الماء بالتنـاوب، ومن ثمَّ قفز الثعلب في الدلو العلوي وتسبّب وزنه في نزوله إلى البئر إذ اكتشف على الفور خطأه بخصوص قرص الجبنـة. انتابه قلق شديد وتخيل بأن نهايته تقتـرب إذْ إنّه لم يرَ وسيلة للصعود ثانية سوى بوصول جائع آخر أغراه انعكاس القمر فينزل بالطريقة عينها التي قام هو بها. انقضى يومـان من دون أن يأتي أحد إلى البئر، وخلال هـذه المدّة كان الزمن الذي يسير إلى الأمام

دوماً قد محى قليلاً من محيط الكوكب الفضي مما أحال الثعلب إلى حال من اليأس. أخيراً جـاء ذئب أضناه الظمـأ واقترب من حافة البئر فناداه الثعلب مـن الأسفل: «يا رفيق، يوجد هنـا لقمة سائغة لأجلك! ألا ترى هذه؟ إنها جبنة لذيـذة صنعها «فونس»[٢] من حليب البقرة «آيـو»[٣]. لو كان «جوبيتر»[٣] مريضاً وفقد شهيته فسوف تعاوده الشهية إذا ما تذوق طعم هذه الجبنـة. لم آكل منها سوى هـذا الجزء، أما الباقي فسيكون كافياً لك. انزل في الدلو هناك. لقد وضعته خصيصاً من أجلك».

ما إن أنهى الثعلب هذا الهراء بذكاء حتى دفعت الذئبَ حماقتُه إلى تصديق ما سمعه، نزل في الدلو بثقله الكبير مما أوصله إلى الأسفل ورفع الثعلب إلى الأعلى.

الغابة والحطّاب

انكسرت مسكة فأسٍ أحد الحطابين وعلم أنه ليس من السهل إصلاحها بسرعة بعد أن باتت عديمة النفع، ومن ثمَّ استمتعت الغابة مدّة راحة من حدوث المزيد من الضرر لأشجارها.

أخيـراً جاء الرجل وطلب من الغابة بكل تواضع السماح له بأخذ غصن واحد ليصنع منه مقبضاً جديداً لفأسه، ووعد بأنه سيذهب إلى مكان آخر كي يزاول مهنته ويحصل على رزقه، وهـذا بحد ذاته سيبعد التهديد عـن كثيرٍ من أشجار السنديان والتنـوب التي اكتسبت الآن احتراماً عالمياً بسبب عمرها وجمالها.

قبلـت الغابة البريئة وزوّدت الحطاب بمسكة جديدة لفأسه. وما إنْ انتهى من تثبيتها على النصـل حتى سارع إلى مهاجمة الأشجار، وبدأ يسلـب الغابة المحسنة إليه من معظم زينتها المدلّلة. لم تكن هناك نهاية لندبها ونواحها: لقد سببت هديتها الأسى لها.

تـرون هنا أسلوب العالم ومن يتبعه. إنهم يستخدمون الإحسان ضد المحسنين، وقد مللت الحديث عن ذلك. من يستطيع أن يكتم أنَّ الأماكن الجميلة والظليلة تعاني من اعتداء وحشي كهـذا. للأسف؟! لا طائل من الصراخ والاحتجاج مخافة أن يعدَّ ذلك مصدر إزعاج. مع ذلك سيبقى نكران الجميل والجحود وسوء الاستخدام هو الأسلوب الشائع.

البغلان

ترافق بغلان معاً في رحلة وعلى ظهر كل منهما حمل ثقيل. كان أحدهما يحمل كمية كبيرة من الشوفان، والآخر ينقل طرداً كبيراً من النقود الفضية التي جُمعت من الناس كضريبة على

مادة الملح، وهي ضريبة، كما علمنا، تجلب كثيراً من المال للحكومة، لكنها أثقلت كاهل الناس الذين ثاروا ضدها مرات كثيرة.

كان البغل حامل النقود الفضية فخوراً جداً بما يحمله، ولم يكن يرغب في التحرر منه لو استطـاع ذلك، ومع تقدمه في السير كان يحرص على جعل الأجراس المعلقة على عدته ترن بشكل جيد دلالة على أنه بغل يتمتع بقدر كبير من الأهمية.

فجـأة اندفعت جماعة من اللصوص على الطريق وقفزوا نحو البغل حامل الكنز. أمسكوا بلجامه وأوقفوه. جاهد الكائن البائس في الدفاع عن نفسه. تنهّد وصاح: «أهذا إذن هو القدر المخبأ لي أن أسقط وأهلك في حين رفيق سفري ينجو من الخطر؟!».

هتف البغل حامل الشوفان الذي لم يتعرَّض اللصوص له: «ليس من المفيد دائماً أن يكون أمامنـا عمل ذو قيمة عالية نؤديه. لو كنت مثلي، مجـرد عبد لطحّان لما وجدت نفسك في وضع سيِّىء كهذا الآن!».

الفيل وقرد «جوبيتر»

في الأزمان الغابرة حدث ذات مرة جدال بين الفيل ووحيد القرن حول أيهما الأكثر أهمية ومـن منهمـا يجب أن يكون الإمبراطور على الحيوانات الأخـرى، وقد قرّرا أن يحسما الأمر بمعركة بينهما تجري في حقل مطوّق.

عندمـا تحدّد اليوم الموعود واتُخذت جميع الاستعدادات جاء أحد ما وأخبرهما بأن قرد «جوبيتر» قد شوهد في الهواء وهو يحمل صولجاناً، وحقيقة وجود الصولجان تعني أن القرد يمثـل رسولاً رسمياً من جبل «أوليميوس»، مسكن الآلهة، ومن ثمّ سلّم الفيل جدلاً وعلى الفور بأن القرد جاء كسفير محمّلاً بالتحيات لسعادته.

ابتهـج الفيـل لهذه الفكرة وانتظر وصول «جيل»، وهو اسـم القرد، وقد عدّه بطيئاً بعض الشـيء في تقديـم أوراق اعتماده. أخيراً قام السيد «جيل» بإلقـاء التحية على سعادة الفيل لحظـة مرّ به، واستعد هذا الأخير لسماع الرسالة، إنمـا لم تصدر عن «جيل» أيّ كلمة. كان واضحـاً أن الآلهـة لم تكن تولي اهتماماً كبيراً لهذه القضايا كمـا اعتقد الفيل، ثم ماذا يهم أولئك الساكنين في الأماكن العليا فيما لو كان الكائن فيلاً أو ذبابة؟

شعر الفيل بضـرورة افتتاح الحديث بنفسه وقال: «سيكون ابن عمي «جوبيتر» قادراً على أن يرى من عرشه السامي قتالاً رائعاً وسيرى بلاطه بعض الرياضة المدهشة».

سأل القرد بقليل من القسوة: «أي قتال؟».

– «مــاذا! ألا تعلــم بأن وحيد القرن ينكر عليّ الصــدارة وأن جماعة الفيلة في حرب مع حيوانات وحيد القرن؟».

أجــاب السيد «جيل»: « لقد استمتعت بمعرفة هذه الأسماء. نحن في أروقتنا الفسيحة لا نهتــم كثيراً بمسائل كهذه». وهذا ما جعل الفيــل يشعر بالخجل وبالدهشة. وقال: «إذن ما سبب زيارتك لنا؟».

– «آه، لقد جئت لتوزيع سويقةَ عشبٍ بين نملتين. نحن نولي الجميعَ الاهتمام. أما بالنسبة إلى قضيتك فلم يأت ذكرها بكلمة في مجلس الآلهة. الصغير والكبير سواسية في نظرنا».

الهوامش

(١)- «إيسوب» (٦٢٠ – ٥٦٠ ق.م) كاتب يوناني وضع عدداً من الحكايات على ألسنة الحيوانات.

(٢)- «فونس»: إله الحيوانات عند الرومان.

(٣)- «آيو»: صبية أحبها «زيوس» وحوّلها إلى بقرة بيضاء حتى يجنّبها غيرة وغضب زوجته «هيرا».

(٤)- «جوبيتر»: كبير آلهة الرومان.

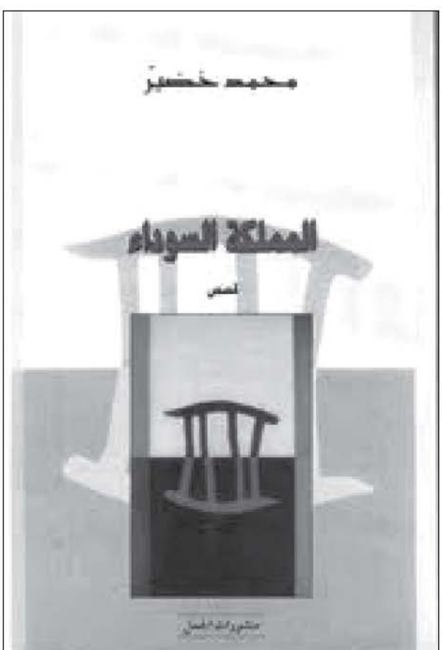
المراجع

(١)- موقع من الإنترنت.

تقاسيمُ على وتَر الموت / الحياةْ
قصة: «الأرجوحة» مقاماً[1]

أ.د. عبد الكريم حسن

قصة الأرجوحة



تدجينُ النصْ

«الأرجوحــة» ســؤالٌ عن المــوت – الحياة؛ عــن الموت كيف يكون حيــاةً، وعن الحياة كيف تكون.

«الأرجوحة» فضــاءٌ مفتوحٌ؛ أوَّلُهُ سؤالٌ غائرٌ في الضباب، وآخره سديمٌ... لا جوابٌ.

«الأرجوحة» تقول ما تقول من دون أن تقول. فلْنُقبلْ علــى «الأرجوحــة»، ولْنُصْــغِ إليها من الداخل كي نستمعَ إلى ما تقول.

«الأرجوحــة» سرديةٌ بسيطــةٌ... بسيطةٌ... نهــجٌ واقعيٌّ... وواقعيــةٌ لا تحيد عن واقعها إلا في موقعيــن اثنين تتلوَّن فيهما بلــون الواقعية السحرية.

ولقد تُغري «الأرجوحة» بمقاربتها من الداخل؛ بالدخول إليها من نهايتها؛ بالبدء من حيث انتهى التحليل.

وفي التحليل أن القصة جملةٌ... أن الجملة «مجندٌ يريد نقل خبر استشهاد رفيقه»... وأنه من دون نقل هذا الخبر لا يكون الشهيد شهيداً.

هكـذا يتحدد منهجنا في الحال. فترسيمة «بارت» فضاؤنا النقدي. حدوده فاعلٌ ومحورُ بحـثٍ وموضوعٌ ومساندون ومعارضون... وكلٌّ ذلك سنعكف على تحديده وتحليله في محاولةٍ لسبر هذه القصة واكتناه عوالمها الخفيَّة.

القصـة بسيطةٌ وعميقة. بساطتها في حدثها. وعمقُها في تسميتها. بُعدها الإنساني في مَنْ يُساق إلى جبهة الحرب ثم يموت... يموت ويحيا... ويحيا شهيداً، ولا يتصور كيف تكون حياةٌ بغير الحياة. الغموض سيِّدُ الموقف. أحياءٌ يُقتَلون، ويعرفون أو لا يعرفون لماذا يُقتَلون. أهـو الغموض الذي يحيط بالموت - الحيـاة؟ بالحياة - الشهـادة؟ أم هو الاحتجاج على الحرب - النكسة؟ على عبثيتها؟ على طحنها اليفاعةَ والبراءة؟ على طحنها فتوةً لا قرار لها فيها، ولا فرار لها من جحيمها؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تثيرها القصة، وسوف نرى كيف تثيرها.

الجميل في القصة، والعميق أيضاً، أنها تقول في ما تقول: إنَّ الشهيد حيٌّ من دون أن تقوله. ومن هنا تبدأ الإشكالية التي يواجهها الباحث في مقاربة الموضوع؛ أعني في تحديده، أو قلْ في كتابة القصة في جملة. فالفتى، وهو يسعى إلى نقل خبر استشهاد رفيقه، لا يسعى إلى نقل خبر موته، بل نقل خبر حياته، في مكانٍ ما، على نحوٍ ما. هو لا يملك أن يقول لابنة رفيقه: إنَّ أباها مات، بل هو لا يملك أن يقول شيئاً، وكلُّ ما في وسعه أن يقوله: إنَّ أباها حيٌّ بشكلٍ آخر.

الفاعل مجندٌ في إجازةٍ، والمفعول «حياةٌ» شهيدٍ أو شهادةٍ بالمعنى الذي تفيض عنه -في السيـاق الثقافي- الآية القرآنية الكريمة **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**.

المجنـد فتىً. الفتى هو «ستار» الذي يحمل حقيبةً. الحقيبـة تنطوي على حياةٍ مُتخفِّيةٍ مُتحفِّزةٍ لأن تحيا حياة الذين هم **﴿أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**.

مُتخفِّيـةٌ هي؛ هي ما تـزال في الحقيبة. مُتحفِّـزةٌ هي؛ هي تريد أن تخـرج إلى النور. ومثلها مثل «كرات نبات الخـرُّوب اليابسة»، «أثمارِ الأعذاق غير الناضجة»، «بويضاتِ أحياء الجداول»، حياةٌ متخفيةٌ متحفزةٌ، بل هي أشدُّ منها تَحَفُّزاً، وأوغلُ في التخفي والغموض.

الفتــى يسعى إلى إخراج هذه الحياة من الظلمات إلى النور؛ يسعى إلى الكشف عن «حياةٍ - شهادةٍ»... تلك هي الجملة التي تختزل «الأرجوحة»، أو ترتدُّ إليها «الأرجوحة».

القصة جميلةٌ ومؤثرة. وتبدو بسيطةً للوهلة الأولى، إلا أن الغنى الذي تحفل به لا ينكشف إلا لمَنْ يغوص في النص، يقرأ الكامن فيه والغائب عن سطحه.

فــي القصة فتىً هو «ستارُ» الذي هو ستارٌ لفتــىً آخر، وحفيدةٌ طفلةٌ هي امتدادٌ لجدتها العجوز، ووجهُهــا الآخرُ، وراحلتان؛ درَّاجةٌ وأرجوحةٌ تُقِــلان الفتى الواحدةُ تلو الأخرى لكي يصل إلى مبتغاه، ونهرٌ يفصل بين عالمين، وجادةٌ للسكون.

فإلى الجملة ومكوناتها؛ إلى الفاعل ومحور البحث؛ إلى المساندين والمعارضين، والأحوال والصفــات، وموضوع البحث، وهذا العزف المنفرد للموت - الحياة، علَّنا نُدجِّنهُ، وندخل مع الفتى إلى عوالمه. وكل ذلك في مقاربة أولى للنص على ضوء العلاماتية[٢].

❀❀❀

الفاعل

صفاته:

«فتىً»، «حليقُ الرأس»، و«كالنائم»، «لا يسمع»، و«لا يُبصر»، لكنه «يشمُّ».

«**الفتى هو الشاب أوَّلَ شبابه بين المراهقة والرجولة**». وسوف نرى أهمية هذه الصفة في تشكيل نظرة الفتى للأشياء.

أمــا أن يكــون الفتى «حليق الرأس»، فالنصــ يكشف لنا أنه «مُجَنَّدٌ» في إجــازةٍ، وأن الرأس الحليق ليس رأس المجند وحسبُ، وإنما هو رأس «عليٍّ» كما ظهر لابنته حين أغمضت عينيها بعد أن توقفت الأرجوحة ورأت «علياً» يؤرجحها في حضنه: «**لقد حلق شعره مثلك**»، قالت «حليمة».

فتىً حليق الرأس و«**كالنائم يتحرك فوق درَّاجته**». فالنائم لا يُحرِّك درَّاجته، بل هي التي تتحــرك بــه... تحمله إلى حيث يشاء لــه النوم. و«كالنائم» «كان الفتــى لا يسمع صوتاً حتى لعجلتَيّ درَّاجته وهما تدوران على غبار الجادة الناعم».

أصَــمٌّ هو الفتى في النص، وأبكم من خــارج النص، لأن الأصمَّ بالولادة أبكم. أما الشهيد «علــيٌّ» فـ «**كالأخرس لا يتكلم، لأنه كالدخان**». و«كالدخان» يظهر لحليمة «**بلا رأسٍ ولا يدين ولا رجلين ومن دون ثيابْ**».

يتحـــرك الفتى فوق درَّاجته كالنائم، وكالنائم هو لا يسمـــع، كالنائم لأن الموتى لا يحبون غيـــر النيام، فالنوم أخو الموت كما يقول «لسان العرب»، والسكون مجازٌ له، والشاب ودرَّاجته على جادة السكون(٣).

فتـــىً لا يسمـــع ولا ينطق، وفضلاً عـــن ذلك فهو لا يُبصر. فتىً غمرتـــه الشمس بضوئها وغمَّته(٤)... غلب نورُها نورَ عينيه فلا تُبصران.

أصـــمٌّ أبكم أعمى، ولكـــن الفتى يحتفظ لنفسه بحاسة الشـــمِّ(٥)، ونحتفظ له بقدرته على الجمع بين النقيضين؛ فهو، من جهةٍ، فيه ما فيه من شبهٍ بالنوم أخي الموت، وبالصمم الذي يستدعـــي بُكم الأموات، وبالعمى؛ عمـــى الموتى الذين ذهب الموتُ بنور أبصارهم، ومن جهةٍ أخرى هو يشتمُّ أو يشمُّ، هو يتنفس ويجتذب روائح ما تعرضه له الطبيعة من روائح الأزهار.

الفتـــى النائم على درَّاجتـــه أخٌ للموتى، ورفيقٌ لهم، ولكنه ليس مـــن جنسهم، بل يمكنه – خلافاً لهم – أن يتنقل بين عالمهم وعالم الأحياء. وسوف نرى – عند دراسة الأفعال- كيف أن الفتـــى الشبيه بالنائم يتنقل بين هذين العالمين؛ يترك عالم النوم – الموت إلى عالم الأحياء ثـــم يعود إليه ليتركه من جديدٍ، ويعود إليه ثانيةً، يحمله الغفو الجميل ليغوص في النهاية في إثر «عليٍّ» الذي غاص في النهر.

❀❀❀

أفعاله:

هـــو ذا الفتى على محـــور البحث. وبانقســـام المكان إلـــى مكانين تنقســـم الأفعال إلى مجموعتيـــن؛ الأولى هي ما يقوم به الفتى وهو في طريقه إلى دنيا «الأم» على جادة السكون. والثانية هي ما يقوم به في دنيا «الأم» وراء النهر الذي تنتهي إليه جادة السكون. والنهر فاصلٌ مائيٌّ بين المكانين، كما هو الأمر في الأساطير.

• في المجموعة الأولى أفعالٌ يُراوح فيها الفتى بين النوم واليقظة على جادة السكون؛ أفعالٌ تتـــوزع بدورها في مجموعاتٍ فرعيةٍ تتحدد بالعلاقة مع النوم واليقظة. والسكون أخو الموت ومجازه كما بَيَّنا، فهو ضدُّ الحركة، و«كلُّ شيءٍ مات فقد سكن» على حدِّ قول لسان العرب.

وسوف ينكشف لنا من بعدُ أن الفتى ما إن يمتطي درَّاجته حتى يتملكه ما يشبه النومَ – الموتَ، وأنه ما إن يترجَّلُ حتى يستعيده عالمُ الأحياء.

١- فتى لا يُحرك درَّاجته[٦]، لا يسمع، لا يُبصر[٧]... كلها أفعال موسومةٌ بالنفي لأن النائم شبيهٌ بالميت، كما رأينا عندما تحدثنا عن الصفات. على أن الفتى ليس ميتاً، ولا نائماً، إنه كمثل هذا، وكمثل ذاك، وهو كمثلهما لأن «الموتى لا يحبون غير النيام».

٢- الفتى يشمُّ؛ يشمُّ «روائح أزهار الدفلى...». وحاسة الشمِّ في النص تبقى الوسيط بين النوم - الموت، واليقظة - الحياة. وفي خارج النص يبقى ترداد النفس، بين شهيق وزفير، ما يفرق بين الموت والحياة. يتنفس النائم، ويشمُّ؛ يشمُّ فعلٌ يستدعي الشهيق... يستدعيه ليكون الشمُّ هو البرزخ الذي ما إن يتجاوزه الفتى حتى يجوز به إلى شاطئ اليقظة، فـ«**تخطف بصره المبهور بأشعة الشمس خلل السعف أزهارُ الرمان الحمراء المختبئة في كثافة ظلِّ الأوراق، وحركة الأجنحة الرمادية لطيور (الفاختة)، غير أن أزهار الدفلى في أغصانها المتدلية في الجدول الواطىء ترتسم في الماء بين ظلِّ السعف كنقوشٍ في ثوبٍ مخطط. وفي منطقة فيءٍ غزيرٍ كانت فروع شجرة توتٍ ضخمةٍ تجتاز الجدار حتى منتصف الجادة**». الفتى بين نومٍ ويقظةٍ، يرى ولا يرى، غلبَ ضوءُ الشمس ضوءَ بصره فغابت الأشياء عن ناظريه لا يتبين منها إلا ما يخطف بصره من لونٍ ومن حركةٍ، غير أن شجرة التوت ترتسم في الفيء جليَّةً لعينيه، وتناديه.

أتُراه الجوعُ؟ أم تُراه ثمر التوت الشهيُّ ما عاد بالفتى النائم إلى عالم الأحياء؟

٣- «**أوقف حركة الدرَّاجة، استند بقدمه إلى الجدار، أخذ يلتهم ثمار التوت السوداء، ثم ترجَّل عن درَّاجته وأسندها إلى الجدار، وقطع الجادة منحدراً ضفة الأعشاب الزاحفة، غسل أصابعه الدبقة في ماء الجدول، اغترف الماء براحتيه المكوَّرتين، وشرب، بلَّلَ رأسه الحليق، أنصت لأقدامٍ خافتةٍ...، امتطى درَّاجته**»... وكلها أفعال شخصٍ يقظٍ؛ ذاك أن الفتى ما إن يوقف درَّاجته حتى يعود إلى عالم اليقظة - الحياة. وسوف نرى أنه ما إن تتحرك الدرَّاجة به حتى يعود إلى ما يشبه النوم. ولنا إلى الدرَّاجة عودة.

٤- هوذا الفتى وقد امتطى راحلته فـ«**حلَّ في رأسه ذلك الغفو المريح**»، و«**تَشَرَّبَ بالسكون ذي الرائحة الساخنة**»، و«**بعينيه المغمضتين**» «**راقب انفصال أجزاء درَّاجته على التراب، وكانت العجلتان المعوجتان تتسلقان الجدار وتتعثران في حُفَره وثقوبه، ثم طفتا في السكون بتوازنٍ، وأصبح الفتى يتحرك على قمم النخيل**». يغرق الفتى في حلمه، ويستسلم لإغفاءةٍ... «ينهمك فيها بمراقبة الحيوات المتحفزة المتخفية في منخفضَي الأعشاب: حياةِ كرات نبات

الخرنوب اليابسة، حياةِ أثمار الأعذاق غير الناضجة، حياةِ بويضات أحياء الجداول، ثم الحياةِ الأكثر غموضاً وتَحفُّزاً في الحقيبة المعلَّقة بالمقود». و«**فجأةً حدث هجومُ الحيوات المختبئة**». فجأةً، هو الكابوس إذن، فالنوم استغرق الفتى إلى الحدِّ الذي كاد معه أن يقع من على درَّاجته في الجدول أسفل الجادة. استغرقه النوم... حلُم بأن الدرَّاجة التي تقوده تطير به؛ تحمله إلى عـلٍ ليراقب – في الحلم – اللا حياةَ التي لم تُبعث بعـدُ إلى الحياة. فجأةً، أيقظه الحلم من النوم بعد أن تحول إلى كابوسٍ، وتلك هي وظيفة الكابوس: أن يُعيد صاحبه إلى اليقظة.

وصل الفتى إلى نهاية الطريق... أيقظه الكابوس قسراً بعد أن انتهت جادة السكون، وشرع الكابوســ في فصله عن الدرَّاجة التي انتهى دورها بعد أن قادته، وإن لم يقدها، ووصلت به إلى ضفة النهر الذي يفصل بين عالمين.

٥- «**تَرَجَّـل**» الفتى، «**قاد درَّاجته، عبر الباب المثبت بين وتدين**»، «**سـار في جادةٍ ضـيقةٍ**»، «**ودخـل سـقيفةً من أشـجار الكروم**»، ثم «خرج منها إلــى شاطئ يمتد مع نهرٍ غير واسعٍ سريع المجــرى»، و«لمح» على مقربةٍ من الشاطئ «**ناراً تلتهب في تنـور**»، و«غرفتين من الطين وسقيفةً مــن القصب»، و«سحبَ درَّاجته نحو البيت»، من حيث يسحبنـــا التحليل إلى المجموعة الثانية من أفعال الفتى.

• وأهــمُّ مــا في هذه المجموعة هو ذلك الحوار الذي يدور بيــن الفتى من جهةٍ، والعجوز والطفلــة من جهةٍ أخرى، لأن فعل الحوار هو ما تنتج عنه بقية الأفعال؛ أفعال الفتى التي لن تستوقفنا كلها لأن ما يعنينا من الأمر هو أن نكشف كيف تتحول الحفيدة بفعل الحوار إلى «أمٍّ لأبيها»، وهو ما يدفعنا إلى اقتفاء تعاريج الحوار.

والحــوار يبــدأ بين الفتى والجدَّة العجوز، ليصبح حواراً مــع الطفلة، ثم يصيرُ إلى حوارٍ يسأل فيه الفتى فتجيب الجدةُ تارةً، والطفلةُ تارةً أخرى، وينتهي إلى حوارٍ مع الطفلة بعد أن تتوارى العجوز.

صيــرورة الحوار هذه هي ما يرسم تَحَوُّلَ الطفلة إلى أمٍّ لأبيها.. تلده.. تبعثه في إغماضة عينيها.

هــو إذن حــوارٌ من أربعة أجــزاءٍ، يُخفق في جزئه الأول؛ يخفق فــي أن يصل بالفتى إلى موضــوع بحثه؛ أعنــي أن «يبعث» «عليًّاً»، ويخفق في جزأيه الثانــي والثالث، وتولد من جزئه الرابع حليمةُ «أمًّا لأبيها».

الحوار في جزئه الأول

يخفــق الحوار فــي جزئه الأول إذ «يختنق» فيه صوت الفتــى؛ تنقطع الجملةُ – الرسالةُ، فيحيد الحوار عــن مساره، ويأخذ المسارَ الذي ترسمه «الأمومة»، وتبقى الحقيبة بفعل ذلك «مغلقــةً»؛ مغلقةً على مــا فيها لتظهر الحفيدة كأنها تقدِّم بظهورها للجزء الثاني من الحوار.

والحوار ما إن يحيد عن مساره حتى يتحول الفتى من «حاملٍ» لرسالةٍ إلى ضيفٍ على «سيِّدة المكان» في الضفة الأخرى حيث يتعرف على «حليمة» و«الأرجوحة».

وعبر النهر يبدأ الحوار بين الفتى و«سيِّدة المكان»:

«- **يا أمي، ألديكِ ولدٌ في الجيش؟**

- **نعم: ابني علي.**

- **علي قاسم؟**

- **نعم هو. أتعرفه؟**».

المــرأة الملفوفة بالسواد؛ سيِّدة المــكان؛ وقد ظهرت من خلف التنــور، أمُّ عليٍّ، وأربك سؤالها الفتى الذي لم يعد يعرف ما يفعل بالحقيبة.

«**مسح الفتى رأسه ونظر إلى الحقيبة المعلَّقة بمقود الدراجة:**

- **أنا قادمٌ من هناك. إنه صديقي. أنا وهو في الوحدة نفسها.**

- **كيف حاله؟ مرَّتْ مدةٌ طويلةٌ من دون أن يكتب لنا رسالة. كيف هو؟**

- **يا أمي ولدكِ قد...**».

وانقطعت الجملة؛ اختنقت الرسالةُ، وحاد الحوار عن مساره ليتخذ مساراً فرضته الأمومة ولا مكان فيه لـ«الحقيبة».

وقالت المرأة الملفوفة بالسواد:

«- **أهذه حقيبته؟**

- **هذه؟... لا، حقيبتي.**

- **لديه حقيبةٌ مثلها... كيف هو؟**

- **بخيرٍ ويبعث بسلامه إليكم ولطفلته حليمة.**

هكذا حاد الحوار عن مساره، وجاءت أجوبة الفتى كما أرادت لها الأمومة أن تكون.

- انتظر متطلعاً حوله، و...

- شاهد طفلةً (طفلةً في السادسة.. تقدمت نحو النهر).

- هـــي ذي حليمة تجيء. وفي انتظار أن تسنح الفرصة بصحبتها لتصحيح مسار الحوار، يواصل الفتى المسار بالحديث الذي أخذته إليه الأم».

(إنه يسأل عن طيوره، يقول الفتى، فتجيب الأم:

- هناك فوق في البرج على السطح. أترى الدَرَج؟

- أرى جـزءاً منـه كما أرى صـفائح التنك المطلة على الحوش. لم أتصـور أنه يملك هذا العدد الكبير من الطيور).

ويتلقى الفتى الدعوة للدخول:

- (لِمَ لا تعبر إلينا؟ القنطرة هناك. أبوه خرج لتكريب النخل ومعه زوج ابنه).

ويقبل الفتى الدعوة:

(سأترك الدرَّاجة هنا).

ويتحـــول إلى ضيـــف. يترك الضيف درَّاجته علـــى الضفة الأولى من النهـــر فهو لم يعدْ بحاجةٍ إليها لأن الأرجوحة ستحلُّ محلَّها، وأن وظيفتيهما واحدةٌ كما يتبين من بعد. وكما في «جلجامش» فإن الماء يفصل بين عالمين:

«- أسندَ الدرَّاجة إلى جذع نخلة.

- ثمَّ عبر قنطرةَ أنصافِ جذوع النخيل...

- وأثناء عبوره الحذِر شاهد طيور الحمام تخرج من صـفائح التنك المثبتة مع ضـلعي الغرفتين وفي زاوية التقائهما. كان الماء يجري تحت القنطرة في سَوْراتٍ لامعةٍ، وغيرَ التنور كانـت شـجرةٌ عاليةٌ عند الضـفة، وثلاثُ نخلاتٍ طويـلاتٌ، ربطتْ بين اثنتين منهـا أرجوحةٌ، تحاول الطفلة التي خرجتْ من الغرفة الصعود إلى حمَّالتها».

وهـــي ذي الأرجوحة تجـــيء، ويتلقَّى الفتى دعوةً للجلوس وســـؤالاً يُلحُّ على الأم عن ابنها وأين يكون:

«- استرحْ هنا يا بنيّ. أين أنتم الآن؟

ويبقى السؤال مُعلَّقاً، لا جوابْ.

- ساعدَ الزائرُ الطفلة على الاستقرار في حمَّالة الأرجوحة المقتطعة من كيس خيش،

- ثم جلس على الحصير الذي فرشته العجوز تحت الشجرة واسعة الظلّ».

وتعـاود الأم إلقاء السؤال، فيجيبها الفتى، ولكنه يجيبها بمـا تشتهي «الأمُّ» لا بما يتقدم بالفاعل على محور البحث.

«- أين أنتم الآن؟

- نحن الآن على الحدود. تمَّ استبدالنا أخيراً من الجبهة.

- ومتى سيحصل ابني على إجازة؟

- إجازة؟ قريباً. ربما في الشهر الذي يأتي. ألم تسمعوه في الإذاعة؟

- لا. ترك راديوه الصغير هنا ولكنْ لا أحد يفتحه. دعني أقدمْ لكَ شيئاً».

و«**قطعتْ ساحة البيت نحو السقيفة ينسحب ذيلُ ثوبها الأسود على التراب، وتبعتها دجاجةٌ جاءت راكضةً من وراء السقيفة، وكان الحمام يحلِّق في سماء البيت أو يلتقط ما يجده في ساحته**». انسحب ذيلُ ثوبها الأسود على التراب.. انسحبت العجوز... تَوَقَّفَ الحوار بينها وبين الفتى.. حوارٌ لا تشارك فيه الطفلة، ولكن ما سوف تشارك فيه ليس بأوفر حظاً، فكلاهما موسومٌ بالإخفاق.

الحوار في جزئه الثاني

أخفق الحوار في جزئه الأول... اختنقت الرسالة وابتعدت العجوز... ولكن الفتى سيحاول مرّةً أخرى أن يُبلِّغ الرسالة؛ أن يُفتِّق الحقيبة من خلال ما يبوح به للطفلة عن أبيها.

ويجيء الحوار صورة معكوسة عن الحوار في جزئه الأول. فالطفلة هنا، على غرار الجدَّة هنـاك، هي التي ترسم مسار الحدث من خـلال رسمها لمسار الحوار. يجيء الحوار ليختنق بـدوره، وذلـك أن الطفلة - التي أجابت الفتى عندما سألها عن اسمها - لم تجبه عندما قال لهـا «بابا يريدني أن أقبِّلك»، بل نظرت إليه بطرف عينيها، وطلبت منه أن يهزَّ أرجوحتها؛ أن يهزهـا حتى تطير، راسمةً مساراً آخـر للحوار، لمحور البحث ستنهض فيه الأرجوحة بالدور الرئيس، غير أن الفتى لن يلتقط طرف الخيط إلا من بعد.

«- ما اسمكِ يا بُنية؟

- حليمة.

- حليمة. بابا يريدني أن أُقَبِّلَكِ.

- نهض الزائر وقبَّلها، وكانت تغوص في حمَّالة الأرجوحة...

- نظرتْ حليمة إلى الزائر بجانب عينيها وطلبت منه أن يهزَّ أرجوحتها.

- انحنى خلف ظهرها ثم دفعها دفعاً،

-... طلبت أن يؤرجحها بقوةٍ حتى تطير.

- تَلقَّى جسدها بعد أن رجعت إليه.

- وأحاط خاصرتها.

- ثم دفع الأرجوحة...

- فحاد عنها...

[و] طلب من الفتاة: تَمَسَّكي جيداً. سأجعلك تطيرين».

الحوار في جزئه الثالث

في هذا الجزء من الحوار يسأل الفتى من حيث تتناوب الجدة والحفيدة الجواب، أو تُكمِّلُ إحداهما بجوابها الأخرى، وفي الحالتين إن السائل واحدٌ، والمُجيب اثنتان في واحدة؛ ولسوف يمهِّد دمجُ الاثنتين من خلال وحدة الوظيفة لانسحاب الجدة من المشهد تاركة المكان لحليمة كي تصير أُمًّا لأبيها.

وفي هذا الجزء من الحوار تنقلنا الأرجوحة إلى النهر. والنهرُ فرصةٌ يقدمها النص للفتى من أجل أن ينبعث «عليٌّ» على يديه، ولكنْ: هل يسبح المرء في النهر نفسه مرتين؟ أم هل يخرج المرء نفسه من النهر مرتين؟

«- ما اسم هذه الشجرة يا حليمة؟

- بمبر.

- ما اسمُها؟

أجابته الجدة التي عادت بقدح لبن:

- بمبر. إنها لا تنطق الاسمَ صحيحاً.

- ...

قال الزائر:

- كثيراً ما حدَّثني عليٌّ عن هذه الشجرة. قال: إنه كان ينام بين أغصانها في سِنيِّه الأولى.

قالت حليمة:

- أنا لا أحب ثمرها.

قالت جدَّتها:

- ألم تأكل البمبر؟

- لا. ولكنه أخبرني أن البمبر يحتوي على سائلٍ لزج.

قالت حليمة:

- نواتها تلتصق بأصابعها ولا تنفكُّ عنها حتى لو نفضتها بقوَّة.

- لكنه لا زال غير ناضجٍ. كان يظنُّ أنه نضج ورغب أن أجلب معي بعض ثمار البمبر.

قالت الجدَّة:

- أظنُّه لا ينبت في مكانٍ آخر.

- لستُ أدري...».

شجرة البمبر غير ذات فائدة. إنها لا تخدم مسار البحث. فالفتى - سواءٌ كان صادقًا في ما يرويه عن «عليٍّ»، أو كان يجاري الأم ويراعيها- لا يستطيع أن يأخذ شيئاً من ثمرها إلى «عليّ».

شجرة البمبر مثلها مثل الحقيبة طريقٌ مسدودٌ سيغادره الفتى ويمضي إلى الأرجوحة، يُجرِّب ثانية أن يجد فيها أو يجد من خلالها ما يبعث عليّا للحياة.

والأهم هو الحوار الذي يتهيأ لعليٍّ أنه يُسَيِّره في حين أن الحوار يجري على هواه.

«- وحدَّثني عن الأرجوحة.

- لم تنم حليمة في مهدٍ أبداً (قالت الجدة)، سرعان ما كانت تغفو في هذه الأرجوحة. ستَّ سنواتٍ وهي تنام فيها.

- وقالت حليمة: هنا قرب الماء.

وعلَّقت الجدة: كان عليٌّ يسبح في النهر وهي تتطلع إليه ويصعب عليها الوقوف داخل الأرجوحة».

الأرجوحة من جديد. ولكن الأرجوحة لا تبعث «عليّاً»، أو قلْ إنها حتى اللحظة مساعدٌ غير فعَّال. غير أنها تنقلنا إلى النهر، والنهرُ امتحانٌ:

«سألت حليمة: أتعرف السباحة؟

- نعم أعرف.

-...

- ألم يطلبْ منكَ أبي أن تسبح؟

- لا. ولكن طلب أن أقبِّلكِ.

- قبَّلْتني. ولكني أريدكَ أن تسبح.

نظر الزائر إلى امرأة التنور التي تُعِدُّ العجين، فقالت:

- رَطِّبْ جسدكَ بالماء. دائماً تطلب ذلك من أبيها.

- سأنفذ رغبتها.

-...

وسألته «حليمة» أن يسبح أبعد:

- أتستطيع أن تسبح إلى التنور؟

- ذلك سهل.

- سيأخذكَ الماء كبطة.

وتدخلت الجدة:

- كان عليٌّ معتاداً على السباحة في مثل هذه الأيام.

- أتعرفين يا أمي؟ أنا هنا كما لو كنتُ إياه. ولكن أيام الحرب.

-...

- لقد أحببتُ المكان. انظري إليَّ كأني هو الذي يسبح ويحادثكِ الآن. لا تَدَعي - غيابه يَهُمُّكِ كثيراً.

قالت امرأة التنور كلماتٍ لم تنته، محترقةً مختلطةً، انطفأت في النهر.

- وسألته حليمة:

- هل احمرَّت عيناك؟

- يحدث ذلك لمن يسبح.

- لا. أبي لم تحمرَّ عيناه يوماً».

ومهمـــا حاول الفتى، إن محاولته منذورةٌ للإخفاق. فلا هو استطاع أن يُقنع الجدَّة ببُنُوَّته، ولا هو استطاع أن يُقنع الحفيدة بأُبُوَّته. أراد أن يصرف الجدَّة عن ابنها فقالت الجدَّة «كلماتٍ لم تنته»؛ كلماتٍ «تُجيب» ولا تستجيب... كلماتٍ تقول من دون أن تقول إنه لا يعوض عن ابنها إلا ابنُهـــا، وإنـــه مهما حاول رفيقه أن يتماهى معه فإنه لـــن يكون هو، بل يبقى الرفيق. وأراد الفتى أن يشغل الطفلة عن أبيها، ولكن أباها « لم تحمرَّ عيناه يوماً».

النهـــر امتحانٌ فرضتـــه الطفلة. النهر مهمةٌ صعبـــةٌ أخفق الفتى فـــي اجتيازها، وبقيت الأرجوحة.

الحوار في جزئه الرابع

فـــي هذا الجزء من الحوار يدور الحوار بين الفتـــى والطفلة. تقترب الطفلة منه لتقترب أكثر من أبيها. تسأله لتستشفَّ مدى التماهي بينهما، ويجيبها لتتعزز قناعتُها بتفرُّد الأب.

أمـــا العجوز فلا تظهر إلا في موقعين؛ الأول وهي تُقـــدِّم لهما رغيفاً من الخبز، والآخر وهي تتساءل:

«- أأستطيع هَزَّكما.

- «هُزَّنـــي الآن» قالـــت الطفلة بعد أن «فترت الأرجوحـــة»، فـ «أحاط الفتى بعجيزتها داخل الحمَّالة، ودفعها فافتقدها في الشـــمس، واحتواها حين عادتْ مُوقفاً حركة الأرجوحة»، وسأل الطفلة:

«- كيف أنت يا حليمة؟ وأجابت حليمة:

- لماذا أوقفتها؟ كانت دفعةً جيدةً ولم يهزَّني أحدٌ كذلك. وذابت ثانيةً في الشمس، وعادت تضع رأسها على عَضُد ذراعها الممدودة، ساكنة الوجه وقد أغمضتْ عينيها:

- أرى أبـي. هـا هـو ذا يؤرجحنـي في حضـنه. ولكنه لا يتكلم كالأخرس. حلق شـعر رأسـه مثلك، وكأني غريبةٌ عنه فهو لا يعرفني ولا يتكلم معي أبداً».

أغمضت الطفلة عينيها فرأت أباها، ورأت نفسها في حضنه هو الشبيه بالفتى يُؤرجحها. تغمضــ عينيها فتراه، وتفتحهما فيتحول إلى دخان؛ يخرج من الحقيبة «**بلا رأسٍ ولا يدين ولا رجلين ومن دون ثيابٍ كالدخان**».

وتتكئ الطفلة على صدر الفتى وتسأله وهو يُؤرجحها:

«**- أتحبُّ البمبر؟**

ويخفق الفتى في الامتحان:

- نعم. أشتهي أن آكل منه.

وتضيف الطفلة:

- ما اسمك؟

فيجيبها:

- ستار.

- فتعلّق الطفلة:

- كاسم ابن المختار...».

أخفــق الفتى مرةً ثانيةً في الامتحــان. فهو لا يحب البمبر، هو يأكل منه وحسبُ، إذ كيف يمكــن أن يحبه وهو لم يعرفه سابقاً، وكيف له من ثَمَّ أن يُقنع الطفلة بأنه أبوها؟ هو لا يمكن أن يكون «عليّاً»، هو «ستارٌ» لـ «عليٍّ»؛ ستارٌ ساترٌ كاشفٌ في آنٍ واحدٍ.

❁❁❁

وحليمةُ «أمُّ أبيها»

مساندون ومعارضون، ومساندون معارضون

حفيــدةٌ وجدَّتها ... جدَّةٌ وحفيدتها، وحوارٌ مع الفتى «ستارٍ» يُبعث منه «عليٌّ» حيّ. الجدَّة والحفيدة مساندان معارضان في آنٍ واحدٍ.

١- الجدَّةُ:

«امرأةٌ ملفوفةٌ بالسواد»، تمشي فـ «**ينسحب ذيلُ ثوبها الأسود على التراب**»، تبدو للفتى وهي تقف أشبه ما تكون بـ «**جذع متفحم**»... وحين رآها تخبز العجين بين راحتيها، وتُمدِّده على قرص قماشٍ أسود، وتنحني لتلصق الرغيف اللدن داخل جدار التنور المحدَّب الساخن، بدا له أنها «**كأنها ستنقصم وتتفتت رماداً في إحدى حركات أعضائها المتمهلة**»... وتَمهَّلَ كي يتأكد كيف «**تضيع عيناها في وجهها المتضائل، ويكاد يختفي في سكونها المريب، كجذع فحمٍ لن يقوى على الوقوف حتى يتبدد**».

للجدة وظيفتان: تمنح الحياة، وترعاها. تمنح الحياة بأمومتها، وتحافظ على الحياة بإطعامها. امرأةُ التنور... سيِّدةُ المكان... ترعى البيتَ. البيتُ في عهدتها، تُطعم نازليه من ضيفٍ وطيرٍ وبشرٍ. كالجذع المتفحم هي؛ هي نِصفٌ محترقةٍ، وتلك هي بداية النهاية وهشاشتها. البداية جذعٌ متفحمٌ، والنهاية رمادٌ.

سيِّدةُ المكان تترك التنور الملتهب لتستقبل الضيف، تقوم بواجب الضيافة، ثم تعود إلى عملها لتكمل ما بدأتْ من صنع الخبز. وأثناء تبادل أطراف الحديث مع الضيف لا تغادر إلا لإطعام الحمام.

سيِّدةُ المكان تدعو الضيف للدخول، تفرش له الحصير تحت الشجرة واسعة الظلِّ، تدعوه لأن يستريح، ثم تقطع ساحة البيت نحو السقيفة لتعود بقدح لبنٍ تقدمه له معتذرةً لأنه من دون ثلج، فـ «الثلج لا يصلنا هنا»، وتعود من ثَمَّ إلى التنور الذي خبتَ فيه النار لتُعِدَّ العجين وتخبز الخبز وتقدم رغيفاً للضيف والطفلة وتقسم بينهما الرغيف.

سيِّدةُ المكان تُطعم الحمام والدجاج. ذاك تصعد لإطعامه إلى السطح، وهذا يتبعها راكضاً بحثاً عن الطعام.

أما البشر، فالجدُّ وحليمة وابنٌ حاضرٌ في الغياب.

- الجدُّ «أبو عليٍّ»، وتنتظر الجدة عودته لتقدِّم له الغذاء.

- و«حليمةُ» التي لا تغفل عنها جدَّتها حتى وهي منغمسةٌ في عملها، تتابع حديثها، وتصحح نُطقها، وتراعي شوقها لأبيها، وتحرص بالطبع على إطعامها.

- و«عليٌّ» الغائب الحاضر، تتقصى أمه أخباره التي انقطعت، ترعى طيوره، تنتظر عودته، ولا تنسى عاداته، وهو لها «**ليس كمثله أحدْ**».

والجدَّةُ أمومةٌ:

الجدَّة أمٌّ لا يخطر على بالها أبداً أن يكون ولدُها المجندُ قد أُصيب بسوء:

«- أتعرفــه؟ - سألت الفتى - كيف حاله؟ مرَّت مــدةٌ طويلةٌ من دون أن يكتب لنا رسالة. كيــف هــو؟». ويأتيها جوابٌ منقوص؛ جوابٌ ليس بالجــواب، وحقيبةٌ قد تعني، وقد لا تعني. و«ستارُ» لا يجرؤ أن يخبرها باستشهاد ابنها:

«- يا أمي ولدكِ قد...».

وينكر الفتى أن تكون الحقيبة حقيبةَ «عليّ».

- هــذه؟... لا، حقيبتي. عليٌّ بخير ويبعث بسلامه إليكــم ولطفلته حليمة. إنه يسأل عن طيوره.

أهو الرفق بالأم العجوز؟ أم هو شيءٌ آخر؟

وتُصــدِّق الأم مــا يقوله المجندُ... تُصدِّق مــا تقوله الأمومة، ويستمــر الحوار. هـي أمٌّ، وولدها «ليس كمثله أحدٌ»، وهي أمٌّ كمثل كل الأمهات.

٢- الحفيدة:

«طفلةٌ في السادسة»، «يعكس شَعرُها القصيرُ موجاتٍ حمراء، ويكشف عن رقبتها النحيفة». لا تجيــد النطق على الرغم أنها على أبواب الدخــول إلى المدرسة. كلتاهما لا تجيد النطق؛ الحفيــدة والجدة. الحفيــدة و«البمبر»، والجدة و«كلماتٍ لم تنتهِ، كلمــاتٍ محترقةً مختلطةً، انطفأتَ في النهر». هشاشةُ البدايات وهشاشةُ النهايات.

طفلــةٌ لا تنقطع رغبتها، مثل كل الأطفال، تلعب وتلهــو مثل كل الأطفال، تُحبُّ الحكايات وتستذكر بعضها مثل كل الأطفال، تشتاق إلى أبيها مثل كل الأطفال، ومن أول ظهورها في النص تظهــر مرتبطةً بالأرجوحة، تكاد لا تفــارق الأرجوحة، وهي لم تنم في مهدٍ أبداً، ستَّ سنواتٍ وهي تنام في الأرجوحة:

- لمــاذا أوقَفْتَها؟ (قالت حليمة للفتى). «كانت دفعةً جيدةً، ولم يَهُزَّني أحدٌ كذلك. وذابت ثانيــةً في الشمس، وعــادت تضع رأسها على عضُــد ذراعها الممــدودة، ساكنة الوجه وقد أغمضتَ عينيها».

٣- الحوار:

صيرورةُ الحوار من حوارٍ يبدأ مع الجدة، إلى حوارٍ مع الطفلة حين التحقت بهما، إلى حوارٍ تتناوب فيه الجدة والطفلة الإجابة عن أسئلة الفتى، إلى حوارٍ تنسحب منه الجدة وتبقى الطفلة. هذه الصيرورة هي التي ترسم تَحَوُّلَ الطفلة إلى أمٍّ لأبيها، تبعثه في إغماضة عينيها.

ويبقى «الحوارُ» المساندَ الأهمَّ للفتى. فالحوار هو ما يُكمل به الفاعل مسار بحثه وهو ما يوصل الفاعل-الفتى إلى موضوع بحثه. فلئن أخفق الحوار مع الجدّة في بعث «عليٍّ»، وأخفق في المرَّة الأولى مع الطفلة، ومعها ومع جدَّتها في جزئه الثالث، إنه هو ما يُفلح في بعث «عليٍّ»، تشهد بذلك إغماضةُ عينَيّ طفلته. وعلى الرغم مما يبدو على الحوار من بعض التعثُّر والوهن، فإنه يبقى المساند الأهمّ.

٤- الدرَّاجة والأرجوحة:

إغماضة عيني الطفلة تعيدنا إلى الفتى. الطفلة في أرجوحتها، والفتى على درَّاجته. الفتى على الدرَّاجة، والفتى في الأرجوحة. «وثانيةً حلَّ في رأسه ذلك الغفو المريح حين امتطى درَّاجته». وفي الأرجوحة «شعر بالغفو الجميل اللين المبلَّل يدنو منه».

لكلتيهما وظيفةٌ واحدة. وكلتاهما تنقل الفتى - بالنوم - إلى عالم «عليّ»:

«- أرى أبي. ها هو ذا يؤرجحني في حضنه. ولكنه لا يتكلم كالأخرس. حلق شعر رأسه مثلك، وكأني غريبةٌ عنه فهو لا يعرفني، ولا يتكلم معي أبداً. ثم فتحت عينيها وقالت:

- أين ذهب؟ كان معي يؤرجحني.

- لقد اختفى الآن. حين تفتحين عينيكِ يختفي.

- لم أره جيداً. كنتُ في حضنه.

- أرِني أبي الآن. أراه يخرج من الحقيبة هناك ويأتي نحونا».

الدرَّاجة والأرجوحة؛ أولاهما مساندٌ معارضٌ، والثانية مساندٌ فعَّال.

الدرَّاجة طارت بالفتى إلى عالم الأم؛ العالم الآخر؛ ذاك الذي يُمكن فيه لـ«عليٍّ» ويُمكن منه لـ«عليٍّ» أن ينبعث حيّاً. ولكن الأم مساندٌ معارضٌ مما حدَّ من إمكانات الدرَّاجة. صحيحٌ أن الأم دَعَت الفتى وأكرمَتْه، ولكنها - واعيةً أو غير واعيةٍ - لم تسمح للرسالة التي يحملها بأن تمرّ. فقد أراد الفتى أن يُبلِّغ الرسالة، ولكنه اصطدم بما هو أقوى من إرادته: الأمومةَ.

والأرجوحة -بدورها- تطير بالفتى إلى العالم الآخر؛ العالم الذي يُبعث فيه «عليّ». الأرجوحة مساندٌ فعَّال ينتقل بالفتى وبالطفلة إلى عالم أبيها؛ العالم الذي يُبعث فيه أبوها. فبالأرجوحة وفيها تعلمت الطفلة أن تُغمض عينيها لتشاهد أباها وهو يخرج من الحقيبة المعلَّقة على مقود الدرَّاجة.

الدرَّاجة والأرجوحة كلتاهما تطيرٌ. كلتاهما طائرٌ بالمعنى المجازيِّ للكلمة، وإن شئتَ فبالمعنى الأسطوريّ. هل ننسى أن ناقلي الأرواح في النقوش المصرية القديمة، وفي الأساطير اليونانية هم من الطيور؟ هل ننسى الحلم «الأوديبيَّ» الذي رآه «فرويد» عندما كان في الثامنة من عمره وفسَّره عندما بلغ الثلاثين؟ فإذا أردتَ أن تعرف دور الطيور في نقل أرواح أسلافكَ الغابرين فعُدْ إلى كلِّ ذلك، وتأكَّدْ من كلِّ ذلك.

❁❁❁

ذاك ما أفضت إليه المقاربة العلاماتية للنص. ولكن النص ما زال يُلوِّح بالظمأ كأنه يدعو ناقده إلى مقاربةٍ أخرى؛ كأنه يدعوه إلى الانتقال من «بارتْ» إلى «بارتْ»؛ من «بارت» البنيويِّ العلاماتيِّ إلى «بارت» التناصِّيّ. ففي التناصِّيَّة – من دون إثقالٍ على التحليل بالمصطلحات- ما يمكن أن يروي ظمأنا وظمأ «صديقتنا» «الأرجوحة».

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- الأرجوحة واحدةٌ من القصص التي تضمُّها المملكة السوداء للكاتب العراقي محمد خُضيَّر. منشورات دار الجمل، كولونيا، بغداد، ٢٠٠٥م. وقد كُتبت هذه القصة بعد حرب ١٩٦٧م.

(٢)- عندما عزمتُ على مقاربة الأرجوحة لم يكن يخطر ببالي أن أتعدَّى العلاماتية منهجاً للتحليل السردي. ولكنّ، ما إن فرغتُ من مقاربتها على ضوء العلاماتية حتى قادني التحليل إلى مقاربةٍ أخرى على ضوء التناصية. ولست أدري ما إذا كان ذلك يشكل سابقةً، ولكنني أدري أنه يُغري بالنظر.

العلاماتية أولاً، والتناصية من بعدُ؛ مقاربتان مستقلتان لنصٍّ واحدٍ، ولا قسر ولا إجهاد، بل شكرٌ مسبقٌ لمجلة المعرفة رئاسة تحريرٍ وكادر تحرير.

(٣)- الأرجوحة، ص ٢. ونامت الريح إذا سكنت، كما قالوا ماتت. والنائمة الميتة كما جاء في اللسان. ونامت الشاة إذا ماتت. وفي حديث «عليٍّ» عليه السلام أنه حثّ على قتال الخوارج فقال: إذا رأيتموهم فأنيموهم

أي اقتلوهـــم. وفي اللسان أن الرقاد هو النـــوم. وفي «التهذيب» أن الرقود هو النوم بالليل، وأن الرقاد هو النوم بالنهار... انظر مادتي «نام» و«رقد» في لسان العرب.

(٤)- المصدر السابق. «وبهر القمرُ النجومَ غمرها بضوئه. وغمَّ النجومَ ضوءه حين بهر، فغمر النجمَ الذي كان ازدهـــر وهي ليلة البُهرِ. والثلاث البُهر: التي يغلـــب فيها ضوءُ القمر النجومَ، وهي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة. يقال: قمرٌ باهرٌ إذا علا الكواكبَ ضوءه وغلب ضوءه ضوءها. انظر لسان العرب.

(٥)- «يشـــمُّ روائح أزهار الدفلـــى والأزهار البرية في المنخفض النباتي أسفـــل جدار الطين وخلف الجدول المزيد»، المصدر السابق.

(٦)- بل هي ما يتحرك به؛ هو «يتحرَّك فوق دراجَّته الخفيفة كالنائم». انظر «الأرجوحة»، ص٢.

(٧)- لأن بصره مبهورٌ بأشعة الشمس. أنظر المصدر السابق.

المراجع

(١)- الأرجوحة.

(٢)- المعجم الوسيط.

(٣)- لسان العرب، انظر مادة «نوم».

❀ ❀ ❀

الرسالة في القصة القصيرة ـ بحار من أوغاريت

حسام الدين خضور

ما دفعني إلى الكتابة حول هذه القصة، بحار من أوغاريت، وهي فاتحة مجموعة الكاتب، حسن م. يوسف، «الساخر يخرس»، هو أنها تعكس،بطريقة ما، آلية التفكير لدى قسم كبير منا. هذه الآلية تظهر بعدين اثنين، الأول ماضوي، والثاني يتسم برد فعل انفعالي لا يستند إلى وعي اجتماعي أو فردي ـ (فشة خلق) في التعبير الدارج. «بحار من أوغاريت» خير مثال على ذلك. فخالد البحري، بطل القصة، يعرف تاريخ بلده المغرق في القدم جيداً، ويتكئ عليه في مناسبات عدة، ويضيف إليه معرفة دقيقة بتاريخ الخصم. ومع ذلك لم تنجح هذه المعرفة في إنتاج وعي اجتماعي أو فردي، كما سنرى.



ثمة في كل قصة قصيرة مجموعة من العناصر تتباين أهمية كل واحد منها من قصة

إلى أخرى. يكاد كل عنصر منها أن يكون حاملاً، ومع ذلك غالباً ما يكون الموضوع أو الفكرة الرئيسة أو الرسالة حامل القصة.

غالباً ما يهمِّش الحامل بقية العناصر، أو يهيمن عليها ويجعلها في خدمته. نرى هذا في قصة الكاتب المبدع حسن م. يوسف «بحار من أوغاريت»، الطويلة نسبياً. والحامل يمكن أن يكون لحظة عابرة تلتقطها القصة وتشقّ بها طريقها إلى القارئ فقصة «بحار من أوغاريت» من هذا النوع أيضاً. ففي لحظة تاريخية أخرى لن تجد هذه القصة الاحتفاء الذي حظيت به لدى الجمهور في غير صالة.

على الرغم من أن القصة القصيرة الحديثة ليست للإلقاء، وليست للإصغاء، هي للقراءة. قلة من كتَّاب القصة القصيرة يمكنهم أن يرووا قصصهم. بل كثيرون منهم لا يجيدون قراءتها لجمهور يصغي إليهم باهتمام. والسبب لأنها كُتِبت لتُقرأ، ولأن جمالياتها تتوزع على عناصر متعددة، فهي تحتاج إلى نظارات خاصة لتمييزها والاستمتاع بها. لكن الجمهور، في هذه اللحظة التاريخية، أصغى وتحمَّل وصفَّق لهذه القصة لأن رسالتها عبّرت عما يجيش في صدره. وقد عرف الكاتب كيف يستثمر اللحظة التاريخية ومشاعر الجمهور التي تريد أن تقول لا لأمريكا ومشروعاتها في المنطقة والعالم.

إن رسالة القاص مسألة جوهرية له. هو يبدع عمله كله ليقول في النهاية ما يريد، إلى درجة يمكننا أن نقول إن الرسالة هي القصة، وما عدا ذلك: آليات، ووسائل، وذرائع، ومقدمات، لتبليغ رسالة. يقطع القاص أحياناً مسافة طويلة جداً لإيصال رسالته التي تضغط عليه. «بحار من أوغاريت» من هذا الصنف أيضاً. فقد قطع الكاتب مسافة اثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير ليبلغ رسالته إلى الإدارة الأمريكية ممثلة برقيب أمريكي. وهي مسافة طويلة جداً اضطر الكاتب أن يملأها بأشياء كثيرة لتمسك القارئ كل تلك المسافة.

استخدم الكاتب بحّاراً لينقل رسالته. هو عرف بحّاراً سورياً ترك في نفسه أثراً طيباً، جعله جديراً بأن يحمل رسالته إلى الإدارة الأمريكية، إنه خالد حمد، الذي يهديه قصته، ويسميه في القصة خالد البحري.

ربما، أيضاً، استخدم الكاتب قصة جرت لخالد لتكون حاملة رسالته. أنا ميَّال إلى هذه الفرضية؛ لأنها حكاية بحار أكثر منها قصة. هي ليست قصة أعمَلَ الكاتب ذهنه وخياله في بنائها؛ لأنها عندئذٍ تتحول إلى عمل آخر مشغول بعقل خالق لن يعرِّض مخلوقه لخطر

الموت ثلاث مرات؛ بل سيجعله يفكر بما يضحي بحياته من أجله. وسيجعل القبطان يتصرف بطريقة أخرى تكافئ خالداً على فعله البطولي الذي كان يمكن أن يفقد حياته في أثناء القيام بـه، ويتصرف بطريقة مهنية مجردة فيرسل خالـداً إلى المعالجة في مشفى في هاليفاكس، وهذا ما يمليه عليه القانون البحري، لأن المخاطرة بنقله إلى المرفأ التالي محفوفة بخسارة كبيـرة، ولا سيما أن الطبيبة سجلت تقييمها لحالة خالـد في يوميات الباخرة. هذا يعني أن القبطان سيتحمَّل عواقب أي خطر يتعرض له خالد.

الفارق بين الحكاية والقصة في معالجة هذا الجانب كبير جداً. الحكاية تقبل ما جرى كأنه قـدر، أما القصة فلا تقبله لأنها، القصة، فعل عقلانـي يحسب لكل شيء حسابه، ومن ثمَّ ما كان لخالد أن يصل إلى بوسطن (وليس بوسطون كما لفظها) ويبلغ رسالة الكاتب، التي لولاها لعددنا فعل خالد أخرق، فعل عبد كاد أن يضحي بحياته ليكسب رضا ناظر عمله (القبطان)؛ لكنه، وقد حمل رسالة الكاتب، وبلَّغها، يكتسب مكانة رفيعة في نفوسنا، في الوقت الحاضر.

هنا خاطر الكاتب بالقصة في سبيل الرسالة. إنه فعل إرادي أكسبه تصفيقنا لقوله: «اسمع، يـا حضرة الرقيب، اذهب وقل لرؤسائـك، إن ذلك البحار السوري مـن رأس الشمرة، يرفض الحصـول على العناية الطبية، عن طريقكم، ويرفض النزول إلى بلادكم!» لأننا نشعر بالكبرياء الوطنية وغاضبون جداً من دعم الولايات المتحدة لعدونا، «إسرائيل»، وامتهاننا ونهب ثرواتنا.

أشيـاء كثيـرة نتغاضى عنها في الحكاية، ندقق فيها أكثر في القصة. لو كان عمل الكاتب قصة لدققت أنا، على سبيل المثال، في أشياء هامشية كثيرة كأن يحتوي جواز السفر السوري اسـم القرية التي ولد فيها صاحبـه. أما الحكاية فعالم قديم يسـوِّغ تجاوزاته بمنطقه غير الواقعي. إنها [الحكاية] تحمل في بنيتها شيئاً من المستحيل.

ثمـة فارق كبير، أيضاً، بيـن أن تكتب قصة سمعت بها، وأن تكتـب قصة من وحي فكرة أو رسالـة تريد إيصالها. حينما تعيـد كتابة ما تسمع، تكون كمن يلبـس ثوباً مستعاراً. ربما بمقاسك؛ لكنه ليس ثوبك. أما حينما تكتب بوحي فكرة أو رسالة فأنت تستجيب لنداء داخلي يدفعك إلى الكتابة لتجد الفكرة أو الرسالة، التي استولت عليك، طريقها إلى الحياة.

تـكاد هـذه القصة ألا تكون قصـة قصيرة. هي طويلـة. تتحرك فـي فضائها البحري شخصيـات كثيرة. وتمتد أمكنتها لتشمل قارات. وكما تتعـدد الشخصيات وتتباعد الأمكنة، يكبر الزمن المحكوم بالمكان لأنه ليس أكثر من بعد آخر له.

أشيـاء كثيرة حملتها قصة «بحار مـن أوغاريت» كان يمكن الاستغنـاء عنها في القصة. عرض معلومات ربما ليس مكانها القصة؛ لكن النزال مع الأمريكي اقتضاها. أمر دفع البحار السوري إلى أن يستخدم أسلحته الحضارية والثقافية. معظمنا سيشعر أن بحارنا بلَّغ رسالته، في مواجهة غير متكافئة ربما كلفته حياته. ثمة أشياء ترفع نسبة الأدرينالين في الدم إلى درجة يغدو فيها الجنون حكمة. طبيعي أن يتصرف السوري العريق الذي يعرف تاريخ حضارته ويعرف العالم المعاصر كما تصرف خالد.

وقفت طويلاً عند رسالة الكاتب. رسالة جريئة إلى الإدارة الأمريكية. لكن هل الشخصية مقنعة؟

لـم يبذل الكاتب جهداً كبيراً في رسم شخصية خالـد. فهو سوري من رأس شمرة. أحب البحر منذ نعومة أظفاره. عركه البحر وجعل منه جسداً منيعاً ضد المرض، وغواصاً ماهراً. تذكَّر أباه لأنه حذره من عذاب جهنم، وحاله ذكرته بذلك العذاب الشديد. وتذكَّر ماريا الفتاة التي أحبَّها في مرفأ بيراس، وتذكَّر قريته رأس شمرة. لكنه لم يتذكَّر أمه وغيابها غير مسوَّغ في الظرف الصعب الذي أوقع حاله فيه. ربما لم يعطِ القاص أهمية لذلك لأن غرضه واضح، وكل ما عداه مجرد بريد لنقل رسالته.

يعرف خالد كثيراً عـن الولايات المتحدة، ويعرف تاريخ بلده جيداً، لكن هذه المعرفة لم ترفع وعيه الاجتماعي أو الفردي. بقي أسير رؤية ساذجة إلى العمل وعلاقاته. لم ترتقِ معرفة خالـد إلـى وعي اجتماعي، لو امتلكه لرفض أن يقوم بعمل يمكـن أن يخسر حياته بسببه أو علـى الأقل لأصَرّ على النزول في ميناء هاليفاكس للمعالجة، لكن الكتَّاب مثل آلهتهم يخلقون شخصياتهم لغرض معين في الحياة. لا تأبه لشيء غير ما تريده. ومثلها لم يهتم الكاتب بقدرة القصة القصيرة على حمل ما لا يدخل في بنيتها العضوية. فكان ثمة فائض معلومات، وفائض أحـداث، وفائض أمكنة، وفائض زمـن، لم ترفع وعي خالد، الذي لولا حكايته لما عرفنا أنه بقي على قيد الحياة.

❀ ❀ ❀

أيمن الحسن وذات شفق
(مدوَّنة عشق)

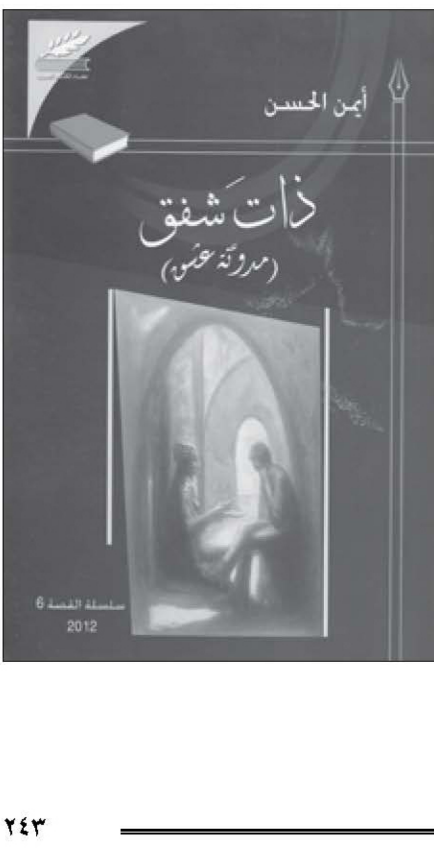
د. ياسين فاعور

«ذات شفق» مجموعة قصصية للقاص أيمن الحسن، تقع في مئتيـــن واثنتي عشرة صفحة، وتضمُّ إحـــدى عشرة قصة قصيرة متفاوتة في عدد صفحاتها، أطولها قصة «سطور من مطر»، وتقع في تسع وعشرين صفحة، وأقصرها قصة «نصفه الأبيض»، وتقع في ثماني صفحات.

قدَّم لها في الصفحة السابعة بمقولة لـ«أناييس نن»: «إنْ لم تتنفس عبر الكتابة، لم تصرخْ أو تغنِّ فلا تكتـــب إذاً ...»، ومقولة ثانية لِـ«توفيق زيَّاد»: «سأمـــوت سعيداً لو قدرت كلماتـــي... أن تُفرح بعض الناس...»، (ص ٧).

وقسَّمها القاص إلى أربعة أقسام:

- حمـــل القسم الأول عنـــوان (أ ذات غيمة عشـــق)، واشتمل على القصصـــ: «مطر١ : قناع جميـــل، مطر٢ : أبعـــد من نجمة، مطـــر٣: ظلُّ القمر، مطر٤ : ٣ بيلسانات»، (ص ٨).



وخاطب في مقدمته الأصدقاء: «أيُّها الأصدقاء... لا تخافوا الحياة»، (ص ٩).

وقـــدَّم لقصة (أبعد من نجمـــة) بمقولة لـ(أحمد تيناوي): «لم يكن خطـــأً أن أحبَّكِ بهوى شرقي، وأن أقترب منكِ بخطوات رجلٍ اعتاد الهزيمة»، (ص ٢٧).

وقـــدَّم لقصة (ظلُّ القمر) بمقولة: «من أحبَّك، وإن مات، سيحيا»، (ص ٤٩). وقدَّم لقصة (٣ بيلسانـــات) بمقولة أنسي الحاج «نكتب، نغني، نرسم، نلحِّـــن لشخص، شخصٍ واقعيٍ في البداية، ثم يأخذ في التماهي مع المطلق، المطلق شخصي»، (ص ٦٩).

وحمل القسم الثاني «أأ منازل الشفق» (في عشق سورية): منزل١: نصفه الأبيض، منزل٢: أنشوطـــة الصمت (عشبة على حجر)، منزل٣: النير، منزل٤: في انتظار... أيام سعيدة (زمن الضيق)، واستهلَّ قصص هذه المجموعة بقصيدة شعرية:

«هي الحضور الأمثل لأمر الله

كوني وطناً حاضراً في النبض

قمراً يُطلُّ على قلب العالم

يا المزدانة بالألق: مملكة من أهازيج

ونهنهات وجع

حقولاً من ياسمين

وشقائق نعمان

لأنك الأبد المتوَّج بزمان لم يألفه الغزاة

تنهضين غداً يحملك الحلم إلى مستقبل أبهى

تبقين في قلبي ابتسامة حبٍ اسمها سورية

فيض ندى الصباح

وأيقونة الفرح»، (ص ٩٦).

ويستهل قصة (نصفـــه الأبيض) بحكمة هي خلاصة تجربة: «الطريق السريعة توصلنا... لكنَّها لا تكسبنا خبرة السير بثقة...»، (ص ٩٧).

ويستهـــلُّ قصة (أنشوطة الصمت) بحكمة هي خلاصة تجريـــة أيضاً: «الشمس تشرق كلَّ صباح، فلماذا الحزن الذي يأتي مع الليل»، (ص ١٠٥).

ويستهــلُّ قصته (في انتظار... أيــام سعيدة) برأيه في القصة كما فعل درويش حين أبدى رأيــه في القصيــدة: «إنها القصة، رمية نردٌّ على رقعة من ظلام، تشعُّ وقد لا تشع، فيهوي... الكلام»، (ص ١٣٣).

وحمل القسم الثالث «أأأ ذات معترك أخضر»:

حلبة١: وردة الطفولة الحمراء، حلبة٢: حياة جديدة.

واستهلَّ هذا القسم برأيٍ لِ(غابرييل غارسيا ماركيز): «سأثبت لكلِّ البشر أنَّهم مخطئون لو ظنُّــوا أنَّهم يتوقفون عن الحُبِّ عندما يتقدَّمون في السن، بينما هم في الحقيقة، لا يتقدمون في السن إلا عندما يتوقَّفون عن الحب»، (ص ١٤٨).

ويستهــل قصته (وردة الطفولة الحمراء) برأي هو خلاصة تجربته في الحب وعادة ألفها كلَّ صباح «بلا حبٍّ يغدو كلُّ شيءٍ ضيقاً، إنَّه وقفةٌ للانطلاق نحو الحياة من جديد بعيداً عن الرتابة والملل»، (ص ١٤٩).

ويستهــلُّ قصته (حيــاة جديدة) بهمسة حب «ببساطة لأنَّني أحبُّــك»، يهديها «إلى ملاكي الحارس: زوجتي»، (ص ١٦١).

وحمل القسم الرابع عنوّان: «أأأأ عشَاق ذاهلون» (سطور من مطر) (المحظوظون)، (ص ١٧٧)، ويستهلّه بــرأي في الكتابة «لأنَّ الكتابة مغامرةٌ يائسةٌ للقبض على الوجود...، ويستهلُّ قصته (سطور من مطر) (المحظوظون) برأي: «كلُّ أنواع الخدع لها اسم واحد هو الأمل» لألبير كامو (ص ١٧٩)، وتهنئة للعشَّاق: «طوبى للعشَّاق... يرثون الأرض».

ويختم مجموعته برأي (أحمد تيناوي) ختام «أعطني قليلاً من الوقت فربما لم يغلق بائع الورد، هو يعدني منذ خمسةٍ وعشرين عاماً أن تكون الوردة آخر هزائمي»، (ص ٢٠٩).

وبـ(حتى نلتقي) برأيٍ لِ(رولان بارت): «الأدب لا يساعدنا على المشي، لكنَّه يجعلنا نتنفس أفضل»، (ص ٢٠٩).

فــي قســمه الأول قدَّم أربع قصــص عالجت موضــوع الحــب من وجهة نظــر القاص في حواريــة مــع الــذات «الحب يؤكِّده خــوف الغيــاب، إن أردت اختبار حبِّك لشــخص فغبْ عنه، إذا شــعرت بأنَّك تختنق، قلبك يهمي ذابلاً بلا خفقان، ويشــتعل رأسـك بفحيح حارق فأنت تحبُّه». (ص ١٢).

ويعزِّز نظرته هذه بمقطع شعري يخاطب به معشوقته:

«**يا امرأة توصف بالسحر**

كيف تمزجين قهوتك برائحة الفجر؟

...

عديني بالشغف انتظار مجيئك

يا لنصفك موجٌ، والبحر دوار

ليكن إفطارك قصة تتلى

عشاؤك قصيدة تُشتهى

نامي قليلاً، واحلميني غيمة عطر

أتخيلها معي

تحت شجرة الأكي دنيا

تقرأ في كتاب

فيندفع من بين شفتي الواجمتين طوال الطريق

سؤال يترجّى الجواب»، (ص ١٣).

ويصف لحظة عناقٍ مع محبوبته «في زحام الشهوات، خلف شفافٍ مرتجفةٍ، تشتعل حنيناً لقبلاته، حيث تتلامس الشفاه، تضغط على بعضها، كأنما تتصافح في تحيةٍ حارةٍ، أو تتواصل في شبقٍ حميمي لذيذ، فيمتزج رحيق الأنفاس وجداً أخضر:

يا للقبلة

أطيب متع الحب

رابطة قلبين توّاقين

لشهر العسل»، (ص ٢٠).

ويختتم قصته بسؤالٍ ذبيح «ألا أيُّها العظيم ربي، كيف تتركني على سفوح أرضك الشاسعة لا خارطة توضِّح مكاني وسط البشر، لا روزنامة تعرِّفني التاريخ، هل أنا في اليوم الرابع، الخامس، السادس، أم تراك استويت على العرش في يومك السابع، فأين حوائي إذا؟»، (ص ٢٥).

ويدندن مع هدى حداد: «أنتَ وحدك يا ليل... تعرف أحزاني»، (ص ٢٥).

إلى أن يعود سراب المنسي بطل القصة إلى بيته وحيداً «يخاطب ليله الطويل بلا نهاية... إلى أن تعود سراب المحمود بسلام»، (ص ٢٦).

ومناجاة الحبيبة القريب منّك بعيد، والبعيد عنّك قريب في قصة (أبعد من نجمة)، «عندما تحب يمكنك أن ترى أبعد مما تشاهده عيناك، وتسمع أعمق مما تنصت إليه أذناك صدقني»، (ص ٤٤). وعندما يناشدها الحب «أحبِّيني أشرع لك متاريس قلبي وسع العالم، وتسأله: لماذا تحبُّني؟ يُجيبها: لأنَّ قصتي معك ستخلدني في دفتر الزمن»، (ص ٣٩).

وعندما تزيد من دلالها، وتتلاعب في عواطفه يبوح قلبه بالسكوت عنه:

«لماذا تخلفين جراحك في قلبي

وتُحلِّقين؟

تتركين كلماتك في حلقي

وتصمتين

عطرك معلَّقٌ في دمي

وتسافرين

ظلَّت أسئلتي تترنَّح في فضاء القصة بلا أجوبة»، (ص ٤٥).

وأسطورة الحب في قصة (ظلُّ القمر)، قصة تسبر غور المرأة فتبوح بالمسكوت عنه «كثيراً ما يمازحني: (على بابي واقف قمرين)، لا أهتمُّ، فحبِّي له زيتونة خضراء، لا تذبل مدى العمر، حبِّي مطر، يرطِّب قلبينا، وعاصفة تقتلعني كلما تركني وحيدة باتجاه بيته وأولاده، آنئذٍ ينام في ذاكرتي، لأستحمَّ بعطره إلى أن يأتي موعده التالي، فتعشوشب روحي عند حضوره، يصطفِّق قلبي عصفوراً بين ضلوعي الواجفة، تتدفق شراييني نبضاً موجعاً، فأتمنَّى لو أطرده خارج حياتي وأستريح»، (ص ٥٩).

وكذلك فهي قصة تثير عواطف الرجل «تلملمين شتاتي بمشوار عبر حواري دمشق العتيقة، بعد ما أُضرمت شغاف قلبي، إذ ترشينني بحفنة ماء، تبرِّد النار المتأججة داخلي كالسعير»، (ص ٥٥)، مؤكدة بذلك المقولة «المرأة ليست نصف المجتمع فحسب، إنَّما قلبه النابض حبّاً وحناناً في بهاء حلمٍ لذيذ، وهي عشقي الأزلي يا ضحى»، (ص ٥٥).

وفراق الأحبة ومرارة الفراق في قصة (٣ بيلسانات): «أجزم لم يكن تشابهاً مع ابنة خالي، بل تعدَّاه إلى ما هو أعمق، وهذا اللقاء بيننا مكتوبٌ على اللوح المحفوظ منذ الأزل: هل يبدو

لكـم واضحـاً اسم ضحى المحمود على جبيني؟»، (صــ ٩١). وفجأة جف الكلام على لسانه عندما قررت الرحيل

«نظر إلى المطار

إذا هو قبر

ثم غلبته دموع حرَّى

إذ لم يعد يشمُّ رائحة ضحى المحمود

حلَّق قلبه في الجو مع طائرتها

وقلبها

بقي

جاثماً

على أرض المطار»، (ص ٩٣).

وفــي قسمه الثانــي قدَّم أربع قصص بعنوان (آأ منازل الشفــق في عشق سورية)، حملت العناوين الآتية: «نصفه الأبيضــ، وأنشوطة الصمت (عشبة على حجر)، والنير، وفي انتظار أيام سعيدة (زمن الضيق)»، وقدَّم لها بمقطوعة شعرية:

«هي الحضور الأمثل

كوني وطناً حاضراً في النبض

قمراً يُطلُّ على قلب العالم

...

لأنَّك الأبد المتوج بزمان لم يألفه الغزاة

تنهضين غداً يحملك الحلم إلى مستقبلٍ أبهى

تبقين في قلبي ابتسامة حبٍ اسمها سورية

فيض ندى الصباح

وأيقونة الفرح»، (ص ٩٦).

بدأها في التضـحية في سبيل الوطن (سورية): «في اليوم التالي، بعدما التأمت الفوانيس هازمــة فلــول الظلام، تبدَّى صــاحبي بســاقيه الشــبيهتين بســاقي غــزال، وذراعيــه الجانحين

وسط بركة دم. كان لون دمه أحمر قانياً، كان شعاعاً من النور يمرُّ عبره، وثمة مجموعة أوراق متساقطة حول شجرة قريبة راحت تنوح بأغنيةٍ لا يملُّ الناس سماعها كلَّ حين»، (ص ١٠٤).

ولا غرو في ذلك، وهو الذي أجابني عندما سألته عن موضوع ديوانه القادم، «قال: سورية. ثم أردف: هيهات أن نرتوي منها: إنَّها أمِّي والعروبة موطني»، (ص ١٠٢).

وعبير الحرية في قصة «أنشوطة الصمت» (عشبة على حجر): «ثم خرجت مسرعاً إلى ندوة حوارية موسعة تحت عنوان (الخروج من عنق الزجاجة لإنقاذ سورية)، مشيت صامتاً: دمشق هأنذا خارج السجن فدثريني بياسمينك ولتمض إلى غير رجعة»، (ص ١١٩).

ومرارة المعاناة في قصة (النير)؛ «ذكريات ظلَّت تؤرقه، فقرٌ مع أمراضٍ كثيرة، أبٌ أرمل، زوجة أبيه القاسية، الرفيقة ماجدة + طلباتها التي لا تنتهي...

تخيفه هذياناته المتكاثرة هذه الأيام

فيستمع إلى هواجسه بريبة

ويسجِّل على جهاز الكومبيوتر طبعاً

كلَّ نأمةٍ تصدر عنه»، (ص ١٣١-١٣٢).

وشعرية السرد وطرافة الموضوع في قصة «انتظار أيام سعيدة» (زمن الضيق) وتتجلى في حوارية بين المدرس والطلبة، والمدارس وذاته:

«دعيني زهرة

عطرها بعض شذاك يا شام

منساحاً في وجد مشتهى مع لفظ اسمها:

يا الرابضة على سور قلبي

غيمة عطر: هل تصدقين

كلما تذكرتك

تشتعل روحي بالحنين»، (ص ١٣٧).

وقدَّم في القسم الثالث (آآآ ذات معترك أخضر) قصتين (حلبة١ ... وردة الطفولة الحمراء، حلبة٢ ... حياة جديدة. بدأها بوردة الحب، حب الابنة في قصة (وردة الطفولة الحمراء): «مع ذلك أمطرت السماء بغزارة، فأثمر الرحم زهرة أنجبتها زوجتي، سميتها فينوس تقرُّباً إلى إلهة الخصب والجمال أن تمنحها العافية والفطنة والخلال الحميدة، إنَّها تتابع دورة العزف

على الكمان»، (ص ١٥٩). الابنة الوفية التي قدَّمت لوالدها وردة حمراء، عطرتها من عطر والدتها، وهي تقول: «كلُّ عيد حبٍ وأنت حبيبي يا بابا»، (ص ١٥٨).

وأتبعها بوقفة مع الذات، واختبار الحب في قصة (حياة جديدة)، بدا فيها تخيلات الحياة وحساب الضمير أعلموني أنَّ بإمكاني الرجوع إذا عثروا على من يحبني حبَّاً جمَّاً، وعندئذ أستطيع استعادة روحي، استفسرت عن هذه الـ«حبَّاً جمَّاً» فقالوا: إنَّهم يعرفون كيف يقدِّرون ذلك، وأضاف عمِّي عزرائيل: «لا تأخذ في بالك، خبرتنا طويلة في هذا المجال»، (ص ١٦٦). وعندما طلبوا منِّي اسم المرشح لتلك الحالة من الحب الجم، قلت حبيبتي... عصف حبُّها بكياني فأعلنت:

«أُسكنك قلبي

فراشك وردٌ أحمر

سقفك قمرٌ بهي

لحافك أغنية فيروزية دافئة

مخدتك ذراعي»، (ص ١٦٦).

وقدَّم في القسم الرابع (آآآآ عشاق ذاهلون) قصة واحدة (سطور من مطر – المحظوظون) في عيد العشاق، يلخِّص فيها خلاصة تجربته في الحب وكتابة القصة «بإخلاصك لامرأة واحدة يكون عطاؤك عظيماً، فاكتب لها القصة تلو القصة، كلُّ عاشق يصنع أسطورته نهاية المطاف، ولا تسقط في نثر رديء، فالسرد فنٌ يخصِّبه الحب، تثريه التفصيلات الطازجة»، (ص ١٩٣-١٩٤).

«وفي برجه العالي، يقرِّبه من أذن السماء كي تقرِّب بينهما، راح يبرق لمحبوبته الفاتنة:

تمرحين في دمي

أيقونة اشتهاء

أهزوجةً من بهاء

هكذا تعودت تغيبين

وتعودت تذكرك كلَّ حين

مسترجعاً مقولة الشيخ الكهل

العمر يحسب بالسنين

لكن في العشق بحرقة الأنفاس يا عاشقين»، (ص ١٩٣).

وللمجموعة علامات مميزة تبدو في:

١- **الشكل القصصي والسرد**: وجاءت قصص المجموعة في شكل المقاطع المرمَّزة، أطولها قصة (أبعد من نهار)، وجاءت في ست مقاطع، وأقصرها القصص: (ظلُّ القمر، وأنشوطة الصمت، وانتظار أيام سعيدة)، وجاءت كلُّ قصة في ثلاثة مقاطع.

وجاء السرد في ثلاثة أشكال:

١- حوار مع الذات في قصتي: (قناع جميل، وانتظار أيام سعيدة).

٢- وحوار مع الذات وحوار مع الطلبة في قصة: (انتظار أيام سعيدة)، وجاء السرد بضمير المتكلم في قصص: (أبعد من نجمة، وظلُّ القمر، و٣ بيلسانات، ونصفه الأبيض، والنير، وانتظار أيام سعيدة، ووردة الطفولة الحمراء، وحياة جديدة).

٣- وبضمير المتكلم في القصص: (أبعد من نجمة، وظل القمر، و٣ بيلسانات، ونصفه الأبيض، والنير، وانتظار أيام سعيدة، ووردة الطفولة، وحياة سعيدة).

وبضمير الغائب في قصة (أنشوطة الصمت).

وشعرية السرد وحواريته بين المدرس والطلبة والمدرس وذاته في قصة (انتظار أيام سعيدة) «زمن الضيق».

٢- **التقديم والاستهلال** بمقولات وحكم ولاسيما في القسم الثاني، وبقصائد شعرية من شعر القاص أو من أشعار الشعراء، وقد استهلَّ القسم الثاني بقصيدة شعرية هي خلاصة تجربته في الحب في قصة (وردة الطفولة الحمراء)، وهمسة حبٍ يهديها لزوجته، واستهلَّ القسم الرابع برأيه في الكتابة «لأنَّ الكتابة مغامرة يائسة للقبض على الوجود»، (ص ١٧٨).

والوقفة مع الذات واختيار الحب في قصة (حياة جديدة)، والسيرة الذاتية في قصة (وردة الطفولة - الحمراء) «عندما أستمع إليها تحضر قريتي، هناك في شمال حلب، قصص مراهقتي وسط قطاف القطن، وسهراتنا في خيم الرعاة، حكايات مضاءة بأول مغامرات الحب: قصص أخرى، تضاف إلى كبواتي الكثيرة». (ص ١٥١).

وخلاصة التجربة في القصة نفسها (وردة الطفولة الحمراء): «إذا أردت أن تبقى شاباً فاكسر المرايا من حولك، وانظر في عيني من تحب»، (ص: ١٥٢). كما يقدِّم خلاصة تجربته في الحب وفي كتابة القصة في قصة (أسطورة من مطر - المحظوظون): «حكاية داخل

حكايـــة، تقنية محفِّزة للقراءة على القراءة، قصتي قنـــاع حالتي، بلغة سلسة أتعمَّدها، وما لا أحكيـــه تقولـــه الأغنية، نصٌ محلومٌ به في قول مختلف: «تصيـــر القصة بيتاً يظلِّلني، حضناً دافئاً يؤويني»، (ص ١٨٢).

٣- **المكان**: يطوف القاص شوارع دمشق: شارع المهدي بن بركة و(كافتيريا) الموعد الجميل، وشـــارع الزاهرة الجديدة والمركز الثقافـــي، والشارع المؤدِّي إلى شارع الأمين. ودمشق القديمة وهـــذه كثيرة جداً، وبيته البعيد في حـــي الميدان. وحي العباسيين، وسوق الحميدية، والبزورية، ومقهى النوفرة، وجبل قاسيون، وساحات دمشق، وشارع الحرية، والصالحية، وباب توما، وتطول جولته حلب وحمص حماة وقريته شمال حلب. ولا يغفل الجولة الثقافية في أمهات الكتب «أجال بصـــره الحزين فيما حوله، شاهد على الرفوف نسخة من رباعيات الخيام في تجليد باذخ كتاب الزهـــرة لمحمـــد الأصفهاني المعروف بابن داوود طوق الحمامة فـــي الألفة والألّاف لابن حزم الأندلسي رواية عابر سرير، وأخرى بعنوان «٣ أصابع فقط» إصدار جديد»، (ص ٢٠٠).

ويلخِّـــص رأيه في الحب «فـــي رحلة العيش بحثت عن الحب، فعرفـــت أنَّه وجع لذيذ، لا نعـــرف متى يأتي، ولا من أين يجيء دون ميعاد، طعمه حلو، عندما يكون خفيفاً، فإذا ارتكس طويلاً قد يسبب الجنون...»، (ص ٢٠١).

ويجســـد وقفة الحب والقبلة «لا أنسى ذلك اليوم حين التقطت فمي، وامتزج ريقها بيباس شفتي، وأنا دائخ وسط بحر من خمرة معتقة فتساءلت:

«ما القبلة

إن لم تكن ارتطام شفاه رجل مع امرأة

بكلِّ حرارة الشباب

ورحيق الأنفاس

لينبض القلبان بالسعادة

فتتمازج الروحان في بعضهما»، (ص ٢٠٢-٢٠٣).

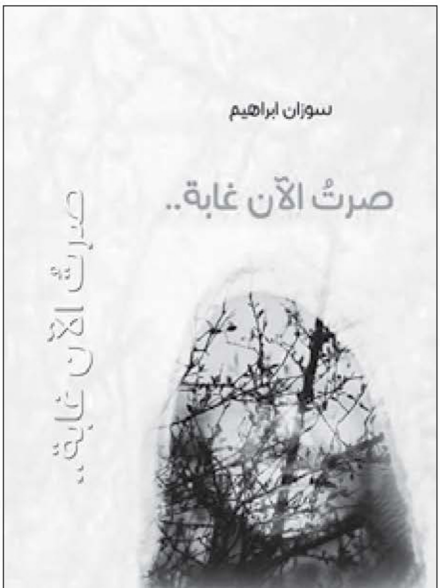
وإن كان مـــن كلمة تقال في نهاية توصيف هـــذه المجموعة القصصية، فإننا نقول: هنيئاً لهذا المبدع هذا الإبداع الجميل، وإلى مزيد من العطاء.

❁ ❁ ❁

تقنيات النص الشعري في (صرت الآن في الغابة)

عوض الأحمد

بدأت الأديبة سوزان إبراهيم تجربتها الأدبية بكتابة القصة القصيرة. ثم تحولت إلى كتابة الشعر، فالقصة والشعر متوازيان عند سوزان إبراهيم: صدرت لها ثلاث مجموعات قصصية: «حين يأتي زمن الحب» عام (٢٠٠٢م) و«امرأة صفراء ترسم بالأزرق» عام (٢٠٠٥م)، و«لأنني لأنك» عام (٢٠٠٩م). ومن الشعر صدر لها المجموعات الآتية: «لتكن مشيئة الربيع» عام (٢٠٠٢م) و«كثيرة أنت» عام (٢٠١٠م) و«أكواريل» عام (٢٠١٤م) و«صرت الآن غابة» عام (٢٠١٦م).



سُحرت سوزان إبراهيم بالشعر وجماله، فالشعر اكتشاف دائم للكون ولعوالم مجهولة، وحاولت من خلاله التوحد بصيرورة الكون والقبض على حركة الواقع، وتحكمها في أدواته

الفنية لعبور الواقع وتخطيه وصهره لتشكيل واقع جديد موازٍ للواقع الموجود والنفاذ إلى جوهر الأشياء.

وهذا ما نراه في مجموعة «صرت الآن غابة» التي تكاد أن تكون قصيدة واحدة لولا تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء (أشجار، وأوراق، وحطب). وقد كتبت في هذه المجموعة النص الشعري، والمقطع الشعري، والسطر الشعري.

وهناك علاقة متبادلة بين الكل والجزء في المجموعة، ويمكن أن نلحظ ذلك من عنوانها الرئيسي والعناوين الفرعية. فعنوان المجموعة «صرت الآن غابة» عنوان إشكالي فيه من الانزياح والمجاز والدلالة شيء كثير، إذا عددناه كلاً، نلحظ بأن العناوين الفرعية، (أشجار، وأوراق، وحطب) أجزاء للكل الآنف الذكر (الغابة).. ودلالات العناوين الفرعية تشكل في مجملها دورة حياة، عن الشجرة إلى الأوراق التي تزينها، ثم تغدو حطباً.

تسقط الشاعرة سوزان إبراهيم تلك العلاقة على الراهن السوري بما يحمله من تحولات طارئة وتغيرات جذرية أدت إلى مأساة مدمرة من خلال عرض مشاهد واضحة جلية.

(وأقول أشياء غير مسؤولة عن دقتها/ أو صحتها/ لما كل أوضاعنا الوطنية/ في الطريق إلى اللاشيء/ قد أصادف جراء الحاضر/ وهي تلتهم عصافير الغد/ وقد أمرُّ بتلك الصغيرة المختبئة/ من غول الحكايا/ تأكل بصمت/ علبة زبدة الفول السوداني/ القادمة في سلة المساعدات الغذائية/ هذا الخريف يبدو طويلاً أصغره/ وقد يحتاج الشتاء كي يجيء/ مزيداً من المطر المستعصي/ في سماء المهاترات السياسية!)، (ص١٠٢- ١٠٣).

ومن سمات «صرت الآن غابة» التكثيف والاختزال وهو ما يفتح بوابة الدلالة أمام المتلقي كل ذلك من خلال اللغة الشعرية، فاللغة مادة هذا النسيج الذي هو الشعر وحسب (أراغون) ليس هناك شعر ما لم يكن هناك تأمل في اللغة.

إنها لغة (متأملة) جيء بها على هيئة خاصة بعد تفكير وتدبر وجهد إبداعي، فاللغة الساذجة الباردة لا تصنع شعراً. نرى ذلك في مقاطع كثيرة:

(كأنك بؤبؤ عيني/ ترى كلي/ ولا يراك!)، (ص١٩).

(أنا الأصيص/ آه يا تراب العدم/ كم أنت مزدحم!)

(أقشر الرجال عن وجهي/ أنا للفاكهة المصونة/ خلف ألف خيمةٍ)، (ص٥١).

ونلحظ في «صرت الآن غابة» الاعتداد بالذات الشاعرة وبالإبداع الشعري عندها.

(هذا البحر... أنا/ بحيراتي كثيرة)، (ثمة شاعرة/ نزقة... متقلبة... عالمة/ تتخذ مني بيتاً/ وتعطي عنواني لكل معجبيها)، (ص٥٤).

ونلمس نبرة السخرية والتهكم من الوضع الاجتماعي للمرأة بما يحمله من جور وتناقضات.

(أطليك بحبري/ ثم أسلم أمرك للفراشات)، (ص٥٢). وكذلك في قولها (مثل نملة نشيطة/ أقدد كميةً من الفرح/ كي لا أموت بجوع الحزن القادم)، (ص٥٦).

(لكل مناسبةٍ أرتدي واحدة/ من نسائي الكثيرات)، (ص٥٦)...

وعملية الإبداع هي وجه من أوجه الرفض وإحقاق الحق. والنتاج الشعري من أسمى أشكال النمو الإنساني. فالشاعر يتألم أو يحلم أو يذكر يواجه هذه الثنائيات تزيد إحساسنا بالأمر، وتسهم في تعميق فهمنا للأمور (أهو الفراغ يدنو أم أنني أبتعد؟/ أهو قلبي يكبر/ أم أن صدري يضمر؟/ أهو الحبل يضيق أم أن عنقي يتسعّ؟)، (ص٢٤).

ونقرأ كثيراً من هذه المقاطع الشعرية في «صرت الآن غابة».

(مصابة أنا بالحياة/ كلما أتلفني ليلٌ/ نهضت في الغد فجراً)، (ص١٣).

(من الأعلى رأيت النهر خيطاً فضياً يتلوى/ كنت أنا الطائر/ ومن الأدنى رأيت النهر سقفاً/ خشيت أن ينقلب/ وكنت أنا السمكة)، (ص١٤).

تكتب الشاعرة سوزان إبراهيم في «صرت الآن غابة» نصاً إبداعياً متعدد الثقافات فمثلاً تراها في الجزء الثاني من المحتوى الذي يحمل عنوان (أوراق) تحاور شمس التبريزي لتنتقل لاحقاً إلى زوروبا وهمنغواي ثم ماركيز وأراغون من خلال توظيف التناص والوقوف عند هذه الشخصية العالمية، لتكون عبرة لنا في هذه المرحلة التاريخية.

عن قصة لويس أراغون في أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا هي في الواقع قصة حركة المقاومة من خلال تجارب رجل واحد. قصة قائد واعٍ لحركة المقاومة، رجل كان يقوم كالآلة، بتنظيم عمل عشرات الكتاب ضد قاهريهم، رجلٍ يفضح العدو أمام مواطنيه وأثار فيهم شعوراً جديداً بالثقة في أنفسهم وقوتهم للقيام بتحرير أرضهم فقد كان أراغون جزءاً جوهرياً من تيار المقاومة الفني في فرنسا، فالثقافة لا تكشف للشاعر العالم وحسب بل

تكشف له نفسه وتجدد، بها يحتمي من التكلس والجمود وتمنح القدرة على مزيد من الرؤية وتشحذ أحاسيسه. من خلال هذه الشخصيات تستشرف الشاعرة سوزان إبراهيم النهوض والفعل الثوري بأشكاله المختلفة. هذه الشخصيات حملت هموم الوطن والإنسان واستخدمت البندقية الشعر. (ومجنون إلزا) قصيدة أراغون، وإلزا المرأة الرمز والحلم الجميل، ترمز العينان إلى المشهد الذي ستنقلب إليه الحال بعد الثورة. فعينا هذه المرأة جميلتان تستشرف المشهد بعد (التغيير) والتحول إلى ما هو جميل ومشرق وخصب.

(على غير توقع/ زارني أراغون يحمل كتابة/ (مجنون إلزا)/ حدثني طويلاً عن (إلزاه)/ عن عينيها.. عن شهوتها../ عن جنونه بها/ قليلٌ من قهوتي/ قليل من جنوني/ كان كافياً ليغط في حب جديد)، (ص٦٧)، وللصورة الفنية حضور كبير في نصوص سوزان إبراهيم، والصورة أحد أسرار الشعر ومقوماته، وعن طريق الصورة الشعرية تجسد الشاعرة قصيدة الرؤيا فالصورة الجمالية تتألق لإضاءة النص من خلال المشاهد واللوحات التي تسعى إلى التأثير في وجدان المتلقي إذ يشعر بسحر ومتعة عجيبين.

(بدوية قصيدتي/ تنصب خيمتها خارج أعراف القبيلة/ تستدرج الرمل إلى ذاكرته الأولى/ الغارقة في البحر/ فتنبت غابات المرجان/ وتستفيق حوريات.)، (ص٢٢).

أما الموت الضمني ورؤيا النهوض نلحظه في نصوص المجموعة، إذ تحاول الذات النجاة والخروج من الواقع المأزوم ولكن هل تتمكن من ذلك؟ وتتوالى الأزمات والمتاعب لتبلغ الذات الشاعرة الهلاك على غفلة منها.

(من هذا الذي يبرق للموت/ أنا قد نضجنا؟!/ هذا الموت الغبي/ يضحكون عليه أحياناً/ فيقطف فاكهةً فجّة!/

أخشى عليك/ اسمحي لي أن أعبر معك/ الشارع إلى الرصيف الآخر/ يقول الموت!/

لم انتبه للموت/ وهو يأخذ بيدي/ كنت أضع السماعات في أذني/ وأصغي لموسيقا «النيرفانا»)، (ص٩٣).

والنص الذي يحمل عنوان (هذا النبيذ) يكشف رؤيا الانهيار الإنساني، ولا نرى إلا وجوداً مأزوماً لا تدركه الحلول. فالإنسانية فقدت الجوهر الرئيس لها الحب والتعاون والطمأنينة والسلام لتنساق من وراء وحشية الإنسان، ويبدأ الانهيار وموت الإنسان ودمار المدن إذ لا صوت إلا أصوات (دوشكا) شرسة، ولا رائحة إلا رائحة البارود تندلق من النافذة، فما زالت هذه

الرؤيــة واضحة منذ أول الرصاص وإلى استشراف المــوت، هذا النص لا يخلو من القناص «الحب في زمن الكوليرا». والنص يشير بشكل غير مباشر إلى الحالة (السورية الراهنة).

(هذه ليلتي... يا حبيباً بعيداً... بعيداً/ سقطت قطعة أخرى/ من التفاحة السورية/ بينما كنت أدقق في الشبه بيننا/ وبين «الحب في زمن الكوليرا»/ تقول: حرام عليك.../ الكوليرا في رأسك/ لكنني أصر أن تنتظرني/ خمسين سنة أخرى ريثما تشفى البلاد!/ صب كأساً أخرى.../ فما زالت الرؤية واضحة منذ أول الرصاصِ/ الكهرباء مقطوعة/ والاتصال مقطوع...).

لا تخلو نصوص سوزان إبراهيم من شذرات سريالية، وشعرها رومانسي الجذر، وذو ميول رمزية من خلال الاعتماد على معطيات الحس بشتى أنواعها كأدوات تعبيرية. (سمعت، وبكى، وبرّت، وأشهد)

(كلما سمعت الشجرة موسيقا الكمان/ بكى جذعها المقطوع حناناً:/ لقد برّت البنت بأمها./أشهد أنني أراك/ بأصابع طفولتي/ حولت «أسيد» الدمع إلى صابون/ لتنظيف بشرة زمني)، (ص١٩).

ومن سمات شعر سوزان إبراهيم في هذه المجموعة حضور القصيدة السردية التي لا تخلو مــن الحواريه والمونولــوج والاهتمام بالصور الشعرية الجديــدة، وحضور التكرار والاهتمام باللحظات والتفاصيل وملامسة الواقــع اليومي للإنسان إذ تلمس وقائع الحياة اليومية، وكل ذلك من خلال الدلالات الغامضة والمفتوحة. كما هو في النص الذي يحمل «أوراق»:

(يتهمني بالصمت!/ هو فقط غير قادر/ على سماع فرقة سيمفونية/ تعرف داخل قلبي/ يتهمني بالفضول/ وينسى أنني الشجرة!/

لـم آخـذ كلامــه علــى محمل النبـوءة/ لكنني ذلـك اليـوم رأيتني/ أصـير أشـياء كثيرة/ منديـلاً... كأس خمـر.../ خاتم خطوبة... باقـة ورد/ حطب موقد... كرة صـغيرة حمراء.../ سلماً/ ونهاية ذلك اليوم صرت/ أنشوطة صبر/ شنقت الجلاد!

لسـت شاعرة/ أحياناً أتسكع/ في سوق الكلمات المسـتعملة/في البيت أغسل... أعطر.../ أجفف ما اشـتريت/ قصصـت... خطت/ وشـيت... وطرزت/ كما علمتني جدتي/ كما علمني الحب)، (ص٤٥).

كمــا نلحظ الومضة فــي نص (صرت الآن غابة) من خلال توظيــف صورة مقابل صورة ضدية، أو حالة مقابــل حالة مختلفة، وهناك ومضات قصيرة والومضة ذات البنية المغلقة، أو ومضة الفكرة المركزة أو البؤرة الأساسية ومن هذه الومضات:

(لست صغيرة بما يكفي لأتذكر/ لست كبيرة بما يكفي لأنسى/ على الطريق.. وجه ما زال ينظر إليّ!)، (ص٢٨).

(قلبي العصفور/ فوق أعلى سارية في المدينة/ بنى عشه/ هو أول من يستقبل الفجر/ وهو آخر من يودع الشمس)، (ص٢٦).

(مشغولة أنا بإفراغ المحيط في كأسي)

(ماذا كان يفعل (وحدك) بعد منتصف وحدي!)، (ص١٦).

لا تخلو نصوص سوزان إبراهيم من ظاهرة الغموض وقد يكون الغموض ناتج عن المجاز والاستعارة والتجريد والنعوت...

(في مقهى الإله/ طلبت عصير أشجار/

من تلك الغابة عل حدود الحياة/ قلت: ينقصها بعضك!/ فذوبني في الكأس)، (ص١٧).

استخدمت الشاعرة سوزان إبراهيم تقانات جديدة كتقانة تراسل الحواس، والرمز، والتناص، والمونولوج، والأسطورة، والتهكمية الشديدة ومرارة السخرية من الواقع. وجاء النص الشعري ثرياً بجماليات الحركة التي تخلقها موسيقا الشعر.

وهذه النصوص ترسم التجربة الداخلية للشاعرة وموقفها من العالم وهي نابعة من الذات الشاعرة.

❁ ❁ ❁

الهوامش

١-قصيدة النثر، د.أحمد زياد محبك، منشورات اتحاد الكتّاب العرب.

٢-قصيدة النثر العربية، إيمان الناصر، دار الانتشار العربي.

٣-آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، د.خليل الموسى.

٤-دلالة المكان في قصيدة النثر، د.عبد الإله الصائغ.

٥-أراجون- دراسة وقصائد مختارة، نقلها: عبد الوهاب البياتي.

❁ ❁ ❁

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

مهماز يستحثّ السرد (سرد الوجع السياسي)



- كتاب: «مهماز يستحثّ السرد- سرد الوجع السياسي».
- الكاتب: د. صلاح صالح.
- الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب (٢٠١٩م)، (٣٩٢) صفحة، (٢٤ سم).

يتكون كتاب د. صلاح صالح، من تسعة فصول، كلّ منها يتألف من عنوانات تفصيلية. نورد فيما يأتي العناوين الأولى من كل فصل، لأنّها تشكّل الجزء الأهم من محتوياته:

الفصل الأول: بمنزلة افتتاحية وخريطة تأطير.

الفصل الثاني: ما يبدو تثبيطاً للسرد السياسي النشط وتبريداً للسياسي الساخن.

الفصل الثالث: السياسة وتوظيف الدين.

الفصل الرابع: أوجاع سورية.

الفصل الخامس: أوجاع الأرض المحتلة والتعاطي مع اليهود.

الفصل السادس: أوجاع عربية.

الفصل السابع: أمريكا هي مصدر الوجع.

الفصل الثامن: أوجاع ذات فضاء أوروبي.

الفصل التاسع: الحرب إجراءً سياسياً عنيفاً.

مما جاء في مقدمة د. صلاح لكتابه:

«الشأن السياسي وأوجاعه الطافرة من كل فجّ وصوب، لم يعد فقط بمنزلة المهماز الذي يستحثّ السرد الجامح باتجاه المزيد من الجموح، بل أصبح في رقعتنا العربية الرجراجة صانعاً للسرد، بأنماطه كافة».

مما يشي به كتاب «مهماز يستحثّ السرد»، أن مؤلفه قد وظّف فيه جل إمكاناته بصفته باحثاً وناقداً وفناناً تشكيلياً، واستدعى سائر وشاسع معرفته بصفته مترجماً ومثقفاً عضوياً، في إنضاج عمله مثار إعلاننا، ثم في بسطه وصوغه، حتى صار إلى ما هو عليه، من مدوّنة تشتمل على فائدة ومتعة وجمال.

حين يتكلم الحب

- العنوان: حين يتكلم الحب.
- تأليف: جيهان رافع.
- دار النشر: مؤسسة رسلان، دمشق، جرمانا.

كتاب جديد صدر حديثاً لكاتبة شابة، ارتأت أن تصف محتواه بكلمة «نثر» على غلافه الأول الذي يحمل صورتها.

يشتمل الكتاب نصوصاً أدبية تمتد على (١١٠) صفحات ذات قطع متوسط.



تحفل نصوص جيهان رافع بمكابدات حسيّة تطل ظلالها من أكمام لغة غنية جريئة وصياغات فنية ذات نفس شعري حارّ، ما يرشّح إصدارها الأول مثار تنويهنا، لنيل جواز مرور باتجاهين: صوب خصوصيتها المنشودة من جهة، وصوب قلب قارئها من جهة مقابلة.

من نصّ بعنوان «شغف وأنت»:

أنت شروقٌ
كلّ صبحٍ
يفتح باب اللّهفةِ
من جديد

ويبعث للروحِ
رسائل شغفٍ
وأرجوحة أغنيةٍ
تقطّرُ البوح وتسكبهُ
في محبرة أوردتي
فيكتبك النبضُ
على جدار القلبِ
لوحة بألوانٍ سرمدية

أغنياتٌ لها

«أغنيـاتٌ لهـا» مجموعة قصائـد، أصدرتها العام الماضـي، الهيئة العامـة السورية للكتاب في دمشق.

المجموعة، هي القصائد الأخيرة للشاعر الفرنسي «بول فيرلين» الذي اشتهر بعشقه اللا محدود للمتعة والشعر، ترجم القصائد الدكتور «عادل داود».

تحمل المجموعة الرقم (١) في سلسلة الشعر العالمي، التي استحدثتها «الهيئة»، وتتألف من (٢٥) قصيدة لا عناوين لها سوى أرقامها التي تتقدّمها.

مـن أجواء «أغنيات لها»، التـي توّج على أثرها «بول فيرلين» أميـراً للشعراء، هذه المقطع الذي يستهل به القصيدة رقم (١٧):

لم أعد أنتمي
إلى تلك العقول الفلسفيَّة
ولستِ تتباهينَ
بامتلاك مبادئ أخلاقيَّة..
هنالك شرطانِ رائعانِ
للمحبّةِ
في منظورنا
أي بالطريقة المباشرة:
ألّا يكون ثمَّةَ حدودٌ
أو أعرافٌ غبيّة
وأنْ تكونَ دافئة



حرائق النعنع



- اسم العمل: رواية «حرائق النعنع».
- الكاتب: إياس الخطيب.
- الناشر: دار الغانم للثقافة، طرطوس، ٢٠١٨م.

«حرائق النعنع» هي الرواية الأولى للأديب إياس الخطيب، بعد مجموعتي قصص: «بيّض الفال» عام (٢٠١١م)، و«الرقص على شرفة النهار» عام (٢٠١٣م).

تتوزع «حرائق النعنع» على (٢٧٢) صفحة ذات قطع وسط، وعدد من عنونات داخلية، منها:

(سلمان المصطفى وسلمى الخليل، والشيخ عبد المعطي يكمل...، وبائع الحمير رستم أفندي، وأم أسعد والكلب، وبانتظار أن يطلّ نبيل، هامش صغير صغير جداً، وفي المغارة، وفي الكهف، وسلمى، والحصاد، واللقاء، والشرط، والعمل، والعيد، والهروب، والسجن، والقبر...).

لئن احتشدت رواية «حرائق النعنع» بعضويات الحياة الريفية السورية، ومشاغل القرويين واهتماماتهم بعامة، وفصّلت في غير منحى من مكونات عيش ومجال ومعتقد، ولاسيّما لدى فلاحيّ (جبل العرب).

فما ذلك – حسبما نرى- إلّا لرغبة إنسانية وأدبية عارمة في نفس مؤلفها «إياس الخطيب»، في إغناء تأثيل الذاكرة الجمعية للقارئ، بالمحتوى الجهادي لحقبة غير بعيدة، من تاريخ وطننا المكافح.

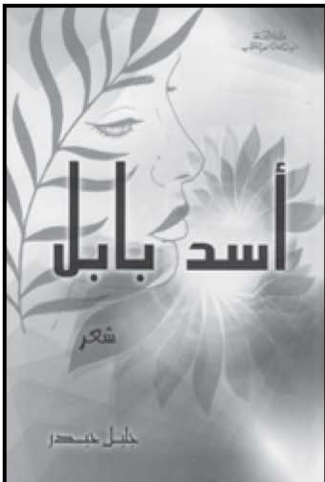
أسد بابل

«أسد بابل»، مجموعة قصائد للشاعر العراقي «جليل حيدر» صادرة عام ٢٠١٨م، عن الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق.

للشاعر «جليل حيدر» أكثر من عشر مجموعات شعرية، صادرة في غير عاصمة عربية وأجنبية: بغداد، وبيروت، وباريس، ونيقوسيا وسواها.

عن الشاعر يقول غلاف المجموعة:

اكتوى بنيران الشعر منذ يفاعته، كي تؤوب روحه الشغول بالنبل، والأشواق، والأحلام الباحثات عن أسرار البلاد التي لفّتها غيوم الظلم واللا مبالاة، واستدارات التاريخ عن مواضع البكورية والنورانية والجمال.



وعن القصائد يقول:

موشحة بجمال البساتين، واجتماع الطيور، وطيوب الأشجار، وزلال الينابيع، ووقفات الجبال، وطهرانية المعاني الخالدات منقشاً على يد الزمن.

وقد أثبت الشاعر «جليل» في ختام مجموعته قصيدة بقلم الشاعر «أدونيس» تحت عنوان «القصيدة الأولى»، منها:

يا جليل
«أسد بابل» هي القصيدة العراقية الأولى التي
تكتب عراق الانهيار الحديث، بعد بدر شاكر
السياب، وهي القصيدة الأولى التي تكتب «المنفى
العراقي». الأول بإطلاق.
هكذا نفتدي بهذه القصيدة الموات الذي عاشه
شعراء العراق في المنفى...

تداعيات لامرأة مستحيلة

- «تداعيات لامرأة مستحيلة» مجموعة شعرية.
- تأليف: مصطفى أنيس الحسون.
- إصدار الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٨م.

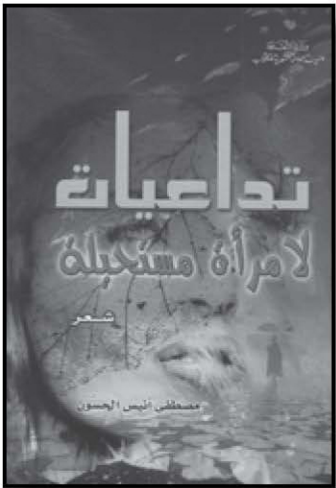
تداعيات لأمراة مستحيلة: مقطوعات شعرية وجدانية، حملها صاحبها رسائل أحاسيسه المثقلة بهموم العيش الكريم، ومقاساة النفس الأبية، وضريبة القلب المحبّ.

من عنوانات المقطوعات:

(بسمة الحزن، وسلاماً على جبهة الفجر، لرحيل خلف الأزمنة، وحب ودموع وتراب، مثقل بالليل، غريباً أراني، يوسف البئر، سأنثر بعضي، اعذروني، تائه، وأتدرين؟، لعينيك).

يقول الشاعر في مقطوعة «لم أشأ»:

لم أشأ جرح البنفسجِ
حيث سال رحيقه
يغري كؤوس الفجر حبّاً
بالشرابْ
أنا لم أشأ قهر السكون



وأن أجاهر بالرعود

ولم يكن في خاطري تزوير

وجه الغيم يوماً

بالسرابْ

أنا مثلما العصفور قلبي

يستبدّ به الغناء فينتشي طرباً

يموسق وجه أُغنيتي على شفة

السحابْ

صـــدرت للشاعر مجموعــة شعرية بعنــوان «عندما يأتي الخريف»، ولديه مجموعتان قيد الطباعة.

الطرق الجبليـة الوعرة



- رواية الطرق الجيلية الوعرة (٣٨٤) صفحة.
- إصدار: الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٨م.
- تأليف: علي محمد مرعي.

الروائي «علي مرعي»، كاتــب وفنان تشكيلي، مواليد طرطوس، الشيخ بدر (١٩٦٢م). له كتب عدّة، منها:

(شرفة الخرنوب- رواية، ولهذا الزمن- رواية، وياما- شعر محكي).

الروايــة، تتشكل رواية «الطرق الجبليــة الوعرة» من ستة فصول، جاء في نصّ غلافها الأخير:

«حين كانت رياح الدهر العاتية تهبّ على المنطقة لم تكن تعرف تضاريسها ولا تميز بين قريبة وأُخرى.

الأغلبية ضعفــاء لكن النخوة تستيقظ حيــن يتعلق الأمر بالكرامة رغم الجوع والفقر الذي يقضّ مضاجعهم.

الأحداث تذهب باتجاه الخروج من سراديب الصمت والخنوع وحلم التطلّع نحو فجر جديد ينعش الصدور.

النسمــات الرطبة التي تهبّ من المدى الغربي تحمل معها الأخبار المنعشة، ورداء الليل الذي لبسته المنطقة من زمن طويل سيطوى وسيكون بالإمكان أن تنمو من رحم هذه الأرض رُسَيمات غرسها ذات يوم كل الشرفاء».

❁ ❁ ❁

صدى المعرفة

إعداد: ريما محمود

قصيدة نادرة للشاعر محمد الماغوط

الأستاذ والمؤرخ الصحافي جان داية في كتابه: «محمد الماغوط وصوبيا الحزب القومي» عن دار (فجر النهضة، ٢٠٠٩م) نشر قصيدة شبه مجهولة للشاعر السوري الكبير «محمد الماغوط»، كان الشاعر قد نشرها في «جريدة النهضة في ١٥ كانون الأول ١٩٥٣م» وهي بعنوان: «هياج الجماهير» نأخذ منها المقطع الآتي:



«يا لها من شوكة قاسية

تزأر في ضميرك أيها الثعلب الكسول

بل يا له من خنجر عنيد

يغري ضلوعك الماكرة

لتحرك وجنتيك بالدموع الشقية

كبصاقة تنين.

❁❁❁

ولكن ما أضعف سلاح الدموع أيها الشقي

إنه لن يمرَّ برقابنا بعد الآن

كأننا أشباح من الطين

لأننا نلويه كما نلوي كل الشذوذ في بلادنا
لأننا أمة نابضة بالشموخ
منذ أن رنَّ ناقوس البطولة
تحت القمر
تحت الشمس التي عانقت تمثال حمورابي
منذ أن شربت كؤوس الشاطئ الذهبي
دماء هانيبال...
لك منا الشفقة يا سجين الرخام
الشفقة الممنونة يا ذليل التاريخ
يا لها من حقارة كبرى
تغرس في كبريائك مسمار الندم
وتنبش من أعماقك الهزيلة عروق الإرهاب».

فاني أردان: الجريمة الأمريكية مستمرة...


فاني أردان

في حوار مع النجمة الفرنسية «فاني أردان» نشر في جريدة الأخبار عشية زيارتها لبيروت لعرض مسرحية مقتبسة عن رواية مارغريت دوراس «**هيروشيما يا حبي**» التي كتبتها «دوراس» أصلاً كسيناريو لفيلم يحمل عنوان المراوغ ذاته (١٩٥٩م)، المسرحية من إخراج «بيرتران ماركوس». وفي هذا الحوار الذي أجري معها في باريس، تحدثت «أردان» عن قيمة النص وعبقرية دوراس والمخرج...


مارغريت دوراس

ورداً على سؤال وجه للنجمة «أردان» حول راهنية العمل الذي كتبته «دوراس» منذ عقود مضت، قالت «أردان»:

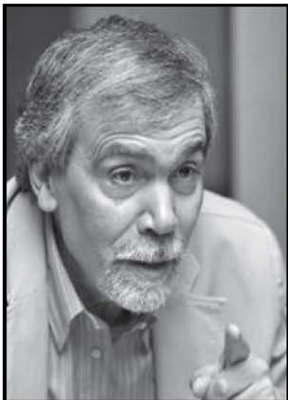
«في ظل الحياة المعولمة التي نعيشها اليوم، يُحاولون إيهامنا بأننا أصبحنا عائلة إنسانية واحدة أو موحدة لم تعد تفصل بينها حدود أو مصالح أو حتى آفاق مختلفة. وهذه أكذوبة كبيرة. يجب أن نتساءل مَنْ المستفيد من العولمة؟ كلما تمَّ تجميع البشر في كتل أو تجمعات أكبر، سهلت مهمة التحكم بهم والتلاعب بمصائرهم. أعتقد أن تلك الثنائيات المتضادة التي عبّر عنها نص دوراس ليست راهنة فحسب، بل أزلية. لم يكن منطلق نصها فظاعة الجريمة التي ارتُكبت في هيروشيما فحسب، بل إنها أشارت إلى الطابع المجاني لهذه الجريمة التي لم يكن هناك ما يسوِّغها عسكرياً. كانت الحرب قد شارفت على الانتهاء، وحُسمت نتائجها. كان الهدف الوحيد هو البرهنة على التفوق العسكري والعملي الأمريكي، من أجل بسط هيمنته على العالم لاحقاً. ومن ثمَّ لم تكن هيروشيما جريمة بحق سكان المدينة أو بحق اليابانيين فحسب، بل جريمة بحق البشرية جمعاء».

وقالت نجمة المسرح الفرنسية: «فرادة نص دوراس أنه رصد أيضاً استمرار المفعول الفظيع لجريمة هيروشيما، من خلال التشوهات التي لحقت بأجساد الضحايا ثم بأبنائهم بعدهم، للتدليل على أن الجريمة مستمرة، وأن الفظاعة مرشحة لأن تتكرر من خلال المزيد من الحروب والمجازر والتصفيات. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كانت الرؤى المتفائلة هي الغالبة. اعتقد الجميع بأن البشرية تعلمت الدرس، وأنها ستتخذ الاحتياطات اللازمة لعدم تكرار الفظائع والجرائم التي ارتُكبت بحق الإنسانية. ميزة عمل دوراس - رينيه أنه اختار التغريد خارج السرب والسباحة ضد التيار، محذراً من أن ذاكرة الضمير الإنساني قصيرة، وأن الطبع البشري لا يتغير. ومن ثمَّ، فإن الجرائم والفظائع مرشحة لأن تستمر وتتجدد، طالما ظلت دوافعها ولعبة المصالح التي تحركها قائمة».

وقالت أيضاً: «يجب أن نتصدى للهيمنة الأمريكية ونحاربها. لكن من دون الوقوع في التسطيح السياسي، فمعاداة الهيمنة الأمريكية لا تعني أن نؤيد هيمنة قوة أو قوى أخرى. يجب التصدي للهيمنة بكل أشكالها، لا لأسباب أيديولوجية أو حسابات سياسية أو مصلحية، بل دفاعاً عن القيم الإنسانية.

لتحقيق ذلك، يجب أن نعمل على إيقاظ الضمائر. فالأخطر في عالمنا الراهن ليس مشاريع الهيمنة التي تسعى لتسليع العالم والتلاعب بمصائر الناس فحسب، بل أيضاً ما نشهده من تنويم للوعي الإنساني من خلال نشر القيم الاستهلاكية التي تؤدي إلى ترهل الفكر، وحلول الاستكانة والخضوع محل العقل النقدي».

هل الجاحظ والمعري موجودان فعلاً؟!


عبد الفتاح كيليطو

يروي الأديب والمفكر المغربي عبد الفتاح كيليطو في مقدمة كتابه «أبو العلاء المعري أو متاهات القول» الطُّرفَتَيْن الفكريتين الآتيتين: «**عندما نشرت «الكتابة والتناسخ» وهو كتاب خصصته جزئياً للجاحظ الذي صرح بأنه نسب نصوصاً من إنشائه لبعض المتقدمين، بعث إلي أستاذ فرنسي رسالة يسألني فيها هل مؤلف البخلاء عاش فعلاً أم هو من ابتكاري ونسج خيالي؟... لا أعتقد أنه كان يمزح تماماً، وأغلب الظن أنه قرأ اسم الجاحظ أول مرة في كتابي، وارتاب في وجوده بسبب حديثي المطول عن الوضع والتزييف الأدبيين**».

ويقول الأستاذ كيليطو: «بعد بضع سنوات زار روائي ألماني المغرب، فنظم أحد المعاهد طاولة مستديرة على شرفة أسهمت فيها بعرض متواضع عن أبي العلاء المعري، وعندما انفض الجمع اقترب الروائي مني وسألني بشيء من التردد: **هل المؤلف الذي تحدثت عنه، عاش فعلا أم...؟**.

لم يكمل سؤاله ونظر إلي كالمستغيث. أوضحت له بنبرة بيداغوجية أن المعري شاعر عربي عاش ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين في بلدة سوريّة اسمها «معرة النعمان». وأنه صاحب مؤلفات في موضوعات أدبية ولغوية مختلفة، وأن «رسالة الغفران» ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية، وكذلك منتخبات من شعره».

وكي لا يبقى أي مجال للشك ودرءاً لكل شبهة، ختمت بالإحالة لشيخ المعرة. طوال حديثي كان الروائي يكتب توضيحاتي في مذكرته.. ثم شكرني وأودع المذكرة في جيبه، وانتهى الأمر.

❁ ❁ ❁

برتراند راسل

زهاتوبولك

ترجمة: شاكر إبراهيم

اختيار وتقديم: ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

برتراند رسل

(١٨٧٢- ١٩٧٠)

الكاتب والفيلسوف البريطاني برتراند رسل، صاحب الكتب المتنوعة في المنطق والفلسفة والأدب والمجتمع، عرفه قراء العربية من خلال ترجمات معظم أعماله ومن خلال مواقفه المؤيدة للسلام العالمي ومناهضة الحروب، ونسجل له كل التقدير على موقفه الشجاع من العدوان الإسرائيلي على الدول العربية عام ١٩٦٧م.

عايش رسل جنون العالم الغربي، في القرن العشرين وكان شاهداً على حربين عالميتين، الحرب العالمية الأولى ثم الثانية بعد قرابة عشرة أعوام لا غير، وانتهت بالضربتين الذريتين لهيروشيما ونغازاكي اليابانيتين، ثم الحرب الفرنسية والأمريكية على فيتنام، ثم نكبة الشعب الفلسطيني، وكفاح الشعوب المستعمرة من أجل التحرر من الاستعمار الأوروبي، وكان رسل رجل سلام ومدافع عن حقوق الشعوب المظلومة، وربما قادته هذه الأحداث اللاعقلانية إلى نوع من التصوف غير الإيماني (الملحد) لكن الذي يؤمن بالإنسان وبحرية الفكر.

كان رسل صاحب عقل تحليلي، منطقي في الفكر والفلسفة والعلوم. وهو في الأدب يبدو شديد الانحياز إلى الخيال والحلم واليوتوبيا، وكل هذه البؤر الخيالية أو

الافتراضية هي خاضعة لمنظومة رسل العقلية الصارمة شديدة التمسك بالتحليل وبالمنطق.

من أشهر كتبه: تاريخ الفلسفة الغربية، وحكمة الغرب، والعالم كما أراه، وما وراء المعنى والحقيقة، وكتب أخرى كثيرة..

نال عام ١٩٥٠ جائزة نوبل للآداب على مجمل أعماله ومواقفه الإنسانية. القصة التي نقدمها لقراء مجلة المعرفة، هي قصة ذهنية خيالية أو فنتازيا عقلية بقلم فيلسوف معاصر، عارمة بالتهكم من المنظومات العقائدية الشمولية، مثل النازية والشيوعية في النظرية وفي التطبيق، هي قصة بالإضافة إلى طرافتها مثيرة للعقل وجديرة بالقراءة.

الفصل الأول

الماضي

في رداء فضــفاض وبخطاً وئيدة اعتلى البروفيســور «دريوزدســتادز»، عميد كلية التعليم الطائر الصيت، منصته بقاعة الأنكا بمدينة كوزكو، بعد أن أعيد إليها رونقها وجلالها، إذ واجه الحاضــرين الذين كانوا يتحرّقون شوقاً إلى سماعه في مستهل العام الدراسي. وكان قد خلف في هذا المنصــب الخطير أباه، البروفيسور «دريوزدســت» -الذي لم يكن دونه شهرة- بعد أن وافته المنية. أما من كان على وشــك أن يحاضــرهم من الدارسين، فهم المئة المنتقاة من طول البلاد وعرضــها ممن كانوا يبشّــرون بمستقبل باهر مشــرق وأنهوا المرحلة العادية فصاروا يقفــون على أعتاب دراســتهم العليا التي جعلت لكلية التعليم ما لها مــن تأثير بالغ على الرأي العام. واشــرأبت أعناق الشباب ينتظرون في شوق ولهفة كلمات الحكمة الرصينة -وفي ذلك لم يداخلهم أدنى شــك- التي توشك أن تتدفق من بين شفتيه. ولم تظهر بين تلك الصفوة المختارة دلائل أي ذكاء متّقد يستوقف الانتباه إلا بين اثنين دون غيرهما: أحدهما ابنه توماس الذي يرجى أن يخلف أباه في مركزه المرموق حين تحين الساعة. والآخر فتاة رائعة الحسن، عميقة التفكير، تلتهب حماساً وغيرة، اسمها «ديوتيما» كانت قد أسرت بالحب قلب توماس.

وتنحنح البروفيسور ورشف قليلاً من الماء، ثم طفق يقول:

«إن موضوع محاضرتي اليوم هو القرن الثلاثون قبل «زهاتوبولك» أو القرن العشرون بعد الميلاد كما يطلق عليه الذين عاشــوه. ويعتقد الحكماء ممن يرسمون سياسة التعليم في هذه البلاد السعيدة أنكم، أيها الصفوة المنتخبة، قد بتم راسخين في فهم وتقدير عقيدتنا المقدسة والإلهام الذي ندين به للإله زهاتوبولك، مؤســس هذه العقيدة، رســوخاً يتسنى لكم معه أن تسمعوا عن عصور كانت تفتقر

إلى إيمانكم وحكمتكم دون أن يختل اتزانكم العقلي. وبديهي أنه لن يغيب عن بالكم هنيهة أنها كانت عصـــوراً غارقة في دياجير الظلمـــات. وخليق بكم كذلك -كباحثين مجدّين في دراســة التاريخ- أن تعزلوا، وأن تكون مهمة شـــاقة مضنية في بعض الأحايين، في خيالكم كل ما تعرفونه عن المخلصين الصالحين مدركين بأنه وسط الظلمة عينها قد وجد رجال يرقون إلى مستوى أفاضل الرجال، إذا ما قيسوا -على الأقل- بمن كانوا يعيشون في زمانهم... وحري بكم أن تتعلموا ألا ترتاعوا حين تعلمون أن أولئـك الذين كانوا يحظون باحترام الجميع وتبجيلهـم كانوا يأكلون البازلاء علانية وبلا حياء!... ولعل الحقيقة الأخرى التي قد يصعب عليكم التجاوز عنها هي أنه حين كان عدد أبنائهم يتعدّى ثلاثة الأولاد لم يأكلوا، كما نفعل نحن، الزيادة من أجل مجد الدولة بل كانوا يبقون عليهم، في أنانية، أحياء. وخلاصـــة القول إنَّ من واجبكم أن تُنمُّوا في ذواتكم ملكة الخيال التاريخي. دون أن يخفى عليكم أنه وإن كانت هذه فضيلة تتحلون بها أيتها النخبة المنتقاة، إلا أنها ستكون عاملاً هداماً جد خطير فيما لو انتشــرت في دوائر أرحب وأوســع نطاقاً. واذكروا دائماً أن ما يتردد في هذه القاعة إنما هو وقف على الحكماء ولا ينبغي أن يذاع على السوقة، وبهذا الشرط أبدأ مهمتي.

كان القرن الثلاثون قبل «زهاتوبولك» عصر انتقال سادته الفوضى وعمَّه الاضطراب، عصراً زخر بالانتفاضـــات والنكبات، عصـــراً اســتعيض فيه عن النظرية الإغريقية -اليهودية بالفلسفة البروســو- سلافية، وتلاشى فيه من عقول الصغار والكبار على السواء أساس العقيدة التي من دونها لا ينعم المجتمع بأمن أو اســتقرار. كان هنالك ما يعرفه ضـحايا الشـك المدللون بعصر الإيمان حين كانت الفلسفة الإغريقية- اليهودية يتقبّلها الجميع بلا جدال باستثناء أقليات ضئيلة كانت تخرســها المقطرة ويأتي عليها التعذيب بالخازوق المنتصـب في قلب النار المتأججة. بيد أن الذي وضع نهاية لهذا العصر عقيدة فاسدة ضارة لم تجد لها بيننا -ويسعدني التنويه بذلك- نصـيراً واحداً، تسمى بفلســفة التسامح. وأمن الناس فعلاً أن بوسع الدولة أن تنعم بالاستقرار على الرغم من الخلافات الجوهرية في معتقدات المواطنين الدينية. تلك هي البدعة التي أدت إلى انهيار النظرية الإغريقية اليهودية أمام الادعاء القوي للفلسفة البروسو -سلافية وأرجو ألا يساء فهمي، فأنا لا أذكر- وأملي ألا يتصـــور أحدكم لحظة أنني أفعل ذلك- أن ثمة ذرة من الحق في مبادئ الفلسفة الإغريقية- اليهودية أو في تلك التي قامت عليها النظرية البروسو- سلافية، إذ إن واحدة منهما لم تتنبأ بالإله زهاتوبولك. ولم يتبينا ما للرجل الأحمر من تفوق فطري على ما عداه من الأجناس، كما لم يدركا المبادئ الســامية التي تقوم عليها، في ســعادة تامة، كل من الحياة العامة والخاصة، من بينهما حياتنا نحن... إنما أقول عن تلك الأنظمة التي عفا عليها الزمن شيئاً

واحداً فحسب: أقول إنها طالما ظلت قائمة وآمن بها الناس بحماس بالغ يتحتم معه الإصرار على وحدة الصف، استطاعوا بذلك توحيد المجتمع عن نمط معين -حتى إن لم يرق، بالطبع، إلى مستوى الكمال الذي بلغناه نحن بفضل إلهام زهاتوبولك. لقد كانت للأنظمة السالفة جميعاً نقائضها التي أدت إلى انهيارها. فكان النظام البروسو- سلافي يبدو في أوج مجده راسخ البنيان، شأنه في ذلك شأن الفلسفة الصينية - الجاوية التي أعقبته، بيد أن ما انطوت عليه من نقائض قد أطاح بها في نهاية المطاف، وما خلا من الشوائب سوى نظام زهاتوبولك، الذي سوف يكتب له الدوام -دون سواه- طالما وجدت كائنات حية تمد زهاتوبولك بالمتعبدين المؤمنين...

ومضى البروفيسور يعلن أن معظم ما بين أيدينا من روايات عن انحلال الفلسفة الإغريقية- اليهودية قد سطر من وجهة نظر الظافرين. فهي تبرز زحف النصر للإله ستالينوس واستئصال ما تبقى من المشايعين لذلك النظام المنهار في كل بقعة من بقاع العالم... وأشار إلى أنه من واجب المؤرخ - لو تيسَّر له ذلك- أن يبحث عن روايات تمثل وجهة نظر الجانبين، وأن يكون للمقهورين نصيبهم فيما يكتب في هذا الصدد...

واستطرد يقول: «ومن حسن الحظ أنه ظهرت، أخيراً، في جزر «فولكلاند» وثيقة تمكن من يطَّلع عليها من أن ينظر بعين العطف إلى ما تميزت به نهاية عصر عظيم من قنوط وارتباك بالغين».

وبعد أن فرغ من تلاوة الوثيقة مضى يقول: «كانت أمثال هذه الوثيقة مجهولة بطبيعة الحال حين سادت الفلسفة البروسو- سلافية. فتحت لواء الإله العظيم «ديالميت» أسس سكان السهول الشمالية إمبراطوريتهم المظفرة وساندوها بالتشريعات التعسفية التي لولاها ما حظيت أساطيرهم بالقبول. ولقد ذاع صيت رسولهم «ماركوس» و«لينوس» في جميع أنحاء الدنيا بوساطة الأيقونات التي كان على كل بيت أن يقتنيها، ومن لم يحرزها كان الإعدام جزاءه!... وبات المؤسسان يتميزان بطويل اللحية وقصيرها على التوالي، وساد الزعم بأن فضيلتهما التي تسلب اللب إنما تكمن في زوائدهما كثيفة الشعر،... أما خليفتهما «ستالينوس» الذي كانت فضيلته عسكرية لا عقائدية فلم ينل قدر ما حظي به سلفاه من تكريم وتبجيل، وليس أدل على ذلك من الاستعاضة عن اللحية بالشارب فحسب!! وسرعان ما انقرضت اللغة الألمانية التي سطِّرت بها الكتب المقدسة لتلك الحقبة بعد زوال عهد «ستالينوس»، فلم يستطع قراءتها سوى نفر ضئيل من العلماء الذين لم يكن يسمح لهم بالاتصال بالشعب إلا عن طريق السلطة السياسية العليا، فقد كان ذلك القيد ضرورياً بسبب ما تضمنته تلك الكتب من فقرات، لو ترجمت بحذافيرها لأثارت قلق الحكام واضطرابهم وحملت المحكومين على الاستياء والتبرم.

«وسارت الأمور سيرها المحمود قروناً عديدة حتى جاء الوقت الذي توهم فيه الحكام أنهم في أمان واطمئنان فأعاروا آذانهم لعلماء الصـــين المتشككين الملحدين ولم تكن لبعض هؤلاء المتشككين، ولا غرو، أيُّ دوافع خفية بل كان يحركهم الفضول الفكري الجامح الذي أدّى دوراً بالغ الشـــأن في انهيار الحقبة الســـالفة، لكن فريقاً آخر يمثل الغالبية كان له هدف أسمى، فلم يكن أفراده يرون أن ثمة مســـوغاً لاحتكار البيض للكتب المقدســـة، وعقدوا العزم، في مخاتلة ودهاء، على الحط من شـــأن تلك الكتب وجعلوا يوحون بأن لغتهم -التي يجهلها حكامهم- كتباً ضاربة في القدم تفوقها قدسية وغموضاً وتدعو للرهبة. وراحوا يستميلون حكامهم رويداً رويداً وينشرون الإلحاد بين صفوفهم، أما هم فقد عزفوا عن ذلك، وبعد أن اتحدوا معاً بأوثق الروابط التي تربطهم بها عقيدة ســـرية انطلقوا يعملون في الخفاء متذرعين بالصـــبر لتقويض الصرح الشـــامخ للنظام البروسو -ســـلافي. وفي اليوم المعين الذي ســـبق أن حددوه في مجالسهم الســـرية قبل وقت طويل، هبُّوا للقضاء على حكامهم بســـمٍّ مركّزٍ مستخلص من نبات كراكاتو البركاني، ومن ثم بزغ فجر الحقبة الصينية -الجاوية التي سبقت عصرنا الميمون مباشرة...

«لقـــد ظلت بلادنا العزيزة، التي هي اليوم في أوج مجدها وعظمتها وتنعم بأمن دائم، أجيالاً طويلة تقاســـي آلاماً مريرة مبرحة، ففي غضـــون القرون الأربعة الأخيرة من العصر الإغريقي- اليهودي تعرض الرجل الأحمر للخداع، أو أصبح طريد القانون، أو انحط إلى مرتبة العبيد.

وفرض الرجل الأبيض الصلف سلطانه على قدرتنا العظيمة التي طردته منها الطبيعة الرحيمة ردحاً من الزمن إبان ازدهار إمبراطورية الأنكا الأولى، ولاحت مرحلة كأنَّ الإطاحة بهؤلاء السادة القســـاة تحمل بين جنباتها الحرية، ولما كان «البروســـيون- السلافيون» في حاجة إلى تأييدنا كـــي يطيحوا بالمعتدين من «الإغريق- اليهود» فقد جعلوا يقطعون أعظم الوعود بالحرية ليلهبوا حماسنا ويحظوا بتأييدنا، فما أن تحقق لهم النصر حتى حنثوا بالعهد وألغى الحمر الشجعان- من كان لمعونتهم أبلغ الأثر في الظفر- أنفســـهم في حال لا يفضـــل ما كانوا عليه من قبل، ولم يطرأ علينا أي تحســـن في ظل العهد الصـــيني- الجاوي. لكن التقاليد التليدة المســـتمدة من الماضي السحيق للأنكا المقدسين وآثارهم التي ما برحت تخبر بمجدهم وعظمتهم، هي وحدها التي أحيت الرجاء في نفوس جماعة سرية صغيرة بأن إله أجدادنا سيعود ويمنحنا السيادة التي نستحقها بما لنا من فضائل ولما قاسيناه من آلام وأوجاع...

«وانغمس الصـــينيون -الجاويون، مثلهم مثل حكام العصـــور الســـالفة، شـــيئاً فشيئاً في الملـــذات وفي الحياة الرغدة الناعمة، فلم تغرهم قمم جبالنا الوعرة ووديان أرضـــنا المقدســـة

صعبة المنال، فسكنوا القصور في السهول، وأحاطوا أنفسهم بكل ألوان الترف، يرتدون الحرير الناعم ويتكئون على الوســـائد المزركشة ويقوم على خدمتهم- وإن كنت أحس بخجل وأنا أفوه بذلك- عبيد من شعبنا... عبيد لم يشاركوا سادتهم تخنثهم ودلالهم، إذ لم يكن لهم نصيب فيما ينغمسون فيه من ملاذ وترف. وفي تلك الحقبة، أي منذ ألف عام فحسب، ظهر الإله «زهاتوبولك». لقد حســـبه، في بادئ الأمر، بعض الناس إنساناً ليس إلا، وكان ذلك كما نعلم، ضلالاً مبيناً، إذ نزل من قلب السماء واستقر فوق قمة جبل «كوتوباكسي» ورأته الألوف العديدة من بني جنسنا، ممـــن ألهمهم الوحي الإلهي، رؤية العيان وهو يهبط من العـــلا، ومن ذلك الجبل المقدس تعطف بالنزول والحلول بين عابديه الذين سرعان ما تبنوا من ملامحه صورة لإلههم المجيد الذي كان يتقبل ولاءهم قبل مجيء «بيزارو» المخرب المرذول. وتأجج الحماس المقدس في نفوسهم جميعاً بطريقة معجزة فأخذوا الداعرين الصينيين على غرة وأبادوهم، وفي الحروب الطاحنة التي اندلع لهيبها بعدئذ، قادهم زهاتوبولك إلى النصـــر بفضـــل نوع قاتل من فطريات كوتاباكسي التي لم يكن أحد يعرف خواصـــها حتى أعلنها لتابعيه، وظل ثلاثين عاماً بينهم غارقاً في الحرب أولاً ثم في فنون السلم، التي هي أشق وأعوص، بعد أن تحقق النصر الشامل. وإليه يرجع الفضل في إقامة المنظمات التي نعيش اليوم في كنفها، وســـيبقى «كتاب الناموس المقدس»، مهما أضافت إليه الأجيال المتعاقبة، أساساً لسياستنا. والويل كل الويل لمن يوحي بالتحول ولو قليلاً عن تلك الرسالة السماوية المقدسة.

الفصل الثاني

الحاضر

اســـتغرق نظام الحكم الذي أقامـــه الإله «زهاتوبولك» مدّة من الزمن حتـــى توطّدت دعائمه. أما مبادئه فقد كانت على نحو من الرسوخ والحنكة السياسية بحيث لم تتبنّاه أيّ انحرافات جذرية خلال الألف سنة التي مضت على حلوله، لقد انهارت الإمبراطوريات السابقة جميعها، كما علم زهاتوبولك، من جراء الترف والنعومة... ترف في المعيشة ورقة وسطحية في التفكير، وهذا ما ينبغي على تابعيه أن يتجنبوه، ومن ثم تحتم الامتثال لبعض القواعد دون اعتراض وتنفيذها بلا رحمة أو شفقة.

وأول ما أوصـــى به الإله تابعيه هو أن يذكروا دائماً ســمو الجنس الأحمر على ما عداه من الأجناس ذات الألوان المتباينة. وأن لشــعب بيرو الســيادة على الحمر جميعاً، يليه في المرتبة أهل المكســيك. ومن المســموح به، بل من المحمود، أن يشاد بما كان للمايا القدماء من حكمة قبل أن يبدأ رجس البيض بتلويث نصــف الكرة الغربي، على أن يظل شــرف المجد القديم من نصــيب الأنكا. وفوق منحدرات كوتوباكســي نبتت فطريات دقيقة ســامة كانت دماء هنود بيرو النقية محصنة ضدها، في حين نشرت الموت الزؤام بين ما عداه من الشعوب، وبعد اختبار ما كان يجلبه ذلك الوباء من دمار دانت بقية شعوب العالم لسلطان الأنكا، وبات التفكير في التمرد أو الثورة عبر القرون أمراً غير محتمل الوقوع.

وأمكــن الحفاظ على قوة الجنس الحاكم بفضــل قواعد كثيــرة وتنظيمات حكيمة، لقد حظر عليهم أي لون من الترف، فكانوا يرقدون فوق أسرَّة صلبة ذات وسائد خشبية ويرتدون ثياباً من الجلد، مع الأخذ في الحســبان أن حلة واحدة تكفي أي رجل أو امرأة من مرحلة النضوج حتى الوفاة. وكان الحمَّام البارد في الطقس الجليدي ووســط ثلوج الجبال إجبارياً بقوة القانون، أما الطعام، وإن كان صحياً وكافياً، فقد رُوعِيَت فيه البساطة إلا في عيد الظهور السنوي، وتحتم على كل مواطن في بيرو أن يقوم بالتدريبات الرياضية العنيفة يومياً حفاظاً على لياقته البدنية، وحرّم الخمــر والتبغ على الطبقة الحاكمة وإنْ أبيحَ لرعاياهم. وأعلن الإله زهاتوبولك ما لم يكن معلوماً مــن قبل، وهو أن تناول البقول رجس يؤدي إلى تلوث كريه، فمن تناول البقول من بين البيرويين كان الموت عقابه حتى إن لم يتوافر لديه غذاء آخر، ومن شهد تلك الفعلة الشنعاء خضع لعملية تطهير شاقة طويلة... كان ذلك قاصراً على شعب بيرو إذ إنَّ دماء ما عداهم قد تلوثت بالفعل ولا سبيل إلى تطهيرها بحظر أو منع.

وكان التدريب على الخشونة يبدأ منذ الطفولة ولاسيما بين الذكور، فوزعت ساعات الدراسة بين العلوم والألعاب الرياضية والمباريات الخشنة العنيفة، وحُرِّمَ على الفتى أن يشكو من تعب، أو برد، أو جوع، ولو حدث ذلك لكان من نصيبه الازدراء به كضعيف هزيل ولتعرض لاحتقار القائمين على أمره ولمعاملة أقرانه السيئة التي يستحقها... وكان ذلك النظام الصارم يؤدي بحياة من به ضعف جسماني، إذ ساد الاعتقاد أن من العبث تركهم على قيد الحياة، فكانوا يلقون حتفهم منبوذين غير مأسوف عليهم، وإن بكاهم آباؤهم فذلك في الخفاء خشية أن يشاركوا أبناءهم خزيهم وعارهم.

أما التشـــدد في تربية الفتيات، فكان على نحو مغاير اعتقاداً بأن النمو العضــلي لا يساعد على إنجاب الأطفال، ولم يكن يسمح للفتاة أن ترضي شيئاً من غرورها أو تكشف عن عواطفها

فيمـــا خلا التعبـــد الروحي والتكريس للأنكا. وكانت تجبر على الطاعة المطلقة بأســاليب عنيفة محددة، ومع ذلك فإن عدداً ضــئيلاً ممن أظهرن قدرة بدنية ملحوظة تمتَّعن بشـــيء من الحرية والمبادرة وإن لم يتعد ذلك حدود الأساليب التي تبيحها التقاليد.

أما نشـــاط النساء، باستثناء القلة الضئيلة اللائي وصـــفن في شبابهن موهوبات بصورة فذة خارقة للعادة - فقد كان قاصراً على الأعمال المنزلية، ولم يعاملن على قدم المساواة مع الرجال، إذا لم يكن ذوات نفع في القتال مثلهم. حقاً، لم تنشب معارك بعد الأعوام الأولى، إذ صار البيرويون يعرفون بأنهم شعب لا يقهر، وكان عليهم أن يتذكروا دائماً - هكذا علمهم زهاتوبولك- أنه لا حفاظ على إمبراطوريتهم إلا بالتفوق في ميدان القوة، وأن كل إحساس كاذب بالأمن والطمأنينة قد جلب الدمار على جنس سبق أن كانت له السيادة، ولذا وجب على النساء أن يكن تابعات خاضعات، وأن يمارس الأزواج في الدار أساليب الأمر والنهي التي سوف يحتاجونها في العالم الخارجي.

لقد روعي مبدأ عدم تعدد الزوجات بكل دقة، ولم يســمح للرجال أو النساء بالانحراف عن سبيل الفضيلة، ولم يكن الحب الآثم وحده هو الذي يثير السخط والاستياء، بل كل ألوان الحب، وكان الآباء يرتبون شــؤون الزواج، أما اليتامى فكان الكهنة يتولون أمرهم. ولم نســمع قط أن رجلاً أو ســيدة تجاسرت على الاعتراض على هذه الأوضاع. فلم تكن الملذات غاية الحياة بل أداء الواجـب نحو الدولة ونحو زهاتوبولك المقدســ. وفي حالات الخيانة الزوجية جد النادرة كان الطرف المذنب يلقي الهوان ويطرد من البلاد ليعيش كعضو من عشيرة غير بيروية.

ونادى زهاتوبولك بحتمية أن يظل البيرويون طبقة أرستقراطية حاكمة معتزة بنفسها، وبألا يزيد عددهم بالسرعة التي يصبح معها كثيرون منهم فقراء معوزين، مع الاعتماد على موارد بيرو حيث إن السلطة، وليست الثروة، هي التي ينبغي أن تكون أساس تعاملهم مع العالم الخارجي، فما كان من مشرعهم الأقدس إلا أن أصدر قراراً يقضي بأن ما يرزق به الوالدان من أبناء بعد الثلاثة الأول يؤكل بخشـــوع في غضـــون شهر من ولادته، ومن ثم يقيم الوالدان على براءتهما من هدف إحداث عجز في الموارد الغذائية كما أن ذلك رمزاً لخضوعهما لزهاتوبولك كإله للخصب.

وكانت هناك طائفة مجدفة لم يكتب لها البقاء طويلاً، ضــللتها الفلســفة الإنسانية المهزوزة، آثرت تحديد النســل على أكل الفائض من الأبناء، فكان رد القائد الأقدس أن تحديد النســل خطية ضد هبة الحيــاة التي يمنحها الإله، على حين أن أكل الطفل يحيل جســده جــزاءً من حياة الوالدين التي منها انبعثت حياته التي تظل دائماً ممتزجة بها امتزاجاً خفياً، ومن ثم بات أكل الوالدين لطفلهما إجراء دينياً عميق المغزى إذ هو تجسيم لاستمرار تيار الحياة، كما أنه لاقى قبولاً من الجميع بلا استثناء.

وإذا كان شـــعب بيرو قد شكل عنصراً أرستقراطياً بالنسبة إلى السلالات الأقل شأناً، فقد وجدت طبقة أرســـتقراطية بين البيروبيين أنفســـهم، تقوم على الأصل والمقدرة فكان ينضم إلى صـــفوفها أي فتى أو فتاة يكشـــف عن نبوغ حقيقي، ومع ذلك جاء السواد الأعظم من أعضائها من ســـلالة القواد الذين قادوا قوات زهاتوبولك إلى النصر في حروبه العظيمة التي خاضها من أجـــل الحرية والفتوحات. وكان رجال الدين، من ذوي الســـيطرة والنفـــوذ، يختارون جميعاً من بيـــن هـــذه الطبقة التي كانت تنعم في بعض مناحي الحياة بقدر من الحرية لم يحظ به ســـواهم، فكان بوسعهم، مثلاً، أن يضاجعوا زوجات عامة الشعب دون لومة لائم، كما كانوا يستثنون من القوانين الخاصة بالمأكل والملبس.

أما العقيدة الدينية فقد تبعت إلى حد كبير ما كان سائداً في بيرو والمكسيك قديماً، فارتبط زهاتوبولك في الأذهان بالشمس، وكانت أشعته المقدسة هي التي تهب النمو للنباتات، كما كانت هنالك آلهة تمثل القمر تحتل مرتبة أقل شـــأناً في العقيدة، مع أنها تضـــطلع بدور مهم في السنة الزهاتوبولكية، إذ في بدء بزوغ أول قمر بعد الانقلاب الشتائي وفي اللحظة التي يلوح فيها كان الشمس والقمر في خطر من أن يفقدا فصائلهما المتعددة، كانتا تستردان قوتيهما بفضل طقوس قديمـــة عندما يحل زهاتوبولك، كإله للشـــمس، برهة وجيزة في الأنكا الحاكم في حين تتجســـد إلهة القمر في عذراء يعرف الكهنة شخصيتها عن طريق بعض الرموز المقدسة. وتتحد الشمس ليمنح كل منهما الآخر حياة جديدة. كان الكهنة يقودون العذراء المختارة في خشوع ووقار إلى الأنكا، وبامتزاجه بها تســـترد الشـــمس قوتها، وتحقيقاً للامتزاج التام كان الأنكا يلتهم المرأة في صبيحة اليوم التالي لأنها لم تعد تصلح للغاية التي كانت العذرية شرطاً أساسياً لتحقيقها. وعقب أداء هذه الفريضـــة المقدسة إثر الانقلاب الشـــتوي مباشرة يحل عيد الظهور، وكان يوم عطلة عامة يرفع فيه، برهة وجيزة، كثير من قيود التقشف.ولم يكن امتزاج الأنكا السنوي «بعذراء العام» يتم لغير الأهداف الدينية بطبيعة الحال، فقد كانت له زوج ســـوف يخلفه ابنها الأكبر. ولم يكن بصـــفته الشخصية بل كممثل مؤقت لزهاتوبولك، يضاجع السيدة التي كانت تكرم في أثناء أداء تلك الفريضة، كعروس لزهاتوبولك ومن كان يقع عليها الاختيار بين العذراوات تحظى بأعظم تكريم، ومن ينالها الشرف بين الأسر يعلو شأنها، أما العروس نفسها فكانت تفيض غبطة وفرحاً علـــى الرغم مما كان ينتظرها من موت محقق. وإن أروع ما عرف من الشـــعر الغنائي ليس في الواقع إلا أناشيد النصر التي كتبت بلغة قديمة جافة تعبر عن فرحة العروس لمجرد التفكير في أن المعدة المقدسة ستبتلعها.

وحدث مرة إبان القرن الأول من هذا الحكم، أن وقعت حادثة مشينة هزت السلطة الحاكمة من أساسها، عندما نصب أحد الرجال «أنكا» على البلاد فوقع في غرام عروس زهاتوبولك وأبى، في عقوق، أن ينحرها ويأكلها، وأبقاها على قيد الحياة، وجعل يوافيها في الخفاء، فوقع ما كان في الحسبان، ولم تسترد الشمس قوتها وباتت تشرق كل صباح متأخرة كعهدها في فصل الشتاء. وأصيب الأنكا المزعوم بالشيخوخة قبل الأوان، فسقط شعره وأسنانه. وسادت الحيرة وعم اليأس المصحوب بالشكوك القاتمة. وفي عيد الاعتدال الشمسي، عيد الربيع الذي أقيم في موعده المعتاد على الرغم من احتجاب الشمس طفق البرق يومض في السماء الصافية فصرع الأنكا المزعوم وأرداه قتيلاً. واتضح فيما بعد أن أمه كانت قد ارتكبت الفحشاء ولم يكن من حقه أن يرتقي العرش. لقد كانت بعض الشكوك تداعب أفكار فريق من المفكرين، فما لبثت أن تبددت بالطبع نهائياً.

وكانت أراضي بيرو المقدسة تضم ما كان يعرف في العصر الإسباني باكوادور وشيلي، وحين تحررت تلك المنطقة، اتخذ زهاتوبولك الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على نقاء الدم الهندي، فاستؤصل البيض والزنوج، وعقم المولدون. ومع ذلك أفلت بعض الذين لم يتكشف فيهم أثر الدم الأجنبي، فكان يولد، بين الفينة والفينة، أطفال يحملون سمات البيض أو الزنوج. وكان أطباء الدولة يقومون بفحص جميع الأطفال حديثي المولد فإن ظهر مثل هذا الأثر تحتم على الوالدين أكلهم وتعرضا بدورهما للتعقيم، ولما كان النظام لا يزال حديث عهد، كان هذا الإجراء الصارم كفيلاً بأن يثير السخط والاستياء. ومن ثم حامت الشبهات حول أمثال أولئك الوالدين وخضعوا لرقابة رجال الشرطة وما كادت تمضي مئتا عام حتى اختفى كل أثر للدم الأجنبي ولم يبق في طول البلاد المقدسة وعرضها سوى الدم الهندي النقي.

وانتهجت سياسة رسمية مغايرة في خارج بيرو، فكان شعب المكسيك يعامل على قدم المساواة تقريباً بين البيروويين، فسمح لهم بتولي مناصب الجيش والحكومة وما خلا العليا منها وبشرط أن يكون دمهم نقياً، وكان التعليم العالي متاحاً لهم، بل كانوا يُقبَلون في جامعة كوزكو. ولم يحظ ما عداهم من الهنود بامتيازات مماثلة، وإن كان من المسلم به أنهم نالوا من المزايا ما هو جدير بالتقدير. أما البيض والصفر والسمر والسود فكانوا يعاملون كسلالات أدنى ويحاول المسؤولون، عن عمد، الإبقاء على حالتهم الدنيئة. حقاً كانت هناك بعض الفوارق، فقد كانوا يكرهون السود الذين لم يحدث أن قامت لهم إمبراطورية ولكن دون أن يخشوهم، أما البيض والصفر ممن كانت لهم إمبراطوريات عالمية فكانوا مرهوبي الجانب، وكان لا مناص من تدعيم ما يكنه البيروويون لهم من ازدراء وكراهية.

كان التعليم محرماً على كل من ليس هندياً، وقضى على الجميع بلا استثناء، بالعمل اليدوي عشر ساعات يومياً. وحينما كانت بلاد بيرو تحتفظ ببساطتها الريفية القديمة وتعزف، في حرص، عن كل ما يفسد جمالها الطبيعي، كانت بقية العالم تزخر بكل ما هو حديث في ميدان الصناعة، اعتقاداً بأن المصانع والمناجم وأكوام عوادم المصانع والأزقة القذرة والدخان الأسود والقاذورات إنما تتفق وطبيعة البلاد الأجنبية. وآمن البيرويون –وجعلوا يلقنون العالم بأسره– بأنهم أبناء الشمس وما عداهم من أجناس قد خلق من الطين. واستغلوا كل ما نادى به زهاتوبولك عن تأثير الملذات الموهن للقوى في الحط من شأن الشعوب غير الهندية التي ما كانت تفرغ من عملها اليومي حتى تتعرض لكل أنواع الإغراء على شرب الخمر والانغماس في تعاطي الأفيون فيفقدوا صوابهم، ولم يكن الزواج بينهم مباحاً بل الاختلاط العام. وحرِّم على الأطباء مقاومة الأمراض التناسلية التي انتشرت من جراء هذا الاختلاط، وكان الموت عقاباً للبيروي الذي تثبت عليه ثمة الاختلاط الجنسي مع من ينتمي لجنس أدنى. أما قوات بيرو التي تحتم وجودها لصون الأمن والنظام بين السكان المتبربرين فكانوا يحاطون بكثير من العناية لكيلا يتدنسوا بما يحيط بهم، فكانوا يشجعون على مشاهدة سكان البلاد الأصليين وهم يتناولون البقول إذ كان هذا المشهد المقزز للنفس يثير حميتهم الوطنية إلى أبعد حد. وكان من نتيجة الأمراض والإفراط في الشهوات أن أخذ سكان العالم غير الهندي ينقرضون رويداً رويداً وطفق بعض الحالمين يتكهنون بعالم تطهَّر من جميع الأجناس خلا الجنس الأحمر في المستقبل البعيد، عندئذ تتحقق بين الناس المساواة التي لا يسمح بها في الوقت الراهن. ومع ذلك كانت الأحلام الممعنة في الخيال ضرباً من المخاطرة، من انغمس فيها نظر إليه بعين الريبة والشك. أما حكام البلاد الأجنبية، فكانوا ينتخبون بحذر ودقة، فقد دلت التجربة على أن من بطبيعتهم عنصر من عناصر القلق وعدم الاستقرار كانوا عرضة لمختلف أنواع الاضطرابات العصبية. لقد كان بعضهم يلجأ إلى أساليب العنف مع المواطنين بلا مسوّغ، كما يسعى بعضهم الآخر وهم الأشد اضطراباً، إلى أن يعقد معهم صداقات ويعاملهم على قدم المساواة، كما وجدت شرذمة من الحكام آمنت بأخوة البشر جميعاً، واكتشفت وثائق أثرية ترجع إلى العصر الإغريقي- اليهودي تؤيد هذه النظرية المستهجنة. واقتضى الأمر أن يؤخذ أولئك الحكام بالشدة والعنف وأن تعقد كلية التعليم في كوزكو دراسات من شأنها أن تدفع هذا الخطر، وبمرور الزمن تضاءلت حدة هذا الخطر بفضل نجاح الأساليب التي أنتجتها الحكومة في حمل المواطنين على الانحطاط شيئاً فشيئاً حتى صاروا أشبه بالحيوانات. وهكذا غدت سيادة البيرويين بعد بضعة قرون راسخة لا تتزعزع.

الفصل الثالث

الثلاثي

استمرت محاضرات البروفيسور دريوزدستادز طوال العام الدراسي وأثارت بين توماس وديوتيما مناقشات حامية كان لصديقتها «فريا» فيها نصيب ضئيل، وأخذت ديوتيما تحسّ بتأثير المحاضرات من ناحية وقراءة التاريخ القديم من ناحية أخرى، تحسّ بمعضلات أثارت دهشتها وبعثت الحيرة والقلق في نفسها. فلم تكن على يقين من أن أكل لحوم البشر أمر ضروري أو مرغوب فيه... لقد أوضح البروفيسور دريوزدستادز أن تشبيه العروس بالقمر ينبغي ألا يفهم حرفياً، فما هو إلا تشبيه رائع جميل. وفي صبيحة أحد الأيام راودت ديوتيما فكرة رهيبة وطفقت تتساءل: «ترى، إذا كان الارتباط مجازياً لم لا يكون أكل العروس كذلك؟ ألا يمكن لتمثال من كعك الجنزبيل أن يقوم مقام العروس الحية؟ وهنا أحسَّت الدم يتجمد في عروقها من جرّاء التفكير المشوب بالتجديف، وارتعدت أوصالها وامتقع لونها -فتساءل توماس الذي كان يجلس إلى جوارها، في دهشة عما جرى! فأدركت ديوتيما أنه ليس من الحكمة بمكان أن تبوح بما يجول بخاطرها لأنه فكر عابر فحسب، ولكن الوساوس راحت تترى... وفي مكتبة الجامعة عثرت على كتاب قديم علاه التراب، يلوح جلياً أن يداً لم تمتد إليه منذ أمد بعيد، كان الكتاب يحوي بين ضفتيه أعمق تأملات العصور المظلمة التي سبقت ظهور زهاتوبولك المقدس، وارتاعت إذ كانت ضاربة في القدم، فقد سبق بعضها بزوغ فجر الفلسفة الإغريقية -اليهودية. لقد عثرت على نظرية تقضي بألا يقصر المرء عطفه على بني جنسه بل ينبغي أن يتعداه إلى سائر أجناس البشر. كما اكتشفت أن في الزمن الغابر كان الناس من غير الجنس الآخر تتملكهم أفكار ويفوهون بكلمات لا تقل حكمة وعمقاً عنها في عصر زهاتوبولك. وبدأت تتساءل عما إذا كانت وحشية البيض والسمر -كما تعلمت- تعزى إلى دناءة متأصلة في طبيعتهم أم أنها نتاج التنظيمات التي خلقتها السياسة البيروية فحسب. ولم تفصح كثيراً عن تلك الشكوك التي ساورتها لكن بعضها تكشف من خلال حديثها الحذر.

لقد أقلقت حالتها الفكرية بال توماس الذي بلغ إعجابه بها حداً أقام معه وزناً لكل كلمة تنساب من بين شفتيها، ومهما يكن مقدار ما تسببه له من انزعاج، فلم يكن في مقدوره أن يبعد شكوكها المبهمة الغامضة كما يدفع عنه ما يساور زميلاً آخر، لكن على الرغم مما استبد به من القلق فقد ظل إيمانه راسخاً، ظناً منه أنه لولا النظام الصارم للعقيدة الزهاتوبولكية لانهار المجتمع وعمت الفوضى. كان يخشى أن تفقد الحضارة خير ما فيها إذا اندلعت نيران الحرب الشاملة بالصورة التي تراوده. فماذا، يا ترى، يكون مصير العلم والفن؟ وما الذي ينتظر الحياة العائلية المستقرة؟ وهل من وسيلة تقي من الدمار الشامل الذي تسفر عنه المعارك التي تجتاح العالم بين الشيع المتطاحنة؟ فتلك المخاوف جميعها، كما تبدت له، لم يحل دونها غير الاستقرار الراسخ للعقيدة التقليدية... فلو تغلغل الشك في أدنى تصدع لانهار الصرح بأسره وخيم على العالم ظلام ثقافي دامس وانحدر الناس في كل مكان إلى درجة من الانحطاط كتلك التي عليها أحط الشعوب الخاضعة حالياً. كانت فرائصه ترتجف وترتعد من مثل هذه الأفكار كلما كشفت ديوتيما- وأن حدث ذلك لحظات وجيزة وعن غير قصد -عن آرائها الجديدة العارضة.

ودأب يقول: «حذار يا ديوتيما! إنكِ تبدئين رحلة ذهنية خطيرة... رحلة لا تؤدي إلا إلى هوة سحيقة معتمة سوف تبتلعك ما لم تقفلي راجعة. ولست أبغي أن أراك تسيرين على هذا الدرب وحيدة لكن لا سبيل إلى مرافقتك وإنْ كنت أحبك حباً جماً».

كانت فريا تشهد أحياناً تلك المناقشات، وإن تعذر عليها تقدير خطورتها، وكانت تعتز بديوتيما، التي كانت ترتبط بها منذ الطفولة بذكريات كثيرة مشتركة. أما توماس، الابن النابه لأب نابغة، الذي كان يرجي -وهو أمل رواد الجميع بلا استثناء- أن يحمل رسالة الثقافة الزهاتوبولكية التليدة، فقد حظي، ولا غرو، بتبجيل تلك الفتاة التي كانت تقدّس كل ما هو ثابت وراسخ البنيان. ومع ذلك كانت أقل اضطراباً مما كان ينبغي أن تبدو عليه، إذ كانت تقضي جل وقتها في هيام صوفي أشبه ما يكون بحلم، وكل ما لم يتفق مع هذه الحال بدا لها وكأنه ضرب من سوء الفهم، وعندما كانت ديوتيما تفوه بما يلوح هداماً، تبسمت فريا وقالت بلطف «إنك، بالطبع يا عزيزتي لا تعنين ما تقولين». ولم تكن ديوتيما ترى من اللائق أو الممكن أن تعكر صفو معتقدات فريا، فتظاهرت بالإذعان كما لو كانت منهمكة في تسلية فكرية ليس إلا.

كانت أسرة ديوتيما تنتمي إلى أعرق الطبقات الأرستقراطية في بيرو وأرفعها شأناً، وقد تولى أحد أسلافها قيادة أكبر جيوش زهاتوبولك في حرب التحرير، وظلوا عن جدارة يتبوّون تلك المكانة المرموقة عبر قرون متعاقبة، كما اختيرت عروس الشمس من أسرتهم مرات كثيرة، وكانت

صـــور تلك العرائس تطوق دائماً بجدائل الريحان الخضراء الناضرة وتحتل مكان الصدارة في قاعة طعام الأسرة. أما قصرهم المنيف فاتخذ مكانه في أرقى أحياء كوزكو بحديقته الغناء التي كانت أزهارها المختلفة تملأ جانب التل المنحدر بالروائح العطرة، وتزينه بألوانها البديعة.

وكانت أسرة فريا بدورها أرستقراطية وإن لم تكن على هذا الشأن من العظمة، أما توماس فقد تسـنى له أن يندمج في تلك الأوســاط الراقية بفضـل ما ينعم به أبوه المرموق من عقل راجح وما يؤديه من خدمات جلية. ولعل موقف الأســر العريقة من أمثاله كان ينطوي على كل شيء من المجاملة، لكن الحكومة كانت تعترف بأن استقرار نظام الحكم يتطلب خدمات أفضل العقول المفكرة بلا انقطاع. وأوحت السياســة بأنه لا غبار في التقبل الاجتماعي لأولئك الذين ارتقوا على هذا النحو سـلم الطبقات الاجتماعية. فلم يكن مثاراً للدهشـة إذن -عندما ذكرت ديوتيما لوالديها صديقيها توماس وفريا- أن أصرّا على دعوتهما ليفحصاهما ويحكما عليهما بمقتضـى المقاييس الحكيمة التي طورتها أجيال من السادة. وقلما أفصحت ديوتيما لوالديها عن أفكارها الدفينة، لكنهما استشفا منها جموحاً فكرياً رثيا له كل الرثاء، وبدا أن من عادتها الذميمة أن تدع الجدل يقرر النتيجة بدلاً من أن تحدد النتيجة أولاً ثم تطوع المناقشــات حتى تتواءم معها، وشــعر الوالدان بأن هذا الاتجاه إنما ينطوي على الفوضى والخطورة، لكن على الرغـم مما كان يقلقهما من تأملاتها الجامحة (التي كانت في الواقع أشـد جموحاً مما كانا يعلمان) كانا يعتقدان أنها مجرد حماس شـباب متأجج سـوف يخمده قليل من اختبار العالم الواقعي. وطابت نفســاهما بصداقتها لفريا التي شـهد لها كثيرون من الأصدقاء المعروفين بالتقوى المثالية. وأحياناً كان الأسى يستبد بهما، إذ لم تكن ابنتهما تشبه هذه القديسة التي لا تثير المتاعب لأحد، بيد أن شهادة المعلمين لقدرات ديوتيما العظيمة ورغبتها الملحة في الدرس والتحصيل خففت من حدة مخاوفهما، وأحسا بأن الزمن كفيل بأن يكشف لها أن الذكاء ليس كل شيء، كما سيزودها بذلك الحماس الأخلاقي الذي يبدو أنها تفتقر إليه في الوقت الراهن. وكان توماس تعززه سـمعة أبيه الطبية وسـجله الخاص الحافل، عين الصديق الذي يتمنيانه لابنتهما. وكل ما كانا يأخذانه عليه هو اشتهاره بالذكاء اللماح، إذ لم يكونا يعتقدان أن ابنتهما في حاجة إلى تطوير فكرها. لكن من كل ما عرفاه عن توماس فإن ذكاءه لم يمض به على أبعد ممـا ذهب إليه أبوه، ولديهمـا كل ما يدعوهما إلى الأمل في أن يكون عامل اسـتقرار للنظام الاجتماعي كعهدهما بأبيه العظيم. تلك هي الأمور التي حدت بأم ديوتيما إلى دعوة فريا وتوماس لتناول الشاي على مائدتها.

كانت أم ديوتيما، كمضــيفة، جواداً تتوق إلى أن يكون ضــيفاها على ســجيتهما، وإن تعذر عليهما التخلص من مظهر العظمة الذي بعث الرهبة في نفســيهما في بادئ الأمر، فكان حديثها معبراً وأحاسيســها صــادقة، ولم تغفل قواعد اللغة وسلامة الألفاظ، وأي رأي ينحرف، ولو قيد أنملة، عن جادة الصــواب لم يفلت، على الأقل، من لوم تعبر عنه برفع حاجبيها. أما ديوتيما فلم تقــم وزناً يذكر لحرمــات أمها الاجتماعية، فكان حديثها طلقاً إذ جاءت بعض كلماته من البراعة بمكان، في حين اصــطبغ بعضــهم الآخر بالعامية، وكانت تطلق العنان لســرعة بديهتها فكانت تجود في بعض الأحايين بما هو مستهجن، وتارة تسخر بالبارزين من أصدقاء أبيها.

قالت أمها: «إنك، يا عزيزتي، لن تحصــلي على زوج ما دمت تســتخدمين مثل هذه العبارات المستهجنة ولا تبدين الاحترام اللائق بمن يكبرونك سناً». ولما بدا لها أن ديوتيما تحسن الظن بتوماس وحداها الأمل إلى أن يحد من جرأة ابنتها المفرطة اســتدارت نحوه قائلة: «إنني على يقين يا توماس من أن البروفيسور دريوزدستادز لا يقبل هذا التصرف أليس كذلك؟».

وأحس توماس بحرج شــديد لا يطاق، فقد كان متفقاً بينه وبين نفســه مع مضيفته، بيد أن الوفاء لم يدعه يتخلى عن ديوتيما، فتدخلت فريا لإنقاذ الموقف وطفقت تهيم بجمال المكان.

قالت: «يا للسعادة التي تنعمون بها حين تجلسون في هذه الحديقة الغناء تتأملون تلك الثلوج الخالدة وتدركون أن مملكتنا المقدسة سرمدية سامية كتلك القمم الشمَّاء!».

وشــاركتها أم ديوتيما تلك المشاعر وإنْ ساورها الشك في أنه من دواعي الذوق السليم أن تعرب عنها، فلا غبار على حماســها، لكن ينبغــي أن يظل دائماً في حدود الآداب واللباقة، وفي حين كانت تتردد فيما عســى أن تكون عليه الاســتجابة الملائمة لهراء فريــا، اندفعت ديوتيما تقول: «هيا! هيا! يا فريا، فالقمم ليست بخالدة لأننا نعلم من الجيولوجيا أنها تكونت بفعل هزات أرضــية عنيفة، بل ســوف تدكها يوماً هزة عنيفة أخرى. ألا تخشين أن يكون في مقارنة النظام الزهاتوبولكي بتلك الكتل الصماء الشاهقة ضرب من التجديف؟».

كان صدى تلك العبارة صمتاً أليماً حاول توماس أن يخفف من وطأته إذ قال: «آه، إن ديوتيما تستثيرنا فحسب، وأخشى أن مزاجها يذهب مع خيالها بعيداً في بعض الأحايين».

فقالت أمها: «حســناً، أرى ألا تقســوا عليها كثيراً، إني أذكر كيف كان أبوها العزيز، الذي بلغ الآن كل ما أتمناه من رصانة واتزان، يضايقني في فجر حياتنا، بالثرثرة حول البارزين من الجيل السابق، وسوف تتعلم شأنها في ذلك شأننا جميعاً».

وبتلك الملاحظة التي خففت من حدة الموقف انفضت الجماعة.

وما إنْ وجد الشـك له مقراً في أفكار ديوتيما حتى أخذت الاكتشافات العديدة تثبته وتؤكده، فـإن الكتاب الأثري الـذي وقع بين يديها زودهـا برغبة في البحث في أجـزاء قديمة من مكتبة الجامعة تراكم فوقها الغبار على نحو حال دون ارتيادها، وفي أحد هذه الجوانب عثرت على رواية معاصـرة عن الأنكا الشرير الذي تخلى عن واجبه في التهام العروس المقدسة، واستبان لها أنه كان للأنكا في ذلك الحين مشايعون عديدون راحوا يؤكدون أن عجز الشمس في أن تسترد قوتها لم يكن إلا ظاهرياً، وأن الكهنة هم الذين أوحوا بتأخير الساعات العامة نهاراً وبتقديمها ليلاً فبدت كما لو أن النهار لم يطل والليل لم يقصـر، واعتقدوا أن سـقوط شـعر الأنكا وأسنانه لم يكن إلا بفعل سمٍّ بطيء، وأن البرق لم يرده قتيلاً بل ومضة انبعثت من عمودين كهربائيين يحملان شحنة عالية. وكان من الطبيعي أن يقاوم خليفته ذلك الفريق من المشـايعين ويقضي عليهم بعنف بالغ. وتبينت ديوتيما أنه قد استخدم ضدهم الاضطهاد والقمع لا الحجة والإقناع.

ولقد وجهت إلى إيمانها المترنح ضربة أخرى، بغير وعي، من أحد أعمامها الذي كان يشغل منصـباً مرموقاً في حاشية الأنكا. فذات يوم أصيب هذا الرجل بمرض عضال، وفي هذيانه فاه بأمور كثيرة حسـبها من سمعوها هلوسة مجنونة، أما لديوتيما –التي كان من واجبها أن تقوم بتمريضه أحياناً– فقد بدت أوهامه المحمومة وكأنها تنطوي على عين الحقيقة.

كان ينفجر ضـاحكاً ثم يقول: «ها، ها، يخـال الناس أن الكهنة هم الذين يختارون العروس المقدسـة، وكم يفجعون لو تبينوا أنَّ خصيان الحاشـية هم الذين ينتقونها كأفضل فتاة تشبع شهوات الأنكا ونزواته!».

وكان خصيان الحاشية فريقاً من الرجال، وظيفتهم الرسمية ترتيل الترانيم القديمة للشمس فـي المعبد الفخم، مركز عقيدة زهاتوبولك، فكانت أصـواتهم الحلوة التي تسـلب الألباب تملأ السامعين جميعهم بما كانوا يحسبونه الروح المقدس. وفي حين هم ينصتون في خشوع كانت قلوبهم ترتفع نحو السـماء ويلوح وكأنهـم يبلغون درجة من التجلي والاتحاد مع الإله. وكم كان مريعاً أن يتصـور المرء أولئك الرجال قوّادين يرتدون قناع الدين الخادع. لكن ما حمل ديوتيما على هذا الاعتقاد هو هذيان عمها المضطرب.

وولّد هذان الكشـفان عن الاحتيال باسم الدين –أحدهما وقع منذ زمن طويل، والآخر يتكرر عامـاً بعد آخر إلى هذا اليوم– في ديوتيما نفوراً شـديداً، وإن لم تظهر منه، في الوقت الراهن، سوى النزر اليسير، فكانت في حديثها مع توماس تحتفظ لنفسها بأخطر أفكارها يحدوها الأمل في أن تقوده برفق رويداً رويداً إلى الاقتناع بأسلوب تفكيرها، إدراكاً منها بأن أيَّ صدمة سابقة

لآرائهـــا قد تنفـــره منها. لقد كانت فريا على الرغم من جمالها الأخاذ أشـــد غباء وتفاهة من أن تحـــرك في توماس مشـــاعر عميقة، أما ديوتيما فقد وجدها جذابة مثيـــرة حقاً لكنها مخيفة في الوقت نفســـه، كان يحسُّ معها بنشـــوة مَنْ يتسلق قمة جبل ثلجي منحدر خطير. فلم يكن قادراً على الابتعاد عنها أو الإذعان لها أو هجرها إلى غير رجعة...

الفصل الرابع

فريا

كان الثلاثة يجلسون ذات يوم بجانب مجرى جبلي غارقين في نقاش عميق، وإذا ببصر ديوتيما يقع على رجلين يختلســـان النظر إليهم من خلف الأشـــجار تبينت من زيهما، أنهما من خصـــيان الحاشـــية. كان أحدهما يشـــير إلى فريا والآخر يومئ برأسه في حزن وكآبة. ولم يرَ رفيقاها ذلك المشهد الذي بدا مغزاه واضحاً في ضوء ما أماط اللثام عنه عمها، وسرعان ما امتقع لونها وقالت في صـــوت خفيض: «فلنعد إلى المدينة». فتســـاءل الآخران: «ماذا دهاك؟». ولما بلغوا مكاناً آمناً راحت توضـــح لهما أنها تعلم أن فريا ستكون العروس المقبلة لزهاتوبولك. فسألاها: «كيف علمت ذلك؟» فأجابت: «ذلك مالا أستطيع توضيحه الآن، لكنكما ستتبينان أني على صواب».

ولم يمضـــ وقت طويل حتى أعلن على الملأ اختيار فريا. فغمرتها الفرحة العارمة واختبرت كل ألوان المشـــاعر التي كانت تنسب، أيام الفلسفة الإغريقية اليهودية، للسيدة العذراء في عيد البشـــارة، وارتجفت ديوتيما واهتز كيانها، ولم تحل العقيدة الدينية دون الإحساس بأن صديقة عمرها ستقاســـي من مصـــير رهيب، أما توماس فكان يدرك، بالطبع، أن مشاعر ديوتيما ليست ما يتطلبه الإيمان الصحيح، ولم يعتقد أنها محقة في ذلك، غير أنه لم يقو على احتمال ما يولّده التفكير في أنها مخطئة من ألم. وغمرت الغبطة والدي فريا، كما هو منتظر، بنوال أســـرتهم هذا الشـــرف العظيم. وطفقت أم ديوتيما تهنئها لصـــداقتها بفريا وتتباهى بهذه الصـــداقة أمام كل زائريها، وما إن مضت أيام معدودة على الإعلان حتى أبعدت فريا عن الأمور الدنيوية وخضعت لعملية التطهير والتقديس الطويلة التي تســـبق زفافهـــا، فبكتها ديوتيما. وعبثاً حاول توماس أن

يغتبط بما أسبغ عليها من شرف، وبذلت ديوتيما -التي ما برح الأمل يحدوها إلى تغيير توماس كلّياً- قصــارى جهدها حتى لا تؤدي خلافاتهمــا إلى القطيعة، وظلت الأمور بينهما على ما هي من شك وترقب طوال أشهر إعداد فريا.

وبتأثير النظام الذي طوره الخصــيان المقدســون شيئاً فشــيئاً عبر القرون حتى بلغ مرحلة الكمال، انغمســت فريا رويداً رويداً في هيام روحي، وعاملها الخصيان القائمون على أمرها كما لــو كانت كائناً إلهياً فأتوا لها بالثياب الفاخــرة التي لم تكن ترتديها غير عرائس زهاتوبولك عند تزينها، كما كانوا يقودونها كل صباح، وعند بزوغ الشمس تماماً، لتسبح في نبع مقدس كان من يدنو منه غير عرائس زهاتوبولك يصيبه الموت المحقق. وفي معبد مرصع بالجواهر تتلألأ جدرانه بحجارة الفسيفســاء التي تصور حياة زهاتوبولك الأرضية، راحت تصغي إلى الترانيم المقدسة التي كان الخصــيان يرتلونها بأصــوات طابعها النقاء الروحي، كما كانت تغتذي طعاماً خاصاً مغايراً لما يتناوله العاديون من الرجال والنساء، وتزود بدواوين الشعر القديم الذي يتغنى بغبطة القمر وهو في أحضان الشمس، وبصور لزهاتوبولك وعروسه في احتضان عاطفي مقدس. وفي عالم الأســطورة القديمة والطقوس كادت ذكريات حياتها اليومية السابقة تختفي، فكانت تتحرك وتتنفس وكأنها في حلم، ولاح لها أن روح الآلهة تمتلكها شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم.

وأخيــراً حلــت الليلة العظيمة، فارتــدت ثوباً أزرق براقاً تزينه نجوم لا حصــر لها ولا عدد، وأمسكت بيدها شعلة ملتهبة وأخذت تهبط ببطء السلم المقدس المفشى إلى الأنكا المترقب، وفي طريقها إليه انطلقت ترتل ترنيمة ضاربة في القدم، عذوبتها تأخذ بالألباب. ولما فرغت من المقطع الأخير كانت قد بلغت نهاية السلم فألفت أمامها الأنكا الذي طال انتظاره.

ومع أن الأنكا كان رجلاً ذا شفتين غليظتين وأنف مفلطح وعينين أشبه بعيني خنزير غائرتين في شحم، فقد بدا لناظريها كائناً مقدساً جديراً بأن يحل فيه زهاتوبولك. وأمسك بها في عنف، وهــو يقول: «والآن هيا انزعي هذا الرداء، فلا تتركيني أنتظر طوال الليل». وأحســت بأنه هكذا يسلك الإله ورحبت بالفرصة التي فيها تتواضع أمامه، وما إنْ فرغ من أداء الفريضة حتى أخذته سنة من النوم وراح يغط في حين مضت هي تتأمل في خشوع هيئته وهو في سبات عميق. وعند منتصــف الليل فتح الكهنة في هدوء تام باباً سرّياً وأومؤوا لها فتبعتهم على مهل، وهي نشوى، إلى حيث تلقى حتفها.

واستيقظ الأنكا في الوقت المعين وهبط لتناول إفطاره، وعند أول قضمة جعل يتمتم: «حسناً! لقد طهوها على نحو أفضل هذا العام على أيّ حال!».

الفصل الخامس

ديوتيما

بعــد أن اقتادوا فريا إلى التأليه والموت تغيرت حال ديوتيما، ففاضـــت ذكاء ومرحاً وأحبت التســلية الفكرية، وانطلقت تتابــع أيّ محاولة أو جدل، مهتمة بالمنطــق أكثر منها بالاعتبارات الاجتماعية، ومع ذلك باتت تحت وطأة تأثير فقدان فريا تضـــيق ذرعاً بما تمخض عن المعتقدات الكاذبة من آثار اجتماعية. ولم تعد تصـــدق كلمة واحدة عن العقيدة الرسمية، وأدركت بوضوح وجلاء أن زهاتوبولك لم يكن ســـوى إنســـان عادي، وأن عقيدته عن سيادة شعب بيرو ما هي إلا تجسيم للغرور القومي. وسرعان ما بدت لها الطقوس المرتبطة بالانقلاب الشتوي سخيفة قاسية وأحست أن فريا لم تقدم قرباناً لإله بل راحت ضحية إشباع شهوات وحش كاسر. بيد أن الثورة ضـــد نظام هكذا تأصلت جذوره، لم يكن بالأمر الهين. فظل نشاطها مدّة من الزمن قاصراً على المناقشات السرية وكلما اكتملت الثورة في أفكارها، زادت قدرتها على قمع مظاهرها الخارجية، فحـــدا توماس الذي كان يرهب ثورتها، الأمل في أنها قد أخذت تهدأ، ولما كان يحاورها ضـــد بـــذور الشـــك الأولى التي كانت تكشـــف عنها في بادئ الأمر لم تكن تفنـــد آراءه، فتوهم أنه قد أقنعها، ورأت أنه يحبها، وكان بوسعها أن تبادله الغرام لولا إحساسها المتزايد بأنها قد كرست نفسها لمهمة على قدر مروع من الصعوبة، ذلك الإحساس الذي حملها على أن تعيش في عزلة وحال دون إذعانها بكل قلبها لأيّ عاطفة نحو إنسان مجرد، وشعر توماس بكبريائها الذي كان مبعث ضـــيق وألم لنفسه. لكن ســـرعان ما أتى اليوم الذي قررت فيه أنها لم تعد قادرة على أن تخفي آراءها التي ملكت عليها كيانها...

وفـــي فجر أحد الأيام كان توماس وديوتيما يســـيران معاً في أحد أودية «الآنديز» العميقة وتحت أقدامهما جمال أزهار الربيع وفيرة الدفء ومن فوقهما القمم الثلجية الشـــامخة تشـــق عنان الســـماء الزرقاء. وكان الظل لا يزال يكســـو معظم أجزاء الوادي، لكن أشـــعة الشـــمس المشـــرقة الباهرة للأبصـــار، راحت تتســـلل بين ظلال الجمال فبدت ملامـــح ديوتيما الحلوة

الدقيقة لتوماس كأنها تجمع بين الجمال الدافئ من أسـفل والسـمو الرائع من أعلى، واتحد منظر الطبيعة مع جمال المرأة ليولِّدا في نفســه شــعوراً كاد يفوق النشــوة والهيام. واشتعل الحــب فــي قلبه ناراً، فكبح جماحه بما هــو أقوى من الحب... بالرهبة والدهشــة والاحترام، وأدرك ما يمكن أن يكون عليه الإنســان، وبدت كلمات الحب المألوفة عاجزة عن أن تعبر عما يجيش بصــدره، فسار برهة في صــمت واجف، ثم استدار نحوها وقال: «لقد بدأت أدرك في هذه اللحظة كيف يعيش المرء حياته».

فقالت: «أجل! ينبغي أن تكون ناعمة جميلة كالزهور، راســخة شــامخة كقمم الجبال، عميقة وبلا حدود كالسماء. هكذا يمكن أن تكون الحياة. لكن ليس وسط ما يسود مجتمعنا من بشاعة وفظاظة».

فصاح توماس: «بشاعة وفظاعة! ماذا تعنين؟».

قالت: «ثمة بشاعة حين يسمح لمجرد إنسان أن يرتكب الموبقات اعتقاداً بأنه إله».

وما إنْ تناهت هذه الكلمات إلى سمع توماس ارتجف وطار لبه وراح يتساءل: «مجرد إنسان عادي؟ إنك. بالطبع لا تقصدين الإله زهاتوبولك».

فقالت: «هذا ما أعنيه، فما هو بإله. فالأســطورة التي تعظمه وترفعه إلى مصــاف الآلهة هي وليدة الخوف: الخوف من الموت، ومن ضــربات القدر، ومن قوى الطبيعة، ومن طغيان الإنسان واســتبداده. فمن تلك القمم التي فوقنا ينحدر الموت الخاطف إلى الوديان تحتها من حين إلى آخر، فيتملك الناس الإحســاس بأن القوى التي تحكم في القمم قاســية عنيفة ولا يمكن إخماد حقدها الرهيب بغير قسوة طابعها العطف. بيد أن الخوف بشتى ألوانه الدفيء، والأساطير التي تتمخض عنه حقيرة، ومن تعظمهم الأساطير من الرجال أدنياء. فزهاتوبولك ليس إلهاً، بل إنساناً أخرق وأحط من الحيوانات الضــارية في شتى المناحي. والفريضة التي قدمت فريا بمقتضاها قرباناً ليســت من مصــدر إلهي، بل ليس ثمة ما هو من مصــدر إلهي. فما الآلهة ســوى ظلال لمخاوفنا فوق عتمة الليل، إنها تجســد ضعف الإنسان أمام القوى التي بوسعها أن تجهز عليه، كما أنها تجسم الاستعباد للزمن فيتعذر تقدير اللحظة الأبدية ما دامت في نظامنا الدنيوي لحظة فحسب. إنني لن أذعن للإذلال، وما دمت على قيد الحياة سأقف شامخة كالجبل، فإن أدركتني البلية، وهي آتية ولا ريب، فلن تكون ســوى مأســاة ظاهرية، وســتبقى قلعة إيماني بما يمكن أن يحدث في المستقبل «راسخة لا تقهر».

بدا توماس، وهي تتحدث، كأن صـــراعاً رهيباً يمزقه إلى شـــطرين، شـــطراً ألوهية كلماتها وتمنى لو وافقها، وهو الجانب الذي كان يبدو منذ هنيهة مرتبطاً بها في وحدة ســامية تجل عن الوصف، لكن جانباً آخر، بالقوة نفسها إن لم يفقه، كان يقف لها بالمرصاد، فكل ما تعلمه وعرفه عن المجتمع الذي يعيشـــان فيه، وكل مشاعر الرهبة والجلال التي غرست في نفسه منذ نعومة أظفاره هبت تناهضـــها، كما ملأه العالم الجامد الملحد الذي راحت ترسمه برعب بالغ. وأحس بأن إلهاً، قد يكون قاسياً لكنه ليس بالغريب علينا تماماً ما دام قد جرب مشاعرنا ومر بتجاربنا، لهو أفضل من عالم فسيح لا حياة فيه يخلق ويبيد دون تفكير. وبلا اكتراث ببني الإنسان الذين خلقهم عن غير ذي قصـــد، وســـوف يهلكهم بلا ندم. كان هذا الرعب المريع الذي استولى على توماس في الوقت الراهن يفوق حبه لديوتيما فاستدار نحوها، وقد شحب لونه وارتعدت فرائصه، وقال: «حاشـــاي أن أرحب بعالمك، فأنا لا أقوى على الحياة مع أفكارك فلا أســـتطيع أن أذكّي لهيب الحماس الإنساني المتراقص وسط هذا التيار الجارف البارد من القسوة غير المحدودة، فإن كانت غايتك تدمير عقيدة آبائي تحتم على كل منا أن يسلك سبيله».

وســـار الاثنان على مهل، يخيم عليهما الصمت، حتى بلغا الدار الوحيدة بالوادي حيث وجدا خصـــيان الأنكا في الانتظار. فابتدروا ديوتيما بقولهم: «لقد وقع الاختيار عليك» وحملوها بعيداً. وراح توماس يحملق ببصره خلفها حتى غابت عن الأنظار. لكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يبد حراكاً. وأبلغ اختيار ديوتيما كعروس العام رســـمياً لوالديها وللبروفيســـور دريوزدسادز، لتسويغ سبب انقطاعها عن الدراسة. وتماشياً مع عادة ضاربة في القدم، أقام والداها حفلاً مهيباً بمناسبة ما أسبغ على ابنتهما من مجد وشرف. وجاء إلى الحفل علية القوم في كوزكو، يحملون هدايا الزفاف ويلقـــون كلمات التهنئة. فتقبلت أمها الهدايا والخطب بتواضـــع جم ظاهري، واحتفظ أبوها، وقد وقف منتصـــب القامة بهي الطلعة، بطابعه العســـكري إذ وارى غبطته بلباقة. ولاقى الحفل نجاحاً منقطع النظير، وأحست أسرة ديوتيما بأنها أضحت أكثر مجداً ورفعة عن ذي قبل.

وأحســـ البروفيســـور أن حظاً من مجد تلميذته ديوتيما قد نالـــه، ولا مراء في أن آلهة القمر قد لاحظت أن ديوتيما أصـــبحت جديرة بأن تكون أداة لتجسدها بفضل تأثيره، وطفق يهنئ ابنه على صـــداقته للعروس الممجدة. لكن شيئاً من القلق والاضطراب تسرب إلى نفسه حين لم يبد جذلاً بالقدر الذي تمليه المناســـبة، غير أنه في بادئ الأمر أخذ يطيب خاطره بالقول إنَّ الشعور بشيء من الأسى لفقدان رفقة ديوتيما قد يفتقر لشاب كتوماس، وإن يكن ذلك مفجعاً للإحساس الصادق الذي لا غبار عليه.

لكن ما إن مضت أيام معدودة حتى انطلقت الشائعات المرعبة تنتشر بين الناس، وسرى همس بأن ديوتيما لم تقبل الشـرف بنفس راضـية، وإنها ترفض القيام بواجبها في طقوس التطهير، وتنكـر أي إدراك من جانبها لحلول إله القمر في جسـدها، كما تقذف في حق الأنكا، بل تعتقد –وياللعار! –أن الشـمس والقمر سيمضـيان في طريقهما المألوف من دون إقامة شـعائر هذا العيد.

وا أسفاه! لقد كان لتلك الشائعات أساس كبير من الصحة واستبد الفزع بالكهنة والخصيان إذ لم يقع شـيء مماثل منذ أمد بعيد عندما عزف الأنكا المزيف عن أكل العروس. وفي حيرتهم رأوا مجاراة الظروف وأخفوا عن الأنكا تمرد ديوتيما، وقرروا استخدام كل ما يمكن من الضغط أملاً في ثنيها عن عزمها وحلمها على الإذعان والانصـياع. ولتحقيق هذا الهدف راحوا يدبرون سلسلة من اللقاءات مع من ظنوهم أقدر الأشخاص على إقناعها.

كانت أولى تلك اللقاءات مع أمها، التي كانت تبتسم بالزهو والغطرسة، وتلوح رابطة الجأش رزينة قادرة على التحكم في مشاعرها، أما الآن فقد تبدل ذلك كله وأحست بكل مهانة وإذلال. لم تقو على مواجهة العالم، ولم تجسر على مقابلة أصدقائها خوفاً من النقد أو –وهو الأسوأ– من الرثاء لحالها. لقد ألفت ابنتها في زنزانة مكشوفة ترتدي ثوب التفكير وتعيش على الخبز والماء، وراحت تتمتم بكلمات الحزن والتقريع المتقطعة وهي ترتجف من النحيب والدموع المنهمرة فوق وجنتيها.

قالـت: «أواه يا ديوتيما! كيف توقعين بأبيك وأمك هـذا الخزي المزري الرهيب؟ ألا تذكرين سـني طفولتك البريئة حين كنت تنمين، بفضل رعايتي، جسماً وعقلاً وتسمين بآمالنا المعقودة على مستقبلك يوماً فيوماً؟ ألا تعطفين على الأسرة الأبية التي ظلت قروناً عدة تحمل لواء التاريخ في هذه البلاد العظيمة؟ وهل يهون عليك أن توقعي بمن أحبوك أبشـع مصـير يحل بإنسان... أعني العار الذي تجلبه علينا ابنة لا غبار عليها؟ آه يا ديوتيما، إنني أسـتطيع حمل نفسـي على تصديق ما تناهى إلى سمعي... قولي إنه حلم آثم عابر، فيظل حبي لك كعهدك به من قبل... «وهنا خنق النحيب صوتها فلم تفه بكلمة أخرى».

أما ديوتيما فظلت رابطة الجأش حتى فرغت أمها من حديثها المتقطع، ثم أجابت بكبرياء وفتور ظاهري: «إن الأمر يا أماه، لينطوي على ما هو أعظم من حب الوالدين وأرفع من شرف الأسرة، بل أسمى من هذه الدولة التي ظلت راسخة زهاء ألف عام، لأن هذه الدولة المتغطرسة –وإن كنـت أعلم أنه يتعذر عليك التسـليم بالحقيقة– قد قامـت على الأكاذيب وأعمال العنف

والموبقــات. ولا يمكــن أن يكون لي في هذه الأمور ضـــلع. وإن غدوت وكأن دموعك لا تحرك لي ســـاكناً، فإنما ذلك ليس عن فتور بل لأنه تشـــتعل في أعماقي نار أخرى أعظم مما يطوف بخيالك. إنه يتعذر عليك فهم ما أقول أو قبوله، لكني أضـــرع إليك أن تنســـي أنك ابتليت بمثل هذه الابنة».

وفي حال من القنوط واليأس المطلق، تحولت عنها أمها وتركتها وحيدة.

وبعد أن فشلت أمها جاؤوا في اليوم التالي بأبيها إلى زنزانتها، وكان أسلوبه مغايراً بعض الشيء لما اتبعته معها أمها.

وابتدرها بالقول: هيا! هيا! لم تبدين فتاة حمقاء عنيدة؟ إنني أخالك مضطربة إذ تعلمت قبل الأوان وبسرعة فائقة أموراً قد عرفناها وسلمنا بها منذ أمد بعيد، نحن الذين نعيش بالقرب من الحاشـــية. أتظنين أن العقلاء يصدّقون كل ما يتردد عن الشمس والقمر من هراء، أو تتصورين أن الأنكا الذي نعرفه جميعاً ونمقته يصير إلهاً مرة كل عام حسب التقويم؟ نحن نعلم علم اليقين أنه ما من مشاعر دينية تلهمه إبّان ما تسمى «بالليلة المقدسة»، بيد أننا لا نقيم الأرض ونقعدها كمـــا تهددين أن تفعلـــي، إدراكاً منا بأن تلك المعتقدات وإن لم يكن لها أســـاس من الصـــحة، تخدم مصـــلحة الدولة، إذ تحمل على احترام الحكومة وتعيننا على صون الأمن في الداخل وفي الإمبراطورية في الخارج. ترى، ماذا تخالين سيحدث لو طفق الشعب بأسره يفكر على غرارك؟ حتماً ســـتقع الإضـــرابات في بيرو، وســـتندلع نيران الثورات في الخارج، وسرعان ما يتصدع صرح المجتمع المتحضر بأكمله. يا لك من فتاة طائشة، إذ ترفضين أن تكوني قرباناً للأنكا ولم تدركي أن القربان الحقيقي هو لحفظ القانون والنظام واستقرار المجتمع، وليس لأمير أخرق فظ، إنك تهذين بالحق، فكيف للحق أن يصون إمبراطورية؟ ألم يلقنك البروفيسور أن الإمبراطوريات جميعاً وفي كل الأزمنة قد قامت على أكاذيب نافعة؟ أخشـــى أن تكوني من دعاة الفوضـــى، ولا تأملي في رحمة الدولة بك ما لم ترجعي عن غيك.

فأجابت: «أبي، أخاله أمراً طبيعياً، في ضـــوء ما لأســـرتنا من تقاليد، أن تتخذ من دولة بيرو إلهاً لك، كما أن التفكير في نظام آخر للمجتمع خلاف الذي قضيت فيه حياتك كلها يتطلب خيالاً خصباً. وأخشى يا أبي، أنك لا تؤمن بالخيال. إنني أرى في أفكاري عالماً أفضل من ذلك الذي خلقه جنسنا... عالماً أكثر عدلاً وأعظم رحمة وأقوى حباً، وفوق ذلك، أشد تمسكاً بالحق. ولعل الهزات العنيفة والاضطرابات الخطيرة كامنة في الطريق إلى هذا العالم الأفضل، ولكن حتى هذه ينبغي أن تكون مفضَّلة على بشاعة ما ترتكبه في الجهر والسر من نزق ورجس».

وهنا استشـــاط أبوها غضباً وصرخ فيها بصوت مجلجل: «إنني أدعك لمصيرك أيتها الابنة العاقّة الوقحة»، ودلف إلى الخارج حيث الشمس المشرقة. كان البروفيسور هو التالي في زيارة الســجينة العنيدة، فدخل زنزانتها، وكان يبدو دمثاً رقيــق الفؤاد، وراح يخاطبها بلهجة حجبت رغبته في إقناعها ما تتسم به من ســلطان وقال: «ابنتي المســكينة! يؤسفني أن أراك في هذا المكان، ولا يســعني إلا أن أعتقد أن جانباً من اللوم يقع عليَّ، إذ كان ينبغي في غضــون العام الذي اســتمعت فيه لمحاضــرات التفقيه التي ألقيتها على مسامعكم، أن أفلح في أن أنقل إليك فكرة عن الواجب الاجتماعي أكثر استقامة من تلك التي تدل عليها ورطتك الراهنة. لكن حدثيني يا ديوتيما عن العوامل والأســباب التي حدثت بك للخروج على المبادئ التي وُكِّل إلى شخصي الضعيف محاولة تلقينها؟».

فأجاب: «حســناً، ما دمت تسألني فســأخبرك. إنني لا أؤمن بحقائقك، ولا أصدق نظرياتك، وأعتقد أن مفهومك للنفع الاجتماعي ضــيق، وإيمانك بثبات العقيدة وعدم قابليتها للتغير جامد بالقدر الذي يقتل العقل والمشــاعر سواء بسواء، أرى أن لا مبالاتك بالحقيقة تمرد. وانصياعك للســلطان تملق ينم عن حقارة وخســة. الآن وقد أوضحت لك الحقيقة هأنذا مستعدة لأن أسمع رأيك».

وما إن تناهت هذه العبارات الجافة إلى ســمعه حتى حمى غضبه وانتابته برهة رغبة في أن يقابل الإساءة بمثلها، لكنه رأى في ذلك منافاة لمبادئه. لقد كانت صريحة، وأنحت جانبا الغموض والإبهام على نحو لا يشــعر معه بأســف بالغ. وقنعت بأن تقيم في مناطق الحق المجرد التي ما هي إلا مراقي المبتدئين إلى قمم الحكمة الشــامخة، وراح يحدث نفسه، وقد كظم غيظه بمشقة، أن الفتاة بادية الإعياء وأن غذاءها المكون من خبز وماء يثير ســخطها، فأســعفته خبرة العمر كمخاطر فرد على هجومها العنيف رداً يثير الإعجاب إذا قورن بعظمته وحداثتها.

قال: «يلوح يا ديوتيما» أن ثمة أموراً لا تلمين بها، وهي ما ينبغي حتى في هذه الآونة الأخيرة -أن أضــعها أمامك بكل ما أوتيت من قوة. وســأبدأ بما هو أساس لما عداه. هل تنكرين ألوهية زهاتوبولك المقدس؟».

فأجابت: «أجل... لقد تعلمنا أنه نزل من الســماء بمعجزة، لكني أعتقد أنه هبط في هليكوبتر من طائرة كانت تختبئ فوق السحاب، قيل لنا إنه لم يمت وقد صعد بأعجوبة إلى السماء حين أتم رسالته على الأرض، وهذا أيضاً ما لا أصدقه، فأنا أومن بأن زمرة خاصة من قواده أحاطت به في أثناء مرضه الأخير وحالت دون اتصاله بالعالم الخارجي، ولمّا وافته المنية ألقوا بجثته في

فوهة بركان كوتوباكس. إن الأساطير التي تميط اللثام عن هذه الحقيقة قد تناقلتها الأجيال سراً في أسـرتي التي كان سلفها الأكبر أحد القادة الذين اضطلعوا بتلك المهمة. لقد أقسم الجميع على السرية ولم يبوحوا بهذا السر لغير الرجال، بيد أن الرجال يصابون بالحمى، والحمى تجلب الهذيان، وفي الهذيان تفشى أخطر الأسرار».

وعندئذ اعتقد البروفيسور أن الأمر يقتضي محاضرة عن الحق، فانطلق يقول: «دعينا، يا فتاتي العزيزة، نسـلم بأنه حسـب المسـتوى الدنيوي للحقيقة المنطقية كانت الأمور كما تقولين، ألا تدركين أن هناك معنى أسـمى، به تعلن عقيدة بلادنـا القويمة حقاً أعمق من أيّ أسـطورة عن الهليكوبتر والجماعة السرية العسكرية؟ فما علاقة طائرات الهليكوبتر بالألوهية؟ إنهـا مجرد اختراعات حاذقة، ولا ريب، مريحة ولا غرو، لكنها ليسـت جديرة بأن تتبوأ مكانة رئيسـية فـي المبادئ الجوهرية التي تقوم عليها نظرية تكويـن العالم. ولو حدث حقاً أن رأى مؤسـس عقيدتنا الأقدس أن يسـتخدم بعض هذه الأجهزة فإن ذلك، ولا ريب فيه، كان لهدف سام ليس لنا أن نشك فيه البتة. وإذا كنت تنكرين أنه نزل من السماء، فهل أنت واثقة من أنك تعرفين أين توجد السماء؟ ألم تتعلمي الحقيقة الروحية العظيمة القائلة إنَّ السماء توجد حيثما تكون الأفكار السماوية؟ وليكن في يقينك أنه حيثما حل زهاتوبولك تكون الأفكار السماوية. أما عن موته فبوسعنا أن نورد حججاً مماثلة. فماذا يحدث لو أن الهيكل الأرضي صار جامداً بلا حياة؟ وأي غضاضـة في أن يعيده أحباره إلى النار الأرضية التي هي أقرب الأشياء في هذه الدنيا إلى النار الإلهية التي مكنته من تعليم تلاميذه؟ ونحن لا نتعبد للهيكل الأرضـي، فإلهنا يعبد بالروح والحق، والروح والحق يسكنان النفس لا الجسد. فالكلمات الهوجاء التي تتفوهين بها عن أسمى إله قد تختلف، بالمعنى الضيق الساذج، عن الحقيقة المادية، لكنها من الناحية الروحية كما أوضـحت لك وبالمعنى الوحيد الذي يعنينا ككائنات شريكة، وأن يكون ذلك بغير كمـال، في الجوهر الإلهي، فهي باطلة تماماً ولا بد من دحضـها بـازدراء بكل ما تلهمنا إياه عقيدتنا المقدسة من قوة».

وهنا أجابت الفتاة: «إن لقوتك، يا بروفيسـور، وقعه البالغ على النفس، لكني توصـلت إلى رأي قد يبدو لك رهيباً. إني أعتقد أن ثمة حقائق وأوهاماً، كما أن هناك صـدقاً وهناك أكاذيب. وأعلـم أن الذين ينـادون بنظرية الاعتدال –التي أظنك أحد أتباعها– يرون أنه ينبغي على المرء أن يراعي الاعتدال بين الحق والزيف كما راعيته ببراءة في حديثك الذي اسـتمعت إليه تواً، بيد أن الحقائق، في رأيي، مرة ولا سبيل إلى إنكارها. أدرك أنه بفجور وحشي تمتَّع الأنكا المصاب

بالسادية[١] بصديقتي فريا ثم التهمها... هذه الحقيقة. ومهما حاولت أن تلبس الحقيقة رداء الضباب والإنهام فستبقى حقيقة. وطالما حاولت إخفاءها عن بصرك فإنك تشترك في خستها كما أنها سوف تفسدك».

قال البروفيسور: «هيا! هيا! هذا أسلوب عنيف، كما أني لا أعتقد أنك درست النظرية الفلسفية للحقيقة بالعمق الذي يقتضيه واجبك الأكاديمي. ألا تدرين أن حقيقة العقيدة تكمن في نفعها الاجتماعي وعمقها الروحي، وليس في الدقة البشعة الدنيئة كتلك التي يمكن أن تقاس بمسطرة وضعت في يدي أخرق؟ وكم تبدو أحاسيسك نحو صديقتك لحظات تأليهها عميقاً وأشد اتفاقاً مع حاجات الجنس البشري. تأملي فيما نالته في غضون دقائق معدودة –وهذا ما ترفضين في غطرستك بعض مظاهره– اتّحدت بالإلهة القمر، وانطلقت روحها الخالدة في سلام دائم وجمال خالد تهيم في أجواء الفضاء العليا وقد تحررت من أحزان الحياة الفانية وخطوبها، فكري فيما تدين به البشرية لتلك الفريضة المقدسة التي أنهت حياتنا الأرضية، وتأملي الشعر والموسيقا الخفيفة الأخاذة وأحجار الفسيفساء العجيبة والمعبد بتقاسيمه وروعته... هذه كلها تجذب العين والنفس على حد سواء إلى السماء... أفتريدين زوال كل هذا من الدنيا؟ أتبغين أن تنحط البشرية إلى جماعة من الحفاة القذرين المعدمين؟ وهل تقبلين فناء الشعر والموسيقا وفن العمارة؟ ومع ذلك كيف يمكن لفن من تلك الفنون أن يظل قائماً من دون الأسطورة الإلهية (إنني أستخدم العبارات بمعناها السامي) التي أوحت بها؟.

وإذا كان الفن والجمال لا يعنيان لديك شيئاً فماذا عن البنيان الاجتماعي، وماذا عن القانون والأخلاق والحكومة؟ أتظنين أنه يمكن أن تقوم لهذه قائمة؟ وهل تحسبين أن الناس يعزفون عن القتل والسرقة، بل ارتكاب الفحشاء مع غير البيرويات إذا هم لم يشعروا بأن عين زهاتوبولك تراقبهم؟ ألا ترين أن تعاليم عقيدتنا المقدسة حق ما دام الحق ما هو نافع اجتماعياً؟ إنني أضرع إليك أن تقلعي عن كبريائك وعنادك وأن تخضعي نفسك لحكمة الأجيال، وبذلك تضعين حداً لما تجلبينه على والديك ومعلميك وأصدقائك من خزي وألم».

فصاحت ديوتيما: «كلا! كلا! وألف كلا! فهذا الحق السامي الذي تتحدث عنه ما هو إلا خداع سام، وذلك النفع الاجتماعي الذي تغالي في وصفه كثيراً هو مجرد الرغبة في الحفاظ على امتياز جائر. وتلك الأخلاق الرائعة التي تتشدق بها ليست سوى تسويغ لقمع السواد الأعظم من الجنس البشري وإذلاله. لقد انفتحت عيناي ولا يمكن لكلماتك الملتوية أن تحملني على إغلاقهما ثانية».

وصـــاح البروفيسور، بعد أن اشـــتد غضـــبه في النهاية، وقال: إذن فلتهلكي في غطرستك وعنادك أيتها المارقة التعســـة إنني أتركك لقضائك الذي تســـتحقينه بحق». وما لبث أن تحول عنها ومضى.

ولم يبق بعد ذلك سوى احتمال واحد لحمل ديوتيما على التوبة والندم. ولما كان معروفاً أن توماســ يحبها، فقد راودهم الأمل في أن تبادله الغرام، وفي أنَّ الحب قد ينجح فيما فشـــل فيه النفوذ والسلطان، وتقرر أن يلتقي بها توماس، فإن باء مسعاه بالفشل فلن تفلح أيُّ محاولة في ردها عن غيها...

وكان توماس يمر بحالة عصـــبية من الصراع والخوف والبؤس، فككل رجل يحب كان يعاني من ضـــياع أمانيه، وكشـــاب طموح بدأ طريقه إلى النجاح ممهداً. كان يخشـــى أن تحوم حوله الشبهات لصداقته الوثيقة بمارقة، وكباحث في اللاهوت والتاريخ لم ير مسوغاً للشك في حكمة أبيه، هاله ما قد يتمخض عن انتشـــار معتقدات ديوتيما من نتائج خطيرة. فمنذ إلحادها رأى أن كثيرين من أصـــدقائه السابقين أخذوا يتحاشـــونه، وأدرك أنه قد بدأ يفقد مركزه القيادي وسط فريقه. وما إنْ عاد أبوه غاضباً من زيارته لديوتيما حتى جعل يخاطبه بحدة بالغة:

وقال له: توماس، إن روحاً شـــريرة تحرك ديوتيما لم أعرها اهتماماً كافياً في دراســـاتي اللاهوتيـــة، ومنها تنبعث آراء خطيرة أشـــبه ما تكون بلهب مكفهـــرة مندلعة من نار كبريتية. ولست أدري مدى تأثير هذا السم على عقلك. أرجو، إكراماً لخاطري، ألا يكون التأثير كبيراً، وإذا أردت أن تســـترد احتـــرام الجميع الذي كان يثلج قلبي الأبـــوي، فما عليك إلا أن تكون واضحاً جلياً، وأن تعلن على الملأ أنك تناهض بشدة هرطقتها الشريرة، وأنه ما من رواسب حـــب يمكـــن أن توهن رغبتك المتأججة في أن تراها تأخذ العقاب العادل لفجورها، ومع ذلك ما انفك ثمة بصـــيص أمل، ولعلك تنجح فيما فشـــل والداها وأنا، فلو أفلحت سارت الأمور على ما يرام، وإن باء مسعاك بالفشل بات لزاماً عليك أن تبرهن بحماسك على أنك لم تتلوث بأفكارها».

وألقى توماس نفســـه في زنزانة ديوتيما ولا يزال صـــدى كلمات التحذير هذه يطن في أذنيه، ووقف برهة مشـــدوهاً أمام جمالها ورباطة جأشـــها. وفي بادئ الأمر بدد حبه لها وشوقه العام إلى إنقاذها ما يتســـم به من حكمة ورسوخ عقيدة، فانفجر باكياً وأخذت دموعه تنهمر من عينيه وهو يصيح: «أواه، يا ديوتيما، ليتني أستطيع إنقاذك!».

فأجابـت: «عزيزي توماس، كيف تتمسـك بمثل هذا الأمل الأخـرق؟ مهما فعلت فإن حياتي ضـائعة لا محالة، سواء قضـيت نحبي كعروس لزهاتوبولك بشرف ظاهر وخزي خفي أم لقيت حتفي كمجرمة منبوذة ومحتقرة من الجميع خلا ضميري».

فاستطرد يقول: «ضميرك! كيف تنصبينه حكماً أوحد ضد كل هذه الحكمة والأجيال العديدة المتعاقبة؟ وكيف تكونين على هذا القدر من اليقين يا ديوتيما؟ ومن أدراك أننا جميعاً مخطئون؟ ألا تكنيـن أي احترام لأبي؟ وهل تقبلين تلويث شـرف أجدادك؟ لقـد أحببتك... ووددت لو أنك بادلتني الحب، لكني أرى أن هذا الأمل قد خاب، ولكم يؤلمني القول إني لا أسـتطيع الاستمرار في حبك وأنت تمزقين أعمق مشاعري، فذلك أكثر مما أحتمل يا ديوتيما!».

فقالت: «كم أنا آسفة إذ جعلتك في هذا المأزق الخطير. كان لديك قبل اليوم، من الأسباب ما يحملـك على أن تأمل في حياة ناعمة كريمة. لكن من الآن فصـاعداً عليك أن تختار. فإن أدنتني فقد تظل حياتك سـهلة ميسـورة، وإن لم تفعل فربما كان ذلك أشرف وأنبل لكني أعلم -حتى إن أخفيت هذه الحقيقة عن نفسـك- إنك لن تشـعر في أعماقك بسعادة لو أنك أدنتني وأنحيت على بلائمة. لعلك استطعت في أثناء ساعات انشغالك أن تخرس شكوكك وأنت تصغي إلى ثناء الناس. لكن حين يرخي الليل سدوله ستشهد رؤيا أشير إليك فيها نحو عالم أسعد. وما إن توليني ظهرك حتى تستيقظ حزيناً مهموماً لأني أعلم أنك قد رأيت، وإن يكن في سرعة خاطفة، تلك الرؤيا التي من أجلها أدان راضية. فليست الشمس والقمر، كما نزعم، هما اللذان يوحيان بعقيدتنا الرسمية، بل الزهو والخوف: زهو بإمبراطوريتنا وخوف من ضـياعها. فلا ينبغي أن تبنى الحياة البشـرية علـى تلك العواطف بل على الحـق والمحبة، حياة يجب أن نحياها بلا خوف وفي سـعادة ينعم بها الجميع، ولا يمكن أن تسـتمد الرضـا من إذلال الغير بل تخجل أن يكون هدفها حماية تافهة للجسد على حساب الينابيع الداخلية للفرح والحيوية التي تفيض في أولئك الذين يكشفون للعالم عما يعتمل في نفوسـهم في مخاطرة جريئة باسلة. لقد كبلنا أنفسنا بالأغلال. ففي خارج بلادنا فرضـنا القيود على الضـحايا، ولم ندرك أن من يسجن غيره يصـبح سجيناً... سجين الخوف والبغض. فالأغلال التي قيَّدنا بها الآخرين قد قيدتنا في سـجن فكري مطبق. تذكر الشمس التي وجدت طريقها إلى وادينا، ولا بد أن يشرق النور في بقاع العالم المظلمة. وسوف تكون رسالتك في الحياة بعد قضاء نحبي هي مواصلة تلك المهمة، وإن كنت لا تدري عن ذلك شيئاً يذكر».

أحدثت كلماتها صـدى في قلبه برهة وجيزة ما لبث بعدها أن اسـتجمع قواه وانقلب إذعانه المؤقت إلى ثورة غضـب عارمة وصاح: «كيف تجرئين على مثل هذا التفكير، وكيف تخالين أنك

تســـتطيعين بعباراتك الطنانة حملي على نبذ ما أقدس. لا جدوى من المضـــي في الحديث معك، وحري بك أن تلقي حتفك، أما أنا فينبغي أن أعيش كي أقاوم الشر الذي تحسبينه خيراً». وبهذه الكلمات اندفع خارجاً من زنزانتها.

ولما فشـــل توماس في مهمته، فقد المســـؤولون الأمل في حمل ديوتيما على التوبة والندم، فانتخبـــت عروس جديدة، وحكم على ديوتيما بالموت العلني في اللحظة التي تنعم فيها العروس بوحدة روحية مع الإله.

وأعلن يوم إعدامها عطلة رســمية. وأقيمت الأوتاد في ميدان المدينة الرئيس وفي الصفوف الأمامية أعدت مقاعد النبلاء وعلية القوم، ووقف خلفهم ســكان المدينة بأسرها يتحرقون شوقاً ولهفـــة وقد راحـــوا يمرحون ويمزحون ويتهكمون وهم يأكلون الجـــوز والبرتقال، ويطلقون نكات ســـمجة، ويهللون ترقباً للتعذيب الذي كانوا على وشك أن يشاهدوه. أما الأشراف الذين اتخذوا أماكنهم في الصفوف الأمامية فكانوا أكثر اتزاناً. كما لاذ الأنكا فوق عرشه بالصمت في جلال ووقار. أما توماس، كابن لأبيه. فقد نال شرف الجلوس بين الأشراف. لقد حامت حوله الشبهات ظناً بأنه يشـــارك ديوتيما هرطقتها، إلا أنه برّأ نفســـه من هذا الاتهام بحماس وقوة. وكمكافأة له وكاختبار في الوقت نفسه، تحتم عليه أن يجلس حيث يشهد مصرعها بوضوح تام.

وجاؤوا بها عارية البدن. لكنها ظلت رابطة الجأش هادئة النفس. وانطلق الجمهور يردد: «ها هي المرأة الشـــرير! ســـترين الآن من هو الإله!». ثم أوثقوها بالأوتاد وأشعلوا النيران بشعلات ملتهبة. وما إنْ بلغتها ألســـنة اللهب حتى رمت توماس بنظرة... نظرة غريبة خارقة تعبر عن ألم ورثاء وضـــراعة في آن واحد، رثاء لضعفه وضـــراعة كي يحمل رسالتها من بعدها... لقد مزّق ألمها أحشاءه. وسحق رثاؤها رجولته. وأشعلت ضراعتها في عقله لهيباً لا يقل ضراوة عن ذلك الذي يحرق عودها. وفي لحظة رهيبة أدرك أنه كان مخطئاً وأن ما تتعرض له رجس ودنس. كما أدرك أنها قد نذرت نفســـها لما قد يكون رائعاً في حياة البشـــر وأن الأشـــراف ومن خلفهم من جماهير الشعب كانوا كذلك ضحايا الخوف الدفين. وفي اللحظة الرهيبة أحس بالندم والتوبة... لكن التوبة لفظ لا يعبر عما اختبر. فقد اختبر ذلك الإحساس العميق القوي الذي حملها على أن تقف مرفوعة الرأس في قلب النار المندلعة... إحســـاس بتكريس نفسه للعمل الذي لم يتسن لها تكملته. وبرغبة في تحرير البشـــرية من أغلال الخوف وما يتولد عنه من قســـوة وعنف. وتراءى له أنه صـــرخ من أعماقه قائلاً: «ديوتيما، أنا لك» لكنه في تلك اللحظة ســـقط مغشياً عليه، وكانت الصيحة ولا ريب، قد ترددت في أعماقه فحسب!

الفصل السادس

توماس

ظل توماس طريح الفراش بإحدى المستشـفيات زمناً طويلاً يعاني مرضـاً عضالاً أعجزه عن التفكير المترابط، وطاقت بخياله أحلام بغيضـة أليمة اختلطت فيها نسـاء معذبات، ورجال متوحشـون، ونيران، وموت. وصرخات النصر المدوية التي تنم عن قسوة ووحشية. وأخذ عقله يؤكد وجوده رويداً رويداً، وما لبثت أن عادت إليه صـحته، ومع الصحة استرجع عزيمة راسخة لا تلين سرعان ما خلقت منه شخصية جديدة، فلم يعد الشاب الرقيق المتواكل، القانع بأن يقتفي أثـر أبيـه فيقر عيناً – مثله- بنجاح بخس حقير... وبفكر ثاقـب منبثق من عاطفة متأججة فطن إلـى كل ما انطوى عليه النظام البيروي من مزاعم، وأدرك الدوافع الدنيئة التي أملتها ودعمتها. أمـا عقله الذي دأب على العمل بإتقان تام في نطاق الحدود التي فرضـتها العقيدة فقد تخطى تلـك الحـدود دون أن يفقد ذرة من دقته واتزانه، فلم يتحرر عقله وحده، بل قلبه أيضـاً... وكان البيرويون قد تعلموا أن يقدسوا الدولة بعدّها رداء الله الأرضي، وأن يقصروا عطفهم على أولئك الذين يخدمون الدولة بكل ما أوتوا من قوة، بيد أن الدولة هي التي أطاحت بديوتيما. وفي غمرة ثورته على تلك الوحشـية، إذا هو يعلنها حرباً عواناً على جميع ألوان العنف والقسوة الأخرى. وعلى ضـروب النظم التي تكبل العطف الإنسـاني بالقيود لا في بلاده فحسب بل أينما حل بنو الإنسـان. وبفعل نار العواطف المتأججة امتزج الحب والحقد والعقل معاً في وحدة صـلبة لا تلين... حب لديوتيما أولاً، ثم لغيرها من الضحايا، وحقد على الذين قضوا بموتها، ومن ثم على النظام بأكمله الذي تسبب في هذا القتل، وعقل يحدثه بأن ألوهية زهاتوبولك ضرب من الأساطير، وأن الشمس والقمر ليسا إلهين بل كتلتين جامدتين لا حياة فيهما. كما أن تحريم تحديد النسل خرافة، والتهام الناس لأبنائهم إنما يقتل في نفوسـهم القدرة على العطف والحنان. وعقد العزم بكل عقله وفؤاده وإرادته على ألا يقيم على الأرض، لو اسـتطاع إلى ذلك سـبيلاً، نظاماً أفضل من ذاك الذي تعلم أن يحترمه ويقدسه، نظاماً أكثر اتساقاً مع ما كانت ديوتيما تحلم به وتتمناه.

وحســـب أن الشـــعور بالذنب الذي ينخر في أعماقه لا يمكن أن تخمد له جذوة ما لم يتسن له أن يقدم تلك التضحية تخليداً لذكرى ديوتيما المؤلمة المضنية.

ولكن لكي يهدأ ندمه وتبكيت ضميره، لا بدّ للقربان الذي يقدمه لذكراها أن يكون تغييراً للعالم كله وليس مجرد إخلاص شخصـــي أو استشـــهاد لا طائل من روائه. وبتصميم أكيد متوقد في أعماقه، وإن بدا في الظاهر بارداً كالثلج. راح أولاً يرســـم خطته، ثم يخرج بها إلى حيز التنفيذ، ولم يفه بكلمة ضـــد النظام القائم في الجهر ولا مع من لا يثق بهم ثقة مطلقة، وكان يبدو في نظر أبيه وكل إنســـان آخر تقريباً، وقد تطهر من كل ما كان يشـــوبه ذات يوم من شكوك، فسرعان ما تبددت تلك الظنون التي حامت حوله في الأيام الأخيرة لديوتيما وصـــارت حياته الرسمية هادئة تنتقل من نجاح إلى نجاح. فتولى منصـــباً قيادياً بين أقرانه، كما كانت كلماته تشنف الآذان لما تنطوي عليه من حكمة ورصانة.

وكان أشـــد أصـــدقائه تحمساً له وإعجاباً بآرائه شـــاباً يدعى «بول» وفي ساعة متأخرة من إحدى ليالي الصـــيف، فتح قلبه لبول بحذر في بادئ الأمر، وما إنْ وجد منه استجابة حتى راح يفرغ ما بجعبته شـــيئاً فشيئاً كانت الشكوك تســـاور بول حول حرق ديوتيما، وكان من الحكمة بحيث كتم الأمر في نفســـه، فجاءت كلمات توماس لتؤكد شكوكه، وطفق الاثنان يتحادثان طوال ليلـــة الصـــيف حتى بزغ الفجر، ثم افترقا بعد أن تعاهدا علـــى إذكاء نار أيّ ثورة يندلع لهيبها. واســـتطاعا تكوين جمعية ســـرية تضـــم من عقدوا العزم على الثورة من بين طلبة العلوم الذين تعذر عليهم التسليم بألوهية الشمس والقمر، ودارسي التاريخ ممن لم يؤمنوا بانحطاط الأجناس الأخرى. وطلاب علم النفس الذين ثاروا ضـــد عادة أكل الأبناء التي تقتل الحب الأبوي. وأخذت الروايات حول مســـلك الأنكا الذي لا يمت بصـــلة لأي تصرف إلهي، تتسرب من دوائر الحاشية رغـــم ما اتخذ من احتياطات أمن مشـــددة. ومع ذلك ظل توماس بعيـــداً عن هذه التيارات. وفي الخفاء راح يشجع أكفأ تلاميذه على القيام بالبحوث التي حظرتها الحكومة وجعلت الموت عقاباً لمن يضـــطلع بها. ولما كانت قوة بيرو تســـتند إلى فطريات كوتوباكســـي القاتلة. فقد اكتشف طبيب نابه علاجاً واقياً من الوباء. كما أصبح كثيرون من حلفاء توماس حكاماً لأقاليم نائية، تلك المناصب التي لم تكن مرغوباً فيها لبعدها عن بيرو وكانت في العادة توكل إلى الشبان كخطوة أولى في هرم الترقي الرســـمي. وانطلق هؤلاء الرجال بحذر وفي ســـرية. يتخلون عن سياســـة ازدراء الغير التي دأبت بيرو على انتهاجها في بقاع العالم الأخرى. وصـــار بول، الذي أصـــبح الرجـــل الثاني لتوماســـ، حاكماً لإقليم «كيلمنجارو» حيث كان متســـلقو الجبل في تلك المنطقة

على ما هم عليه من جرأة وعنف. إذ طبعوا على الخشونة والجفاء. فقرب إليه زعماءهم وولد في نفوسهم، أول مرة منذ أجيال عديدة، الأمل في النجاة من ربقة الاستعمار البغيض، وظل كثيرون من المتآمرين يتولون في بيرو مناصب رئيسية دون أن تحوم حولهم الشبهات.

وأخيراً، وبعد عشـرين عاماً من التدبير المقرون بالحيطة والحذر، قرر توماس أن الوقت قد حان للعمل السافر، ورسمت خطة دقيقة لما سيقع من أحداث، فأعلن، وكان آنذاك يشغل منصب مدير الجامعة، أنه سيميط اللثام في اليوم الذي حدده عن حقيقة مثيرة وطلب إلى جميع أنصاره – باستثناء من أوكلت إليهم مهام خاصة– الحضور في القاعة التي سوف يلقي فيها خطابه. واعتلى المنصة كما فعل أبوه من قبل. بيد أن كلماته كانت مغايرة تماماً هذه المرة، إذ جاهر بكل ما يؤمن وما لا يؤمن به، ولدهشة من لم يكونوا مشتركين في الخطة لقيت أشد آرائه الهدامة تصفيقاً حاداً، وخيم الرعب والحيرة على المكان. لكن السلطات أفلحت كما كان متوقعاً، في أن تلقي القبض عليه وتحكم عليه بالموت كديوتيما، حرقاً في اللهب التي تشعل في عيد الظهور.

وما حدث بعد ذلك لم يكن في حسبان الحكومة، فقد اكتشف واحد من أصدقائه كيف صنع المطر، وحال طوفان الماء دون اشتعال النيران التي كانت ستلتهمه. وحين علم صديقه بول بالساعة المحددة لتنفيذ الإعدام، استقل طائرة ضخمة من مقر رئاسة الحكومة في «كليمنجارو» وانطلقت تطير بسرعة الصوت حتى بلغت سحب المطر المخيمة في سماء «كوزكو». ثم هبطت منها طائرة هليكوبتر في الميدان واختطفت توماس الذي نقل إلى كليمنجارو تاركاً جماهير الشعب تعتقد أنها قد رأت معجزة وإذ ذاك وجدت الحكومة نفسها مغلولة اليدين إزاء التمرد غير المتوقع الذي رفع لواءه كثيرون من ضباطها. ولما نمى إلى علم السلطات في كوزكو وقوع ثورة في كليمنجارو ظنوا أنهم قادرون على قمعها باستخدام وباء الطفيليات، فإذا بهم يفاجؤون بأن سكان إفريقيا محصنون ضد هذا الوباء. واستبد بهم الرعب الذي انقلب إلى اضطراب وذعر حين تبينوا أن العلماء من أنصار توماس قد اكتشفوا السبيل إلى توليد أشعة معينة من المنحدرات البركانية للجبل المقدس الجديد. لقد ظلوا قروناً عديدة لم يتسرب الخوف إلى نفوسهم. ما إن واجهتهم الأزمة حتى خانتهم شجاعتهم وحين حلَّقت قوات توماس في أسطول ضخم من الطائرات في سمائهم وراحوا يهددونهم بنشر غبار الموت الذي جاؤوا به معهم، لم يكن من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة إلا أن استسلمت على أساس الوعد بالإبقاء على حياتهم، وأصبحت كليمنجارو مركزاً للحكومة، ونصِّب توماس رئيساً لجمهورية العالم كما اختير بول رئيساً لوزرائه، واعترف الجميع بأن عهداً جديداً قد بدأ، أما عصر زهاتوبولك فقد زال وولى!

وما إنْ اســتقر حكمه حتى بدأ توماس يعمل في رفع الذل الذي لحق بالشــعوب غير الهندية جميعهــا، فخفض ســاعات العمل التــي كان البيرويون قد حددوها بعشــر ســاعات لا بدافع اقتصــادي بل بهدف إرهاق العمال حتى لا يقووا على التحرر أو الثورة. وبفضــول جهود فريق المخلصــين، ازدادت موارد العالم الغذائية، وبإباحة منع الحمل باتت هذه الزيادة تخدم الصحة وتحقق الرفاهية بدلاً من أن تؤدي إلى مضاعفة عدد السكان. واشترك في السلطة السياسية من كان على قدر كاف من التعليم الذي أخذ ينتشــر بأقصــى سرعة ممكنة في ربوع الأرض قاطبة. وشــهدت كثير من الدول التي كانت ترزح تحت نير العبودية نهضــات عظيمة في الفن والشعر والموســيقا وانطلقت الطاقات المقيدة، التي ظلت قروناً في ركود وخمول تشــكل حياة خصــبة مثمرة لم تشــهد مثلها ســوى عصــور عظيمة محدودة لقرون محدودة. ونادى بعدم الاعتراف بالآلهة وبذل قصارى جهده كي يقنع العالم بأن المعجزات مستحيلة الوقوع، وإن رأى الناس في نجاته من الموت معجزة محققة، وكان هنالك من أرادوه في مكانة زهاتوبولك السابقة، لكنه رفض التأليه بشــدة ودعا إلى مقاومة هذا المبدأ في جميع المدارس، فلم يكن في عهده كهنة، أو طبقة أرستقراطية... لا أجناس حاكمة ولا شعوب مغلوبة على أمرها.

الفصل السابع

المستقبل

تلك هي قصــة الثورة العظيمة كما رواها بول، صديق توماس بعد حكم سنين طويلة وانتهى بموته، ومنذ ذلك اليوم صــارت قصــة حياته وتعاليمه كتاباً مقدســاً للعصر الكليمنجارو ولكن ما لبث الناس أن اكتشــفوا شيئاً فشــيئاً أن بعض جوانب نظرية توماس قابلة للتحريف وسوء التفسير ولو ترك كتاب «بول» يقرأه الجميع لأدّى إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها، إذ هو لم يشر إلى الأمور التي تفهم حرفياً وتلك التي تعدّ مجازية. وســاد الاعتقاد في ربوع الأرض قاطبة أن توماس كان في الحقيقة إلهاً، كما كانت ديوتيما إلهة، وأن كليهما ارتدى رداء البشر مدّة وجيزة فما أن وافتهما المنية حتى استأنفا حياتهما السماوية التي تخلّيا عنها لبضع سنوات معدودات

من أجل خلاصنا، وحين أنكر توماس ألوهيته كأنما كان ذلك بالنسبة إلى ظهوره الأرضي... ذلك ما نادى به المفسر العظيم «جريجوريوس» بعد موت توماس بخمسمئة عام.

وظل كتاب بول متداولاً مدّة من الزمان مشـــفوعاً بتفسير جريجوريوس ومع ذلك ظل ينطوي علـــى ضـــرب من المخاطرة. فحظـــرت قراءته حتى مع التفســـير إلا لمن يصـــرح لهم بذلك من اللاهوتيين، ولم يضـــعف هذا الحظر من خطورته، وفي نيوزيلاندا لا توجد غير نســـخة واحدة بجامعة أوكلاند كانت قد أعيدت أخيراً إلى الجامعة وقد دونت فوق صفحتها الأخيرة الملاحظة الآتية الغريبة: «أنا، طوبيا من قبيلة نجابوهي» المقيم فوق منحدرات «روبيهو» لســـت مقتنعاً بما ذهـــب إليه «جريجوريوس» من تفســـير أخرق. ويقيني أن توماســـ كان أحكم من جريجوريوس، وأنه كان يعني حرفياً كل ما يراه ذلك الكاهن الذي تســـتبد بذهنه الأمور اللاهوتية محيراً مقلقاً. ولســـوف تكون رســـالتي -إذا ما أتيح لي ذلك- أن أعود بالعالم إلى ذلك الإلحاد القديم الذي سعى محرره إلى نشره».

تلك الكلمات تنذر بالسوء لم يتضح بعد ما تمخضت عنه من نتائج.

❀ ❀ ❀

الهوامش

(١)- حب وتعذيب الغير.